

أحياء القلوب والدين

تصنيف

الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في ٥٠٥ هـ



وبذيله كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تجميع ما في الأحياء من الأخبار

للعامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحمن الحسين العراقي

المتوفى في ٨٠٠ هـ

وتاماً للتفهم أجمعنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب :

الأول : توفيق الأحياء بفضل إله الأحياء العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العميد زوس باعلوك .

الثاني : الإجماع عن إشكالات الأحياء الإمام الغزالي ، ردّه اعتراضات أو ردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الأحياء .

الثالث : عوارف المعارف ، المعارف بالله تعالى الإمام المشهور ردي

الجزء الثاني

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص.ب. ٥٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب آداب الأكل

وهو الكتاب الأول من ربيع المادات من كتاب : إحياء العلوم

الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات ، خلق الأرض والسموات ، وأنزل الماء الغرات من المعصرات ، فأخرج به الحب والنبات ، وقدر الأرزاق والأقوات ، وحفظ بالما كولات قوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الباهرات ، وعلى آله وأصحابه صلاة تنوالى على عمر الأوقات وتتضاعف بتعاقب الساعات ، وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد ؛ فإن مقصد ذى الآداب لقاء الله تعالى في دار الثواب ، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعمل والعمل ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات ، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرار الأوقات ؛ فن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين : إن الأكل من الدين ، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ فن يقدم على الأكل ليعتد به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى فلا يبنى أن يترك نفسه مهملأ سدى ، يسترسل في الأكل استرسال الهائم في المرض ، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه يبنى أن تظهر أنوار الدين عليه . وإنما أنوار الدين آدابه وسقته التي يزم العبد بزمها ويلجئ المتق بلجامها ، حتى يقرن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مدفة للوزن ومجلى للأجر وإن كان فيها أرفق حظ لنفس . قال ﷺ « إن الرجل ليؤجر حتى في القملة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته^(١) » وإنما ذلك إذا رفعها بالدين والدين مراعياً فيه آدابه ووظائفه .

وحاشن رشد إلى وظائف الدين في الأكل فرائضها وسقته وآدابه ومرواتها وهيأتها في أربعة أبواب ، وفصل في آخرها .

(الباب الأول) فيما لا بد للأكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل . (الباب الثاني) فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل . (الباب الثالث) فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين . (الباب الرابع) فيما يخص الدعوة والضيافة وأشبابها .

كتاب آداب الأكل

(١) « إن الرجل ليؤجر في القملة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته » أخرجه البخارى من حديث لسعد بن أبي وقاص « وإنك مهما أشقت من شقة فإيتها صدقه حتى القملة يرفعها إلى في امرأتك » .

الباب الأول: فيما لا بد للفقر منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول: في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبة موافقاً للسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم هوى وبداعته في دين - على ما سيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام - وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهي على الأكل بالباطل عن القتل تفصيلاً لأمر الحرام وتمطيلاً لبركة الحلال فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إلى قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) الآية ؛ فالاصل في الطعام كونه طيباً وهو من الفرائض وأصول الدين .

الثاني : فضل اليد قال صلى الله عليه وسلم : « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر ويغني عن الغنى » وفي رواية أخرى : « ينفي الفقر قبل الطعام ويغني » لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاملها مع الأفعال فغسلها أقرب إلى النظافة والزهارة . ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة .

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل النبي ﷺ من رفعه على المائدة « كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » (١) فهذا أقرب إلى التواضع لأن لم يكن فعلى السفرة فإنها تذكر السفر ويذكر من السفر سفر الآخرة وساجدة إلى زاد التقوى . وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في مسكجة » (٢) قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ قال على السفرة . وقيل أربع أحدث بعد رسول الله ﷺ : الموائد والمناخل والأشنان والشيح . واعلم أنا وإن قلنا الأكل على المائدة أولى فلنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه نهى كراهة أو تحريم إذ لم يثبت فيه نهى . وما يقال إنه أبعد بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبعد منهي ، بل المنهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته ، بل الإيداع قد يجنب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض ليتيسر الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف ، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر ، أو كانوا مشغولين بأمر أهم من المبالغة في النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أبهى ، وكانت مناديلهم أخمس أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل مستحباً . وأما المنخل فالحق صدقته تطيب الطعام وذلك مباح ما لم يته

السبب الأول

(١) « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر ويغني عن الغنى » وفي رواية أخرى « ينفي الفقر عند الطعام ويغني » أخرى القضاء في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن أبيه متصلاً باللفظ الأول وللطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « الوضوء قبل الطعام ويغني عما ينفي الفقر » ولأبي داود والترمذي من حديث سلمان « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » وكلها ضعيفة .

(٢) « كان إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » أخرجه أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلًا ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفي جماعة وثقه أحمد وضعفه الدارقطني .

(٣) حديث أنس « ما أكل النبي ﷺ على خوان ولا في مسكجة ... » رواه البخاري .

إلى التمتع المفرط . وأما المائدة فتيسر للأكل وهو أيضاً مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعظيم . وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تبيح الشهوات وتحريك الأدواء في البدن فتندرك الثغرة بين هذه المبدعات .

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستدعيها كذلك « كان رسول الله ﷺ ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى (١) وكان يقول : لا تأكل متكئاً (٢) إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد (٣) » والشرب متكئاً مكروه للجنة أيضاً ويكره الأكل نائماً ومتكئاً إلا ما ينتقل به من الحبوب . روى عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كعكاً على ترس وهو مضطجع ويقال مضطجع على بطنه ، والعرب قد تفعله .

الخامس : أن يتوهم بأكله أن يتوهم به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل ولا يقصد التلذذ والتتعمق بالأكل . قال إبراهيم بن شيان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشوقي . ويعزم مع ذلك على تقليد الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل ما دون الشبع فإن الشبع يمنح من العبادة ولا يقوى عليها فمن ضرورة هذه التهمة كسر الشهوة وإثارة الفتنة على الاتساع . قال رسول الله ﷺ « ما ملأ آدمي من وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلاث طعام وثلاث شراب وثلاث لنفس (٤) » ومن ضرورة هذه التهمة أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطيب . وسيأتي فائدة قلة الأكل وكيفية التدرج في التقليل متفي كتاب كسر شهوة الطعام من ربيع الملهكات .

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التتعمق وطلب الزيادة وانتظار الأدم بل من كراهة الخبز أن لا ينتظر به الأدم وقد ورد الأمر بإكرام الخبز (٥) فكل ما يديم الرق ويقوى على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي أن يستحضر بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع . قال رسول الله ﷺ « إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤا بالعشاء (٦) » وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه . ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى بتقديم الصلاة . فاما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوش أمره فتقدم به أحب عند اتساع الوقت ، تأقت النفس أو لم تنق ، لمعوم الخبر ولأن القلب لا يظفر عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالباً

(١) « ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن بشر في أثناء حديث « أتوا تلك القصة فالتفتوا عليها فمأثروا كثيراً حتى أتى النبي ﷺ ... » وله والنسائي من حديث أنس « رأيته يأكل وهو متع من الجوع » وروى أبو الحسن بن القري في التهايل من حديثه « كان إذا قصد على الطعام استوفى على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأفضل كما يفعل العبد » وإسناده ضيف .

(٢) « كان يقول لا أكل متكئاً » أخرجه البخاري من حديث أبي جعفر .

(٣) « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » تقدم قبله من حديث أنس بلفظ « وأفضل » بدل « وأجلس » ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله « وأجلس »

(٤) « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ... » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث القناد بن معديكرب .

(٥) « أكرموا الخبز » أخرجه البزار والطبراني وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جداً وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٦) « إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤا بالعشاء » تقدم في الصلاة والمعرف « وأقيمت الصلاة »

السابع : أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . قال عليه السلام « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه ^(١) » وقال أنس رضي الله عنه « كان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده ^(٢) » وقال عليه السلام « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي » .

القسم الثاني : في آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » في أوله وبـ « الحمد لله » في آخره . ولو قال مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن حتى لا يشغله الشغل عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى « بسم الله » ومع الثانية « بسم الله الرحمن » ومع الثالثة « بسم الله الرحمن الرحيم » ويجبر به لينذكر غيره . ويأكل باليمنى ويبدأ باليمين يتم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها وما لم ينتهها لم يعد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل وأن لا يندم ما كولا « كان عليه السلام لا يعيب ما كولا كان إذا أعجبه أكله وإلا تركه ^(٣) » وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يحيل يده فيها قال عليه السلام « كل مما يليك ^(٤) » ثم كان عليه السلام يدور على الفاكهة ، فقيل له في ذلك فقال : ليس هو نوما واحدا ^(٥) » وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيسكن الخبز ولا يقطع بالسكين ^(٦) ولا يقطع اللحم أيضا فقد نهى عنه وقال : انهشوه نهشاً ^(٧) ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به قال عليه السلام « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء » ولا يمسه يده بالخير . وقال عليه السلام « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها ولحمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسه يده بالمدنيل حتى يلقى أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة ^(٨) » ولا يتفخ في الطعام الحار ^(٩) فهو منهى عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من القدر وترأ سبعا أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين القدر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع التواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقها ، وكذا كل ماله عجم ونقل . وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يتلبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب ، فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينته ويقول « بسم الله » ويشربه معاً لاعتباً قال صلى الله عليه وسلم

- (١) « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشي بن حرب بإسناد حسن
- (٢) حديث أنس « كان النبي ﷺ لا يأكل وحده » رواه الخفاف في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .
- (٣) حديث أنس « كان لا يعيب ما كولا إن أعجبه أكله وإلا تركه » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٤) « كل مما يليك » متفق عليه من حديث ابن أبي سلفة . (٥) « كان يدور على الفاكهة » وقال ليس هو نوعا واحداً أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عكراش بن دويب وفيه « وجالت يد النبي ﷺ في الطبق قال يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد » قال الترمذي غريب ورواه ابن حبان في الضعفاء .
- (٦) « النهى عن قطع الخبز بالسكين » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة وفيه نوح بن أبي مريم وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلفة بسند ضعيف . (٧) « النهى عن قطع اللحم بالسكين » أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال « انهشوه نهشاً » قال النسائي منكر . وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث سفوان بن أمية « وانهشوا اللحم نهشاً » وسنده ضعيف . (٨) « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليطعم ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسه يده بالمدنيل حتى يلقى أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة » أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر . (٩) « النهى عن التفخ في الطعام والشراب » أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذي وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا « في الإباء » وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي سعيد « نهى عن التفخ في الشراب » .

مصوا الماء مصاً ولا تمروه عياً فإن الكبد من العب^(١) ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً فإنه ﷺ نهى عن الشرب قائماً^(٢) ، وروى أنه ﷺ شرب قائماً^(٣) ولعله كان لعذر . ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينجبه عن فمه بالحد ويرده بالتسمية . وقد قال ﷺ بعد الشرب « الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا^(٤) » والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة « وقد شرب رسول الله ﷺ لبناً وأبو بكر رضي الله عنه عن شمله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضي الله عنه : أعطأ أبو بكر فناول الأعرابي وقال : اليمين فالأيمن » ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمده الله في أواخرها ويسمى الله في أوائلها ويقول في آخر النفس الأول « الحمد لله » وفي الثاني يزيد « وب العالمين » وفي الثالث يزيد « الرحمن الرحيم » فهذا قريب من عشرين أدباً في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

التقسيم الثالث : ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلق أصابعه ثم يمسح بالماء ثم يشربها ويلتقط فوات الطعام قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده^(٥) » وينخل ولا يتلعج كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلال فيريه وليتعضض بعد الخلال فيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام ، وأن يلحق القصة ويشرب ماءها . ويقال : من لعق القصة وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وأن التقاط الفتات سبور المحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى (كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ) ومهما أكل خللاً قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتزول البركات اللهم أطعمنا طيباً واستمغننا صالحاً . وإن أكل شبة فليقل : الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولاً فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللهم كثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيراً وقته بما أعطيه واجعلنا وإياه من الشاكرين . وإن أظفر عند قوم فليقل : أظفر عندكم الشاكرين وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والخرن على ما أكل من شبة ليطفى بدموعه وحرته حر النار التي تعرض لها لقوله ﷺ : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به^(٦) » وليس من يأكل ويكيك يأكل ويلهو . وليقل إذا أكل لبناً : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه^(٧) فإن أكل غيره قال : اللهم بارك فيما رزقنا وازدنا خيراً

(١) « مصوا الماء مصاً ولا تمروه عياً » أخرجه أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس من حديث أنس بالشرط الأول ولأبي داود في الراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح « إذا شربتم فاشربوا مصاً » . (٢) « النهي عن الشرب قائماً » أخرجه مسلم من حديث أنس وأبي سعيد وأبي هريرة . (٣) « أنه ﷺ شرب قائماً » متفق عليه من حديث ابن عباس « وذلك من زعم » . (٤) « كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا » أخرجه الطبراني في الدعاء مهملاً من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين . (٥) « من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بلقط « أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحق » وله من حديث العجاج بن علاط « أعطى سعة من الرزق ووقى في ولده » وكلامه منكر جداً . (٦) « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلقط « سحت » وهو عند الترمذي وحسنه لا يروى لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به » (٧) « القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس « إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاء الله لنا فليقل اللهم بارك فيه وزدنا منه »

منه فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي لعموم قومه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآرانا سبداً ومولانا يا كافي من كل شيء . ولا يكتفي منه شيء . أطلعت من جوع وأمنت من خوف ذلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغثيت من عيلة فلك الحمد حمداً دائماً حليماً نافعاً مباركاً فيه كأنك أنت الله ومستحقه اللهم أطلعتنا طلياً فاستمعتنا صالحاً واجعلنا لئلا على طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك . وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته أن يجسل الأشنان في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولاً ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل الغم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والخنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ، ثم يدلك بقية الأشنان اليابس أصابعه ظهره وظهره ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى الغم وإعادة غسله .

الباب الثاني : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة

(الأول) أن لا يتسبىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بغيره من أوزيادة فضل إلا أن يكون هو المتبرع والمقتضى به بحيث لا يبنى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا أشرأوا للأكل واجتمعوا له .

(الثاني) أن لا يسكتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بمحبات الصالحين في الأطعمة وغيرها .

(الثالث) أن يرفق رفيقه في القصة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام معتركا ، بل يلبس أن يقصد الإيثار ولا يأكل تترتير في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأنذهم . فإن قل رفيقه نقطه ورجبه في الأكل وقال له : « كل » ولا يريد في قوله « كل » على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث^(١) وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ثلاثاً^(٢) فليس من الأدب الزيادة عليه . فأما الخلف عليه بالأكل فمنع قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه .

(الرابع) أن لا يخرج رفيقه إلى أن يقول له : كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكل من لا يجوع صاحبه إلى أن ينفقه في الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول . ولا يبنى أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجري على المتاد ولا ينقص من عاده شيئاً في الوحدة ، ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم لو قل من أكله إثاراً لإخوته فلو نظر لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حسن وكان ابن المبارك يقدم فاخر الربط إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيت بكل نواة درهما . وكان عبد البر يبعطي كل من له فضل نوى درهمه وذاك لدفع الحياء وزيادة النشاط في الانبساط . وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : أحب إخواني إلى أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمتهما أن يلقوا على من يوحى إلى إهمده في الأكل هذا إشارة إلى الجري على المتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضاً : ثقين جودة حبة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله .

الباب الثاني : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

(١) « كان إذا غوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث » أخرجه أحمد من حديث جابر في حديث طويل ومن حديث أبي جرد أيضاً وإسنادهما حسن .

(٢) « كان يكرر الكلمة ثلاثاً » أخرجه البخاري من حديث أنس « كان يبيد الكلمة ثلاثاً » .

(الخامس) أن غسل اليد في الطست لأبأس به وله أن يتنخم فيه إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك . فإذا قدم الطست إليه غيره إكراما له فليقبله .
أجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس .
إذا أكرمك أخوك فأقبل كرامته ولا تردما فإنما يكرم الله عز وجل .

وروي أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية تدرى من صب الماء على يدك ؟ فقال : لا ، قال : صبه أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك كما أجلت العلم وأمله . ولا بأس أن يجتمعا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار . فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال عليه السلام : « اجمعا وضوءكم جمع الله شملكم » ^(١) قيل إن المراد به هذا .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا علموه ولا تشبهوا بالمجم . وقال ابن مسعود : اجتمعا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم . والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع ، وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادم جالسا فقام المصوب عليه فقيل له : لم قت ؟ فقال : أحدنا لا بد وأن يكون قائما . وهذا أولى لأنه أيسر للصب والغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك . في الطست إذا سبحة آداب : أن لا يزيق فيه ، وأن يقدم فيه ، وأن يقدم به المتبرع ، وأن يقبل الإكرام بالتقديم ، وأن يدار بمنه ، وأن يجتمع فيه جماعة ، وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وإن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه ، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه ، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال : لا يروءك مارأيت مني نغمة الضيف فرض .

(السادس) أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحون بل يعرض بصره عنهم ويشغل بنفسه ولا يحس قبل إخوانه إذا كانوا يحلقون الأكل بعده بل يد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم فدما النجاة عنهم .

(السابع) أن لا يفعل ما يستغفره غيره فلا يتغض يده في القصة ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، وإذا أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ ييساره ولا يمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في اللسومة فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسنة لا يمس بقيتها في المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستغفرات .

الباب الثالث : في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : إذا قدمت مع الإخوان على المائدة فأطبلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نقعة ينقها الرجل على نفسه وأبويه فن دونهم يحاسب عليها ألبتة إلا نقعة الرجل إلى إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأل عن ذلك . هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم مادامت مادته موضوعة

(١) « اجمعا وضوءكم جمع الله شملكم » رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة : إبراهيم وقال إنه مضل وفيه نظر .

بين يديه حتى ترفع^(١) وروى عن بعض علماء خراسان: أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدرُونَ على أكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك^(٢) » فانا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لتأكل فضل ذلك . وفي الخبر « لا يحاسب العبد على ما يأكل مع إخوانه^(٣) » وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقال إذا أكل وحده . وفي الخبر « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أظفر عليه وما أكل مع الإخوان^(٤) » وقال علي رضي الله عنه : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إلي من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه . وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق . وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا . وفي الخبر « يقول الله تعالى العبد يوم القيامة يا ابن آدم جمعت ظم تطعمني فيقول كيف أطعمتك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم ظم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا جاءكم الزائر فأكرموا^(٦) » وقال ﷺ « إن في الجنة غرضا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ما لم يأكل من طعامها^(٧) » وقال ﷺ « خيركم من أطعم الطعام^(٨) » وقال ﷺ « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام^(٩) » .

وأما آدابه : فيعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربعا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعني منتظرين حينه ونضجه . وفي الخبر « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما^(١٠) » ولكن حق الفاضل إذا لم يترهب وافق أن صادفهم

الباب الثالث : في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

- (١) « لأزال الملائكة صلى على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف .
- (٢) « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام » لم أقف له على أصلي .
- (٣) « لا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه » هو في الحديث الذي بعده بمناه .
- (٤) « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أظفر عليه وما أكل مع الإخوان » أخرجه الأزردي في الضعفاء من حديث جابر « ثلاثة لا يسألون عن التيم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه » أوردته في ترجمة سليمان بن داود الجزري وقال فيه : منكر الحديث ، ولأن منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة .
- (٥) « يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جمعت ظم تطعمني ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « استطعتك ظم تطعمني » .
- (٦) « إذا جاءكم الزائر فأكرموا » أخرجه الحرطاني في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله بن أبي حاتم في العلل عن أبيه .
- (٧) « إن في الجنة غرضا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه .
- (٨) « خيركم من أطعم الطعام » أخرجه أحمد والحاكم من حديث صيب وقال صحيح الإسناد .
- (٩) « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقال ابن حبان ليس من حديث النبي ﷺ وقال الذهبي غريب منكر .
- (١٠) « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما » أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضمفه ولأن داود من حديث ابن عمر « من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مفترأ » إسناده ضعيف .

على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على حجة لمساعدته فليساعد، وإن كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتسلل ، أما إذا كان جائنا فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يقر به به وقت أكله فلا بأس به ، قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم ابن التبان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياهاً (١) والدخول على مثل هذه الحالة إمامة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي مادة السلف ، وكان عون بن عبد الله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة ، وآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر . وآخر سبعة يدور عليهم في الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان وانما بصداقته حالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بنهر إذنه ، إذ المراد من الإذن الرضا لاسيا في الأظعمة وأمرها على السعة . فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى (أو صديقكم) ودخل رسول الله ﷺ دار بيرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة قال : بلغت الصدقة عليها (٢) وذلك لعله بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بنهر استئذان اكتفاء بعله بالإذن ، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أولا ثم الدخول وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بنهر إذن . وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . وروى عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائما يأكل من متاع يقال في السوق يأخذ من هذه الجوبة بيته ومن هذه قسبة فقال له هشام : ما بهذا يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بنهر إذنه ؟ فقال : يالكع ائبل على آية الأكل فلا إلال في قوله تعالى (أو صديقكم) قال : فن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استروحت إليه النفس وأطمأن إليه القلب ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فظ يحدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول : ذكرتني أخلاق السلف هكذا كانوا . وزار قوم بعض الثاميين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل ففطر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزها وغير ذلك لحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال : كلوا لجا رب المنزل فلم ير شيئا فقيل له : قد أخذه فلان ، قال : قد أحسن ، فلما لقيه قال : يا أخى إن عادوا فقد فهذه آداب الدخول .

وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولا وتقديم ما حضر فإن لم يحضره شيء . ولم يملك فلا يستعرض لأجل ذلك فيفوش على نفسه . وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال : لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه ، وقال بعض السلف في تسيير التكلف . أن تطعم أعلاك مالا تأكله أنت تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكاف يدعوا أحدهم أماء فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه . وقال بعضهم : ما أبال من أأنا في إخواني فإني لا أنكف له إنما أقرب ما عدنى ولو تكلف له لكرهت مجيئه وملاكه ؟ وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له لا تأكل وحك هذا ولا تأفأ بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فإما أن تقطع هذا التكاف أو أقطع الجي . فقطع

(١) قصد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التبان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه . أما قصة أبي الهيثم فرواها الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عدم مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال « رجل من الأنصار » وأما حديث تقديم منزل أبي أيوب فرواها الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٢) ودخل النبي ﷺ دار بيرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال بلغت الصدقة مكانها « متفق عليه من حديث عائشة » اهدي لبيرة لحم فقال النبي ﷺ : هو لها صدقة ولنا هدية . وأما قوله « بلغت عليها » قاله في الشاة التي أعطيتها نسيئة من الصدقة وهو متفق عليه . إمام حديث أم عطية

التكلف ودام اجتماعنا بسببه . ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجفف بمياه ويؤتى قلوبهم . روى أن رجلاً دعا علياً رضي الله عنه فقال علي : أحبيك على ثلاث شرائط لا تدخل من السوق شيئاً ولا تدخل ما في البيت ولا تجفف بمياه . وكان بعضهم يقدم من كل ما في البيت فلا يترك نوعاً إلا ويحضر شيئاً منه . وقال بعضهم دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال : لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم^(١) . وقال آخر : إذا قصدت الزبارة فلتقدم ما حضر وإن استوزت فلا تبق ولا تذر . وقال سلمان : أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلف الضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا^(٢) . وفي حديث بونس التي عليه السلام : أنه زاره لإخوانه فقدم إليهم كسراً وجز لم يبقا كان يزرعه ثم قال لهم : كلوا ، لولا أن الله لمن المتكلفين لتكلفت لكم . وعن أنس بن مالك رضي عنه وغيره من الصحابة : أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون : لا ندرى أيهما أعظم ورذاً الذي يحضر ما يقدم إليه أو الذي يحضر ما عنده أن يقدمه ؟

(الأدب الثاني) وهو للزائر أن لا يقترح ولا يصحك بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيرهم أخوه بين طامعين فليختار أسير ما عليه ؛ كذلك السنة . ففي الخبر أنه ما خير رسول الله ﷺ بين شيتين إلا أختار أسيرهما^(٣) . وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : معنيته مع صاحب لي نوزر سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً ؛ فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح سترأ كان أطيب ؛ فخرج سلمان فزعم مطهره وأخذ سترأ ؛ فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قلنا بما رزقنا . فقال سلمان : لو قصت بما رزقت لم تكن مطيرتي مرهونة ؛ هذا إذا نرم تمر ذلك على أخيه أو كرامته له فإن علم أنه يسر باقتراحه ويحسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح ، فعل الشافعي رضي الله عنه ذلك مع الزعفراني إذ كان نازلاً عنده ببغداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلها إلى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام والحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكره وقال : ما أمرت بهذا ؟ فعرضت عليه الرقعة ملصقاً بها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر السكتاني : دخلت على السري لجاء فبتيت وأخذ يجعل نصفه في القند فقلت له : أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة ؟ فصبك وقال : هذا أفضل لك من حبة . وقال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع ؛ مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانسياط ومع أبناء الدنيا بالأدب .

(الأدب الثالث) أن يشهي المزور أخاه الزائر ويلتصق منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفصل عظيم . قال النبي ﷺ « من صادق من أخيه شهوة غفر له ومن سراًه المؤمن فقد سر الله تعالى^(٤) » وقال ﷺ « فبأرواه جابر » من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة وعصى عنه

(١) « دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم » رواه أحمد دون قوله « لولا أنا نهينا » وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بيده وكلاماً منه يف والبخاري عن عمر ابن الخطاب « نهينا عن التكلف » . (٢) حديث سلمان « أمرنا النبي ﷺ أن لا نتكلف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق ، وأحمد « لولا أن النبي ﷺ نهانا - أو لولا أنا نهينا - أن نتكلف أحدنا لصاحبه لتكفنا لك » وللطبراني « نهانا النبي ﷺ أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا » .

(٣) « ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين شيتين إلا أختار أسيرهما » متفق عليه من حديث عائشة وزاد « ما لم يكن إثمها » ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه . (٤) « من صادق من أخيه شهوة غفر الله له ومن سراًه المؤمن قد سر الله عز وجل » أخرجه البزار والطبراني من حديث أبي برداء « من وافق من أخيه شهوة غفر له » قال ابن الجوزي حديث موضوع وروى ابن حبان والقبلي في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق « من سر مؤمناً فإثمنا سر الله ... » قال القبلي باطل لا أصل له .

ألف ألف سبحة ورفع له ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنات الجنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد (١) .
 (الآداب الرابع) أن لا يقول له : هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثوري : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أتا كل ؟ أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع . وإن كان يريد أن يطعمم طعاما فلا ينبغي أن يظهر عليه أو يصفه لهم . قال الثوري : إذا أردت أن لا تطعم عيالك بما تأكله فلا تحذمهم به ولا يروته معك . وقال بعض الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء فتقدموا إليهم طعاما وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة فإذا دخل القراء فلوهم على الحراب .

الباب الرابع : في آداب الضيافة

ومطآن الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ثم الأجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف ولتقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة : قال عليه السلام : « لا تكفروا الضيف فتبعضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله » (٢) وقال « لا خير فيمن لا يضيف » (٣) ومر رسول الله ﷺ برجل له إبل وبركة كثيرة فلرضيفه ومر بامرأة لها شويحات فبصحت له ، فقال ﷺ : انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنعه خلقا حسنا فعل (٤) وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : « إنه نزل به ﷺ ضيف فقال : قل لفلان اليهودي نزل في ضيف فأسلفني شيئا من الدقيق إلى رجب ؛ فقال اليهودي : واه ما أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال : والله إنى لأمين في السداد أمين في الأرض ولو أسلفني لأدبته فأذهب بدعي وارهنه عنده » (٥) وكان إبراهيم الخليل عليه السلام إذا أرد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتخذى معه وكان يكتي أبا الضيفان ، ولصلى نيت في خدمات ضيفاته في مشهد إلى يومنا هذا ، فلا تنقض ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع إنه لن يخل إلى الآن ليلة عن ضيف « وسئل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » (٦) وقال ﷺ : « في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » (٧)

(١) حديث جابر « من لقد أخاه بما يشتهي كتب له ألف ألف حسنة ... » ذكره ابن الجوزي في اللوؤعاته من رواية محمد بن نعم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كذب .

الباب الرابع : في آداب الضيافة

(٢) « لا تكفروا الضيف فتبعضوه فإنه من أبغض الضيف أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله » أخرجه أبو جابر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا يتكفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الحج الأزرقي منكاه فيه . (٣) « لا خير فيمن لا يضيف » أخرجه أحمد من حديث عتبة بن عامر وفيه ابن لمية . (٤) « مر إلي ﷺ رجل له إبل وبركة كثيرة فلم يصفه ومر بامرأة لها شويحات فبصحت له ... » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي النبال مرسل . (٥) حديث أبي رافع « أنه نزل بالنبي ﷺ ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل في ضيف فأسلفني شيئا من الدقيق إلى رجب ... » رواه إسحق بن راهويه في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التفسير بإسناد ضيف . (٥) « سئل النبي ﷺ ما الإيمان قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لا تعرف » (٧) « قال ﷺ في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي وصححه والحاكم من حديث معاذ وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات »

وسئل عن الحج المبرور فقال « إطعام الطعام وطيب الكلام »^(١) وقال أنس رضي الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى فلنذكر آدابها :

أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يعمد بدعوة الأغنياء دون الفقراء قال عليه السلام « أكل طعامك الأبرار »^(٢) في دعائه لبعض من دعا له وقال عليه السلام « لا تأكل إلا طعامي ولا يأكل طعامك إلا نقي »^(٣) ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال عليه السلام « شر الطعام طعام الولية يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء »^(٤) وينبغي أن لا يهمل أقرابه في ضيافته فإن أمهاتهم إجماعهم وقطع رحمهم وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه أن في تخصيص البعض إجماعاً لقلوب الآخرين . وينبغي أن لا يقصد بدعوتهم المباهاة والتفاخر بل استئالة قلوب الإخوان والتسكن بسنة رسول الله عليه السلام في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته أنه يبقى عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان : من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان . لأنه حله على الأكل مع كراهة ولو طرد ذلك لما كان يأكله . وإطعام النقي إعاة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعيان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعيان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة أنفسهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع . قال عليه السلام « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت »^(٥)

وللإجابة خمسة آداب :

(الاول) ان لا يميز النفي بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن اصل الإجابة وقال : انتظار المرة ذل ، وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة فمیری فقد ذلت له رقبتي ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة . كان رسول الله عليه السلام يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين^(٦) ومن الحسن ين على رضي الله عنهم بقر من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد تشروا كسراً على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بنه فلم عليهم فقالوا له : هل إلى الفداء يا ابن بنت رسول الله عليه السلام فقال : نعم إن الله لا يحب المتكبرين فزودهم معهم على الأرض واكمل ثم سلم عليهم وركب وقال : قد اجبتكم فأجيبوني . قالوا : نعم ، فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم . وأما قول القائل إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي ، فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتفكر بها منه وكان يرى ذلك بدأ له على المدعو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتفكر منه ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته^(٧) بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية : لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه

(١) « سئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام » تقدم في الحج . (٢) « أكل طعامك الأبرار » أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح . (٣) « لا تأكل إلا طعامي ولا يأكل طعامك إلا نقي » تقدم في الزكاة . (٤) « شر الطعام طعام الولية ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٥) « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) « كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين وضمه الترمذي وصححه الحاكم (٧) « ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفاً » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس أن النبي عليه السلام نهى عن طعام المتباهين » قال =

سلم إليك ودية كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الودية منه . وقال سري السقطي رحمه الله :
 آه على لقمة ليس على الله فيها ثمة ولا الخلق فيها مة . فإذا علم المدعو أنه لائمة في ذلك فلا ينبغي أن يرد . وقال
 أبو تراب النخعي رحمه الله عليه : عرض على طعام فامتنت فابليت بالجوع أربعة عشر يوما فعلبت أنه عقوبته .
 وقيل لعروف الكرخي رضي الله عنه : كل من دعاك تمر إليه فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني .

(الثاني) أنه لا ينبغي أن يتبع عن الإجابة بعد المسافة كما لا يتبع لغير الداعي وعدم جاهه ؛ بل كل مسافة يمكن
 احتياها في العادة لا ينبغي أن يتبع لأجل ذلك . يقال في التوراة أو بعض الكتب سر ميلاد مرزاسر مليون شيع
 جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخا في الله . وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء
 حتى الحمى فهو أولى من الميت وقال عليه السلام ولو دعيت إلى كراع بالقيم لأجبت^(١) وهو موضع على أميال من المدينة
 أطر فيه رسول الله ﷺ في رمضان^(٢) لما بلغه وقصر عنده في سفره^(٣) .

(الثالث) أن لا يتبع لكونه صائما بل يحضر فإن كان يسر أخاه لإفطاره فليغطروا وليحسبوا إفطاره بنية إدخال
 السرور على قلب أخيه باحتسب الصوم وأفضل وذلك في صوم الطلوع وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدقه بالظاهر وليغطروا
 وإن تحقق أنه متكلف فليمتنع . وقد قال عليه السلام لمن امتنع بمنزلة الصوم « تكلف لك أخوك وتقول إنني صائم » وقد
 قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار فالإفطار عبادة بهذه النية حسن خلق فتأبه
 فوق ثواب الصوم . ومهما لم يغطر فضيلة الطيب والمجمره والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والذهن أحد القراءين .
 (الرابع) أن يتبع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط القروش من غير حلال ،
 أو كان يقام في الموضع مشكرك من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع شيء .
 من الزامير والملاهي أو التفاضل بنوع من اللبؤ والمزف والمزل وللعب واستماع النية والتمسبة والزور والبيتان
 والكذب وشبه ذلك مما يمنع الإجابة واستعبابها ويوجب تحريمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعي ظالما أو
 مبتذلا أو فاسقا أو شريرا أو متكلفا طلبا للباهة والفض .

(الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملا في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليعبر بالإجابة
 عاملا للأخوة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بستر رسول الله ﷺ في قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » وينوي الحذر
 من معصية الله تعالى لقوله ﷺ « من لم يحب الداعي فقد عصى الله ورسوله »^(٤) وينوي إكرام أخيه المؤمن ابتاعا
 لقوله ﷺ « من أكرم أخاه للمؤمن فكأنما أكرم الله »^(٥) وينوي إدخال السرور على قلبه امتثالا لقوله

== أبو داود من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس وللعقيل في الضفاء « نهي النبي ﷺ عن طعام التبايعين »
 والتبايعان للتراضان فبطحا للباهة والربا . قاله أبو موسى للندي .

(١) « لو دعيت إلى كراع بالقيم لأجبت » ذكر التميم ليعرف والمروفي « لو دعيت إلى كراع » كما تقدم قبله
 ثلاث أحديث ويرد هذه الزيادة ماروله الترمذي من حديث أنس « لو أهدى إلى كراع قبلت » .

(٢) « إفطاره ﷺ في رمضان لما بلغ كراع التميم » رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح .

(٣) « قصره ﷺ في سفره عند كراع التميم » لم أقف له على أصل وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر « كان

يقصر الصلاة بالحق » يريد إذا بلغه وهذا يرد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع التميم
 بين مكة وعسفان الله أعلم .

(٤) « وقال لمن امتنع بمنزلة الصوم تكلف لك أخوك وتقول إنني صائم » أخرجه البيهقي من حديث أبي سعيد

الحدري « سنت لربي ﷺ طعاما وأنا في هو وإصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إنني صائم ! فقال النبي

ﷺ : دعاكم أخوكم وتكلف لكم ... » وللدارقطني نحوه من حديث جابر

(٥) « من لم يحب الداعي فقد عصى الله ورسوله » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٦) « من أكرم أخاه للمؤمن فكأنما أكرم الله تعالى » الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر والعقيل

في الضفاء من حديث أبي بكر وإسنادهما ضيف .

صلى الله عليه وسلم « من سر مؤمناً قد سر الله^(١) » وينوي مع ذلك زيادته ليكون من المتحايين في الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور والتبادل^(٢) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيادة من الجانبين أيضاً ، وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحضار أخ مسلم أو ما يجري مجراه . فلهذه ست نيات تلحق إيجابها بالقرابات أحداها فكيف مجموعها ؟ وكان بعض السلف يقول : أنا احب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب وفي مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه^(٣) » والثانية إنما تؤثر في المباحات والطاعة أما المنهيات فلا ، فإنه لو نوى أن يسر أخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يجر أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالتزاور الذي هو طاعة المباحة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخير أو غيرها يلتحق بوجوه الخير باتينية فتؤثر النية في هذين القسمين لا في القسم الثالث .

وأما المحذور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ احسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يسجل بحيث يفتضحهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيئ المكان على الحاضرين بالراحة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه أبته فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن من التواضع فقالوا باليونان من المجلس^(٤) » ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجر الذي لفناء وستره . ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس . وإذا دخل ضيف البيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبة وبيت الماء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالتحية بالشافعي رضي الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال : النسل قبل الطعام لرب البيت أولى ، لأنه يدعو الناس إلى كرمه لحكمه أن يقدم بالنسل وفي آخر الطعام يتأخر بالنسل ليحظر أن يدخل من يأكل فيما كل معه . وإذا دخل فرأى مشكراً غيره أن قدر وإلا انكسر للسان وأصرف . والمشكر فرش الديباج واستمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماعي الملامهي والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات حتى قال أحد رده الله : إذا رأى مكحة رأسها مفضض ينبغي أن يخرج ، ولم يأذن في الجلوس إلا في ضبه وقال : إذا رأى كلة فينبني أن يخرج فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حراً ولا يردها ولا تتر شيئا ، وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة ، وقال : إذا أكرى بيتا فيسه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبني أن يحكما فإن لم يقدر خرج . وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر في الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينهي التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذان حرام علي ذكروا حتى حل لآناهما^(٥) » وما على

(١) « من سر مؤمناً قد سر الله » تقدم في الباب قبله .

(٢) « وجبت محبة للتراورين والمتبادلين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ولم يذكر النسب هذا الحديث وإنما أشار إليه .

(٣) « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .

(٤) « إن من التواضع » الرضا باليونان من المجلس » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بن سعيد جيد .

(٥) « هذان حرام علي ذكروا حتى » أخرجه أبو داود والنسائي وأبو نعيم في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة ولم يذكر النسب هذا الحديث وإنما أشار إليه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد ابن أبي هند وأبي هند وأبي موسى فأدخل أحمد بينهما رجل لم يسم .

الحافظ ليس منسوباً إلى المذكور ولو حرم هذا الحزيم تزوين الكعبة بل الأولى بإباحته لموجب قوله (قل من حرم زينة الله) لاسيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة التضاهر. وإن تخيل أن الرجال يتنفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباغ مهما لبسه الجوارى والنساء. والحيطان في معنى النساء. إذ لسن موصوفات بالذكورة.

وأما إحصار الطعام فله آداب خمسة :

(الأول) تحجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . فليكرم ضيفه »^(١) ومهما حضر الأكرهون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود لحق الحاضرين في التسجيل أولى من حق أولئك في التأخير ، إلا أن يكون التأخر تقيرا أو يتكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير . وأحد المئين في قوله تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) أنهم أكرموا بتسجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى (فأقبل أن جاء بهجلا حثيثا) وقوله (فراغ إل الله فجاء بهجلا سمين) والروغان الذهب بسرعة وقيل في خفية وقيل جاء بفخ من لحم وإنما سمي عجلا لأنه عجله ولم يلبث . قال حاتم الأصم : المعلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الضيف وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب^(٢) ويستحب التسجيل في الولية قبل الولية في أول يوم سنة وفي الثاني معروف وفي الثالث وياه .

(الثاني) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكة أولا إن كانت فذلك أوفق في الطب فاتها أسرع استعانة فينبغي أن تقع في أسفل المدة . وفي القرآن تلبية على تقديم الفاكة في قوله تعالى (وفاكة مما يتخيرون) ثم قال (ولحم طير مما يشتهون) ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فان جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الإكرام بالهضم قوله تعالى في ضيف إبراهيم إذ أحضر السجل الحليد - أي المحنود وهو الذي أجسد فضله - وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم ، وقال تعالى في وصف الطيبات (وأرزنا عليكم المن والسلوى) المن : العسل ، والسلوى : اللحم : سمي سلوى لأنه يسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سيد الإدام اللحم » ثم قال بعد ذكر المن والسلوى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) فالهضم والحلاوة من الطيبات قال أبو سليمان الداراني رحمه الله عنه : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله . وتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفار على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء يطلع بنحو الشكر . وقال بعض الأدباء : إذا دعوت لإخراك فأطعمهم حصرية وبورانية وسقيتهم ماء باردا فقد أكلت الضيافة . وأتفق بعضهم دمام في ضيافة . فقال بعض الحكماء : لم تكن تحتاج إلى هذا إذا كان خبرك جيدا وماءك باردا وخلك خامضا فهو كفاية . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان والتمكن على المائة خسير من زيادة لوين

(١) « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي سريح .

(٢) حديث حاتم الأصم « المعلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة النبي ﷺ إطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد « إلا أنه من الله والمعلة من الشيطان » وسند ضيف فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص « التوبة في كل شيء إلا عمل الآخرة » قال الأعمش لا أعلم إلا أنه روى للزبي في التهذيب ترجمة محمد بن موسى بن موسى بن قبيع عن مشقة من قومه « أن النبي ﷺ قال : الأمانة في كل شيء إلا في ثلاث إذا أصبح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجائزة ... وهذا مرسل والترمذي من حديث علي « ثلاثة لا تؤخرها : الصلاة إذا أنت والجائزة إذا حضرته والإيم إذا وجدت كفوا » وسند حسن .

ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالحضرة . وفي الخبر : إن المائدة التي أُنزلت على نبي إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث ، وكان عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان ، فهذا إذا اجتمع حسن اللوافة .

(الثالث) أن يقدم من الألوان ألقانيا حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة المترفين تقديم الخليظ ليسانف حركة الشهوة بمصادقة الطيف بعده وهو خلاف السنة فانه حيلة في استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصفقون القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد ما يشتهي . وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا يفتظروا أطيب منه . ويحكي عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلى بعض المشايخ لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخر ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن له لون غيره فخطبت منه ، وقال آخر : كنا جماعة في ضيافة فقدم إلينا ألوان من الروم المشوية طيخا وقديدا لمسكنا لا نأكل فنظروا بعدها لونا أو حملا ؟ فجاءنا بالطلت ولم يقدم غيرها ، فنظر بعضهم إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا : إن الله تعالى يقدر أن يخلق رومسا بلا أبدان ، قال : وبئنا تلك اليلة جياعا نطلب فتيئا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يغير بما عنده .

(الرابع) أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمسكهم من الاستيفاء حتى يرفوها الأيدي عنها فمل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيقتصر عليه بالمبادرة ، وهي من التمكن على المائدة التي يقال إنها خير من لوئين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستجمال ويحتمل أن يكون أراد به سمة المكان . حكى عن السجوري وكان صوفيا مزاحا لحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حمل — وكان في صاحب المائدة يجل — فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل عرق ضاق صدره وقال : يا غلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحمل إلى داخل الدار فقام السجوري يمدو خلف الحمل فقبل له إلى أين ؟ فقال : أأكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر يرد الحمل . ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل ينفى أن يكون آخرهم أكل . كان بعض الكرام يغير القوم بجميع الألوان ويتركم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل وقال . بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم ، وكان السلف يستحسنون ذلك منه .

(الخامس) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية تنقص في المروءة والزيادة عليه تصنع ومراعاة لاسيا إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يترك بقصة طعامهم . إذ في الحديث لا يجالس عليه . أحضر إبراهيم بن آدم رحمه الله علما كثيرا على مائدة فقال له سفيان : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم : ليس في الطعام سرف . فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف قال ابن مسعود رضي الله عنه : نهي أن يجيب دعوة من يباهي بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المياهاة . ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله ﷺ فضلا طعام قط لأنهم كانوا لا يقصدون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع . وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا نكون أضيئهم طامع إلى رجوع شيء منه فلهذا لا يرجع فتعيق صدورهم ونطلق في الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم وذلك خيانة في حقهم . وما بقي من الأطعمة فليس الضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح

صاحب الطعام بالإذن فيه من قلب راضٍ أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به ، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغي مراعاة العدل والتصف مع الرفاء ، فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه وما يرضى به رفيقه عن طوع لاعتن حياء .

فأما الانصراف : فله ثلاثة آداب :

(الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال عليه السلام « إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار » قال أبو قتادة « قدم وفد التجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام بخدمةهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله فقال : كلا إنهم كانوا الأصحاب مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم » وتمايم الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة . قيل للأوزاعي رضى الله عنه ما كرامة الضيف ؟ قال طلاقة الوجه وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبي زيادة ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا أحدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا .

(الثاني) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضركا وتفرقوا وفرغوا وخرجوا تفرج إليه صاحب المنزل وقال : قد خرج القوم ، فقال : هل بقي بقية ؟ قال : لا ، قال فسكر إن بقيت ؟ قال : لم يبق ، قال : فالتقد أمسحها ؟ قال : قد فستها ، فانصرف عبد الله تعالى فقيل له في ذلك فقال : قد أحسن الرجل دكانا بنية وردنا بنية ؛ فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبي القاسم الجنيدي دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فرده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تظليما لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف ، فذه نفوس قد ذلت بالتواضع لله تعالى وأطمانت بالتحديد وصارت تقاسم في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها ؛ فلا تنسكب بما يجري من العباد من الإذلال كما لا تستبشر بما يجري منهم من الإكرام بل يرون السك من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم : أنا لا أجيب الدعوة إلا لأنني أذكر بها طعام الجنة أى هو طعام طيب يحمل عنا كده ومؤنة حسابها .

(الثالث) أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه وراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فرما يتيم به ويحتاج إلى إخراجهم قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاثة أيام فإ زاد فضده ^(١) » نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلبه المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف التازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان ^(٢) » .

فصل يجمع آدابا ومناهي طبية وشرعية متفرقة

(الأول) حكى عن إبراهيم التيمي أنه قال : الأكل في السوق دناءة ^(٣) وأسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب . وقد نقل ضده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله

(١) « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فضده » متفق عليه من كلام أبي شرع الخزاعي . (٢) « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان » أخرجه مسلم من كلام جابر . (٣) « الأكل في السوق دناءة » أخرجه الطبراني من كلام أبي أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى في الكامل من حديثه وحديث أبي هريرة .

عليه وسلم ونحن نمتى ونشرب ونحن قيام^(١). ورؤى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين بأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال: ويحك أجمع في السوق وأكل في البيت؛ فقيل تدخل المسجد؟ قال: أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه. ووجه الجمع أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه، وهو مختلف بمادات البلاد وأحوال الأشخاص فن لا يلبق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقبح ذلك في الشهادة ومن يلبق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعاً.

(الثاني) قال علي رضي الله عنه: من ابتدأ غذاءه باللحم أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قلت كل دافقٍ جلته، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حراماً لم يرق جسده شيئاً يكرهه واللحم ينبت اللحم والثريد طعام العرب والبشارجل تنظم البطن وترضى الألبتين، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستفي النساء شيئاً أفضل من الرطب، والسمن يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك ينهجان البلغم، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليأكل بالعداء وليكره العشاء وليلبس الخداء، ولن يتدأى الناس بشيء مثل السمن وليل غشيان النساء وليخف الرداء وهو الدين.

(الثالث) قال الحجاج لبعض الأطباء: صف لي صفة أخذ بها ولا أعدوها قال: لا تتكلم من النساء إلا قلة ولا تأكل من اللحم إلا قنفاً ولا تأكل المطبوخ حتى يتم فضجه ولا تشرب دواء إلا من علة ولا تأكل من الفاكهة إلا فضيجها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه فإذا شربت فلا تكن عليه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة وفي معناه قول العرب: تمد تمد تمش تمش يعني تمدد كما قال الله تعالى: ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أي يتمطط. ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد الثمر ما حوله إذا سد مجراه.

(الرابع) في الخبر: قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرة^(٢) والعرب تقول ترك الغداء يذهب بشحم الكاذبة - يعني الآية - وقال بعض الحكماء لآبائه: يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلك أي تغتسل؛ إذ به يبق الحلم ويذول الطيش وهو أيضاً أقل لشهوته لما يرى في السوق. وقال حكيم لسمين: أرى عليك قلبية من نسج أضراسك فم هي؟ قال من أكل لباب البر وصغار المعز وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان.

(الخامس) الحمية تغمر بالصحيح كما يضر تركها بالمرضى؛ هكذا قيل. وقال بعضهم: من احتسب فهو على يقين من المكروه وعلى شك من الوافي، وهذا حسن في حال الصحة ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيها يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال: أأنا كل التمر وأنت رمد؟ فقال: يا رسول الله إنما أكل بالشق الآخر^(٣) يعني جانب السليمة فضحك رسول الله ﷺ.

(السادس) أنه يستحب أن يعمل طعام إلى أهل الميت، ولما جاء نبي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام: «إن آل جعفر شغلوا ببيتهم عن صنع طعامهم فأحلوا إليهم ما يأكلون^(٤)» فذلك سنة. وإذا قدم ذلك إلى الجمع

(١) حديث ابن عمر «كنا نأكل على عهد النبي ﷺ ونحن نمتى ونشرب ونحن قيام» أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه وابن جبان. (٢) قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرة» أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث عبد الله بن جرادة بالشر الأول والترمذي من حديث أنس بالشر الثاني وكلاهما ضعيف وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث جابر. (٣) «رأى النبي ﷺ صبياً يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال له أأنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما أضع بالشق الآخر فضحك النبي ﷺ» أخرجه ابن ماجه من كلام صبيب بإسناد جيد. (٤) «لما جاءني جعفر بن أبي طالب قال ﷺ إن آل جعفر شغلوا ببيتهم عن طعامهم فأحلوا إليهم ما يأكلون» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن جعفر نحوه بإسناد حسن وابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت عميس.

حل الأكل منه إلا ما بهياً التواضع والمعنات عليه بالكاء والجوع فلا ينبغي أن يؤكل معهم .
(السابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب رد بعض المزاكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال : كنت مكرها ، فقال : رأيتك تقصد الأطيب وتكبر القدمة وما كنت مكرها عليه ! وأجبر السلطان هذا المزي على الأكل فقال : إما أن آكل وأخلى التزكية أو أركى ولا آكل فلم يجدا بدا من تركته فتركوه . وحكى أن ذا النون المصري حبس ولم يأكل أياما في السجن فكانت له أخت في الله نبشت إليه طعاما من منزلها على يد السجن فامتنع فلم يأكل ، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال : كان حلالا ولكن جاءني على طبق ظالم وأشار به إلى يد السجن وهذا غاية الورع .

(الثامن) حكى عن فتح الموصلى رحمه الله أنه دخل على بشر الحافي ذاتا فأخرج بشر درهما فدفعه لأحد الجلاء عادمه وقال : اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا ، قال : فاشتريت خبزا نظيفا وقلت : لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لشيء اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه (١) سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي . فقال بشر : أتدرون لم قلت اشتر طعاما طيبا ؟ لأن الطعام الطيب يستخرج غائص الشكر ، أتدرون لم يقل لى كل ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل ، أتدرون لم حل ما بقى ؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضطر الحل . وحكى أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى أنه اغتذ ضيافة فأوقف فيها ألف سراج فقال له رجل : قد أسرفت . فقال له ادخل فشكل ما أوقفته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحدها فاقطع . واشترى أبو على الروذبارى أحمالا من السكر وأمر الخلاويين حتى بنوا جدارا من السكر عليه شرف ومغارب على أعمدة منقوشة كلهم من سكر . ثم دعا الصوفية حتى حملوها واتهبوها .

(التاسع) قال الشافعى رضى الله عنه « الأكل على أربعة أنحاء : الأكل بأصبع من المقت ، وبأصبعين من الكبر ، وبثلاث أصابع من الستة (٢) وبأربع وخمس من الشراء . وأربعة أشياء تقوى البدن : أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع وكثرة الهم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الخوخة . وأربعة تقوى البصر : الجلوس تجاه القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الحشرة وتنظيف اللبس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القدر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المراقب القعود في استدبار القبلة . وأربعة تزيد في الجماع : أكل المصافير وأكل الإطربل الأكبر وأكل الفستق وأكل الجرجير والنوم على أربعة أنحاء . فقوم على التقفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك لهضم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين . وأربعة تزيد في السقل : ترك الفضول من الكلام والسواك وبجاسة الصالحين والعلماء . وأربعة من العبادة : لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن ، وقال ابن عجيبة لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت ؟ وعجيبة لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت ؟ وقال : لم أر شيئا أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب . والله أعلم بالصواب .

(١) « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » قاله عند شرب اللبن تقدم في آخر الباب الأول من آداب الأكل .

(٢) « الأكل بثلاث أصابع من الستة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك « كان النبي ﷺ يأكل بثلاث أصابع » وروى ابن الجوزى في العلل من حديث ابن عباس موقوفا « كل بثلاث أصابع فإنه من السنة » .

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني من ربيع المعاديات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى ولا ترجع العقول عن أوائل بدايتها إلا والهة
حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين ترى نوى تتوالى عليهم اختياراً وقهراً . ومن بدائع أفضائه أن خلق من
الماء بشراً يشبه نسباً وصبراً وسلط على الحق شهوة اضطرم بها إلى الحرارة جبراً واستيق بها تسليم إقراراً وقهراً .
ثم عظم أمر الأنساب وجعل لها قدراً حرم بسببها السفاح وبالغ في تقييده ودعا وزجراً وجعل اقتحامه جريمة فاحشة
وأمرأ إمرأاً ونذب إلى النكاح وحث عليه استحباباً وأمرأ فسيحة من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماً وكسراً
ثم بث بدور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقاً وجعله لكسر الموت جبراً تنبهاً على أن بحار المقدار فيأخذه
على العالمين نعماً وضراً وخيراً وشرأ وصرأ ويسراً وعلياً ونشراً والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإفناد والبشرى
وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصراً وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن النكاح معين على
الدين ومبين للشياطين وحسن دون عدو الله حصين وسبب التكثير الذى به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين فأحرأه
بأن تتحرى أسيا به وتحفظ سنته وآدابه وتشرح مقاصده وآرأبه وتفصل فصوله وأبوابه . والقدر المهم من أحكامه
ينكشف في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في الترغيب فيه عنه . (الباب الثاني) في الآداب المريعة في المقدوم والمقادرين .
(الباب الثالث) في آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفرقا .

الباب الأول : في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله واعترف
آخرون بفضله ولكن قسموا عليه التخلي لعبادة الله ، مهما لم تن النفس إلى النكاح توفناً يشوش الحال وبدعو
إلى الوقا . وقال آخرون : الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة
وأخلاق النساء مذمومة . ولا يشكك الحق فيه إلا بأن تقدم أولاً ما ورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه
والترغيب عنه ثم تشرح فوائد النكاح وغوائفه حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائفه
أو لم يسلم منها .

الترغيب في النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى (وانكحوا الأيامى منكم) وهذا امر وقال تعالى (فلا تضلوا من أن
يتكمن أزواجكم) وهذا منع من العضل ونهى عنه . وقال تعالى في وصف الرسل ومنهم (ولقد أرسلنا رسلاً
من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) فقد ذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ومدح أولياءه بسؤال ذلك
في الدعاء فقال (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرأه أعين) الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر

في كتابه من الأنبياء إلا التاملين فقالوا إن يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجمع قيل إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل لنقض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سبكتح إذا نزل الأرض ويولد له .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « النكاح سقي فني رغب عن سقي فقد رغب عني » وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سقي فمن أحب فطرني فليست بسقي ^(١) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « تاكوا تكثرُوا وإني أبأى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط ^(٢) » وقال أيضاً عليه السلام « من رغب عن سقي فليس مني وإن من سقي النكاح فمن أحبني فليست بسقي ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك التزويج خافه العيلة فليس منا ^(٤) » وهذا ذم لعلة الامتناع لا لأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا طول فليتزوج ^(٥) » وقال « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء ^(٦) » وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج . والوجاه هو عبارة عن رض الحصىين للفحل حتى تزول غولته ، فهو مستمر الضعف عن الرقاق في الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجهوا إلا تفعلوه تكن فنة في الأرض وفساد كبير ^(٧) » وهذا أيضاً تلميح للترغيب لحرف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليترك الله في الشطر الثاني ^(٩) » وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيله لأجل التحرر من مخالفة تخصصان الفساد فكان الفساد له من المرم في الأغلب فرجه وطله وقد كنى بالتزويج أحدهما . وقال ^(١٠) « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث ولد صالح يدعو له ... ^(١١) » الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

كتاب آداب النكاح

الباب الأول : في الترغيب في النكاح

- (١) « النكاح سقي فمن أحب فطرني فليست بسقي » أخرجه أبو يلى في مسندهم تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن .
- (٢) « تاكوا تكثرُوا وإني أبأى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من كلام ابن عمر دون قوله « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف وذكره بهله الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه .
- (٣) « من رغب عن سقي فليس مني وإن من سقي النكاح فمن أحبني فليست بسقي » متفق على أوله من حديث أنس « من رغب عن سقي فليس مني » وباقيه تقدم قبله حديث . (٤) « من ترك التزويج خافه العيلة فليس منا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف وللدارمي في مسنده والبخاري في معجمه وأبو داود في اللاميس من حديث أبي نجیح « من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا » وأبو نجیح اختلف في سمته .
- (٥) « من كان ذا طول فليتزوج » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) « من استطاع منكم الباءة فليتزوج » متفق عليه من كلام ابن مسعود . (٧) « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجهوا إلا تفعلوا تكن فنة في الأرض وفساد كبير » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وهمل عن البخاري أنه لم يسمه محفوظاً وقال أبو داود إنه خطأ ورواه الترمذي أيضاً من حديث أبي حنبل للزفوري ورواه أبو داود في اللاميس وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواه . (٨) « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عز وجل » أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس « من أعطى لله وأبش لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » . (٩) « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليترك الله في الشطر الآخر » أخرجه ابن الجوزي في الطل من حديث أنس بسند ضعيف من حديث وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ « قد استكمل نصف الإيمان » وفي المستدرک وصح إسناده بلفظ « من رزقه الله امرأة سالمة قد أعانه على شطر دينه ... »
- (١٠) « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة وولد صالح يدعو له » أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة بنحوه .

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: لا يجمع من النكاح إلا عجز أو لجور. فبين أن الدين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مضمومين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم فسك الناسك حتى يتزوج، بحمل أنه جعله من النسك وضمه له. ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم عليه لفعلية الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفرار القلب؛ ولذلك كان يجمع غلبانه لما أدركوا عكرمة وكريرا وغيرهما ويقول: إن أردتم النكاح أنكم تحكم فإن العبد إذا رزق الإجماع من قلبه. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لما ذنب جبل رضي الله عنه في الطاعون وكان هو أيضا يمطونا فقال: زوجوني فاني أكره أن ألقى الله عزبا. وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلا من حيث التحرز عن غائلة الشهوة وكان عمر رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد « وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ عنده وبيت عنده حاجة إن طرقتة فقال له رسول الله ﷺ: ألا تزوج؟ فقال يا رسول الله إني فقير لا شيء لي وأقطع عن خدمتك فسكت. ثم عاد ثانيا فأعاد الجواب. ثم تذكر الصحابي قال: والله لرسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله مني وإن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: ألا تزوج؟ قال: فقلت يا رسول الله زوجني، قال: انذهب إلى بني فلان فقل إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني ففانكم قال: فقلت يا رسول الله لا شيء لي، فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب لجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له: أولم وجمعوا لمن الأصحاب شاة لوليمة (١) وهذا التكرار يدل على فضل في نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح وحكي أن بعض العباد في الأمم السالفة ذاق أهل زمانه في العبادة فذكر لبي زمانه حسن عبادته فقال: نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة فاقتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك قال: أنت تارك للتزويج، فقال: لست أحرمه ولكني فقير وأنا عيال على الناس، قال: أنا أزوجه لك ابنتي فزوجته النبي عليه السلام ابنته. وقال بشر بن الحرث: فضل على أحمد بن حنبل بثلاث: يطلب الحلال لنفسه ولنفره وأنا أطلبه لنفسى فقط ولا تساعه في النكاح وضيق عنه ولأنه نصب إماما العامة. ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثاني لولادة أم ولده عبد الله وقال: أكره أن أبيت عزبا. وأما بشر فإنه لما قيل له: إن الناس يتكلمون فيك لتركك النكاح ويقولون هو تارك للسنة، فقال: قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة وعوتب مرة أخرى فقال: ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى (ولمن مثل الذي علمن بالمعروف) فذكر ذلك لأحمد فقال وأين مثل بشر؟ إنه قد علم مثل حد السنان. ومع ذلك فقد روى أنه روى في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال رفعت منازل في الجنة وأشرف في على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفي رواية قال: ما كنت أحب أن ألتقي عزبا. قال: قتلنا له، ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال: رفيع فوق سبعين درجة، قلنا: بماذا فقد كننا نراك فوقه؟ قال: بصبره على بنيه والعيال. وقال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية. فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء. وقال رجل لإبراهيم بن آدم رحمه الله: طوبى لك فقد فرغت للعبادة بالعزوبة! فقال: لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه، قال: فما الذي يمنك من النكاح؟ فقال: مالي حاجة في امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى. وقد قيل: فضل التأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد. وركمة من تأهل أفضل من سبعين ركمة من عزب.

(١) « كان بعض الصحابة قد انقطع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبيت عنده حاجة إن طرقتة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تزوج ... » أخرجه أحمد من حديث ربيعة الأسلمي في حديث طويل - وهو صاحب القصة - بإسناد حسن.

وأما ما جاء في الترغيب عن النكاح : فقد قال عليه السلام « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد » وقال عليه السلام « يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبوه وولده ويعيرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق ، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فهلك » وفي الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين » وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال : الصبر عن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقال أيضا : الوحيد يجد من حلوة العمل وفراخ القلب مالا يجد المتاهل وقال مرة : ما رأيت أحد من أصحابنا تزوج قُبِت على مرتبته الأول . وقال أيضا : ثلاث من طلمن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا مال . وقال ابن أبي الحواري : تناظر جماعة في هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكون له بل أن يكون له ولا يشغله وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب في النكاح فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلنكف الغطاء عنه بمصرآت النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده ، وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتغيير المنزل ، وكثرة العشرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الأولى : الولد ، وهو الأصل وله وضع النكاح . والمقصود إبقاء النسل وأن لا يظفر العالم عن جنس الإنس ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالوكل بالفعل في إخراج البذر وبالأشقي في التحكين من الحرث تطفلا ههما في السبابة إلى اقتناص الولد بسبب الوفاق ، كالنطف بالطحير في بث الحب الذي يشتهي ليقاس إلى الشبكة وكانت القدرة الأولية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستثناء عنها إظهاراً لقدرة وإتماما للمعجزة والصنعة وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم . وفي التوصل إلى الولد قرابة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يجب أحدهم أن يلق الله عز يا . (الأول) موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان (والثاني) طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباحاته . (والثالث) طلب التبرك بدهاء الولد الصالح بعده . (والرابع) طلب الصفقة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

أما الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدا عن أفهام الجماهير وهو أحسن وأقواها عند ذوى البصائر النافذة في صجائب منع الله تعالى ومجاري حكمه . ويبان أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهبها له أرضاً مباحة للحراثة وكان العبد قادراً على الحراثة ووكّل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا

(١) « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد له » أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابي في الميزلة من حديثه وحديث أبي أمامة وكلامه ضيف . (٢) « يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فهلك » أخرجه في الميزلة من حديث ابن مسعود نحوه والبيهقي في الزهو نحوه في حديث أبي هريرة وكلامه ضيف . (٣) « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين » أخرجه القضاة في مسند الشباب من حديث علي وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال للزنى كلامه بالشرط الأول بسندين ضعيفين .

حتى قد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا. البتة والعتاب من سيده والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق الخلقة في الفسقار وهما لها في الاثنين عروقا يجارى وخلق الرحم قرارا ومستودعا للطفة وساطة متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى ؛ فهذه الأفعال والالات تشبه بلسان ذاتي في الإعراب من مراد خالقها وتنادى أرباب الألياب تعريف ما أحدث له. هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسوله ﷺ المراد حيث قال « تناكحوا لتاسلوا » فكيف وقد صرح بالأمر وبإباح بالمر ؟ فكل تمتنع عن النكاح معرض عن الحرمة مضيق للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة ولجن على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط الهي ليس برقم حروف وأصوات يقرأه كل من له بصيرة وبانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية . ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد لأنه منع تمام الوجود، واليه أشار من قال : المزل أحد الوادين فالنكاح ساع في إنجام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيق لما كره الله ضياعه، ولأجل بحب الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض فقال (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا)

فإن قلت : فترك : إن بقاء النسل والنفس محبوب وهم أنفنا، ما مكروه عند الله ، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غني عن العالمين فمن أين يمين عنده موتهم من حياتهم أو بقاؤهم عن فنائهم ؟

فاعلم أن هذه الكلمة حتى أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها ، ولكن الحجة والكراهية بضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة ، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهة مرادة ، والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومَرْضِيَّة أما الكفر والشرك فلا يقول إنه مرضي ومحبوب بل هو مراد . وقد قال الله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) فكيف يكون الفناء . بالإضافة إلى محبة الله وكرامته كالبقاء ، فإنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء . كترددى في قبض روح عبدي المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت (١) » فقوله « لا بد له من الموت » إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور في قوله (نحن قدرنا بينكم الموت) وفي قوله تعالى (الذي خلق الموت والحياة) ولا منافعة بين قوله تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت) وبين قوله « وأنا أكره مساءته » ، ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعي تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهة وبيان حقائقها ، فإن السابق إلى الأنعام منها أمور تناسب إرادة الحق ومحبتهم وكرامتهم وهما في صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيزة وذاتهم وكأن ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه . ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض ، فكذلك صفاته لا تناسب صفات الخلق . وهذه الحقائق داخلة في علم المكاشفة ، ووراء السر القدر الذي منع من إضائه ، فلنقتصر عن ذكره ، ولنقتصر على ما تبنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه ، فإن أحدهما مضيق فلا أدام الله وجوده من آدم ﷺ عقبا بمضيق بل أن انتهى إليه ، فالمتمتع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فات أبت لأعقاب له ، ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون : زوجوني لأنني الله عزبا .

فإن قلت : فما كان معاذ يتوقع ولما في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه ؟

فأقول : الولد يحصل بالزواج بإعطاء الشهوة ، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار ، وإنما الملق باختيار العبد إحضار

(١) حديث أنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء ، كترددى في قبض روح عبدي للمسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ، انفرد به غلظ الطنوني وهو متكلم فيه .

الحرك الشهوة، وذلك متوقع في كل حال، فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه، والباقي خارج عن اختياره، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضا، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى إن المسموح الذي لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستنجاب أيضا في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلح إمرار الموصى على رأسه اقتداء بغيره وتنسبا بالسلف الصالحين، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أولا إظهار الجلد للكفار، فصار الاقتداء والتشبه بالذين اظهروا الجلد سنة في حق من بعدم، ويضعف هذا الاستنجاب بالإضافة إلى الاستنجاب في حق القادر على الحرق وربما يزداد ضعفا بما يقاومه من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر. فإن ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر. فهذا المعنى ينبه على شدة إنكارهم ترك النكاح مع قدر الشهوة.

الوجه الثاني: السعي في حبة رسول الله ﷺ ورضاه بتكثير ماله مباحاته، إذ قد صرح رسول الله ﷺ بذلك، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ما روى عن عمر رضي الله عنه أن كان ينكح كثيرا ويقول: إنما أنكح الولد. وما روى من الأخبار في منعة المرأة المقيم، إذ قال عليه السلام «الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لانه» (١) وقال وغيره نساءكم الولود الوود (٢) وقال سوداء ولود، خير من حسناء لا نكح (٣) وهذا يدل على أن طلب الولد ادخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع عائلة الشهوة، لأن الحسنة أصلح التحسين وغض البصر وقطع الشهوة.

الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولدا صالحا بدوره. كما ورد في الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثا فذكر الولد الصالح. وفي الخبر «إن الأدمية تمرض على الموتى على أطباق من نور» (٤) وقول القائل: إن الولد ربما لم يكن صالحا: لا يؤثر فانه مؤمن، والصالح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيا إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح، وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد بركا كان أو فاجرا، فهو مثاب على دعواته وحسناته فانه من كسبه وغير مؤاخذ بسبائنه فانه لا تور واردة وزر أخرى، ولذلك قال تعالى «الحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء» أي ما نقصناهم من أعمالهم، وجعلنا أولادهم مزيدا في إحسانهم.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون له شفعيا، فقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال «ان العاقل يجر بأبويه إلى الجنة» (٥) وفي بعض الأخبار «يأخذ بثوبه كما أنا الآن أخذ بثوبك» (٦) وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «ان المولود يقول له ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبطينا» أي مثلتا غيظا وغضباً. ويقول لا أدخل الجنة الا بأبواي معي، فيقال: ادخلوا أبويه معه الجنة» (٧) وفي خبر آخر «إن الأطفال

(١) «الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لانه» أخرجه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب، ولم أجده مرفوعا. (٢) «خير نساءكم الولود والودود» أخرجه البيهقي من حديث بن أبي أديه الصدوق، وقال البيهقي: وروى بإسناده صحيح عن سعيد بن يسار مراسلا. (٣) «سوداء ولود خير من حسناء لانه» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من روايه يهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح (٤) «إن الأدمية تمرض على الموتى على أطباق من نور» رواية في الأذربين للشهورة من رواية أبي هذبة عن أنس في الصدقة عن الميت، وأبو هذبة كذاب. (٥) «إن الطفل يجر أبويه إلى الجنة» أخرجه ابن ماجه من حديث علي وقال «السطر» بدل «الطفل» وله من حديث معاذ «إن الطفل يجر أمه بزره إلى الجنة إذا هي احتسبته» وكلاهما ضعيف. (٦) «إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن أخذ بثوبك» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. (٧) «إن المولود يقال له ادخل الجنة: فيقف على باب الجنة فيظل محبطينا أي مثلتا غيظا وغضباً، ويقول لا أدخل إلا بأبواي معي ...» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية يهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح، والنسائي من حديث أبي هريرة «يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آبائونا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآبائكم» وإسناده جيد.

يختمون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة: اذهبوا هؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم: مرحباً بداري المسلمين ادخلوا لأحساب عليكم، فيقولون: فأن آباءنا وأمهاتنا؟ فيقول الخزنة: إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطلبون. قال: فيضاغرن ويصيحون على أبواب الجنة ضجعة واحدة، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم: ما هذه الضجعة؟ فيقولون: ربنا أطفال المسلمين قالوا: لا تدخل الجنة إلا مع آباءنا؛ فيقول الله تعالى: تخلفوا الجمع فخذوا بأبدي آباءهم فأدخلوهم الجنة^(١). وقال صلى الله عليه وسلم: «من مات له إثنان من الولد فقد احتظر بحظائر من النار»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: «من مات له ثلاثة لم يدخلوا الجنة أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» قيل: يا رسول الله وإثنان؟ قال: «وإثنان»^(٣). رحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره، قال: فأنتب من نومه ذات يوم وقال: زوجوني زوجوني، فزوجوه، فسل عن ذلك فقال: لعل الله يرزقني ولداً ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة، ثم قال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف، وبني من العرش ما كاد أن يقطع عني، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب، فمنعني كذلك إذ ولدان يدخلون الجمع، عليهم متاعيل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكراب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، يدخلون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس، فندت يدي إلى أحدهم وقلت: استقي فقد أجهدت العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسق آباءنا، فقلت: ومن أتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين. وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى ﴿فَأَتَوْا حُرُومَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ﴾ تقديم الأطفال إلى الآخرة؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل التكاح لأجل كونه سبباً للولد.

الفائدة الثانية: التحسن من الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «من نكح فقد حصن نصف دينه فليتق الله في الشرط الآخر» وإليه الإشارة بقوله «عليكم بالباة فمن لم يستطع فعله بالصوم فإن الصوم له وجاء» وأكثر ما تقتاضه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى، وهذا المعنى دون الأول؛ لأن الشهوة، وكلة بتقاضى تحصيل الولد، فالتكاح كاف لشفة دافعه لعله وصارف لشر سطوته، وليس من يجب مولاه رغبة في تحصيل رضاه، كمن يجب طلب الخلاص عن غائلة التوكيل، فالشهوة والولد مقدران بينهما ارتباط، وليس يجوز أن يقال: المقصود اللذة، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه، ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد، وهو مافي قضائها من اللذة التي لا ترواها لذة لودامت، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان، إذ الترغيب في لذة لم يحصلها ذواقاً لا ينفع، فلو رغب الصغير في لذة الجماع أو الصبي في لذة

(١) «إن الأطفال يختمون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة اذهبوا هؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحباً بداري المسلمين ادخلوا لأحساب عليكم فيقولون: أين آباؤنا وأمهاتنا...» بطوله لم أجد له أصلاً يعتمد عليه. (٢) «من مات له إثنان من الولد احتظر بحظائر من النار» أخرجه البزار والطبراني من حديث زهير بن أبي عقبة وجاءت امرأة من الأنصار إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، إنه مات لي ابنان سوى هذا فقال: لقد احتظرت من دون النار بحظائر شديد، ولستم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت: دفنت ثلاثة «لقد احتظرت بحظائر شديد من النار».

(٣) «من مات له ثلاثة لم يدخلوا الجنة أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» قيل يا رسول الله وإثنان، قال: وإثنان «أخرجه البخاري من حديث أنس دون ذكر الاثنين، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بلفظ «أما امرأة» بنحو منه.

الملك والباطنة لم ينفع التريغيب ، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ، ليكون باعثاً على عبادته فأنظر إلى الحكمة ، ثم إلى الرحمة ، ثم إلى التبعة الإلهية كيف عيت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء يقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية ، فإن هذه القوة النافذة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في القوة الكاملة بلذة الدوام ، أفتستحث على العبادة الموصلة إليها ، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تسير المراقبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان ، وما من ذرة من ذرات بدن الإنسان باطناً وظاهراً ، بل ذرات ملكوت السموات والأرض ، إلا وتحتها نللاطف الحكمة ومجانها ما تحاور العقول فيها ، ولكن إنما يتكشف القلوب الطاهرة بقدر صفاتها ويقدّر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغواثها ، فالتكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يؤرق عن عجز وعنة وهم غالب الخلق . فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش ، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيمنع البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لازال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الواقع ولا يفرغه الشيطان الموسر إليه في أكثر الأوقات ، وقد يمرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجرى على خاطره من أمور الواقع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستيئه منه ، والله مطلع على قلبه والقلب في حق الله كالسنان في حق الخلق ، ورأس الأدور للرديد في سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه ضغف في البدن وفساد في المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسلك الناسك إلا بالنكاح . وهذه محنة عامة قل من يتخلص منها .

قال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿ ولا تحملنا مالا طاعة لنا به ﴾ هو القلة . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالان معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ أنه لا يصبر عن النساء . وقال فياض بن يحيى : إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وبعضهم يقول ذهب ثلث دينه . وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال قيام الذكر ، وهذه بلية غالبية إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثاً على الحيانيين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الألباب منكناً ^(١) » وإنما ذلك لميكان الشهوة . وقال عليه السلام في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر مسمى وجرى وقلبي وشر مني ^(٢) » وقال « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي ^(٣) » فما يستعين منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره .

وكان بعض الصالحين يكسر النكاح حتى لا يكاد يخطر من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال : هل يعرف أحد منك أن جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفاً في معاملة يخطر على قلبه غاير شهوة ، فقالوا : بصيبتنا من ذلك كثير ، فقال : لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لا تزوجت ، لكني ما خطر على قلبي غاير يشغلي عن حالي إلا ففدته فأستريح وأرجع إلى شغلي ، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية .

- (١) « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الألباب منكناً » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، واتفقا عليه من حديث أنس بن مالك ولم يسبق مسلم لقطه .
(٢) « اللهم إني أعوذ بك من شر مسمى وجرى وقلبي وشر مني » تقدم في الدعوات .
(٣) « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين .

وأُنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له بعض فؤى الدين: ما الذى تسكر منهم؟ قال: يا كلون كثير. وأنت أيضاً لو جئت كما يجرون لأكلت كما يأكلون، قال ينكحون كثيراً. وقال: وأنت أيضاً لو حفظت عينيك وفرجت كما يحفظون لنكحت كما ينكحون. وكان الجنيذ يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالأوجه على التحقيق قوت وسبب لمهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فأنقذ إليها نفسه أن يجمع أهله (١)؛ لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس، وروى جابر رضى الله عنه: أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج. وقال صلى الله عليه وسلم «إن المرأة إذا أتيت أفليت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأبجته فليأت أهله فإن مما مثل الذى معي (٢)» وقال عليه السلام «لا تدخلوا على المغيبات - وهى التى غاب زوجها عنها - فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الهم» قلنا: ومنك؟ قال «وفى، ولكن الله أعانى عليه فأسلم (٣)» قال سفيان بن عيينة: فأسلم معناه فأسلم أنا منه، هذا معناه، فإن الشيطان لا يسلم، وكذلك يعي عن ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يقتل ويصلى، وذلك لتفريغ القلب لمهارة الله وإخراج علة الشيطان منه. وروى أنه جامع ثلاثاً من جواده في شهر رمضان قبل المشاء الأخيرة وقال ابن عباس: خير هذه الأمة أكثرها نساء (٤) ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولأجل فراغ القلب أيسر نكاح الأمة عند خوف العنت، مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك، وهو محرّم على كل من قدر على حرة، ولكن إرقاق الولد أمون من إهلاك الدين، وليس فيه تنغيص الحياة على الولد مسدة، وفى إحقاق الفاحشة تفويت الحياة الأخرى التى تستجر الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها. وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس ويقيم شاب لم يرجع، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة؟ قال: نعم أردت أن أسأل مسألة فاسحيت من الناس، وأنا الآن أهالك وأهلك، فقال ابن عباس: إن العالم بمنزلة الوالد، فما كنت أفضيت به إلى أريك فأفض إلى به، فقال: لى شاب لازوجة لى، وربما خشيت العنت على نفسى، فربما استمنييت يدي، فهل فى ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال: أف وقف نكاح الأمة خير منه، وهو خير من الزنا، فهذا تنبيه على أن العرب المغلظ مرددين ثلاثة شروء أدناها نكاح الأمة، وفيه إرقاق الولد، وأشد منه الاستمنا باليد، وأخفها الزنا، ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شيء منه لأنهما محذوران يفرض إليهما حذراً من الوقوع فى محذور أشد منه، كما يفرض إلى تناول الميتة حذراً من هلاك النفس، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة المطلقة ولا فى معنى الحيز المطلق، وليس قطع اليد المتأكلة من الحشرات وإن كان يؤخذ فيه عند إشراف النفس على الإهلاك، فإذا فى النكاح فضل من هذا الوجه، ولكن هذا لا يسم الكل بل الأكثر، قرب شخص قرت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فيندم هذا الباعث فى حقه، ويبقى ما سبق من أمر الولد. فإن ذلك عام إلا للمسح

(١) «أمر النبي ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فأنقذ نفسه إليها أن يجمع أهله» أخرجه أحمد من حديث أبي بكشة الأنباري، حين مرّت به امرأة فوقع فى قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بعض أزواجه وقال: فكذلك فاضلوا، فإنه من أمثال أفعالكم إتيان الحلال، وإسناده جيد.

(٢) حديث جابر «رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته» رواه مسلم والترمذى واللفظ له وقال: حسن صحيح.

(٣) «لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الهم...» أخرجه الترمذى من حديث جابر وقال غريب، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «ولا يدخل بعد يومى هذا على مفية إلا ومعه رجل أو اثنان».

(٤) حديث ابن عباس «خير هذه الأمة أكثرها نساء» يعنى النبي ﷺ رواه البخارى

وهو نادر ، فمن الطباع ما تنقلب عليها الشهوة بحيث لا يخصصه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فإن يرض الله له مودة ورحمة وأطمان قلبه بين وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بدوفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال : إن الحسن بن علي كان مشكاحا حتى نكح زيادة على ما تاتي امرأة وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد ، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدلهن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن « أشبهت خلقي وخلقى ^(١) » وقال عليه السلام « حسن مني وحسين مني ^(٢) » فقبل إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله ﷺ ، وتزوج القنيرة بن شعبة بثلاثين امرأة ، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ومن كان له اثنتان لا يحصى ، ومهما كان الباحث معلوما فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فليستزله إلى به السكينة والوقلة .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة لإراحة القلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهي عن الحق تغور لأنه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المتداومة بالإكراه على ما يخالفها جمعت وتابت ، وإذا روحت بالفتن في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال تعالى (ليسكنن إليها) وقال على رضى الله عنه : روحوا القلوب ساعة فأنها إذا أكرهت عييت . وفي الخبر « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمعلمه ومشربه ، فإن في هذه الساعة عو ناعلى تلك الساعات ^(٣) » ومثله بلفظ آخر « لا يكون العاقل ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير عزم ^(٤) » وقال عليه الصلاة والسلام « لكل عامل شرة لكل شرة فترة ، فمن كانت فترة إلى متى فقد اعتدى ^(٥) » والشره الجدد والمكابدة بمدة وفرة ، وذلك في ابتداء الإراقة ، والفترة : الوقوف للاستراحة ، وكان أبو الدرداء يقول إنى لأستجم نفسى بشئ من الهوى لا تقوى بذلك فيما بعد على الحق . وفي بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شكوت إلى جبريل عليه السلام ضغني عن الوقاع فدخلني على الهريسة ^(٦) » وهذا إن صح لأعمل له إلا الاستعداد للاستراحة ، ولا يمكن تعليمه بدفع الشهوة فإنه استثارة الشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الانس . وقال عليه الصلاة والسلام « حب إلى من دنياكم ثلاث : الطبيب والنساء وقرة عيني في الصلاة ^(٧) » فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إنساب نفسه في الأفكار والأذكار وعشوف الأعمال ، وهي خارجة عن

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي « أشبهت خلقي وخلقى » قلت للعروف أنه قال هذا اللفظ لجعفر بن أبي طالب وهو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضا كان يشبه النبي ﷺ ، كما هو متفق عليه من حديث أبي جيفة كالثرمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله ﷺ من الحسن » (٢) « حسن مني وحسين مني » رواه أحمد من القناد بن معد يكرب بسند جيد . (٣) « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمعلمه ومشربه » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل : إن ذلك في صحف إبراهيم . (٤) « لا يكون العاقل ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير عزم » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر الطويل : إن ذلك في صحف إبراهيم . (٥) « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترة إلى متى فقد اعتدى » رواه أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وللترمذى نحوه من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٦) « شكوت إلى جبريل ضغني على الوقاع فدخلني على الهريسة » أخرجه ابن عدى من حديث حذيفة وابن عباس ، والقبلي من حديث معاذ وجابر بن سمرة ، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة الأزدي في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة . قال ابن عدى : موضوع . وقال القبلي : باطل . (٧) « حب إلى من دنياكم الطبيب والنساء وقرة عيني في الصلاة » رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ووضعه القبلي .

القائدتين السابقتين ، حتى إنها تطرد في حق المسحوق ومن لاشهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه الثبة ، وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو ما يكثر ، ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والحضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمجادة النساء وملاعبتين ، فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتبه له .

الفائدة الرابعة : تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والعرش وتنظيف الأواني وتبشيرة أسياب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الواقع لتعذر عليه العيش في منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لصاح أكثر أوقاته ولم يفرغ العلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للنزل عون على الدين بهذه الطرق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنقصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان البارقي رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للأخرة ، وإنما تزيئها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) قال : المرأة الصالحة . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كراً وزوجة مؤمنة صالحة تهينه على آخرته » (١) فاطر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر . وفي بعض التفاسير في قوله تعالى (فلنحييه حياة طيبة) قال الزوجة الصالحة ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة ، وإن منهن غنياً لا يحصى منه ، ومنهن غلا لا ينفد منه . وقوله : لا يحصى أى لا يتناهى عنه بعباء . وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم مخلصتين : كانت زوجته عونا له على المعصية ، وأزواجه أعواناً له على الطاعة ، وكان شيطاناً كافراً وشيطاناً مسلماً لا يأمر إلا بخير » (٢) فقد معاوناها على الطاعة فضيلة ، فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينقص المعيشة ويضطرب به أمور المنزل ، ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بمشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل المشاغل ، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة ، ولذلك قيل : ذل من لا ناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة ، فإن اللذ مشوش للقلب والمز بالكثرة دافع بالقل .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهم واحتلال الأذى منهم والسي في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والقيام بربيته لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، وإنما يمتاز منها من يمتاز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣) وليس من اشتغل

(١) « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كراً وزوجة مؤمنة تهينه على آخرته » أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث ، وفيه إقطاع .

(٢) « فضلت على آدم عليه السلام مخلصتين : كانت زوجته عونا له على المعصية ، وأزواجه أعواناً له على الطاعة ، وكان شيطاناً كافراً وشيطاناً مسلماً لا يأمر إلا بخير » رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان ابن القناسي قال ابن عدى كان يضع الحديث ، ولمسلم من حديث ابن مسعود « مأمركم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال « وأنا ، وإلا أن الله أعانني عليه فأنسى ولا يأمرني إلا بخير » .

(٣) « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع مسؤول عن رعيته » رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس ، وقد تقدم لفظ « ستين سنة » دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر .

بإصلاح نفسه وغيره كن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الآذى كن ربه نفسه وأرواحها ، فمساواة الأهل والوالد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ولذلك قال بشر : فضل على أحد بن خبيل ثلاث : إحداهما أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أتقته الرجل على أهله فهو صدقة » ، وإن الرجل ليؤجر في القنمة يرفقها إلى في امرأته (١) ، وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطاني الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له : أين أنت من عمل الأبدال ؟ قال : وما هو ؟ قال : كسب الحلال ، والتفقه على العيال . وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال رجل متحف ذو عائلة قال من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وعظام يشوبه . فعمله أفضل مما نحن فيه . وقال صلى الله عليه وسلم « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم ينتب للمسلمين كان معي في الجنة كهاين (٢) » وفي حديث آخر « إن الله يحب الفقير المتخفف أبا العيال (٣) » وفي الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه (٤) » وقال بعض السلف : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا التمس بالعيال ، وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب العيشة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأفقطن عليهن وأحسن إليهن حتى ينسهن الله عنه أوجب الله له الجنة أئمة أئمة ، إلا أن يعمل عملاً لا ينفره له (٦) » وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال : والله هو من غرائب الحديث وغرره . وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت ، فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحشة أرواح لقلبي وأجمع لمسى ، ثم قال : رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكان رجالاً ينزلون ويسبرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، فكلموا نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المشرم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك ، ويقول الرابع نعم ؛ فغفت أسألهم هبة من ذلك إلى أن مررت آخرهم وكان غلاماً ، فقلت له : يا هذا من هذا المشوم الذي توشون إليه ؟ فقال : أنت . فقلت : بولم ذلك ؟ قال : كنا نرفع علك في أعمال الجاهدين في سبيل الله ؛ فنذ جمعة أمرنا أن نضع علك مع الخائفين ؛ فأندرى ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجوني زوجوني فلم يكن نقارقه زوجان أو ثلاث . وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوما دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأحافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتعجبوا من ذلك فقال : لا تعجبوا فإنني سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقب لي به في الآخرة فعبه لي في الدنيا . فقال : إن عقوبتك بنت فلان ، تزوج بها ، فزوجت بها وأنا صابر على ما ترون منها ، وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الفئض

(١) « ما أتق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في رفع القنمة إلى امرأته » متفق عليه من حديث ابن مسعود « إذا أتق الرجل على أهله فتمت وهو يحسنها كانت له صدقة » ولها من حديث سعد بن أبي وقاص « ومهما أشقت فهو لك صدقة حتى القنمة ترفقها إلى امرأتك » .

(٢) « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم ينتب للمسلمين كان معي في الجنة كهاين » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف .

(٣) « إن الله يحب الفقير للتخفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف .

(٤) « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها » رواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال « بالخرن » وفيه ليش ابن أبو سليم يختلف فيه .

(٥) « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب العيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص للتشابه من حديث أبو هريرة بإسناد ضعيف .

(٦) « من كان عنده ثلاث بنات فأفقطن عليهن وأحسن إليهن حتى ينسهن الله عنه أوجب الله له الجنة أئمة إلا أن يعمل عملاً لا ينفره له » رواه الحارثي في كلام الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وهو عنده بلفظ آخر . ولأبو داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة » ورجله ثقات ، وفي مسنده اختلاف .

وتحسين الخلق ، فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا تشرع منه خباثات النفس الباطنة ولا تنكشف برأطن عيونه ، حتى على سالفك طريق الآخرة أن يجرب نفسه بالتمريض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها ، لتحتل أخلاته وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكمل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها ، فهذه أيضاً من القوائد ، ولكنه لا يتفحص بها إلا أحد رجلين : إما رجل قصد المجاهدة والريضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق ، فلا يريد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاض به نفسه . وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب ، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره ، فسلمه لأهله وأولاده يكسب الحلال لهم والقيام بترتيبهم أفضل لهم من العبادات اللازمة ليدنه التي لا يتبدى غيرها إلى غيره ، فأما الرجل المذهب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان لا سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات ، فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض ، فإن الرياضة هو ممكن فيها . وأما العبادة في العمل بالكسب لم فاعلم أفضل من ذلك ، لأنه أيضاً عمل ، وقائده أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسان الخلق من فائدة الكسب على العيال ، فهذه قوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالعصية .

أما آفات النكاح ثلثات :

الأولى : وهي أقواما الصبر عن طلب الحلال فإن ذلك لا ييسر لكل أحد ، ولا سيما في هذه الأوقات مع اضطراب العايش فيكون النكاح سبباً في التوسع الطلب والإطعام من الحرام ، وفيه هلاك وهلاك أهله والتمزب في أمن من ذلك ، وأما الزوج في الأكثر يدخل في ميدان السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياء . وفي الخبر : « إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أفقه ، حتى يسترق تلك المطالبات كل أعماله ، فلا تبقى له حسنة ، فتنادي الملائكة : هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتنين اليوم بأعماله ^(١) » ويقال : إن أول ما يتعاقب بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون : يا ربنا غفلنا بمحنتهم فإنه ما علمنا ما نجمل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتصص لهم منه . وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبده شراً سلط عليه في الدنيا أنبياء نهشه بنى العيال . وقال عليه الصلاة والسلام « لا يلقى الله أحد ذنب أعظم من جهالة أهله ^(٢) » فهذه آفة عامة قل من يتخلص منها إلا من له مال مودود أو مكتسب من حلال في به وبأهله وكان له من القناعة ما يمتنع من الزيادة ، فإن ذلك يتخلص من هذه الآفة ، أو من هو محترف ومقتد على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطياد ، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله - وقد سئل عن التزوج - فقال : هو أفضل في زماننا هذا من أدركه شبق غالب ، مثل الخمار يرى الإنسان فلا ينتهي عنها بالضرب ولا يملك نفسه ، فإن ملك نفسه فتركه أولى .

الآفة الثانية : التصور عن القيام بمحقن والصبر على أخلاقه واحتال الآذى منه وهذه دون الأولى في العموم فإن القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى ، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بمحظوظهن أمون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر ، لأنه راع ومستول عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام « كفى بالمرء إثمًا أن يضع من يمول ^(٣) »

(١) « إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهم . . . » لم أقف له على أصل .

(٢) « لا يلقى الله أحد ذنب أعظم من جهالة أهله » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي سعيد ، ولم يجد له أبو منصور في مسنده

(٣) « كفى بالمرء إثمًا أن يضع من يمول » رواه أبو داود والنسائي بلفظ « من يمول » وهو عند مسلم بلفظ آخر .

وروى أن الحارب من عياله بمنزلة العبد الحارب الأبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ، ومن يقصر عن القيام بمجتنب وإن كان حاضراً فهو بمنزلة حارب ، فقد قال تعالى (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) أمرنا أن نقيم النار كما نقي أنفسنا ، والإنسان قد يصير عن القيام بمجتنب نفسه ، وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أماراة بالسوء ، إن كثرت كثرت الأمار بالسوء غالباً ، ولذلك احتذر بعضهم من التزويج وقال : أنا مبتلى بنفسي وكيف أحيف إليها قسماً أخرى ؟ كما قيل :

إن يسبح الفارة جحرها طلقت المكس في دبرها

وكذلك احتذر إبراهيم بن آدم رحمه الله وقال : لا أغر امرأة بنفسي ولا حاجة لي فحين : أي من القيام بمجتنب وتقصين وإمتان وأنا عاجز عنه ، وكذلك احتذر بشر وقال : يمنعني من النكاح قوله تعالى (ولئن مثل الذي عليهن) وكان يقول : لو كنت أعول دهاجة لخصت أن أصير جملدا على الجسر . وروى سفيان بن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له : ما هذا موقفك ؟ فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلع ؟ وكان سفيان يقول :

ياحبذا العزبة والمفتاح ومسكن تخزئه الرياح

لا صنب فيه ولا صياح

فهذه آفة عامة أيضاً وإن كانت دون عموم الأولى ، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل ، حسن الأخلاق ، بصير بعبادات النساء . صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بمجتنب يتناقل عن ذلهن ، ويداري بفعله أخلاقهن . والأغلب على الناس السفه والفظاظة والخفة والعيش وسوء الخلق وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف ومثل هذا يرداد بالنكاح فساداً من هذا الوجه لاجتماعه ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة - وهي دون الأولى والثانية - : أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المنيعة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه ، ولست أصح بهذا أن يدور إلى محذور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعو إلى التمتع بالمباح بل إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستن والإمعان في التمتع بهن ، ويثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب ، فينقض الليل والنهار ولا يفرغ المرء فيها للتفكير في الآخر فالاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : من تورّد أفتاد النساء لم يجي منه شيء . وقال أبو سليمان رحمه الله : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا : أي يدعو ذلك إلى الركون إلى الدنيا ، فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجد في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة ومفرّد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى في أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد ، فإن اتفقت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات في نقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول : من لم يكن في أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه في السعي لتحصيل

الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالزوجة له أولى ، فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير في كسب الحرام ، ولا ينبغي بتقصان هذين الأمرين أمر الولد ، فإن النكاح الولد يسعى في طلب حياة لولده موهومة ، وهذا نقصان في الدين ناجز ؛ لحفظه لحياة نفسه وصوتها عن الهلاك أم من السعى في الولد ، وذلك ربح والدين رأس مال . وفي فساد الدين بطلان الحياة الآخروية وذهاب رأس المال ، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين . وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر . فإن لم يقو لجام التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالتكاح له أولى ، لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين ، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزدني ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى ، لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله ، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب ، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدق الفرج فهو إلى المعفو أقرب من أكل الحرام ، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى مصيبة الفرج فيرجع ذلك إلى خوف الفتنة ، وإذا ثبت هذا فالحاجة الثالثة : وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب أولى بترك النكاح ، لأن عمل القلب إلى المعفو أقرب ، وإذا أراد فراخ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام من أكله وإطعامه . فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات باللوائده وبحكم مجسها ، ومن أحاط بهذا لم يشك عليه شيء مما قلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

فإن قلت : فمن أمن الآفات فما الأفضل له : التخلي لعبادة الله ، أو النكاح ؟

فأقول : يجمع بينهما ، لأن النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب ، فإن قدر على الكسب الحلال فالتكاح أيضاً أفضل ، لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن ، فإن فرض كونه مستغرقاً للأوقات بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة ، فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو بالمسح وما يجرى مجراه من الأعمال البدنية فالتكاح له أفضل ، لأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعي في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلاً عن نوافل العبادات ، وإن كان عباده بالمع والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك . فترك النكاح أفضل .

فإن قلت : فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا ﷺ من الأزواج ؟

فاعلم أن الأفضل الجمع بينهما في حق من قدر ومن قوت منته وعلت منه فلا يشغله عن الله شاغل ، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة^(١) متخلياً لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغولة بهمهم غير غافلة عن مهماتهم ، وكان رسول الله ﷺ لعلو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته^(٢) ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يعد أن تفر السواقي مالا يفيّر البحر الخضم ، فلا ينبغي أن يتناس

(١) « جمعه ﷺ بين تسع نسوة » أخرجه البخاري من حديث أنس ، وله من حديثه أيضاً « وهن إحدى عشرة »

(٢) « كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته » أخرجه البخاري من حديث أنس « يأثم سلفه لا تؤذي في عائشة فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة متكن غيرها » .

عليه غيره . وأما عيسى عليه السلام فإنه أخذ بالحرم لا بالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حاله كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يمتنع منها طلب الحلال ، ولا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فأثر التخلي للعبادة ، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء . وما على التاكع من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل ، فحسنا أن نزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال ، والله أعلم .

الباب الثاني : فيما يراعى حالة المتقدم من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد فأركاناه وشروطه ليعتقد ويفيد الحلال أربعة : (الاول) إذن الولي ، فإن لم يكن فالسلطان (الثاني) رضا المرأة إن كانت ثيبا بالنا أو كانت بكرا بالنا ، ولكن بزوجها غير الأب والجد (الثالث) حضور شاهدين ظاهري العدالة ، فإن كانا متوربين حكتنا بالانقياد للحاجة (الرابع) إيجاب وقبول متصل به بلفظ الانكاح أو التزوج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما .

وأما آدابه : فتقديم الخطبة مع الولي لافي حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولا في حال سبق غيره بالخطبة ، إذ نهى عن الخطبة على الخطبة (١) . ومن آدابه : الخطبة قبل النكاح ، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول فيقول الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة . ويقول الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق . ولكن الصداق معلوما خفيفا ، والتمهيد قبل الخطبة أيضا مستحب ومن آدابه : أن يبقى أمر الزوج إلى سماع الزوجة وإن كانت بكرا فذلك أخرى وأولى بالألفة ، ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فإنه أخرى أن يؤم بينهما . ومن الآداب : إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها : أن ينوي بالنكاح إقامة السنة وغيض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها : ولا يكون قصد مجرد الهوى والتبع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا . ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حتى يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فسر الزبد بالترسيان ، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعنا معا ، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوال . قالت عائشة رضي الله عنها : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ، وبني بي في شوال (٢) .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحل . والثاني لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأول ما يبتسر فيها للحل : وهو أن تكون خلية من موانع النكاح والموانع تسعة عشر : (الاول) أن تكون منكوحة للغير (الثاني) أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين (الثالث) أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلة على لسانها من كلمات الكفر (الرابع) أن تكون مجوسية (الخامس) أن تكون وثنية أو زندقية لا تنسب إلى نبي وكتابت ومنهن المعتقات للمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتقة منجبا فاسدا يحكم بكفر معتقده (السادس) أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد ميث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليس من نسب بني إسرائيل ، فإذا عدمت كلها الحاصلين

الباب الثاني : فيما يراعى حالة المتقدم

(١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يتركه المخاطب قبله أو يأذن له .

(٢) حديث عائشة : تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم في شوال وبني بي في شوال . رواه مسلم .

لم يحل نكاحها ، وإن عدت النسب فقط ففيه خلاف (السابع) أن تكون رقيقة والنكاح حراً قادراً على طول الحرة أو غير خائف من العنت . (الثامن) أن تكون كلها أو بعضها مملوكاً لنكاح ملك عيين (التاسع) أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله ، أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل ، وأعني بالأصول : الأمهات والجدات ، وبفصوله : الأولاد والأحفاد ، وبفصول أول أصوله : الإخوة وأولادهم ، وبأول فصل من كل أصل بعده أصل : العمات والخالات دون أولادهن (العاشر) أن تكون محرمة بالرضاع ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحرم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم (الحادي عشر) المحرم بالمصاهرة : وهو أن يكون النكاح قد تنكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبه عقد من قبل ، أو وطئن بالنسبة في عقد أو وطئ أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبه عقد ، فحرم المقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء . أو يكون قد تنكح أبوه أو ابنه قبل (الثاني عشر) أن تكون المشكوكه عامة أى يكون تحت النكاح أربع سواها إما في نفس النكاح أو في عدة الرجعة ، فإن كانت في عدة بيونة لم تمنع الخامسة (الثالث عشر) أن يكون تحت النكاح أختها أو عماتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما ، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً والآخره أنثى لم يجر بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما (الرابع عشر) أن يكون هذا النكاح قد طلقها ثلاثاً فهي لا تحمل مالم يطأها زوج غيره في نكاح صحيح (الخامس عشر) أن يكون النكاح قد لاحتها فإنها تحرم عليه أبداً بعد الممان (السادس عشر) أن تكون ثيباً صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . (الثامن عشر) أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ (التاسع عشر) أن تكون من أزواج رسول الله ﷺ عن توفى عنها أو دخل بها فإنهن أمهات المؤمنين وذلك لا يوجد في زماننا ، فهذه هي الموانع المحرمة .

أما الخصال المطلوبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليديم المقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين ، والحلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لا تكون قرابة قريبة .

(الأول) أن تكون سالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها أذرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالفتنة قلبه وتغص بذلك عيشة ، فإن سلك سبيل الحية والفتنة لم يزل في بلاء وعنة ، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحية والأخفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد ، إذ يفتن على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالذي جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله إن لي امرأة لا ترد يد لاس قال : طلقها ، فقال : إني أحبها . قال : أمسكها^(١) ولما أمره بإمسكها خوفاً عليه بأنه إذا طلقها اتبها نفسه وفسد هو أيضاً معها ، فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عن متبع قلبه أولى ، وإن كانت فاسدة الدين باستلاك مالها أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه ، فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية عاقلاً لقوله تعالى (فأنا أنفسم وأهلکم نارا) وإن أنكره وغاصم تنقص العمر وبطلد بالغ رسول الله ﷺ في التحريض على ذات الدين فقال « تنكح المرأة لجمالها وبجمالها وحسبها ودينها فليكن بذات الدين تربت يداك (٢) » وفي حديث آخر « من نكح المرأة لجمالها وبجمالها وحسبها ودينها فليكن بذات الدين تربت يداك (٣) »

(١) «جاء رجل إلى النبي ﷺ قال : إن لي امرأة لا ترد يد لاس ، قال : طلقها ...» رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس ، قال النسائي : ليس بثابت ، والمرسل أولى بالصواب . وقال أحمد : حديث منكرو ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٢) « تنكح المرأة لجمالها وبجمالها وحسبها ودينها فليكن بذات الدين » متفق عليه من حديث أبو هريرة .

ومن تكسها لدينها رزقه الله مالها وجمالها (١) وقال عليه السلام « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يزدها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغىها ، وأنكح المرأة لدينها (٢) » وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين ، فأما إذا لم تكن متدينة كانت شائعة عن الدين ومشوشة له .

(الثانية) حسن الخلق : وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستمالة على الدين ، فإنها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء ما يتحمل به الأولياء . قال بعض العرب : لا تنكحوا من النساء سة : لا أناة ، ولا مناعة ، ولا حنافة ، ولا تنكحوا حداقة ولا براءة ، ولا شدادة . أما الأناة فهي التي تنكحها الأئمة والتشكي وتمسب رأسها كل ساعة ، فنكاح المراضة أو نكاح المتجارة لا خير فيه ، والمناعة : التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا ، والحنافة : التي تمن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضاً ما يجب اجتنابه ، والحداقة : التي ترمي إلى كل شيء مهدفتها فتهبها وتكاف الزوج شراره ، والبرائة تحمل معنيين : أحدهما أن تكون طول التبار في تصفيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق يحصل بالصفح ، والثاني أن تنضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه اثنتان يمانية يقولون : برقت المرأة و برق الصبي الطعام إذا غضب عنده ، والشدادة : المشددة الكثيرة الكلام ، ومنه قوله عليه السلام ، « إن الله تعالى يفيض الثرائين المتشددين (٣) » وحكى أن السامح الأزدى لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالزوج ونهاه عن التجل ، ثم قال لا تنكح أربما : المختلعة ، والمبارية ، والماهرة ، والناشر ، فأما المختلعة : فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب ، والمبارية : المياهة بغيرها المغايرة بأسباب الدنيا ، والماهرة : الفاقسة التي تعرف بحيل وخدع وهي التي قال فيها الله تعالى (ولا تمننخذات أخدان) والناشر : التي تملو على زوجها بالفعال والمقال والنشر . المالى من الأرض ، وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء : البخل ، والوهو والجن ، فإن المرأة إذا كانت بحيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مرهيب وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها ، فهذه الحكايات ترشد إلى جامع الأخلاق المطلوبة في النكاح .

(الثالثة) حسن الوجه ، فذلك أيضاً مطلوب ، إذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالديمية غالباً ، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفرقان . وما قلناه من الحث على الدين وإن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجراً عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين : فإن الجمال وحده في نال الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الانكفات إلى معنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالباً وقد ندب الشرع للمرأة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال « إذا وقع الله في نفس أحدكم من امرأة فليتنظر إليها فإنه أحرى

(١) « من نكح امرأة لجمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ... » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « من تزوج امرأة لعزها لم يره الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لجمالها لم يره الله إلا قرأ ، ومن تزوجها لحسبها لم يره الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يردبها إلا أن يفض بصره ويحسب فرجه أو يصل رحمه يارك الله له فيها ويبارك لها فيه » ورواه ابن حبان في المستفاء .

(٢) « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

(٣) « إن الله يفيض الثرائين للتشددين » رواه الترمذى وحسنه من حديث جابر « وإن أبضكم إلى وأهدكم من يوم القيامة الثرائون والتضيقون » ولأبو داود والترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يفيض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلساتها » .

أن يؤءم بينهما^(١) أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأءمة على الأمة : وهى الجلفة الباطنة ، والبشرة : الجلفة الظاهرة . وإنما ذكر ذلك للبالغة فى الإءتلاف . وقال عليه السلام « إن فى أعين الأنصار شىئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهم فلينظر إليهن^(٢) » قيل كان فى أعينهن عشم . وقيل : صغر ، وكان بعض الرومى أن لا يحكون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور . وقال الأعمش : كل تزويج يقع على غير نظر فأخوه هم وغم . ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال ، وإنما يعرف الجمال من القبح . وروى أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب ففصل خضابه ، فاستندى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا : حسبنا شاباً بأوجه عمر ضرباً وقال : غررت القوم . وروى أن بلالاً وصيباً أنبأ أهل بيت من العرب غلباً إليهم فقيل لهما : من أنبأ فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صبيب ، كنا ضالين فهذا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عاتلين فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالخدة ، وإن تردونا فسيحان الله ، فقالوا بل تزوجان والحمد لله فقال صبيب : لو ذكرت مشاهدنا وسواقنا مع رسول الله عليه السلام فقال : استك فقد صدقت فأحككك الصدق . والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعاً فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصال فينبى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى التناء ، ولا يصعدا فيقصر ، فالطباع مائة فى مبادئ النكاح ووصف المنكوحات إلى الإقراط والتضييط ، وقيل من يصدق فيه ويقصد ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قديماً على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الداراني : الزهد فى كل شىء . حتى فى المرأة يتزوج الرجل المعجوز إيثارة للزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول : برك أحدكم أن يتزوج بقيمة فيؤجر فيها إن أعظمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يبنى أبناء الدنيا فقتلته عليه الشبوات وتقولوا كنى كذا وكذا ؛ واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة ، فسال : من أعظمها ؟ قيل : العوراء ، فقال : زوجوني إياها ، فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فيطلب الجمال ، فالتلذذ بالمباح حسن الدين . وقد قيل : إذا كانت المرأة حسنة خيرة الأخلاق سوداء الحدة والشر كبيرة العين بيضاء اللون عجة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صورة المحور العين ، فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة فى قوله (غيرات حسان) أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله (قاصرات الطرف) وفى قوله (عرا أتراباً) العروب : هى العاشقة لزوجها المشتهية للواقع وبه تتم اللذة والمحور : البياض والمحور : شديدة بياض بياض العين شديدة سودا سوداها فى سواد الشعر والعيناء الواسعة العين . وقال عليه السلام « خير نسائك من إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله^(٣) » وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت عجة للزوج .

(١) « إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤءم بينهما » أخرجه ابن ماجة بسند ضيف من حديث أحمد بن مسلة دون قوله « فإنه أحرى » وللترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجة من حديث العيرة ابن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبي عليه السلام « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤءم بيكما » .

(٢) « إن فى أعين الأنصار شىئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهم فلينظر إليهن » رواه مسلم من حديث أبوهيرة

(٣) « خير نسائك التى إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله »

أخرج النسائى من حديث أبو هريرة بنحوه بسند صحيح وقال « ولا تخالقه فى نفسها وماله » ولأبو داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح .

(الراجعة) أن تكون خفيفة المهر، قال عليه السلام «خير النساء أحسن وجوها وأرخصهن مهراً»^(١) وقد نهى عن المغالاة في المهر (٢) تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثايت بيت وكان رضى يد وجرة ووسادة من آدم حشوها ليف (٣)، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير^(٤) وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق (٥)، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربع مائة درهم (٦)، ولو كانت المغالاة بمهر النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله ﷺ على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم (٧) وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أقرهيرة رضى الله عنه على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها. ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج عن خلاف السواء فلا بأس به، وفي الخبر «من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رجوعها» أى الولادة ويسر مهرها (٨) وقال أيضاً «أبركهن أهلن مهرًا» (٩) وكما تنكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن ما لها من جهة الرجل، ولا ينبغي أن ينسكب طمعا في المال. قال الثوري: إذا تزوج وقال: أى شيء للمرأة، فاعلم أنه لص، وإذا أهدى إلهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه، وكذلك إذا أعدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة، فأما التهادى فتشبه وهو سبب المودة. قال عليه السلام «تهادوا تحابوا» (١٠) وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) أى تعطي لطلب أكثر، ونحو قوله تعالى (وما آتيتن من ربا ليدروا في أموال الناس) فإن الربا هو الزيادة، وهذا طلب زيادة على الجملة، وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في التكاح يشبه التجارة والتهار ويفسد مقاصد النكاح.

(الخامسة) أن تكون المرأة ولوداً، فإن عرفت بالمعقر فليمتنع عن تزويجها. قال عليه السلام «عليكم

(١) «خير النساء أحسن وجوها وأرخصهن مهراً» أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس «خيرهن أيسرهن صداقاً» وله من حديث عائشة «من بين المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها» وروى أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين «إن أعظم النساء بركة أصبهن وجوهاً وأقلهن مهراً» وصححه (٢) «التي عن المغالاة في المهر» رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفاً على عمر وصححه الترمذي (٣) «تزوج النبي ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثايت بيت وكان رضى يد وجرة ووسادة من آدم حشوها ليف» رواه أبو داود الطيالسي والبخاري من حديث أنس: تزوج النبي ﷺ أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم. قال البخاري: ورأيت في موضع آخر تزويجها على متاع بيت ورضي قيمته أربعون درهماً. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبو سعيد وكلامها ضعيف. ولأحمد من حديث علي لما تزوجة فاطمة بنت مهاجمة ووسادة آدم حشوها ليف ورحين وسقاء وجرتين، ورواه الحاکم وصححه إسناده، وابن حبان خصصاً. (٤) «أولم على بعض نسائه بمدين من شعير» أخرجه البخاري من حديث عائشة. (٥) «أولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق» رواه الأربعة من حديث أنس: أولم على صفية بسويق وغيره. ولمسلم جعل الرجل يجمي بفضل التمر وفصل السويق. وفي الصحيحين: التمر والأقط والسمن، وليس في شيء من الأصول تعيد التمر والسويق بمدين. (٦) كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول: ما تزوج النبي ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربع مائة درهم. رواه الأربعة من حديث عمر. قال الترمذي: حسن صحيح. (٧) تزوج بعض أصحاب النبي ﷺ على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم. متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وهو عجمي بخمسة دراهم. رواه البيهقي. (٨) «من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رجوعها» أي الولادة. ويتيسر رجوعها. رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة «من بين المرأة أن تتيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رجوعها» قال عروة: يعني الولادة، وإسناده جيد. (٩) «أبركهن أهلن مهرًا» رواه أبو عمر التوفاني في معاشرته الأهلين من حديث عائشة «إن أعظم النساء بركة أصبهن وجوهاً وأقلهن مهرًا» وقد تقدم، ولأحمد والبيهقي «إن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً» وإسناده جيد. (١٠) «تهادوا تحابوا» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، والبيهقي من حديث أبو هريرة بسند جيد.

بالولود الودود (١) فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فإراعى صحتها وشبابها ، فإنها تكون ولودا في الذالب مع هذين الوصفين .

(السادسة) أن تكون بكرأ قال عليه السلام لجابر : « هل بكرأ تلاعبها وتلاعبك؟ » وفي البكارة ثلاث فوائد ، إحداهما : أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود . وقد قال عليه السلام « عليكم بالودود » والطابع بجولة على الأنس بأول مألوف . وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى ببعض الأوصاف التي تختلف ما ألفته ففقد الزوج . الثانية : أن ذلك أكل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفره ما ، وذلك يشغل على الطبع مهما يذكر وبعض الطبع في هذا أشد نقورا . الثالثة : أنها لا تمنح إلى الزوج الأول وأكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالباً .

(السابعة) أن تكون نسبة أحنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربى بناتها وبنيها . فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والثريه ، ولذلك قال عليه السلام « إياكم وخضراء البمن » فقيل : ما خضراء البمن ؟ قال « المرأة الحسناء في المنبت السوء » (٢) وقال عليه السلام تحمروا لتطعمكم فإن العرق نزاع (٣) .

(الثامنة) أن لا تكون من القرابة القريبة ، فإن ذلك يقلل الشهوة : قال عليه السلام « لا تتكسحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوي (٤) » أي نحيفا ، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة ، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللسان وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد ، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه ينفع الحس من تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة ، فهذه هي الحصال المرغوبة في النساء ، ويجب على الولي أيضاً أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكي يمت فلا يزوجه من ساء خلقه أو خلقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكافئها في نسبها . وقال عليه السلام « النكاح رق فليظن أحدكم أين يضع كريمة » (٥) والاحتياط في حقها أم لأنها رقيقة بالنكاح لاغصا لها ، والزواج قادر على الإطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظالما أو فاسقا أو مبتدعا أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتمرض السخط الله لما قطع من حق للرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحن : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجه ؟ قال : من يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضا لم يظلمها ، وقال عليه السلام « من زوج كريمة من فاسق فقد قطع رحمها » (٦)

(١) « عليكم بالودود الولود » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار « تزوجوا الودود الولود » وإسناده صحيح . (٢) حديث قال لجابر وقد نكح ثيباً « هل بكرأ تلاعبها وتلاعبك؟ » متفق عليه من حديث جابر . (٣) « إياكم وخضراء البمن ؟ قيل : وما خضراء البمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدارقطني في الأفراد ، والراهمزمي في الأمثال من حديث الحدرى ، قال الدارقطني : خبره به الواقدى وهو ضعيف .

(٤) « تحمروا لتطعمكم فإن العرق دساس » رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قوله « فإن العرق » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس » وروى أبو موسى اللدين في كتاب تنزيح العمرو الأهم من حديث ابن عمر « وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس » وكلاهما ضعيف . (٥) « لا تتكسحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاوي » قال ابن الصلاح : لم أجده أصلاً مستندا . قلت : إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم فالتكسحوا في التواضع » رواه إبراهيم الحارثي في غريب الحديث . وقال : معناه تزوجوا الغرائب قال : ويقال : اغربوا لا تضوا . (٦) « النكاح رق فليظن أحدكم أين يضع كريمة » رواه أبو عمر التواتري في معاشرة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر ، قال البيهقي : يروى ذلك مرفوعاً والموقوف أسح . (٧) « من زوج كريمة من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن جابر في الصفاء من حديث أنس ، ورواه في الصفات من قول الشعبي بإسناد صحيح .

الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يحرى في دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة . أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والادب في اثني عشر أمراً : في الروية ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في التنويز ، والوقار ، والولاة ، والمفاخرة بالطلاق .

والآداب الأول : الروية ، وهي مستحبة ، قال أنس رضي الله عنه . « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال « ما هذا » فقال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة » (١) . وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث حممة ، ومن سمع مع الله به (٣) ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله وهو غريب . وقتحب تهنئة فيقول من دخل على الزوج : بارك الله وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير » (٤) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح قال عليه السلام « فصل ما بين الحلال والحرام ألف والصوت » (٥) . وقال رسول الله ﷺ « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف » (٦) . وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله ﷺ فدخل على غداة بني في مجلس على فراشي وجويريات لنا يضرين يذفن ويندين من قتل من أتاني إلى أن قالت إحداهن « وفينا نبي يعلم ما في غد » فقال لما : اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها (٧) .

الآداب الثاني : حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن فرحاً عليهن لتصور عقابهن . قال الله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) وقال في تنظيم حقن (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وقال (والصاحب بالجنب) قيل هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهم حتى تلجج لسانه وخفي كلامه . جمل يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون . الله في النساء فأنهن عوان في أيديكم - يعني أسراراً - أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٨) . وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته

الباب الثالث : في آداب المعاشرة

(١) حديث أنس : رأى النبي ﷺ على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال : « ما هذا » قال : « قال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، قال « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة » متفق عليه . (٢) « أولم على صفية بسويق وتمر » رواه الأربعة من حديث أنس ولمسلم وقد تقدم . (٣) « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث حممة ، ومن سمع مع الله به » قال المصنف : لم يرفعه إلا زياد بن عبد الله . قلت : هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وصفه . (٤) حديث أبي هريرة في تهنئة الزوج « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وتقدم في الدعوات . (٥) « فصل ما بين الحلال والحرام ألف والصوت » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن حطاب . (٦) « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف » رواه الترمذي من حديث عائشة وصفه البيهقي . (٧) حديث الربيع بنت معوذ : « جاء النبي ﷺ فدخل على غداة بني في مجلس على فراشي وجويريات لنا يضرين يذفن ويندين من قتل من أتاني إلى أن قالت إحداهن « وفينا نبي يعلم ما في غد » فقال لما : اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها » رواه البخاري وقال : يوم بدر وقع في بعض نسخ الإحياء : يوم صا ، وهو وهم . (٨) « آخر ما أوصى به النبي ﷺ ثلاث : كان يتكلم بهن حتى تلجج لسانه وخفي كلامه ، جمل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون ، الله في النساء فأنهن عوان عندكم . » أخرجه النسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ وهو في الموت جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه . وأما الوصية بالنساء فالمرء يعرف أن ذلك كان في حجة الوداع ، رواه مسلم من حديث جابر الطويل ، وفيه : « فاقبضوا الله في النساء فأنكم أخذتموهن بأمانة الله ... الحديث » .

أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون (١) . وإعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند عيشتها وغضبها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجمته الكلام ، وتهمجه الواحدة منهن يوما إلى الليل (٢) . وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال أنزاجيني بالكساء ، فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجمته وهو خير منك (٣) ، فقال عمر : خابت خفصه وخسرت إن راجمت ، ثم قال لنفسه : لا تفتري بابتة ابن أبي قحافة فأنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيرتها أمها ، فقال عليه السلام : دعها فأنهن يصنعن أكثر من ذلك (٤) . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكا واستشهده ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أنكلمك فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا ، فطمعها أبو بكر حتى دى فوها وقال : يا عادية نفسها ، أوبقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقصفت خلف ظهره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم تعدك لهذا ولا أردنا منك هذا (٥) . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ، فقبس رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكراما (٦) . وكان يقول لها « إني لأعرف غضبك من رضاك » قالت : وكيف تمره ؟ قال « إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم » قالت : صدقت إنما أجهر اسمك (٧) . ويقال إن أول خب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها (٨) . وكان يقول لها : كنت لك كأي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك (٩) ، وكان يقول للنساء « لا تؤذوني في عائشة ، فإني والله ما أزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها (١٠) » وقال أنس رضي الله عنه . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان (١١) .

(١) « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ... » لم أقف له على أصل (٢) « كان أزواجه ﷺ يراجمته الحديث وتهمجه الواحدة منهن يوما إلى الليل » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب في الحديث الطويل في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ (٣) « وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال : أنزاجيني بالكساء ؟ قالت : إن أزواج النبي ﷺ يراجمته وهو خير منك ... » هو الحديث الذي قبله وليس فيه قوله : بالكساء ولا قولها وهو خير منك (٤) « دفعت إحداهن في صدر النبي ﷺ فزيرتها أمها ، فقال ﷺ : دعها فأنهن يصنعن أكثر من ذلك » لم ألقه على أصل . (٥) « جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر حكا ... » أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) « قالت له عائشة مرة كلام غضبت عنده : وأنت الذي تزعم أنك نبي ، فقبس النبي ﷺ » أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأشكال من حديث عائشة وفيه ابن إسحق وقد عنونه . (٧) « كان يقول لعائشة : إني لأعرف غضبك من رضاك ... » متفق عليه من حديثها . (٨) « أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ عائشة » رواه الشيخان من حديث عمرو بن الداس أنه قال : أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة ... » وأما كونه أول حب فرواه ابن الجوهري في اللوغات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود وله في الإسلام يريد بالمدينة ، وإلا فحجة النبي ﷺ لحديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة . (٩) « كان يقول لعائشة » كنت لك كأي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك » متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ، يرواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب (١٠) « لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما أزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها » ورواه البخاري من حديث عائشة . (١١) حديث أنس : كان النبي ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان . رواه مسلم بلفظ : ما رأيت أحدا كان أرحم بالرجال من النبي ﷺ . زاد على بن عبد العزيز والبغوي : والصبيان .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداخلة والمرح والملاعبة، فهو إلى تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزج معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في العدو فسبقت يوماً ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه السلام « هذه بتلك » (١) . وفي الخبر : أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكك الناس مع نسائه (٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلبون يوم عاشوراء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخشعون أن ترى لبعهم قالت قلت نعم . فأرسل إليهم فجاءوا ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومديده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلبون وأظفر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حبك » وأقول اسكت مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال « يا عائشة حبك » فقلت نعم ، فأشار إليهم فأنصرفوا (٣) » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأطهرهم بأهله (٤) » وقال عليه السلام « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي (٥) » وقال عمر رضي الله عنه مع خشوته يذني للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ، فإذا اتسوا ما عنده وجد رجلاً . وقال لقمان رحمه الله : ينبغي أن يكون في أهله كالصبي ، وإذا كان في القوم وجد رجلاً . وفي تفسير الخبر المروي « إن الله يفيض الجعظري الجواظ (٦) » قيل هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه ، وهو أحد أقبل في معنى قوله تعالى (عل) قيل العزل : هو الفظف اللسان التليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر « هلا بكراً تلاعها وتلاعك (٧) » ووصفت امرأة زوجها وقدمات فقالت : والله لقد كان ضحواً إذا أوج سكتنا إذا خرج ، أكلاً ما وجد ، غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتيسر في الدخالة وحسن الخلق والمواظقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبتها عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه فلا يبدع المحبة والاعتباس بهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة ، بل مهما رأى ما يخاف الشرع والمروءة تتمر وامتنع . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطعم امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار . وقال عمر رضي الله عنه : غالفوا النساء فإن في خلافهن البركة . وقد قيل : شاوروهن وخالفوهن . وقال عليه السلام « تص عبد الزوجة (٨) » وإنما قال ذلك لأنه إذا اطاعها في هواها فهو عبدها

(١) مساقته ﷺ لمأشاة فسبقت ثم سبقها وقال « هذه بتلك » رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح . (٢) « كان أفكك الناس مع نسائه » رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله : مع نسائه . ورواه الزبair والطبراني في الصغير والأوسط قتالا : مع صبي . وفي إسناده ابن لهيعة . (٣) حديث عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلبون يوم عاشوراء فقال لى رسول الله ﷺ « تخشعون أن ترى لبعهم » ، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال يوم عيد ، ودون قولها : اسكت وفي رواية للنسائي في الكبرى . قلت لا تمج ، مرتين . وفيه قال : يا جهماء ، وسنده صحيح . (٤) « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأطهرهم بأهله » رواه الترمذى والنسائي واللفظ له ، والحاكم قال : رواه تقيت على شرط الشيخين (٥) « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » . (٦) « إن الله يفيض الجعظري الجواظ » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضيف ، وهو في الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزازي بلفظ « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عل جواظ مستكبر » ولأبي داود لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري (٧) حديث قال لجابر « هلا بكراً تلاعها وتلاعك » متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم (٨) « تص عبد الزوجة » لم أقف له على أصل ، والمعروف « تص عبد الله بنار وعبد الدرهم ... » رواه البخارى من حديث أبي هريرة .

وقد تنس فإن الله ملكه المرأة فلنكحها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال ﴿ ولأمرهم فيه نهيين خلق الله ﴾ إن حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمي الله الرجل قوامين على النساء وسمى الزوج سيدها ، فقال تعالى ﴿ وأتينا سيدها لدى الباب ﴾ فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله بكفراً ، وقس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً ، وإن أرغبت عذارها قرأ جذبتك ذراعاً ، وإن كبتها وشددت يدك عليها في عمل العدة ملكتها . قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة إن أكرمهم أمهاتك وإن أهنتهم أكرمك : المرأة ، والخادم ، والتبلى . أراد به أن يحضن الإكرام ولم تخرج غلظك بلينك وفظاظتك برقتك . وكانت نساء العرب يملن بناتهن اختبار الأزواج ، وكانت المرأة تقول لأبتها : اخبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه انزعج زج رجمه ، فإن سكنت فقطعي اللحم على فرسه ، فإن سكنت فكسري العظام بسيفه ، فإن سكنت فاجعلي الإكاف على ظهره وامطليه فأما هو حمارك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انفسك على حده ، فبيني أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتنبع الحق في جميع ذلك تسلم من شرهن ، فإن كيدهن ضلعي وشرهن فاش ، والنائب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ، ولا يمتثل ذلك منهن إلا بنوع لطيف مزوج بيساسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الثراب الأصعب بين مائة غراب »^(١) والأعصم يعني الأبيض البطن وفي وصية لقمان لابنه : يا بني اتق المرأة السوء فلأنها تشيبك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فانهن لا ينعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعينوا من الفوارق الثلاث »^(٢) وعدمتهن المرأة السوء فإنها المشية قبل الشيب . وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها بيتك ، وإن غبت عنها خاتك » وقد قال عليه السلام في خيرات النساء « إنكن صواحيب يوسف »^(٣) يعني إن صرفكن أباً بكر عن التقدم في الصلاة ميل مسكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفضين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن توبا إلا الله فقد صفت قلوبكما ﴾ أي مالت وقال ذلك في خير أزواجه^(٤) . وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تملكهم امرأة »^(٥) وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ما أنت إلا لبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت . فإذن فهن شر وفهن ضعف ، فاليساسة والخشوعة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الباء ، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالبحريرة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الحامس : الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتناقل عن مبادئ الأمور التي تخفى غوائلها ، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنن وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء^(٦) وفي لفظ آخر

(١) « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الثراب الأصعب بين مائة غراب » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولا يحسن كلام عمرو بن العاص : كنا مع النبي ﷺ بع الظهران ، فإذا بغربان كثيرة فبها غراب أعصم أحمر المنار فقال « لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الثراب في الغربان » وإسناده صحيح ، وهو في السنن الكبرى للنسائي . (٢) « استعينوا من الفوارق الثلاث وعد منهن للمرأة السوء فلأنها المشية قبل الشيب » وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها لبيتك وإن غبت عنها خاتك » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد « ثلاث من الفوارق : وذكر منها وأمرأة إن حشرت أدنك وإن غبت عنها خاتك » وسنده حسن . (٣) « إنكن صواحيب يوسف » متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث نزول قوله تعالى ﴿ إن توبا إلى الله فقد صفت قلوبكما ﴾ في خير أزواجه ، متفق عليه من كلام عمر ، والمرأتان عائشة وخسمة . (٥) « لا يفلح قوم تملكهم امرأة » رواه البخاري من كلام أبي بكر نحوه (٦) « نهى النبي ﷺ أن تتبع عورات النساء » رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر . نهى أن تتطلب عورات النساء ، الحديث عند مسلم بلفظ : نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا يخونهم أو يطلب عوراتهم واقتصر البخاري منه ذكر النهي عن الطروق ليلا .

أن تبنت النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة « لا تظنوا النساء ليلا » غالفه رجلان فسبعا ، فرأى كل واحد في منزله ما يكره ^(١) وفي الخبر المشهور « المرأة كالضلع إن قومتته كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج ^(٢) » وهذا في تهذيب أخلاقها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الفرية غيرة يفيضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية ^(٣) » لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن إثم . وقال على رضى الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك تفرى بالسوء من أهلك . وأما الفرية في محبة فلا بد منها وهي محبوة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يبارئ المؤمن يبارئ وغيره فاقه تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه ^(٤) » وقال عليه السلام « أتصحبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني ^(٥) » ولاجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه الملو من الله . ولذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه للدخ من الله ولاجل ذلك وعد الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى في الجنة قصرا وبنائه جارية ، قلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ، فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر ، فبكى عمر وقال : أعليك أغانى بأمر رسول الله ^(٦) » وكان الحسن يقول : أتعدون نساءكم ليزاحن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يبارئ ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من الفرية ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، فأما الفرية التي يحبها الله فالغيرة في الرية ، والفرية التي يبغضها الله فالغيرة في غير رية ، والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة ، والاختيال الذي يبغضه الله الاختيال في الباطل ^(٧) » وقال عليه الصلاة والسلام « إني لنفور ، ومان من امرئ لا يبارئ إلا منكوس القلب ^(٨) » والطريق المغنى عن الفرية أن لا يدخل عليها الرجل وهي لا تخرج إلى الأسواق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنت فاطمة عليها السلام « أى شيء خير للمرأة ؟ » قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، ففضها إليه وقال « ذرية بعضها من بعض ^(٩) » فاستحسن قولها . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدقون الكوى والتقب في المحيطان لثلا يطلع النسوان إلى الرجال . ورأى معاذ أسرته تطلع في الكوة فضرها ، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه فتفاحة قد أكلت منها فضرها . وقال عمر رضى الله عنه : أعرؤا النساء يلومن المحيط ، ولما قال ذلك لأنهم لا يرغبون في

(١) حديث أنه قال قبل دخول المدينة « لا تظنوا أهلكم ليلا » غالفه رجلان فسبعا إلى منازلها فرأى كل واحد في بيته ما يكره . رواه أحمد من كلام ابن عمر بسند جيد . (٢) « المرأة كالضلع إن أردت تقيمه كسرته ... » متفق عليه من كلام أبى هريرة . (٣) « غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من كلام جابر بن عتيك . (٤) « الله يبارئ المؤمن يبارئ وغيره الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » متفق عليه من كلام أبى هريرة ولم يقل البخارى : والمؤمن يبارئ . (٥) « أتصحبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير مني ... » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة . (٦) « رأيت ليلة أسرى في الجنة قصرا وبنائه جارية ، قلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل لعمر ... » متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسرى ولم يذكر الجارية ، وذكر الجارية في حديث آخر متفق عليه من كلام أبى هريرة « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ... » (٧) « إن من الفرية ما يحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى ... » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك وهو الذى تقدم قبله بأربعة أحاديث . (٨) « إني لنفور ومان من امرئ لا يبارئ إلا منكوس القلب » تقدم أوله . وأما آخره فزواه أبو عمر التوفائى في كتاب معاشرة الأهلين من رواية عبد الله بن محمد مراسلا . والظاهر أنه عبد الله ابن الحنفية . (٩) حديث قال النبي ﷺ لابنته فاطمة « أى شيء خير للمرأة ؟ » فقالت أن لا ترى رجلا ولا ... رواه الزبار والدارقطنى في الأفراد من حديث على بسند ضعيف .

الخروج في الهيئة الزينة . وقال : عودوا نسائك « لا » وكان قد أخذ رسول الله ﷺ النساء في حضور المسجد^(١) والصواب الآن المنع إلا العجائز ، بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها : لو علم النبي ﷺ ما أحدثت النساء بعده لمتنهن من الخروج^(٢) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ « لا تمتنوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لمتنهن ، فضربه وغضب عليه وقال تسمعن أول قال رسول الله ﷺ « لا تمتنوا » فتقول : بلى^(٣) . وإنما استجراً على المخالفة لملكه بتغيير الزمان ، وإنما غضب عليه لإطلاعه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار المنع ، وكذلك كان رسول الله ﷺ قد أخذ لمن في الأعياد خاصة أن يخرجن^(٤) ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن ، والخروج الآن مباح للراءة المغيبة برضا زوجها ولكن التعمد أسلم وينبغي أن لا تخرج إلا لهن ؛ فإن الخروج للفتارات والأمور التي ليست مهمة تفتدح في المروءة وربما تفضي إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقها ، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا ، إذ لم يزل الرجال على عمر الزمان يكشفون الوجوه والنساء يخرجن منتقيات ولو كان وجه الرجل عورة في حق النساء . أمروا بالتعجب أو منعهن من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال في الثقة فلا ينبغي أن يفتر ملهن في الإتيان ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى (وكلا واشربوا ولا تسرفوا) وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله » وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في ربة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك^(٥) » وقيل : كان لملئ رضي الله عنه أربع نساء ، فكان يشتري لكل واحدته كل أربعة أيام لحماً بدينار ، وقال الحسن رضي الله عنه : كانوا في الرجال غاصيب ، وفي الأناث واليئاب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فالزوجة ، وكأن الخلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالكلية تغيير في العادة ، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك ، فهذا أقل درجات الخير ، وللرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يورغ الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزمعاً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله ولا ينبغي أن يصف عتدهم طعاماً ليس يريد إطماعهم إياه ، وإذا أكل فيقتصد المال كلهم على ما تدته . فقد قال سفيان رضي الله عنه : بلغنا أن أباة وملائكتهم يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإتيان أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح .

(١) حديث الإذن للنساء في حضور الساجد . متفق عليه من حديث ابن عمر « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد »

(٢) حديث قالت عائشة : لو علم النبي ﷺ ما أحدثت النساء بعده لمتنهن من الخروج . متفق عليه . قال البخاري :

لمتنهن من المساجد .

(٣) حديث ابن عمر « لا تمتنوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله ... إلخ . متفق عليه .

(٤) « الإذن لمن في الأعياد » متفق عليه من حديث أم عطية .

(٥) « خيركم خيركم لأهله » أخرجه الترمذي على حديث عائشة وصححه ، تقدم .

(٦) « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في ربة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على

أهلك : أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك » أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة .

السابع : أن يعلم الزوج من علم الحيض وأحكامه ما يميز به الاحترار الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض ولا يقضى ، فإنه أمر بأن يقبأ النار بقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ فنيه أن يقبأ اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخبرها في الله إن تساهلت في أمر الدين ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول ، فأما الذي لا بد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضى ، فإنها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركة فعلمها قضاء الظهر والعصر ، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركة فعلمها قضاء المغرب والعشاء . وهذا أقل ما يراعيه النساء ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن تاب عنها في السؤال فأعبرها بحجاب الملقى فليس لها خروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويمسى الرجل بينهما ، ومهما تلبت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضا ومهما أهملت المرأة جبا من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الإثم .

الثامن : إذا كان له نسوة فلينبئ أن يعدل بينهما ولا يميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرح بينهما (١) ، كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام التسم وذلك يطول ذكره ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان قال إلى إحدهما دون الأخرى - وفي فقط - ولم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل (٢) » وإنما عليه العدل في العطا والمبيت ، وأما في الحب والواقع فذلك لا يدخل تحت الاختيار قال الله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أي لاتعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت في الواقع . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن في العطاء والبيوتة في البالي ويقول اللهم هذا جهدي فيها أملك ولا طاعة لي فيها فملك ولا أملك (٣) » يعني الحب . وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساءه (٤) وسائر نساءه يعرفن ذلك . وكان يظاف به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة ، فبييت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غدا . فطعنت لذلك امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ، فقلن يا رسول الله قد أدناك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل كل ليلة ، فقال « وقد وضعت بذلك » فقلن : نعم . قال : لخلو في إلى بيت عائشة (٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نساءه ، فقص أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت

(١) حديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفرأ . متفق عليه من كلام عائشة .

(٢) « من كان له امرأتان قال إلى إحدهما دون الأخرى » وفي لفظ آخر « لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة : قال أبو داود وابن حبان « وقال مع إحدهما » وقال الترمذي فلم يعدل بينهما » (٣) حديث : كان يعدل بينهن ويقول « اللهم هذا جهدي فيها فملك ولا طاعة لي فيها فملك ولا أملك » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه . (٤) « كانت عائشة أحب نساءه إليه » متفق عليه من كلام عمر بن الخطاب أنه قال : أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة » وقد تقدم .

(٥) « كان يظاف به محمولا في مرضه كل يوم وليلة فبييت عند كل واحدة ويقول أين أنا غدا ... » رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين « أن النبي ﷺ كان يعمل في ثوب يظاف به على نساءه وهو مريض يقسم بينهن . وفي مرسل آخر له لا تحمل قال « أين أنا غدا ؟ » قالوا عند فلانة . قال « فأين أنا بعد غدا ؟ » قالوا عند فلانة ، فصرف أزواجه أنه يريد عائشة ... » . ولبخاري من حديث عائشة : كان يسأل في مرضه الذي مات فيه : « أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء . وفي الصحيحين : لا تحمل استأذن أزواجه أن يعرض في بيتي فأذن له .

فوهبت ليلتها لعائشة وسأته أن يقرأها على الزوجية حتى تحترق في زمرة نساءه ، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين وسائر أزواجه ليلة ليلة^(١) ، ولكنه عليه السلام لحسن عدله وفوته كان إذا تأقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها لجامعها طاف في يومه أو ليلته على سائر نساءه ، فمن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ طاف على نساءه في ليلة واحدة^(٢) ، وعن أنس عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار^(٣) .

التاسع : في التفوز وهما وقع بينهما خصام ولم يلتزم أمرهما ، فإن كان من جانبها جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكيم : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظر بينهما ويصلحهما أمرهما (إن يريدنا إصلاحاً يوفق الله بينهما) وقد بحث عمر رضي الله عنه حكماً إلى زوجين ، فصاد الرجل ولم يصلح أمرهما ففلاهم بالدردوقال : إن الله تعالى يقول (إن يريدنا إصلاحاً يوفق الله بينهما) فصاد الرجل وأحسن النية وتلطفت بهما فأصلح بينهما . وأما إذا كان التفوز من المرأة خاصة فالرجال قولمون على النساء ، لله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركه للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الرعظ والتعذير والتخويف ، فإن لم يتجفع ولا ما ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراس وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال ، فإن لم يتجفع ذلك فيها ضربها غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكرهها عظام ولا يدي لها جسام ، ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه . وقد قيل لرسول الله ﷺ : « ما حق المرأة على الرجل ؟ قال : يعطمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبض الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلا في المبيت^(٤) » وله أن يقبض عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شه . ففعل ذلك رسول الله ﷺ إذ أرسل إلى زينب هدية فرفضت عليه ، فقالت له التي هوفى بينها : لقد أفاقك لك إزدت عليك هديتك^(٥) ، أي أذلتك واستصغرتك ، فقال ﷺ : « أتئن أهون على الله أن تقمتني ؟ ثم غضب عليهن شهرًا إلى أن عاد إليهن .

العاشر : في آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولاً ويكبر ويهلل ويقول : بسم الله العلي العظيم ، اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدوت أن تخرج ذلك من صلي . وقال عليه السلام « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان^(٦) » وإذا قربت من الإنزال قل في نفسك ولا تحرك شفتيك : الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا فجعله

(١) « كان يقسم بين نساءه ، قصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت ، فوهبت ليلتها لعائشة . . . » رواه أبو داود من حديث عائشة : قالت زمعة حين أسنت وكرهت أن يفارقها النبي ﷺ : يا رسول الله بوي لعائشة . . . وللطبراني : فأراد أن يفارقها . وهو عند البخاري بلفظ : لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها يوم سودة ، وللبهقي مرسلًا : طلق سودة فقالت : أريد أن أحضر في أزواجك . (٢) حديث عائشة : طاف على نساءه في ليلة واحدة ، متفق عليه بلفظ : كنت أطيب التي ﷺ فيطوف على نساءه ثم يصبح محرماً ينضح طيباً . (٣) حديث أنس : أنه طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ، رواه ابن عدي في الكامل ، والبخاري : كان يطوف على نساءه في ليلة واحدة وله تسع نسوة . (٤) قيل له : ما حق المرأة على الرجل ؟ فقال « يعطمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبض الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلا في البيت » رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولا يضرب الوجه ولا يمسح ، وفي رواية لأبي داود : ولا تقبض الوجه ولا تضرب . (٥) حديث هجره ﷺ نساءه شهرًا لما أرسل إلى زينب هدية فرفضتها فقالت له التي هوفى بينها : لقد أفاقك لك إزدت عليك هديتك . ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير إسناد . وفي الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن . وفي رواية من حديث جابر : ثم اعترفن شهرًا .

(٦) « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان . . . » متفق عليه من حديث ابن عباس .

نسباً وصبراً وكان ذلك قد برا . وكان بعض أصحاب الحديث يكره حتى يسمع أهل النار صوته ، ثم ينصرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاح إكراماً للقبلة ، وليخط نفسه وأهله ثوب . كان رسول الله ﷺ يغطي رأسه وينفض صوته ويقول للراء « عليك بالسكينة » وفي الخبر « إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين »^(١) أي الحمارين ، وليقدم التلطف بالكلام والتبجيل قال ﷺ « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقعن الهميمة ، وليسكن بينهما رسول » قيل وما الرسول يارسول الله ؟ قال « القبلة والسلام »^(٢) وقال ﷺ « ثلاث من العجز في الرجل : أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه ، والثاني : أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث : أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيصحبها قبل أن يحسنها ويؤانفها ، ويضاجعها فيقضي حاجته منها »^(٣) ويكره له الجماع في ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال : إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليال ، ويقال : إن الشياطين يجامعون فيها ، وروى كراهة ذلك عن علي ومعاوية وأبي هريرة رضي الله عنهم . ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله ﷺ « رحم الله من غسل واغتسل »^(٤) الحديث ثم إذا قضى وطره فليستعمل على أهله حتى يقضي هي أيضاً نهيها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فيجب شوبتها . ثم التعود عنها إنزالها ، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر معها كان الزوج سابقاً إلى الإنزال ، والتوافق في الإنزال ألد عندها ليشغل الرجل بنفسه عنها ، فإنها ربما تستحي . وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أصل ، إذ عدد النساء أربعة لجوار التسخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحسين ، فإن تحسينها واجب عليه ، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيها في المحض ، ولا بعد انقضائه وقبل النسل ، فهو محرم بنص الكتاب ، وقيل : إن ذلك يورث الخلفاء في الولد ، وله أن يستمتع بصبيح بدن الحائض ولا يأتيها في غير اللأني ، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى في غير اللأني دائم فهو أشد تحريراً من إتيان الحائض . وقوله تعالى « فأتوا حرثكم أني شتمتم » أي وقت شتمتم ، وله أن يستحي بيديها ، وأن يستنح عما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع . وينبغي أن تزد المرأة بأزار من حقوقها إلى فوق . الزكية في حال الحيض ، فهذا من الأدب ، وله أن يؤاكل الحائض ، ويضاهاها في المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها ، وإن أراد أن يجمع ثانياً بعد أخرى فليفضل فرجه أولاً ، وإن احتل فلا يجمع حتى يفسل فرجه أو يبول ، ويكره الجماع في أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة ، فإن أراد النوم أو الأكل فليترسأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر : قلت للنبي ﷺ ، أيام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توشأ »^(٥) ولكن قد وردت فيه رخصة قالت عائشة رضي الله عنها « كان النبي ﷺ ينام جنباً لم يحس ماء »^(٦)

(١) كان يغطي رأسه وينفض صوته ويقول للراء « عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف

(٢) « إذا جامع أحدكم امرأته فلا تجردان تجرد العيرين » أخرجه ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد بسند ضيف .

(٣) « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقعن الهميمة . . . » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر .

(٤) « ثلاث من العجز في الرجل : أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه . . . » رواه أبو منصور الديلمي من حديث أخضر منه وهو بعض الحديث الذي قبله .

(٥) « رحم الله من غسل واغتسل » تقدم في الباب الخامس من الصلاة .

(٦) حديث ابن عمر : قلت للنبي ﷺ : أيام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توشأ » متفق عليه من حديثه أن عمر سأل ، لا أن عبد الله هو السائل .

(٧) حديث عائشة : كان ينام جنباً لم يحس ماء . رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال يزيد بن هارون : إنه وهم ، وهل البيهقي عن الحفاظ الطعن فيه ، قال : وهو صحيح من جهة الرواية .

ومهما عاد إلى فراشه فليسمع وجه فرائشه أو لينفضه ، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده ، ولا ينبغي أن يحاق أو يقل أو يستعد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جورا وهو جنب . إذ ترد إليه سائر أجزاءه في الآخرة فيعود جنبا ويقال : إن كل شجرة تطالبه بجنابها . ومن الآداب أن لا يعزل ، بل لا يصرح إلا إلى عمل الحرث وهو الرحم . فإنا من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة ^(١) هكذا قال رسول الله ﷺ ؛ فإن عزل فقد اختلف العلماء لإباحته وكراهته على أربع مذاهب ، فمن مبسح مطلقا بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكان هذا القائل يحرم الإبداء دون العزل ، ومن قائل يباح في المملوكه دون الحرية . والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما الكراهية فإنها تطلق انتهى التحريم ونهى التزويج وترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة ، كما يقال : يكره القاعد في المسجد أن يقدم قاذرا لا يشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره الحاضر في مكة مقبلا ما أن لا يسبح كل سنة ، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد ، فلما روى عن النبي ﷺ « إن الرجل ليجمع أهله فيكتب له بمجاهة أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله قتل ^(٢) » وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه ، مع أن الله تعالى خالقه وعييه ومقوبه على الجهاد ، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الواقع ، وذلك عند الإمام في الرحم . وإنا قلنا لا كرامة بمعنى التحريم والتزويج ، لأن إثبات النهي إنما ينص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه ، بل هو ما أصل يقاس عليه بارتكاب نهى ولا فرق ، إذ الولد يتكون بوقوع التعطف في الرحم ، ولما أربعة أسباب : النكاح ، ثم الواقع ، ثم النص إلى الإنزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المني في الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالاستناع عن الرابع كالاستناع عن الثالث . وكذا الثالث كالثاني ، والثاني كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوإد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضا مراتب الوجود أن تقع التعطف في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستمد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت مضغة وعلقه كانت الجنابة الحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجنابة تفاحشا ، ومنتهى الفاحش في الجنابة بعد الانفصال حيا ، وإنا قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المني في الرحم لامن حيث الخروج من الإحليل ، لأن الولد لا يخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعا إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض . قال بعض أهل التشريح : إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض ، وإن الدم منها كاللبن من الرائب ، وإن التعطف من الرجل شرط في ختور دم الحيض وانقاده كالأنفحة لبن إذ بها يتعقد الرائب ، وكيفيا كان فاء المرأة ركن في الانقضاء فيجري الماء أن يجري الإيجاب والقبول في الوجود الحكي في العقود ، فن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جنابا على العقد بالنقض والفسخ ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعا وقسحا وقطعا ، وكأن التعطف في الفغار لا يخلق منها الولد فكذلك بعد الخروج من الإحليل ما لم يترج بماء المرأة أو دمه . فهذا هو القياس الجلي .

فإن قلت : فإن لم يكن العزل مكروها من حيث أنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل التنية الباعشة عليه إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الحق

فأقول : التنيات الباعشة على العزل خمس : الأولى في الرأري وهو حفظ المالك عن الهلاك باستحقاق التناق

(١) « ما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة » متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٢) « إن الرجل ليجمع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله » لم أجده أصلا .

وقصد استبقاء الملك برك الإعناق ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه . الثانية استبقاء جلال المرأة وسميها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق . وهذا أيضاً ليس منها عنة . الثالثة : الخوف من كثر الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التب في الكسب ودخول مداخل السوء . وهذا أيضاً غير منهي عنه . فإن قلنا الحرج معين على الدين . نعم للكمال والفضل في التوكل والثقة بعتن الله حيث قال ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولا يجرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل . ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه منافقاً للتوكل لا يقول إنه منهي عنه . الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهم من المرأة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث . فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أمهم بها لا بترك النكاح والوطء . فكذا في العزل . والفساد في اعتقاد المرأة في سنة رسول الله ﷺ أشد . وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافاً من أن يبلوها رجل فكانت تنقبى بالرجال . ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة : أن تتمتع المرأة لتمرزها ومباقتها في النظافة والتحرز من الطلق والتفاس والرضاع . وكان ذلك عادة نساء الحوارج بالماء حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة . فهذه بدعة تخالف السنة . فهي نية فاسدة . واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها . فيكون القصد هو الفساد دون منع الولادة .

فإن قلت : فقد قال ﷺ « من ترك النكاح غافة الببال فليس منا ثلاثاً » .

قلت : فالعزل كترك النكاح . وقوله « ليس منا » أي ليس موافقاً لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل .

فإن قلت : فقد قال ﷺ في العزل « ذاك الوأد الخبيث » ، وقرأ : وإذا المودة سئلت ^(١) وهذا في الصحيح قلنا : وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة ^(٢) في الإباحة . وقوله « الوأد الخبيث » كقوله « الشرك الخبيث » وذلك يوجب كراهة لا تحريماً .

فإن قلت : قال ابن عباس : العزل هو الوأد الأصفر . فإن المنوع وجوده به هو المودة الصفري .

قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف . ولذلك أنكره عليه على رضي الله عنه ، لما سمعه قال « ولا تكون مودة إلا بعد سبع » أي بعد الأخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة في أطوار الحقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاقة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ففخضناه فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وإذا المودة سئلت ﴾ وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهما في النقص على المعاني ودرك

(١) « من ترك النكاح غافة الببال فليس منا » تقدم في أوائل النكاح .

(٢) قال ﷺ في العزل « ذلك الوأد الخبيث » أخرجه مسلم من حديث جذاعة بنت وهب .

(٣) أحاديث إباحة العزل ، رواها مسلم من حديث أبي سعيد : أنهم سألوه عن العزل فقال « لا عليكم ألا تفعلوه »

ورواه النسائي من حديث أبي صرمة . وللمشايخين من حديث جابر : كنا ننزل على عهد رسول الله ﷺ ، زاد مسلم فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا . وللنسائي من حديث أبي هريرة : سئل عن العزل قيل : اليهود زعم أنها المودة الصفري ؛ قال : كذبت يهود . قال البيهقي : رواية الإباحة أكثر وأحفظ .

العلوم؛ كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين عن جابر أن قال «كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل» وفي لفظ آخر «كنا نزل قبله ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينبتنا» (١) وفيه أيضا عن جابر أنه قال «إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وسائقتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال عليه الصلاة والسلام «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها» فلبث الرجل ما شاء الله ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حملت؛ فقال «قد قلت سيأتيها ما قدر لها» (٢) كل ذلك في الصحيحين.

الحادي عشر: في آداب الولادة وهي حمة: (الاول) أن لا يكفر فرحها بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدرى الخير له في أيهما، فكمن صاحب ابن يثنى أن لا يكون له، أو يثنى أن يكون بنتا، بل السلامة منهن أكثر والتواضعين أجزل قال صلى الله عليه وسلم «من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من التيممة أتى أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة» (٣) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبتهن إلا أدخلته الجنة» (٤) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما صحبته كنن أنأوهو في الجنة كهاتين» (٥) وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا لحمله إلى بيته فنصص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذبه» (٦) وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرح أثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار» (٧) وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فحبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن؛ فقال رجل: وثلاث: يارَسُولَ الله؟ قال: وثلاث: فقال رجل: أو واحدة؟ فقال: وواحدة» (٨) (الآدب الثاني). أن يؤذن في أذن الولد: روى رافع عن أبيه قال «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن في أذن الحسن حين ولدته فاطمة رضي الله عنها» (٩) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان» (١٠) ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه

(١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين: كنا نزل على عهد النبي ﷺ فلم ينبتنا، هو كما ذكر متفق عليه. إلا أن قوله «فلم ينبتنا» انفرد بها مسلم. (٢) حديث جابر: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وسائقتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل؛ فقال «اعزل عنها إن شئت»، ذكر للصف أنه في الصحيحين وليس كذلك، وإنما انفرد به مسلم. (٣) «من كانت له ابنة فأدبها فأحسن غذاها وأسبغ عليها ما قدر لها» (٤) حديث ابن عباس... أخرجه الطبراني في الكبير، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. (٥) حديث ابن عباس «ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبتهن إلا أدخلته الجنة» أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد. (٦) حديث أنس «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا لحمله إلى بيته فنصص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذبه» أخرجه الخرائطي بسند ضعيف. (٧) حديث أنس «من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة» أخرجه الخرائطي بسند ضعيف جداً، وأخرجه ابن عدى في الكامل. وقال الجوزي: حديث موضوع. (٨) حديث أبي هريرة «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فحبر على لأوائهن وضرائهن» رواه الخرائطي واللفظ له والحاكم ولم يقل: أو أخوات وقال: صحيح الإسناد. (٩) حديث أبي رافع: رأيت النبي ﷺ أذن في أذن الحسن حين ولدته فاطمة. أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه، إلا أنهم قالوا «الحسن» مكبراً، وصفه ابن الصبان. (١٠) «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان» رواه أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم والليلة، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف.

لا إله إلا الله ، ليكون ذلك أول حديثه ، والختان في اليوم السابع ورد به خبر ^(١) (الآداب الثالث) أن تسميه اسما حسنا ، فذلك من حق الولد . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سميت فعبدا » وقال عليه الصلاة والسلام « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ^(٢) وقال « سموا باسمي ولا تكونوا بكنتي » ^(٣) قال العلماء : كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان يتأذى بأبا القاسم والآل فلا بأس ، نعم لا يجمع بين اسمه وكنتيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تجمعوا بين اسمي وكنتي » ^(٤) وقيل : إن هذا أيضا كان في حياته ، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام « إن عيسى لأب له » ^(٥) فبكره ذلك ، والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية : ينبغي أن السقط يسرح يوم القيامة وراء أبيه فيقول : أنت ضيعتي وتركنت لاسملي ، فقال عمر بن عبد العزيز : كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن : من الأسماء ما يجمعها كحزمة وعمارة وطلحة وعتبة . وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » ^(٦) ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعد الله ^(٧) . وكان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام « تزك نفسك فاسمها زينب » ^(٨) . وكذلك ورد للنبي في تسمية أفلق ويسار ونافع وبركة ^(٩) لأنه يقال : أمم بركة ؟ فيقال : لا (الرابع) الحقيقة عن الذكر بثانين ، وعن الأنثى بشاة ذكر كان أو أنثى . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في الغلام أن يلق بثنائين مكافئين ، وفي الجارية بشاة ^(١٠) وروى : أنه حق عن الحسن بشاة ^(١١) وهذا رخصة في الاختصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم « مع الغلام حقيقة فأهريقوا عندهما وأميطوا عنه الأذى » ^(١٢) ومن السنة أن تصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ، فقد ورد فيه خبر : أنه عليه السلام أمر قاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتصدق بوزن شعره فضة ^(١٣) .

(١) « الختان في اليوم السابع » رواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف : أن النبي ﷺ عرق عن الحسن والحسين وختنهما بسبعة أيام وإسناده ضعيف . واختلف في إسناده قيل : عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده . (٢) « إذا سميت فعبدا » رواه الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ ، وصححه إسناده ، والبيهقي من حديث عائشة . (٣) « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٤) « سموا باسمي ولا تكونوا بكنتي » متفق عليه من حديث جابر . وفي لفظ « سموا » . (٥) « لا تجمعوا بين اسمي وكنتي » رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة ، ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر . من سمى باسمي فلا يكتفى بكنتي ، ومن تكفى بكنتي فلا يسمى باسمي . (٦) « أن عيسى لأب له » أخرجه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبي داود أن عمر ضرب ابنأ له يكنى أبا عيسى ، وأنكر على النيرة بن شعبة تكنيه بأبي عيسى ، قال : النبي ﷺ كناناً ، وإسناده صحيح . (٧) « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء . قال الترمذي : بإسناده جيد ، وقال البيهقي : إنه مرسل . (٨) بدل النبي ﷺ اسم العاص بعد الله ، رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي بسند صحيح . (٩) قال ﷺ زينب وكان اسمها برة تزك نفسك فاسمها زينب ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٠) التي عن تسمية أفلق ويسار ونافع وبركة ، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب ، إلا أنه جعل مكان بركة رباعاً ، وله من حديث جابر : أراد النبي ﷺ أن يسمى بعلي وبركة . (١١) « أمر في الغلام بثنائين مكافئين ، وفي الجارية بشاة » أخرجه الترمذي وصححه . (١٢) « عرق ﷺ عن الحسن بشاة » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال : ليس إسناده متصل ووصله الحاكم ، إلا أنه قال حسين . ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال « كبشاً » . (١٣) « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى » أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عامر الضبي . (١٤) « أمر قاطمة يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتصدق بوزن شعره فضة » أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي وهو عند الترمذي منقطع بلفظ « حسن » وقال : ليس إسناده متصل ، ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

قالت عائشة رضي الله عنها : لا يكره للعقيقة عظم . (الخامس) أن يحسكه بتمر أو حلالة . وروى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت « ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره ثم دعا بتمر فضننه ثم قفل في فيه ^(١) » فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حسكه بتمر ثم دعا له وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحاشدة الآلهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتم فلا يولد لكم .

الثاني عشر : في الطلاق ، ولعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحا إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجنابة من جانبها أو بضرورة من جانبها . قال الله تعالى (فإن أطمعكم فلا تبرأوا علينا سيبلا) أي لا تطلبوا حيلة الفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضي الله عنهما . كان تحب امرأة أحبا وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها ، فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا ابن عمر ، طلق امرأتك ^(٢) » فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم ، ولكن والد يكرهها - لا لغير فاسد - مثل عمر ، ومهما أدت زوجها وبنت على أهله فهي جانية ، وكذلكهما كانت سيئة الحاق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود في قوله تعالى (ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) مهما بنت على أهله وأدت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تقتدي ببذل ماله ، ويكره الرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (فلا جناح عليهما فيما اتفقت به) فرد ما أخذته فإدونه لا تنقض الفداء . فإن سألت الطلاق بنهر ما بأس فهي آتمة ، قال صلى الله عليه وسلم « إما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير ما بأس لم ترح راحة الجنة ^(٣) » وفي لفظ آخر « فالجنة عليها حرام » وفي لفظ آخر : أنه عليه السلام قال « المختلعات من المناققات ^(٤) » ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور :

(الأول) أن يطلقها في طهر لم ينامها فيه ، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه بدعي حرام وإن كان واقعا ، لما فيه من تطويل العدة عليها ، فإن فعل ذلك فليراجعها : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمر : « مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ^(٥) » وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط .

(الثاني) أن يتنصر على طقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطقة الواحدة بعد العدة تنقض المقصود ويستفيد بها الرجعة إن تدم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة ، وإذا طلق ثلاثا ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة ، وعقد المحلل منهي عنه ، ويكون هو الساعي فيه ، ثم يكون قلبه معلقا بدرجة الغير وتطبيقه - أعنى زوجة المحلل بعد أن زوج منه - ثم يورث ذلك تنفير من الزوجة ، وكل ذلك ثمرة الجمع ، وفي الواحدة

(١) حديث أسماء : ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمر فضننه ثم قفل في فيه ... متفق عليه .

(٢) حديث ابن عمر : كانت تحب امرأة أحبا وكان أبي يكرهها ، فأمرني بطلاقها ... رواه أصحاب السنن . قال الترمذي : حسن صحيح .

(٣) « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير ما بأس لم ترح راحة الجنة » وفي لفظ « فالجنة عليها حرام » رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جابر من حديث نوبان .

(٤) « المختلعات من المناققات » رواه النسائي من حديث أبي هريرة وقال : لم يسمع الحسن من أبي هريرة ، قال ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة . قلت : رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف .

(٥) طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال النبي ﷺ لعمر « مره فليراجعها ... » متفق عليه من حديث ابن عمر .

كفاية في المقصود من غير عذر ، ولست أقول اجمع حرام ، لكنه مكروه بهذه المعاني ، وأهني بالكراهة تركه النظر لنفسه .

(الثالث) أن يتطلف في التماس بتطبيقها من غير تمنيف واستخفاف ، وتطليب قلبها بهدية على سبيل الإتمام والجبر لما لجها به من أذى الفراق . قال تعالى (ومتموهن) وذلك واجب مهما لم يسلم لها مهر في أصل النكاح . كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلقاً ومتكاحاً ، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال : قل لهما اعتدا . وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع إليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال : أما إحداهما فنكست رأسها وتكست ، وأما الأخرى فكنت وانجحت وسحبنا تقول : متاع قليل من حبيب مفارق فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعاً امرأة بعد ما فارقتها لأرجعتها . ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام — فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير . وبه ضربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت لو لم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكون لي ستة عشر ذكراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : فدخل عليه الحسن في بيته . فغضبه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وقال : ألا أرسلت إلى فكنت أجيبك . فقال : الحاجة لنا . قال : وما هي ؟ قال جئتكم عاتباً ابتك . فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أضر على منك . ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوؤني ما ساءها ويسرنى ما سرها . وأنت مطلقاً فأعاف أن تطلقها . وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي في عيبك وأكره أن يتغير قلبي عليك . فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن شرطت أن لا تطلقها زوجتك . فكنت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته : سمعته وهو يمشي ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقاً في عنق . وكان علي رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه . فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته : إن حسناً مطلقاً فلا تسكوه . حتى قام رجل من ممدان فقال : والله يا أمير المؤمنين لتسكنه ما شاء . فإن أحب أمسك وإن شاء ترك . فسر ذلك علياً وقال :

لو كنت يرباً على باب الجنة . لقلت لعبدان ادخل بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه . فهذه الموافقة قبيحة . بل الأدب المخالفة ما أمكن . فإن ذلك أسرفه وأوقع لباطن ذاته . والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح . وقد وعد الله النبي في الفراق والنكاح جميعاً (وأنكحوا الأبايى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء . بينهم الله فضل) وقال سبحانه وتعالى (وإن يفرقا بفن الله كلا من سعة) .

(الرابع) أن لا يشي سرها لافي الطلاق ولا عند النكاح . فقد ورد في إفساء سر النساء في الخبر الصحيح وعبد عظيم (١) . ويرى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة . فقيل له : ما الذي يريك فيها ؟ فقال : العائل لا يبتك ستر امرأة . فلما طلقها قيل له : لم طلقها ؟ فقال : مالي ولا امرأة غيرة . فهذا بيان ما على الزوج .

القسم الثاني من هذا الباب : النظر في حقوق الزوج عليها

والقول الثاني فيه أن النكاح نوع رقيق ، فهي رقيقة له ، فعلها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها بما لامعية فيه . وقد ورد في تنظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « إيا امرأة

(١) الوعيد في إفساء سر المرأة . رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ « إن أعظم الحيانة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وفضي إليه ثم ينفي سرها » .

ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة^(١) . « وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في الأسفل ، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله في النزول إلى أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطيعي زوجك » فقال « أطيعي زوجك » فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا صلت المرأة خمسا وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها^(٣) » وأضاف طاعة الزوج إلى مبادئ الإسلام ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فقال « حاملات والداك مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اطعمت في النار فإذا أكثر أهلها النساء . فقنن : لم يارسول الله ؟ قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير^(٥) » يعني الزوج المعاشر . وفي خبر آخر « اطعمت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلبن الأحران الذهب والزعفران^(٦) » يعني العلى ومصنجات الثياب . وقالت عائشة رضی الله عنها : أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إني فتاة أعطيت فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال « لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلمحسه ما أدت شكره » قالت : أفلا أتزوج ؟ قال « بلى تزوجي فإنه خير^(٧) » قال ابن عباس : « أنت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج ، فما حق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بغير لائتمه ، ومن حقه أن لا تمطى شيئا من بينه إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لا صوم تطوعا إلا بإذنه ، فإن فعلت جماعت وعطشت ولم يقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعتبا الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو ترتب^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من حقه عليها^(٩) » . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب ما تكون المرأة من وجهه ربها إذا كانت في قعر بيتها ، وإن صلاتها في محن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في محن دارها ، وصلاتها

(١) « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم سلمة . (٢) « كان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في السفلى فمرض ... » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف ، إلا أنه قال : غفر لأبيها . (٣) « إذا صلت المرأة خمسا وصامت شهرها ... » أخرجه ابن حبان عن حديث أبي هريرة . (٤) حديث : ذكر النساء فقال « حاملات والداك مرضعات ... » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله « مرضعات » . وهي عند الطبراني في الصغير . (٥) « اطعمت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ... » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٦) « اطعمت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلبن الأحران الذهب والزعفران » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، وقال « الحرر » بدل « الزعفران » ولمسلم من حديث عزة الأشجعية « وبل للنساء من الآخرين : الذهب والزعفران » وسنده ضعيف . (٧) حديث عائشة « أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت يا نبي الله ، إني فتاة أعطيت وإني أكره التزويج فما حق الزوج المرأة ؟ ... » أخرجه الحاكم وصححه وإسناده من حديث أبي هريرة دون قوله « بلى تزوجي فإنه خير » ولم أره من حديث عائشة . (٨) حديث ابن عباس « أنت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق ؟ الزوج ... » أخرجه البيهقي مقصرا على شرط الحديث ، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف . (٩) « لو أمرت أحدا ليسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما » أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله « والولد لأبيه » فلم أره وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى .

في عندها أفضل من صلاحها في بيتها (١) « والمخدم : بيت في بيت ، وذلك لستر ، ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استترتها الشيطان (٢) » وقال أيضا « للمرأة عشر غورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ، فإذا ماتت ستر القبر عشر غورات (٣) » لحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الصيانة والستر ، والآخر : ترك المطالبة ما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما ، وهكذا كانت عادة النساء في السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإنما نصيب على الجوع والضرب ولا نصير على النار . ومم رجل من السابق بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجه : لم ترصين بسفره ولم يدع لك نفقة ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولي رب رزاق : ينهب الأكال ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري ، فكره ذلك لما كان فيه من العباداة وقال لها : والله مالي همة في النساء لشغلي بحالي ، فقالت : إني لأشغل بحالي منك ومالي شهوة ، ولكن ورثت مالا جويلا من زوجي فأردت أن تنفقه عليّ إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقا إلى الله عز وجل ، فقال : حتى استأذن أمئتي ، فرجع إلى أبي سليمان الداراني ، قال : وكان ينهاني عن التزويج ويقول : مات زوج أمحنم أمحنمنا إلا تغير . فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولىة لله . هذا كلام الصديقين . قال : فتزوجتها فكانت في منزلنا كن من جسد نفسي من غسل أبدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عن غسل بالأشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطبخني وتقول : اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك . وكانت رابعة هذنية في أهل الشام رابعة العدوية بالبحيرة . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملح لها أن تطعم من يته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يتخاف فساد . فان أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر (٤) « ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارية قالت لا يبتها عند الزوج إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فكأنه أرضا يكن لك سماء وكأنه لمهاداً يكن لك عمداً وكأنه له أمة يكن لك عبداً ، لا تلحق به فيفلاك ولا تباعدى عنه فيفساك إن دناءتك فأقرب منه ، وإن نأى فأبعدى عنه ، واحفظي الله وسمه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو مني تستدعي مودتي ولا تعطني في سورتى حين انخصب

(١) « أقرب ماتكون المرأة من زوجها إذا كانت في قصر بيتها فإن صلاحها في محسن دارها أفضل من صلاحها في المسجد... » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكره محسن الدار . ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد » وإسناده حسن ؛ ولابن حبان من حديث أم حنيفة . (٢) « المرأة عورة فإذا خرجت استترتها الشيطان » رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود . (٣) « للمرأة عشر غورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة... » أخرجه الحافظ أبو بكر بن محمد بن عمر الجاني في تاريخ الطالبين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وللطبراني في الصغرى من حديث ابن عباس « للمرأة ستران . قيل : وما هما ؟ وقال : الزوج والقبر . » (٤) « لا يملح أن تطعم من يته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام ... » أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه « ولا تطعم من يته شيئا إلا بإذنه ؛ فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر » ولأبي داود من حديث سعد : قالت امرأة يا رسول الله ، إنا كل على آياتنا وأبائنا وأزواجنا فما يجعل لنا من أموالهم ؟ قال « الرطب تأكله وتهديته » وصحح الدارقطني في الملل أن سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص ، واختاره ابن القطان ، ولمسلم من حديث عائشة « إذا أفتت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أفتت ، وزوجها أجره بما كسب »

ولا تنقري نقرك ألف مرة فألك لاثنتين كيف المنقب
ولا تكثري الشكوى فذهب بالموى وأياك قلبى والقلوب تنقلب
فانى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتماعا لم يلبث الحب يذهب

فانقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة فى قصر بيتها لازمة لمخزها ، لا يكثر صعودها وإحاطة ، قليلة الكلام لجرانها ، لا تدخل عليهم إلا فى حال وجب الدخول ، تحفظ بعلمها فى غيبه ، وتطلب مسرته فى جميع أمورهم ، ولا تنغمز فى نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فتتخفى فى هيئة رثة ، وتطلب المواضع الخالية دون الموارع والأسواق ، محترمة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق ليطلعها على الباب وليس الجعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام غيره على نفسها وبها ، وتكون قائمة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أفرادها ، متظفة فى نفسها مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة السر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم « وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين فى الجنة : امرأة آتت من زوجها وحبت نفسها على بناتها حتى نابوا أو ماتوا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « حرم الله على كل آدمى الجنة يدخلها قبل ، غير أنى أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة فأقول : ما هذه تبادرنى ؟ فيقال لى : يا محمد ، هذه امرأة كانت حسنة جميلة وكان عندها ثياب لها ، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذى بلغ فشكر الله لها ذلك (٢) » ومن آدابها : أن لا تتفاخر على الزوج ببها ولا تزدري زوجها لتبسه ، فقد روى أن الأصمى قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهها تحت رجل من أقبح الناس وجهها ، فقلت لها : يا هذه أترضين لنفسك أن تكون تحت مثله ؟ فقالت : يا هذا اسكت فقد أسأت فى قولك ، لعله أحسن فبا يمينه وبين خالته فجعلنى ثوابه ، ولعل أسأت فبا يمينى وبين خالتي فجعله عقوبتى ، أفلا أرضى بما رضى الله لى فأسكتنى . وقال الأصمى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وحى مخضبة ويدها سبعة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

و لله منى جانب لا أضيحه والى منى والباطلة جانب

فعلت أنها امرأة سالحة لها زوج تزين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والاحتياض فى غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والإنساض . وأسباب اللذة فى حضور زوجها ، ولا يبنى أن تؤذى زوجها بحال . روى عن معاذ ابن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه فانك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارئك (٣) » وبما يجب عليها من حقوق التكاثف إذا مات عنها زوجها أن لا تحمد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتجنب الطيب والزينة فى هذه المدة ، قالت زينب بنت أبى سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب ،

(١) « وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين ... » رواه أبو داود من أبى مالك الأشجعي بسند ضعيف .

(٢) « حرم الله على كل آدمى الجنة أن يدخل قبل غير أنى أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة » رواه الحرائطى فى مكالم الأخلق من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(٣) حديث معاذ « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه ... » رواه الترمذى وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

فدعت بطيب فيه صفة خلق أو غيره ، فنهت به جارية ، ثم مست به مرضيا ، ثم قالت : والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ^(١) » ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة ، وليس لها الانتقال إلى أمها ولا الخروج إلا لضرورة ، ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها ، فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أنها قالت : تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤثته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأغرز غربه وأجفن ، وكنت أقتل النوى على رأسي من ثلث فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتي سياسة الفرس فكأنما أعتقني ^(٢) ، ولقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما معه أصحابه والنوى على رأسي فقال صلى الله عليه وسلم « أخ أخ » لينخ فاقته ويحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيره وكان أغبر الناس ، فرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت ، جلست الزبير لحكيت له ما جرى فقال : والله لحلك النوى على رأسك أشد علي من زكوبك معه .

ثم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطنع

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ريف المعاديات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد آمنح في توحيد ما سوى الواحد الحق وتلاشي . ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يحتاج . أن كل من في السموات والأرض لن يخفوا ذبايا ولو اجتمعوا له ولا فراشا . ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفا مبينا ، ومد الأرض بساطا لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباسا والنهار معاشا . لينشروا في ابتغاء فضله ويتعشوا به عن ضراعة الحاجات امتعاشا ، ونصلي على رسول الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا . وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمرا وانكاشا . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فإن زب الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخر قدار الثواب والعقاب ، والدنيادار التعليل والاضطراب . والتشمر والاكتساب وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد معين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها والناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين [والثاني رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الخاسرين] [والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقصدين . ولم ينال رتبة

(١) قول أم حبيبة « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » متفق عليه .

(٢) قول أسماء « تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح ، فكنت أعلف فرسه ... » متفق عليه .

الاقتصاد لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد ، وإن يتجهز من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ، مالم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وماعن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وستبها ونشرحها في خمسة أبواب (الباب الأول) في فضل الكسب والحلث عليه (الباب الثاني) في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات (الباب الثالث) في بيان العدل في المعاملة (الباب الرابع) في بيان الإحسان فيها (الباب الخامس) في شفقة التاجر على نفسه ودينه .

الباب الأول : في فضل الكسب والحلث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى (وجعلنا النهار معاشاً) فذكره في معرض الامتنان . وقال تعالى (وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون) فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها . وقال تعالى (ليس عليكم جناح أن تنبتوا أكثالا من ربكم) وقال تعالى (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) وقالوا تعالى (فانتشروا في الأرض وابتنوا من فضل الله) .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » (١) وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً وتغفوا عن المسئلة وسعيًا على عياله وتعطفوا على جاره إن الله ووجهه كالفهر ليله البدر » (٣) وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي قوة وقد بكر يسمى ، فقالوا : وسع هذا ، لو كان شيا به وجعله في سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا ، فإنه يسمى على نفسه ليكنها عن المسئلة وينبتا عن الناس فهو في سبيل الله ! وإن كان يسمى على أبوين ضميئين أو ذرية ضعاف لينبتهم ويكفهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسمى قاهراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ الهمة يستغني بها عن الناس ، ويبغض العبد يتعلم العلم يتعلمه مهنة » (٥) وفي الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف » (٦) وقال صلى الله عليه وسلم « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » (٧)

كتاب آداب الكسب : الباب الأول في فضل الكسب والحلث عليه

(١) « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » تقدم في النكاح . (٢) « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي سعيد . قال الترمذي : حسن ، وقال الحاكم : إنه من مرانيل الحسن ، ولأن حاجة الحاكم نحوه من حديث ابن عمر . (٣) « من طلب الدنيا حلالاً تغفوا عن المسئلة وسعيًا على عياله ... » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٤) « كان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقوة ، وقد بكر يسمى ، فقالوا : وسع هذا ، لو كان جلده في سبيل الله ... » أخرجه الطبراني في معاجزه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف . (٥) « إن الله يحب العبد يتخذ الهمة يستغني بها عن الناس ... » لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي « إن الله يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال » وفيه محمد بن سهل الطاطري قال الدارقطني : يضع الحديث . (٦) « إن الله يحب المؤمن المحترف » أخرجه الطبراني وابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر . (٧) « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ، قيل : يارسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال : عمل الرجل يده وكل عمل مبرور . ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قال : وذكر يحيى ابن معين أن عم سعيد : البراء بن عازب . ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلًا ، وقال : هذا هو المحفوظ ، قول من قال عن عمه ، وحكامه عن البخاري ، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع ابن عمير عن خاله أبي بردة ، وجميع ضعيف ، والله أعلم .

وفي خبر آخر « أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح ^(١) » وقال عليه الصلاة والسلام « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق ^(٢) » وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال : أنعبد . قال : من يعولك ؟ قال أخى . قال : أخوك أعيد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إنى لا أعلم شيئاً يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا أمرتكم به ، وإنى لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين نفث في روعي : إن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطل عنها ، فأتقوا الله واجعلوا في الطلب » أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب ، ثم قال في آخره « ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمصيبة الله تعالى . فإن الله لا ينال ما عنده بمصيبة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الأسواق موائد الله تعالى . فمن آتاها أصاب منها ^(٤) » وقال عليه السلام « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطبل على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه ^(٥) » وقال « من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ^(٦) » . وأما الآثار : فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بني ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر . فإنه ما أفقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استغفاف الناس به . وقال عمر رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم من طلب الرزق ويقول اللهم ازرقني فقد علمت أن الساء لا تحل ذليلاً ولا فضة . وكان زيد بن مسلمة يفرس في أرضه فقال له عمر رضى الله عنه : أصبت ، استغن عن الناس يكن اصون لدينك وأكرم لك عليهم ، كما قال صاحبكم أحيحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق ، أوصى إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال : التاجر الصدوق أحب إلى ، لأنه فى جهاد يأبى الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والبطاء فيجاهده ، وخالفه الحسن البصرى فى هذا . وقال عمر رضى الله عنه : ما من موضع يأتى الموت فيه أحب إلى موطن أتسوق فيه لأهل أبيح وأشترى . وقال الحليم : ربما يبلغي عن الرجل يقع فى فأذكر استغنائى عنه فهوون ذلك على . وقال أيوب : كسب فيه شيء أحب إلى من سؤال الناس . وجاءت ريح عاصفة فى البحر ، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن آدم رحمه الله وكان معهم فيها : أما ترى هذه الشدة ؟ فقال : ما هذه الشدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال ل أبو قلابة : الزم السوق فإن الننى من العافية ، يبنى الننى عن الناس . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس فى بيته

(١) « أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح » رواه أحمد من حديث أبي هريرة « خير الكسب كسب العامل إذا نصح » وإسناده حسن . (٢) « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ورجاله ثقات ، ونعيم هذا قال فيه ابن مندة : ذكر فى الصحابة ، ولا يصح . وقال أبو حاتم الرازى وابن حبان : إنه تابعى فالحديث مرسل . (٣) « إنى لا أعلم شيئاً يبعدكم عن الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث فى روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ... » رواه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، ولحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين ، وهما مختصران ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان وقال : إنه منقطع . (٤) « الأسواق موائد الله فمن آتاها أصاب منها » رواه فى الطيوريات من قول الحسن البصرى ، ولم أجده مرفوعاً . (٥) « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطبل على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) « من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » رواه الترمذى من حديث أبي كبشة الأنمارى : « ولا فتح عبد باب السألة إلا فتح الله عليه باب قر » أو كلمة نحوها ، وقال : حسن صحيح .

أو مسجده وقال لا تعمل شيئاً حتى يأتي رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي »^(١) وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال « تغشوا خماساً وتروح بطاناً »^(٢) وذكر أنها تشد في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعون في البر والبحر ويمسكون في تخليهم والقنود بهم . وقال أبو قتادة لرجل : لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد . وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمه الله على عنق حمزة سلب ، فقال له : يا أبا إسحق إلى متى هذا ؟ إنخرا نك يكفوك ؟ فقال : دعني عن هذا يا أبا عمرو ، فإنه يلقي أمنن وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وقال أبو سليمان الداراني : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك بقوت لك ، ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم نعبد . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : ينادى مناد يوم القيامة : أين بقضاء الله في أرضه ؟ فيقوم سؤال المساجد ، فيله مدة الشرع السؤال والانكale على كفاية الأغيار . ومن ليس له مال موروث فلا يجبه من ذلك إلا الكسب والتجارة .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما أوحى إلى أن أجمع المال وكن من التجارين ، ولكن أوحى إلى أن سبح محمد ربك وكن من الساجدين ، وابدع ربك حتى يأتيك اليقين »^(٣) وقيل لسان الفارسي : أوصنا ؛ فقال : من استطاع منك أن يموت حاكاً أو غازياً أو صاعراً لمجد ربه فليفعل ، ولا يموت تاجراً ولا خائناً .

فالجواب : أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال ؛ فنقول : لسنا بقول التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء ، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية ؛ فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا يصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مقومة ، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة ، فإن كان مع ذلك ظالماً خائناً فهو ظلم وفق ، وهذا ما أراد سلمان بقوله : لا تمت تاجرراً ولا خائناً وأراد بالتاجر : طالب الزيادة ، فأما إذا طلبها بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالدوال فالتجارة تنفعا عن السؤال أفضل ، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال فالكسب أفضل ، لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بقره . فالتعفف والتستر أول من البطالة ؛ بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة : جاهد بالعبادات البدنية ، أو رجل له سير بالباطل وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات ، أو عالم مشغل بترية علم الظاهر عما يتضع الناس به في دينهم كلفق والمفسر والمحدث وأمثالهم ، أو رجل مشغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمرهم كالسلطان والقاضي والشاهد ، هؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرسدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة حل الفقراء أو العلماء ، فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب ، ولهذا أوحى إلى رسول الله ﷺ أن سبح محمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التجارين لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف ، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة إذ كان ذلك يضل عن المصالح . وكان يأخذ كفايته من مال المصالح ، ورأى ذلك أولى ثم لما توفي أوصى يرده إلى بيت المال ، ولكنه رآه في الابتداء أولى ، ولهذا الأربعة حائثان آخران :

(١) « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » رواه أحمد من حديث ابن عمر « جعل رزقي تحت ظل رمحي » وإسناده صحيح .

(٢) « ذكر الطير فقال : تندو خماساً قروح بطاناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٣) « ما أوحى إلى أن أجمع للد وكن من التجارين ، ولكن أوحى إلى أن سبح محمد ربك وكن من الساجدين » رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين .

(إحداهما) أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدى الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال ، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى ، إذ فيه إطاعة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم .

(الحالة الثانية) الحاجة إلى السؤال ، وهذا في عمل النظر ، والتشديدات التي ووبناها في السؤال وذمه تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير ، بل هو موكول إلى اجتهد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلتقى في السؤال من المدة وهناك المروءة والحاجة إلى التسهيل والإحلاح بما يحصل من اشتغاله بالمعلم والعمل من الفائدة له ولنفره ، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وقاعدته في اشتغاله بالعالم أو العمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية ، وربما يكون بالعكس ، وربما يقابل المطلوب والمحذور . فينبغي أن يستغنى المريد فيه قلبه وإن أخاه المفتون ، فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل السور ودقائق الأحوال ولقد كان في السلف من له ثلثا وستون صدقا يزل على كل واحد منهم ليقومهم من له ثلاثون ، وكانوا يشتغلون بالعبادة لهم ، أن المتكفين بهم يتقبلون منه من قبولهم لبرائهم ، فكان قبولهم لبرائهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم . فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر لأخذ كآجر المعطى مهما كان الأخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن أطلع على هذه المأاني أمكنه أن يعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته . فهذه قضية الكسب ، وليكن المقد الذي به الاكتساب جاعلا لأربعة أمور : الصحة ، والعدل ، والإحسان . والشقة على الدين . ونحن نعقد في كل واحد بابا . ونبتدى بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني .

الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلام والإجارة والقراض والشركة وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكسب . لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه . والمكسب يحتاج إلى علم الكسب . ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيفتقها ، وما شد عنه من الفروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل ، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد يعلم جلي فلا يدري متى يجب عليه التوقف في السؤال ، ولو قال لا أقدم العلم ولكنني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فتندم تعلم واستغنى . فيقال له : وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جعل مفسدات العقود . فإنه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا يد له من هذا القدر من علم التجارة ليتميزه المباح عن المحظور ، وموضع الإشكال بين موضع الوضوح . ولذلك روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب ببعض التجار بالدرة ويقول : لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل إلى شاء أم أن ، وعلم المقود كثير ولكن هذه العقود الساقطة لا تنفك المكاسب عنها : وهي البيع والربا والسلام والإجارة والشركة والقراض ، فلنشرح شروطها :

المقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان : العاقد ، والمقود عليه ، واللفظ :

الركن الأول : العاقد ، ينبغي للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة : الصبي والمجنون والمعد والاعمى لأن الصبي غير مكلف وكذا المجنون ويمسهما باطل فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي وما أخذه منهما مضمون عليه لما

وما سله في المعاملة إلهما فضع في أيديهما فهو المضجع له . وأما العبد الماقل فلا يصح بيعة وشراؤه إلا باذن سيده فعمل البقال والحياز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبد مالم تأذن لهم السادة في معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيدته وفي البيع له ، فيقول على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك فإن عامله بغير إذن السيد فقدعه باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيدته ، وما تسلمه إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمنه سيده ، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق . وأما الأعمى فإنه يبيع ويشترى مالا يرى فلا يصح ذلك ، فليأمره بأن يوكل وكيلًا بصيرا ليشتري له أو يبيع ، فيصح توكيله ويصح بيع وكيله ، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته ، وما سله إليه أيضا مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصنف ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب ، فإن فعل ففي معاملته مردودة وهو عاص ربه . وأما المجنونة من الأتراك والتركمانية والعرب والأكراد والسراق والخوثة وآكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغي أن يملك ما في أيديهم شيئا لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئا بعينه أنه حلال ، وسيأتي تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام .

الركن الثاني في المعقود عليه : وهو المال المقصور نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ثمنا كان أو متنا فبغير فيه ستة شروط :

(الأول) أن لا يكون نجسا في عينه فلا يصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعضرة ، ولا بيع العاج والأراني المتخذة منه ، فإن العظم نجس بالموت ، ولا يطهر القيل بالذبح ، ولا يطهر عظمه بالندبة . ولا يجوز بيع الخمر ولا بيع الورد النقص المستخرج من الحيوانا فالتالي لا تؤكل ، وإن كان يصلح للاستصباح أو ملاء السفن ، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل ، وهو في عينه ليس بنجس ، وكذلك لا أرى بأسا ببيع بذر القز ، فإنه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبهه بالورث ، ويجوز بيع فأرة المسك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة . (الثاني) أن يكون منتفعا به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ، ولا الثفات إلى انتفاع المشع به بالحية ، وكذا لا الثفات إلى انتفاع أصحاب الحلقي بأخراجها من السلق عرضها على الناس ، ويجوز بيع الحرة والنحل وبيع الفهد والأسد وما ينفع لصيده أو ينتفع بجلده ، ويجوز بيع القيل لأجل الحمل ، ويجوز بيع الطوطى وهي البنتا . والطاووس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل ، فإن التفرج بأصواتها والتغرل إليها غرض مقصود مباح ، وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتل إصجابا بصورته انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ^(١) . ولا يجوز بيع الورد والصنع والمزامير والملاهي فإنه لا منفعة لها شرعا ، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد لعب الصبيان فإن كسرهما واجب شرعا ، وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا السور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « اتخذى منها تمارق ^(٢) » ولا يجوز استهلاكها منصوبة ، ويجوز موضوعه ، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه . (الثالث) أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعائد أو مأذونا من جهة المالك . ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظارا للائن من المالك ، بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال

الباب الثاني : في علم الكسب

- (١) « انتهى عن اتقاء الكلب » متفق عليه من حديث ابن عمر « من اقتنى كلبا إلا كلب ماشية أو ضاريا قص عمله كل يوم قيراطان » .
- (٢) « اتخذى منها تمارق » بقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها .

الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ، ولا من الولد مال الوالد ، اعتقادا على أنه لو عرف لرضى به ، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدما لم يصح البيع ، وأمثال ذلك مما يجري في الأسواق ، فواجب على العبد المتدين أن يحترمه .

(الرابع) أن يكون المعقود عليه مقدورا على تسليمه شرعا وحسا ، فلا لا يقدر على تسليمه حسا لا يصح بيعه كالعبد الآتي والسملك في الماء والجنين في البطن وحسب الفحل ، وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضرع لا يجوز ، فإنه يضمن تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع ، والمعجوز عن تسليمه شرعا كالمرهون والموقوف والمستوفاة فلا يصح بيعها أيضا ، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيرا ، وكذا بيع الولد دون الأم ، لأن تسليمه تفريق بينهما وهو حرام ، فلا يصح التفريق بينهما بالبيع .

(الخامس) أن يكون المبيع معلوم العين والتقدير والوصف ، أما العلم بالعين فإن يشير إليه بعينه ، فلو قال : بعتك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوبا من هذه الثياب التي بين يديك ، أو ذراعا من هذا الكر باس ، وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من هذه الأرض ، وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل ، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين ، إلا أن يبيع شائعا ، مثل أن يبيع نصف الثي أو عشرة ، فإن ذلك جائز . وأما العلم بالتقدير فاما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه ، فلو قال : بعتك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لا يدران ذلك فهو باطل ، ولو قال : بعتك بزة هذه الصنعة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنعة معلومة ولو قال : بعتك هذه الصبرة من الخنطة فهو باطل ، أو قال : بعتك هذه الصبرة من الدرام أو هذه القطعة من الذهب وهو يراها ، صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافيا في معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان ، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مدة لا تغلب التغير فيها ، والوصف لا يقوم مقام العيان ، هذا أحد المذهبين ، ولا يجوز بيع الثوب في المنسج اعتقادا على الرقوم ، ولا بيع الخنطة في سنبلها ، ويجوز بيع الأرض في قشره التي يدخر فيها ، وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى ، ولا يجوز في القشرتين ، ويجوز بيع البافلاء الرطب في قشره الحاجة ، ويتسامح ببيع الفخاخ لجران عادة الأولين به ، ولكن نهيها إباحة بموضع ، فإن اشتراه لبيعه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقه ، ولا يبعد أن يتسامح به ، إذ في إخراجه إفساده كالرمان وما يستر بستر خلق معه .

(السادس) أن يكون المبيع مقبوضا إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة ، وهذا شرط خاص ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع مالم يقبض^(١) ويستوى فيه العقار والمنقول ، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فيبيعه باطل ، وقبض المنقول بالثقل ، وقبض العقار بالتخلية ، وقبض بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض .

الركن الثالث : لفظ العقد ، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود ، منهم إما صريح أو كناية ، فلو قال : أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله : بعتك ، فقال : قبلته ، جاز مهما قصدا به البيع ، لأنه قد يحصل الإجارة إذا كان في ثوبين أو دابتين ، والثنية دفع الاحتمال والصريح أقطع للعصومة ، ولكن الكناية تفيد الملك أيضا والحال فيها يختاره ، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شروطا على خلاف مقتضى العقدة ، فلو شرط أن يرده شيئا آخر ، وأن يحمل المبيع إلى داره ، أو اشترى الحطب بشرط النقل إلى داره : كل ذلك فاسد إلا إذا أقرد استجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاوضة بالفعل دون التلطف باللسان لم ينمقد البيع

(١) « انتهى عن بيع مالم يقبض » متفق عليه من حديث ابن عباس .

عند الشافعي أصلاً ، وأن عقد أدى حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات غيره ؛ فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة ، إذ يتقدم الدال إلى البراز يأخذ منه ثوباً ديباجاً قيمته عشرة دنانير مثلاً ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاء ، فيقول له : خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحمله ويسلمها إلى البراز ، فيأخذها ويصرف فيها ، ومشتري الثوب يقطعها ولم يجر بينهما إيجاب وقبول أصلاً ، وكذلك يجتمع المجهزون على حائوت البياض ، فيعرض متاعاً قيمته مائة دينار مثلاً فيمن يريد ، فيقول أحدهم : هذا على تسعين ، ويقول الآخر : هذا على خمسة وتسعين ، ويقول الآخر : هذا بمائة ، فيقال له : زن قرين ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول ، فقد استمرت به العادات ، وهذه من المعضلات التي ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة إما فتح باب المعاطاة مطلقاً في الحفيقر والتفيس - وهو محال ، إذ فيه قتل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للإيجاب والقبول ، ولم يجر ولم يطلق اسم البيع على مجرد فصل بسلام وتسليم ، فإذا يحكم بائتمان الملك من الجاهلين ، لاسياً في الجوارى والمبيد والمقار والذواب التفيسة وما يكثر التنازع فيه ، إذ التسليم أن يرجع ويقول : قد ندمت وما بهته ، إذ لم يصدر مني إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع .

(الاحتمال الثاني) أن نسد الباب بالكلية كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد ، وفيه إشكال من وجهين ، أحدهما : أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتاداً في زمن الصحابة ، ولو كانوا يتكفون الإيجاب والقبول مع البقال والخباز والتصاب لتقن عليهم فقه ، ولنقل ذلك نقلاً منتشراً ، ولكن يشتر وقت الإعراض بالكلية عن تلك العادة ، فإن الأعصار في مثل هذا متفاوت : والثاني : أن الناس الآن قد انتهكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئاً من الأطعمة وغيرها إلا ويعلم أن البائع قد ملكه بالمصاطاة ، فأى فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك .

(الاحتمال الثالث) أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتصر الضبط في المحقرات . ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه ، وقد ذهب ابن مريج إلى تخريج قول الشافعي رحمه الله على نفيه ، وهو أقرب الاحتمالات إلى الاعتدال ، فلا بأس لومنا إليه لمسيس الحاجات ، ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يطلب على الفطن بأن ذلك كان معتاداً في الأعصار الأولى .

فأما الجواب عن الإشكاليين : فهو أن قول : أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فإن ذلك غير ممكن ، بل له طرفان واضعان إذ لا ينبغي أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخبز واللحم من الممدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاطاة . ومطالب الإيجاب والقبول فيه يمد مستقصياً ويسترد تكليفه لذلك ويستقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حفيقر ولا وجه له هذا طرف المحقرة ، والطرف الثاني الذواب والمبيد والمقارات والثياب التفيسة فلذلك ما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها ، وبينهما أوساط متناهية يشك فيها هي في محل الشبهة ؛ فحق ذي الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيها يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشككة . وأما الثاني - وهو طلب سبب لنقل الملك ، فهو أن يعمل الفعل باليد أخذاً وتسليماً سبباً ، لعينه بل لذلك وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة ، وانضم إليه ميسر فرق بين أن يكون فيه عوض أو لا يكون ، إذ الملك لا يد من نقله في الحية أيضاً ، إلا أن المادة السالفة لم تنفرد في الهدايا بين الحفيقر والتفيس ، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان ، وفي المبيع لم يستحب في غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لا يدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف ، فلا ينبغي أن يتبع من ذلك لأجل أن البائع قد تملكه بنفي إيجاب وقبول ، فإن ذلك لا يعرف تحقيقاً ، فربما اشتراه بقول

وإيجاب ، فإن كان حاضراً عند شرائه أو أقر البائع به فليمتنع منه وليشتر من غيره ، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليقلظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه ، إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فإن قلت : فإن أمكن هذا فيما يشتره ، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه ؟ أوجب عليه الامتناع من الأكل ؟

فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقدراً تقيساً ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل ، فلا يجب الامتناع منه ، فإني أقول : إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلا ينبغي أن لا يجعله دلالة على الإباحة ، فإن أمر الإباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق ، فكل معلوم جرى فيه بيع معاطة فتسلم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كاذن الحامي في دخول الحمام ، والاذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينزل منزلة ماله قال : أبحث لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت . فإنه يحمل له ولو صرح وقال : كل هذا الطعام ثم اغرم لي عونه ، لحل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل ، هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطة آكل ملكه ومتلفاً له فعليه الضمان وذلك في ذمته ، والثمن الذي سله إن كان مثل قيمته فقد ظفر المشتري بمثل حقه ، فله أن يملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه ، وإن كان قادراً على مطالبة فانه لا يملك ما ظفر به من ملكه ، لأنه ربما لا يرضى بذلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة . وأما هنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضا بأن يستوفي دينه ما يسلم إليه . فيأخذه بحقه ، لكن على كل الأحوال جاب البائع أعضاً لأن ما أخذه قد يريد المالك ليصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا ألتف عين طعامه في يد المشتري ، ثم ربما يفتر إلى استئناف قصد التملك ، ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفاد من الفعل دون القول . وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فحين ، فإن ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما ألتفه ، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط ، فيكون كالتفاضي دينه والمحمل عنه ، فهذا ما زاره في قاعدة المعاطة على غموضها ، والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون ورددناهما . ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فانه ينبغي أن يستفي قلبه ويتق مواضع الشبه .

المقد الثاني : عقد الربا

وقد حرمه الله تعالى وشدد الأمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصيانة المتعاملين على التقدين ، وعلى المتعاملين على الأطمعة ، إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام ، وعلى الصيرفي أن يحتر من النسبة والفضل أما النسبة فإن لا يبيع شيئاً من جواهر التقدين بشئ من جواهر التقدين إلا يداً بيد : وهو أن يجري التقاض في المجلس ، وهذا احتراز من النسبة ، وتسليم الصيانة الذهب إلى دار الشرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ، ومن حيث إن الطالب أن يجري فيه تفاضل ، إذ لا ربا المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل ، فيحتر منه في ثلاثة أمور : في بيع المكسر بالصحيح ، فلا يجوز المعاملة فيها إلا مع المائتة . وفي بيع الجيد بالردى ، فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن ، أو يبيع رديئاً بجيد فوقه في الوزن ، أعني إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، فإن اختلف الجنسان فلا حرج في الفضل . والثالث في المركبات من الذهب والفضة كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة : إن كان

مقدار الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان نقدا جاريا في البلد فإنما ترخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد ، وكذا الدرهم المفضضة بالنحاس إن لم تكن راتجة في البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة ، وإن كان نقدا راتجا في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا ، وكذلك كل حلي مركب من ذهب فضة فلا يجوز شراؤه ولا بالذهب ولا بالفضة ، بل ينبغي أوت يشتري يتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما ، إلا إذا كان مومها بالذهب تومها لا يحصل منه ذهب مقصود عند المرض على النار ، فيجوز بيعها بثمنها من النقرة بما أريد من غير النقرة ، وكذلك لا يجوز للصير أن يشتري فلادة فيها خرز وذهب بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة يبدأ إن لم يكن فيها فضة ، ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند المرض على النار بذهب ، ويجوز بالفضة وغيرها وأما المتاملون على الأطعمة فملهم التفاضل في المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع والمشتري أو لم يختلف ، فإن أعد الجنس فعليه التفاضل ومراعاة المائنة ، والمتاد في هذا معاملة القصاب بأن يسل إليه الثمن ويشتري بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ، ومعاملة الحجاز بأن يسل إليه الحنطة ويشتري بها الخبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ، ومعاملة العصار بأن يسل إليه الزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام ، وكذا البان يعطى اللبن ليؤخذ منه اللبن والسمن والزبدوسائر أجزاء اللبن ، فهو أيضا حرام ، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا ، ويحسبه إلا نقدا ومتائلا ، وكل ما يتخذ من الشيء المخطوم فلا يجوز أن يباع به متائلا ولا متاخلا ، فلا يباع بالحنطة دقيق وخبز وسويق ، ولا بالذهب والقر ديس وخل وصير ، ولا باللبن سموزيدو غيض ومصل وجبن ، والمائنة لا تقيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الأدهان ، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتائلا ، فذهب جمل منقعة في تعريف البيع والتبعية على ما يشعر بالتاجر بمثارات الفساد حتى يستحق فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها ، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال ، واقنعم الربا والحرام وهو لا يدري .

العقد الثالث : السلم

وليراع التاجر فيه عشرة شروط :

(الأول) أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال ، فإن أسلم كفا من الدرهم جرافا في كرخطة لم يصح في أحاطة القولين .

(الثاني) أن يسل رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق فلو تفرقا قبل القبض افسخ السلم .

(الثالث) أن يكون المسلم فيه ما يمكن تعريفه أو صافه كالخبز بغير الحبوب أو نافع والمادن والقطن والصوف والإبريم والألبان واللحوم ومنتاع المطارين وأشياءها ، ولا يجوز في المجموعات والمركبات وما تختلف أجزاؤه كالقسي المصنوعة والتيل المعمول والخفاف والتعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات . ويجوز السلم في الخبز ، وما يتعلق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعني عنه ويتسامح فيه .

(الرابع) أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف ، حتى لا يبقى وصف متفاوت به القيمة فتفاوت لا يتناهن بمثله الناس إلا ذكره ، فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع .

(الخامس) أن يجعل الأجل معلوما إن كان موجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام ، فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر .

(السادس) أن يكون المسلم فيه ما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالبا ، فلا ينبغي أن يسل في العنب إلى أجل لا يدرك فيه . وكذا سائر الفواكه ، فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة ، فله أن يملكه إن شاء أو يفسخ ويرجع في رأس المال إن شاء .

(السابع) أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الترض به كي لا يثير ذلك نزاعا .
 (الثامن) أن لا يعلقه بيمين فيقول : من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ؛ فإن ذلك يبطل كونه ديناً .
 نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة ، لم يضر ذلك .
 (التاسع) أن لا يسلم في شيء تقبض عزيز الوجود مثل درة موصوفة بمنزلة وجود مثلها ، أو جارية حسنة معها ولها ، أو غير ذلك ، لا يقدر عليه غالباً .
 (العاشرة) أن لا يسلم في علمها كمن رأس المال طعاماً ، سواء كان من جنسه أو لم يكن ، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً ، وقد ذكرنا هذا في الربا .

العقد الرابع الإجارة

وله ركنان : الأجرة ، والمنفعة . فأما العاقد والفظ فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كاليمين ، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في البيع أن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر ، وليستز فيه عن أمور جرت العادة بها ، وذلك مثل كراء الدار بعمارتها فذلك باطل ، إذ قدر العمارة بمجول . ولو قدر دراهم وشرط على المكنزي أن يصرفها إلى البهارة لم يجر ، لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجول . ومنها استئجار السلاح على أن يأخذ الجلد بعد السلق . واستئجار حال الجفيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو ببعض الدقيق فهو باطل ، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلا يجوز أن يجعل أجرة ومنها : أن يقدر في إجارة الدور والمحوانات مبلغ الأجر ، فلو قال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجعولة ولم تتعقد الإجارة .

الركن الثاني : المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويضطوح به الثمن عن الثمن ، فيجوز الاستئجار عليه ، وبجمل فروع الباب تندرج تحت هذه الرأية ، ولكننا لنطول بشرحها فقد طرأنا القول فيها في الفقهات ، وإنما نشير إلى ما تم به البلوى ، فليراجع العمل المستأجر عليه خمسة أمور :
 (الأول) أن يكون متوقفاً ، بأن يكون فيه كلفة وتعب . فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان ، أو أشجاراً ليخفف عليها الثياب ، أو دراهم ليزين بها الدكان ، لم يجر ؛ فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه . وهي كالنظر في مرآة النهر ، والشرب من بئر . والاستغلال بمجده . والاقباس من ناره ؛ ولهذا لو استأجر يباعا على أن يتكلم بكلمة بروج جهلته لم يجر . وما يأخذه البائعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم ويقول قولهم في ترويج السلع فهو حرام ؛ إذ ليس يصدر منهم إلا كلفة لا ثمن فيها ولا قيمة لها . وإنما يحمل لهم ذلك إذا تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام في تأليف أمر المعاملة ؛ ثم لا يستحقون إلا أجرة المثل ؛ فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق .

(الثاني) أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفائه . ولا إجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المرضعة ويكون اللبن تابعا ؛ لأن إفراغه غير ممكن ، وكذا يتسامح بمجير الورق وخيط الخياط . لأنهما لا يقصدان على حيالهما .

(الثالث) أن يكون العمل مقدورا على تسليمه حسا وشرعا . فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه . ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه . وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه . كالاستئجار على قلع سن سلمية أو قطع عضو لا يرخص الشرع في فعله . أو استئجار الخائض على كشف المسجد . أو المعلم على تعليم السحر أو الفسح . أو استئجار زوجة الغير على الارضاع دون إذن زوجها . أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات . أو استئجار الصانع على صيغة الأواني من الذهب والفضة فكل ذلك باطل .

(الرابع) أن لا يكون العمل واجبا على الأجير . أو لا يكون بحيث لا تجري النيابة

فيه عن المستأجر . فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا على مائر العبادات التي لا نية فيها . إذ لا يقع ذلك عن المستأجر . ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحل الجنائز . وفي أخذ الأجرة على إمامة ومقدارها . وحل البواب يعرف صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف . أما الاستئجار على تعليم مسألة بئسها أو تعليم سورة بئسها لشخص معين فصحيح .

(الخامس) أن يكون العمل والمنفعة معلوما . فالخياط يعرف عمله بالثوب ، والمعلم يعرف عمله بتعليم السورة بمقدار المحمول وبمقدار المسافة . وكل ما يثير خصومة في العامة فلا يجوز إسماله . وقصيل ذلك بطول . وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال . فإن الاستقصاء شأن المتقن لا شأن المولم .

المقد الخامس : القراض

وليعرف فيه ثلاثة أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل : فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض ، فإن التجارة تضيق فيه ولا يجوز على صرة من الدراهم ، لأن قدر الربح لا يتبين فيه . ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجز ، لأن فيه تضيق طريق التجارة ،

الركن الثاني : الربح ، ولكن معلوما بالجزئية بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ما شاء ، فلو قال : على أن لك من الربح مائة والباقي لي ، لم يجز ، إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع .

الثالث : العمل الذي على العامل ، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين وتأقيت ، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطلب نسلها فيقتاضان النسل ، أو حطعة فيخبرها ويتقاضان الربح ، لم يصح ، لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء وما يقع من ضرورتها فقط ، وهذه حرف - اعني الحزن ورعاية الماشي ، ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أولا يتجر إلا في الحز الآخر ، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيصرف بالنفقة تصرف الوكلاء ، ومهما أراد المالك التمسك فله ذلك . فإذا فسخ في حالة والمال كله فما فقد لم يخف وجه القسمة ، وإن كان عروضاً ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد ، لأن النقد قد انفسخ وهو لم يلزم شيئا ، وإن قال العامل : أبيع ، وأني المالك ، فالتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ، ومهما كان ربح فلي العامل يبيع بمقدار رأس المال بمجنس رأس المال لا بتقد آخر ، حتى يميز الفائض ربما فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفائض على رأس المال ، ومهما كان رأس السنة فلههم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة : فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأقرب أن ذكته نصيب العامل وأنه يملك الربح بالظهور ، وليس العامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك : فإن فعل صحته تصرفاته ، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأمان جميعاً ، لأن عدوانه بالتقل يمدى إلى ثمن المتقول ، وإن سافر بالإذن جاز وثقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحل الذي لا يتبادر التاجر مثله على رأس المال ، فأما نشر الثوب وطيه والعمل السير المعتاد فليس له أن يبدل عليه أجرة . وعلى العامل نفقة وسكنانه في البلد ، وليس عليه أجرة الحانوت . ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفته في السفر على مال القراض ، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرها .

المقد السادس : الشركة

وهي أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة : (الأول) شركة المفاوضة : وهو أن يقولوا : تفاوضنا لنشترك في كل ما لنا وعلينا ومالهما عتازان ، فهي باطلة . (الثاني) شركة الأبدان : وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل فهي باطلة . (الثالث) شركة الوجوه : وهو أن يكون لأحدهما حصة وقول مقبول فيكون من جهة التسهيل ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضا باطل . وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان : وهو أن يتخططا لهما بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمة ، وبأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف . ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالكين ولا يجوز أن يقر ذلك بالشروط ، ثم بالعدل مجتمع التصرف عن الموزول ، وبالقسمة يتفصل الملك عن الملك . والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على المروض المشتركة ، ولا يشترط التقدر ، بخلاف القراض .

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، وإلا اقتصم الحرام من حيث لا يدري . وأما معاملة القصاب والخباز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب ، والحلل فيها من ثلاثة وجوه : من إهمال شروط البيع ، أو إهمال شروط السلم ، أو الإقتصار على المعاطاة ، إذ المعادات جارية بكتبة الخطوط على هؤلاء بمجاهات كل يوم ، ثم المحاسبة في كل مدة ، ثم التفويم بحسب ما يقع عليه التراضي ، وذلك بما ترى القضاء بإباحته للعاجلة ، ويحمل تسليمهم على إباحة التناول مع انتظار الموض فيحل أكله ، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإنفاق . فتجتمع في الغنة تلك القيم ، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتزم منهم الإبراء المطلق حتى لا تبقى عليه عهدة إن تفرق إليه تفاوت في التفويم ، فهذا ما يجب القناعة به ، فإن تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شغل ، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر ، وإذا كثر كل نوع سهل تفويجه ، والله الموفق .

الباب الثالث : في بيان المعدل واجتنب الظلم في المعاملة

لعل أن المعاملة قد تجر على وجه يحكم المنقح بصحتها وانقضاءها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لخطأ الله تعالى ، إذ ليس كل نهي يقتضي فساد العقد ، وهذا الظلم يعني به ما استغنى به الغير ، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل .

انقسم الأول : فيما يعم ضرره . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار فبائع الطعام يضر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم في الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقة كفارة لاحتكاره ^(١) » ودروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه ^(٢) » وقيل : فكأنما قتل الناس جميعاً . وعن علي رضي الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما

الباب الثالث في بيان المعدل

- (١) « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقة كفارة لاحتكاره » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي ، والحلي في التاريخ من حديث أنس بسنتين ضعيفين .
(٢) حديث ابن عمر « من احتكر الطعام أربعين يوما قد برىء من الله وبرىء الله منه » رواه أحمد والحاكم بسند جيد ، وقال ابن عدى : ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر .

فسا قلبه . وعنه أيضاً أنه أحرق طعاماً يحترق بالنار . وروى في فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم « من جلب طعاماً فباعه بسر يومه فكأنما تصدق به » وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة »^(١) . وقيل في قوله تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذره من عذاب أليم) إن الاحتكار من الظلم ودخل تحته في الوعيد . وعن بعض السلف أنه كان يراسط لجر سفينة حطلة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بيع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ، فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة رحمت فيه أضعافه ، فأخذه جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هـذا ، إنا كنا نعتنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت وما تحب أن نربح أضعافه بنهاب شيء من الدين فقد جئيت علينا جناية . فإذا اتاك كتابي هذا فخذ المال كله تصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لأعلى ولألى . وأعلم أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس ، أما الجنس فيطرد النهي في اجتناس الأقوات ، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والمقاهير والإعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوماً . وأما ما يمين على القوت كاللحم والقواكه وما يسد مسدأ ينفي عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا في محل النظر ، فمن الملباء من طرد التحريم في السمن والعسل والشهريج والجن والزيوت وما يجري مجراه . وأما الوقت فيحتمل أيضاً طرد النهي في جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التي ذكرناها في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر ، ويحتمل أن يخص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرراً ، فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قطعاً ، فليس في هذا إضرار . وإذا كان الزمان زمان قطع كان في ادخار العسل والسمن والشهريج وأمثاله إضرار ، فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعمل في نفي التحريم وإثباته على الضرر فإنه مفهوم قطعاً من تخصيص الطعام ، وإذا لم يكن ضرر فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر مخلوق كانتظار عين الضرر ولكنه دونه ، وانتظار عين الضرر أيضاً هو دون الأضرار . فيقدر درجات الإضرار تفاوت درجات الكراهية والتحريم . وبالجملة التجارة في الأقوات بما لا يستحب لأنه طلب ربح ، والأقوات أصول خلقت قواماً ، والربح من المزايا ، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال : لاتسلم ولك في يمينين ولأ في صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان فإنه يمتن الفناء وموت الناس . والصنعتان : أن يكون جواراً فإنها صنعة تقضى القلب ، أو صواغاً فإنه يزخر الدنيا بالذهب والفضة .

النوع الثاني : ترويع الريف من الدرهم في أثناء التقهقر ظلم ، إذ يستعثر به المامل إن لم يعرف ، وإن عرف فيروج على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتكرر في الأيدي ويسم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعاً عليه ، فإنه هو الذي فتح هذا الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »^(٢) . وقال بعضهم : إفتاق درهم

(١) « من جلب طعاماً فباعه بسر يومه فكأنما تصدق به » وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة » أخرجه ابن مردويه في التفسير من كلام ابن مسعود بسند ضعيف « مامن جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » وللحاكم من حديث اليسع بن النيرة « إن الجالب إلى سوقنا كالجهاد في سبيل الله » وهو مرسل .

(٢) « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت ، وإتفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتي سنة .. إلى أن يفي ذلك الدرهم ، ويكون عليه ما قدس من أموال الناس بسنته ، وطوفان إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويستل عنها إلى آخر انقراضها ، قال تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) أي نكتب أيضاً ما آثروا من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه ، وفي مثله قوله تعالى (يبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخبر) وإنما آخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن في الزيف خمسة أمور : (الأول) أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بر بحيث لا يمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه في بيع آخر ، وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز .

(الثاني) أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا يستغنى لنفسه ولكن لتلا يسل إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم ، فكل عمل علم به يتم نصح المسلمين ، فيجب تحصيله ومثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم لا لنيتهم .

(الثالث) أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم ، لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره ، ولو لم يزم على ذلك لكن لا يرغب في أخذه أصلاً ، فإثماً يتخلص من إثم الضرر الذي ينص معامله فقط . (الرابع) أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم (رحم الله امرأه سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء)^(١) فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بر ، وإن كان عازماً على أن يروجه في معاملة فهذا شر ووجه الشيطان عليه في معرض الخير فلا يدخل تحت من تساهل من الاقتضاء .

(الخامس) أن الزيف نهي به مالا نقرة فيه أصلاً بل هو موه . أو مالا ذهب فيه أعي في الدنانير ، أما ما فيه نقرة فإن كان غلوها بالتحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه ، وجعل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم ، وإن لم يكن هو نقد البلد لم يحرم إلا إذا علم قدر النقرة ، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبس ، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد ، فهو كبيع العنب بمن يعلم أنه يتخذ خراً ، وذلك محذور وإعانة على الشر ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثل هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها ، ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد . وقد كان السلف يتعاملون في مثل ذلك حتى روى عن بعض الفزاة في سبيل الله أنه قال : حملت على فرسي لأقتل علياً ، فقصر في فرسي فرجعت ثم دنا مني العليج فحملت ثانية فقصر فرسي فرجعت ، ثم حملت الثالثة ففهر فرسي وكنت لا أعتاد ذلك منه ، فرجعت حزينا وحملت منكسر الرأس منكسر القلب لما فاتني من العليج وما ظهر لي من خلق الفرس ، فوضعت رأسي على عمود القسطاط وفرسي قائم قرأت في النوم كأن الفرس يحاططين ويقول لي بالله عليك أردت أن تأخذ على العليج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفا ودفعت في ثمنه دهرما ذاتا لا يكون هذا أبداً . قال : فالتبته فرما فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم ، فهذا مثال ما يعم ضرره وليفس عليه أمثاله .

القسم الثاني : ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم ، وإنما العدل أن لا يضرب بأخيه المسلم ، والضابط الكل في : أن لا يجب

(١) « رحم الله امرأه سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » أخرجه البخاري من كلام جابر

لأخيه إلا ما يجب لنفسه ، فكل مالو عومل به شئ عليه وتقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به ، بل ينبغي أن يستوى عنده درهم غيره . قال بعضهم : من باع أخاه شيئاً بدروهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بحصة دواقر فانه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، هذه جملة .

فأما تفصيله في أربعة أمور : أن لا يفتي على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتن من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً ، وأن لا يكتن في وزنها ومقدارها شيئاً ، وأن لا يكتن من سعرها مالو عرفه المعامل لامتتنع عنه .

أما الاول ، فهو ترك الثناء ، فان وصفه السلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فان قبل المشتري ذلك فهو تليس وعظم مع كونه كذباً ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذي يروج قد لا يفتح في ظاهر المروءة ، وإن أتى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا ينبغي ، وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بما قال الله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) إلا أن يفتي على السلعة بما فيها ما لا يعرفه المشتري مالم يذكره ، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والحواري ، فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطباب . وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرضى فيه ويتقضى بسببه حاجته . ولا ينبغي أن يحلف عليه أبية . فانه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين القموس وهي من الكبائر التي تدر الديار بلافع . وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرصة لآيمانه . وقد أساء فيه . إذ الدنيا أفس من أن يقصد ترويحها بذكر اسم الله من غير ضرورة وفي الخبر « ويل للتاجر من يلى والله ولا واقه . وويل للصانع من غد وبعد غد » (١) وفي الخبر « اليمين الكاذبة منقفة للسلعة محقة للبركة » (٢) وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عتل مستكبر . ومنان بعطية . ومنفق سلته يمينه » (٣) فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا ينبغي التعليل في أمر اليمين . وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزازاً : أنه طلب منه خز الشراء . فأخرج غلامه سقط الخز ونشره ونظر إليه وقال : اللهم ارزقنا الجنة . فقال لغلامه : رده إلى موضعه ولم يبعه . وخاف أن يكون ذلك تعريضاً بالثناء على السلعة . فثل هؤلاء الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيعوا دينهم في تجارتهم . بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الثاني : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتن منها شيئاً . فذلك واجب . فان أخضاه كان ظالمًا غاشاً والغش حرام . وكان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب . ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غاشاً . وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة . وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخلف أو التعل وأمثاله . ويدل على تحريم الغش ما روى : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فيه فرأى بللاً فقال « ما هذا ؟ » قال : أصابه الباء . فقال « فلا جعلته فوق الطعام حتى يراة الناس . من غشنا فليس منا » (٤) ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريراً على الإسلام ذهب

(١) « ويل للتاجر من يلى والله ولا واقه ، وويل للصانع من غد وبعد غد » لم أتف له على أصل ، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك إسناده صحيح .

(٢) « اليمين الكاذبة منقفة للسلعة محقة للبركة » متفق عليه من حديث أبي هريرة . بلقب « الحاف » وهو عند البيهقي بلفظ اللصف .

(٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر إليهم يوم القيامة : عاتل مستكبر . ومنان بعطية . ومنفق سلته يمينه » أخرجه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا : عاتل مستكبر ، ولم يأت « ثلاثة لا يكتنهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة قد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ... » ولمسلم من حديث أبي ذر « اللان ، والسبل إزاره ، والمنفق سلته بالخلف الكاذب » .

(٤) م . ب . رجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فرأى بللاً فقال « ما هذا ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

ليصرف جذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم^(١). فكان جرير إذا قام إلى السلة يبيها بصر عيوبها ثم خيره وقال : إن شئت نخذ وإن شئت فترك . فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع . فقال : أنا ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان وائلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقه له بثلاثة درهم . ففعل وائلة وقد ذهب الرجل بالناق . فسمى وراءه وجعل يصيح به : يا هذا . اشتريها اللحم أو الظفر ؟ فقال : بل للظهر . فقال : إن يخبها نقيا قد رأيته . وإنها لاتأجيب البير . فصاد درهما فقصها البائع مائة درهم وقال لوائلة : رحلك الله أفدت على يبي . فقال : أنا ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يجل لأحد يبيع بما إلا أن بين آتة . ولا يجل لمن يعلم ذلك إلا نبيته^(٢) » فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه . ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات . بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم . وهذا أمر يشق على أكثر الخلق فلذلك يختارون التخلل العبادة والاعتزال عن الناس . لأن القيام بحقوق الله مع مخالطة والمعاملة المجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون . ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : (أحدهما) أن تليسه العيوب وتروجه السلع لا يزيد في رقة بل يحمقه ويذهب بركته . وما يجمعه من مفرقات التليسات يهلكه الله دفعة واحدة . فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبها الماء ويبيعه . فجاء سيل ففرك البقرة . فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المشرقة التي صبتها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « السيمان إذا صدقا ونصحا بورك لها في بيعهما . وإذا كتما وكذبا نزعتم بركه بيعهما^(٣) » وفي الحديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع به عتما^(٤) » فإذا لا يزيد مال من خيانة . كما لا ينقص من صدقة . ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالبدان لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسياسة الإنسان في الدنيا والدين والآلاف المؤلفة قد يزعج الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالها بحيث يمتنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله . فيعرف معنى قولنا : إن الحياة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه (والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده ليم له النصح ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا . وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستعجز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . والخير كله في سلامة الدين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤزروا صفقة دينهم على آخرتهم^(٥) » وفي لفظ آخر « ما لم يبالوا ما نقص من دينهم بسلامة دينهم . فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله . قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين » وفي حديث آخر « من قال لا إله إلا الله غلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصه ؟ قال : أن يحرمه عما حرم الله^(٦) » وقال أيضا : ما آمن بالقرآن من استعمل محارمه . ومن علم

(١) حديث جرير بن عبد الله : ياينا النبي ﷺ على النصح لكل مسلم . متفق عليه . (٢) حديث وائلة « لا يجل لأحد يبيع بما إلا بين مافيه ، ولا يجل لمن يعلم ذلك إلا بينه » أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، والبيهقي (٣) « السيمان إذا صدقا ونصحا بورك لها في بيعهما ... » متفق عليه من حديث حكيم بن حزام (٤) « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع به عتما » رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد . (٥) « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤزروا صفقة دينهم على آخرتهم ... » رواه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف . وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر « حق إذا نزلوا بالمثل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلبت لهم دينهم ... » والطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة ، وهو ضعيف أيضا . (٦) « من قال لا إله إلا الله غلصا دخل الجنة » قيل وما إخلاصها ؟ قال « تحجزه عما حرم الله » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

أن هذه الأمور قاذفة في إيمانه، وأن إيمانه رأس ماله في تجارته في الآخرة لم يضيع رأس ماله المدد لعمر لا آخره بسبب ربح يفتح به أيا ما معدودة. وعن بعض التابعين أنه قال: لو دخلت الجامع وهو غاص بأمله وقيل لي: من خير هؤلاء؟ قلت: من أنصحهم لهم؟ فإذا قالوا: هذا، قلت: هو خيرهم. ولو قيل لي: من شرهم؟ قلت: من أغفهم لهم؟ فإذا قيل: هذا، قلت: هو شرهم.

والفلس حرام في البيوع والصنائع جميعاً، ولا ينبغي أن يتأون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاء لنفسه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكما، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب، فبذلك يخلص. وسأل رجل حذام ابن سالم فقال: كيف لي أن أسلم ببيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمنى على الأخرى، ووجود الحشو، وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الحرز، ولا تطبق أحد الثملين على الأخرى. ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين، قال لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريد البيع.

فإن قلت: فلا تم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع. فأقول: ليس كذلك، إذ شرط التاجر أن لا يشتري المبيع إلا الجيد الذي يرضيه لنفسه لو أمسكه، ثم يفتح في يمينه بريح يسير، فيبارك الله له فيه، ولا يحتاج إلى تليس، وإنما تنذر هذا لأهله لا يشترون بالريح اليسير، وليس يسلم الكثير إلا بتليس، فمن نود هذا لم يضر المبيع، فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليفتح بقيمته. باع ابن سيرين شاة فقال للشترى: أربأ إليك من عيب فيها إنها تغلب العلف برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للشترى: إنها تنخت مرة عندنا، فبكنا كانت سيرة أهل الدين، فن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة.

الثالث: ألا يكتف في المقدار شيئاً وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل، فينبغي أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى ﴿وَلِللظَّالِمِينَ﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكاله يوشك أن يتعداه. وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله حبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع حبة جنة جنة أرض السموات والأرض، وما أخسر من باع طوبى ويل. وإنما بالنوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها، إذ لا يعرف أصحاب الحيات حتى يجمعهم ويردو حقوقهم، ولذلك لما أشتري رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قال الوزن لما كان وزن ثمنه « وزن وأرجع^(١) » ونظر فضيل إلى ابنه وهو يفضل ديناراً يريد أن يصره ويريل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال: يا بني فمالك هذا أفضل من حجين وعشرين عمرة. وقال بعض السلف: صجبت للتاجر والبائع كيف ينحو، وزن ويحلف بالناهر، وينام بالليل. وقال سلمان عليه السلام لآبنة: يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين، كذلك تدخل الخليفة بين المتبايعين. وصلى بعض الصالحين على خنث، فقيل له: إنه كان فاسقاً، فسكت، فأعيد عليه فقال: كأنك قلت: كان صاحب ميزانين يعطي بأحدهما ويأخذ بالآخر، أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى، وهذا من مظالم العباد، والمساحة والغفوة فيه أبعد، والتشديد في أمر الميزان عظيم، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ لا تطفوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالسان، ولا تخسروا الميزان ﴾ أي لسان الميزان، فإن النقصان والرجحان

(١) حديث: قال للوزان « وزن وأرجع » رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس. قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

يظهر بميله ، وبالجملة كل من يتصف لنفسه من غيره ولو في كله ولا يتصف بمثل ما يتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى (ويل للطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) الآيات ، فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لمكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والنصفة فيه ، فهو جار في جميع الأعمال . فصاحب الميزان في خطر الزيل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ، ولولا نذر هذا واستحاله لما ورد قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تماوت تفاوتا عظيما ، فذلك تفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبق بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألقا وألوف سنين ؛ فنسأل الله تعالى أن يقرنا من الاستقامة والعدل ؛ فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه ، غير مطوع فيه ؛ فانه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وبفسد الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط ، وكل من خلط بالعلماء قرابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في السكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم يجر العادة بمثله ، فهو من المطففين في الوزن ، وقس على هذا سائر التضاريس ، حتى في الذرع الذي يتعامله البزاز ، فانه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يده مددا ، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتا في القدر فكل ذلك من التعطيف الممرض صاحبه للويل .

الراب : أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا . فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان (١) ونهى عن التجش (٢) . أما تلقى الركبان . فهو أن يستقبل الرفقة وتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد . فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تلتقوا الركبان » ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منقطع . ولكنه إن ظن كذبه ثبت البائع الخيار . وإن كان صادقا في الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبس ونهى أيضا أن يبيع حاضر لباد (٣) : وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه . فيقول له الحضري أتركه عندي حتى أغالي في ثمنه وأتظر ارتفاع سعره ، وهذا في القوت محرم . وفي سائر السلع خلاف . والأظهر تحريمه لعموم النهي . ولأنه تأخير التصديق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي المضيق . ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجش . وهو أن يقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد . وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها . فهذا إن لم تجر مواطاة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منقطع . وإن جرى مواطاة في ثبوت الخيار خلاف . والأولى إثبات الخيار لأنه تقرير بفعل يضاهي التقرير في المضرة وتلقى الركبان . فهذه النهاية تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمرا لو عليه أقدم على العقد . ففعل هذا من النش الحرام المضاد لاتباع الواجب . فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر . فنكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة : فاشتر السكر . قال : فاشترى سكر كثيرا . فلما جاء وقته رجع فيه ثلاثين ألفا . فانصرف إلى منزله فأفكر

- (١) حديث النهي عن تلقى الركبان : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة .
- (٢) حديث النهي عن التجش : متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة .
- (٣) حديث النهي عن بيع الحاضر للبادي : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس .

ليته وقال : رحمت ثلاثين ألفاً وخسرت نصف رجل من المسلمين ، فلما أصبح غداً إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً وقال : بارك الله لك فيها فقال : ومن أين سارت لي ؟ فقال : إني كنتك حبيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت ، فقال : رحلك الله قد أعلمني الآن وقد طيبتك لك ، قال : فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهراً وقال : ما صنعت ، فلمه استحياء من فكره لي في فكره إليه من الند وقال : عافاك الله ، خذ مالك إليك فهو أجلي ، فأخذ منه ثلاثين ألفاً . فبه الأخبار في المتاع والحكايات تدل على أنه ليس له أن يقتنم فرصة وينتزع غفلة صاحب المتاع ويخني من البائع غلام السر أو من المشتري تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركاً للعقل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مراًجحة بأن يقول : بعت بما ظم على أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يميز بما حدث بعد العقد من عيب أو قصان ، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ، ولو اشترى مساعمة من صديقه أو ولده يجب ذكره ، لأن المامل يعمل على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه ، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره ، إذ الاعتماد فيه على أماته .

الباب الرابع

في الإحسان في الماملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يمر من التجارة يمر رأس المال ، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يمر من التجارة يمر الرخ ، ولا يد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذلك في معاملات الآخرة . فلا ينبغي للتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله (وأحسن كما أحسن الله إليك) وقال عز وجل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وقال سبحانه (إن رحمت الله قريب من المحسنين) ونفى بالإحسان : فعل ما يتنع به المامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فإن الواجب بدخل باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه ، وتال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور :

الأول : في المانة ، فينبغي أن لا يفتن صاحبها بما لا يفتن به في العادة فأمأ أصل المانة فأذن فيه ؛ لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بعين ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المتاد إما لشدة رغبة أو لشدة حاجته في الحال إليه ، فينبغي أن يتنعم من قبله ، فذلك من الإحسان . ومهما لم يكن تليس لم يكن أخذ الزيادة ظالماً ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الثمن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار ، ولنا نرى ذلك ، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الثمن يروي أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان : ضرب قيمة كل حلة منها أربعاً ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعاً ففرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها فمضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس ففرض حله ، فقال للأعرابي : بكم اشتريته ؟ فقال : بأربعاً ، فقال : لتساوى أكثر من مائتين فأرجع حتى تردما ، فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيها ، فقال له يونس : انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم ، وغاصم ابن أخيه في ذلك وقائه وقال : أما استحييت ، أما اتقيت الله ، تبيع مثل الثمن وترك النصح للمسلمين ؟ قال : والله ما أخذتها إلا وهو راض بها . قال : فهلا ضيت له بما ترضاه لنفسك ، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتليس ، فهو من

باب العظم وقد سبق . وفي الحديث « غيب المسترسل حرام »^(١) وكان الزبير بن عدى يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشترى لما يدرهم ، فبين مثل هؤلاء المسترسلين ظلم : إن كان من غير تليس فهو من ترك الإحسان ، وقلنا يتم هذا إلا بنوع تليس وإخفاء سعر الوقت .

وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السري السقطي أنه اشترى كر لوز بستين دينارا وكتب في روزنامه ثلاثة دنانير وبه ، وكأنه رأى أن يبيع على العشرة نصف دينار ، فصار اللوز بستين ، فأنا ما الدلال وطلب اللوز فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال بثلاثة وستين ؛ فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بستين ؛ فقال السري : قد صدقت عقدا لأحله ، لست أبيع له إلا بثلاثة وستين ، فقال الدلال : وأنا عقدت بثلثي وبين الله أن لا أغش مسلما ، لست أخذ منك إلا بستين . قال : فلا الدلال اشترى منه ولا السري باعه ؛ فهذا محض الإحسان من الجانبين ، فانه مع العلم بحقيقة الحال .

وروى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه في غيبته شقة من الخسبات بعشرة ؛ فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرجي المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا قد رضى ، وإن رضى فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فأختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشرينات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة . وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ؛ فقال : أعطني خمسة . فرد عليه خمسة واضرف الأعرجي يسأل ويقول : من هذا الشيخ ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر ؛ فقال : لا إله إلا الله . هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا فعلنا . فهذا إحسان في أن لا يبيع على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتاع في ذلك المكان ومن قنع ببيع قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها بربح كثير . وبه تظهر البركة .

كان على رضى الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلبوا ، لا تردوا قليل الربح فتمرموا كثيره .

فيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يشارك ؟ قال : ثلاث : ما رددت ربما قاط . ولا طلب مني حيوان فأخترت بيمه . ولا بعت بشيته . ويقال : إنه باع ألف ناقة فأرجع إلا عقلا ؛ باع كل عقلا بدرهم فربح فيها ألفاً ورجع من نفقته عليها ليومه ألفاً .

الثاني : في احتمال الثمن . والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتال الثمن ويتساهل ، ويكون به حسناً وداخلاً في قوله عليه السلام « رحم الله امرأ سئل الشراء » فأما إذا اشترى من غنى تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته « فاحتمال الثمن منه ليس محموداً . بل هو تضيق مال من غير أجر ولا حد ؛ فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت « المنبون في الشراء لا محمود ولا مأجور »^(٢) وكان إياس ابن معاوية بن قره قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول : لست بحب والحب لا ينيغي ، ولا يغبني ابن سيرين ولكن يغبني الحسن ويغبني أبي . يعني معاوية بن قره . والكمال في أن لا يغبني ولا يغبني ؛ كما وصف بعضهم عمر

الباب الرابع : في الإحسان في المعاملة

(١) « غيب المسترسل حرام » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد وقال « ربا » بدل « حرام » . (٢) « المنبون في الشراء لا محمود ولا مأجور » أخرجه الأرمزي المحكم في النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن علي يرفعه . قال الذهبي : هو منكر .

رضي الله عنه قال: كان أكرم من أن يخذع . وأعدل من أن يخذع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يبيعون مع ذلك الجزل من المال . قليل لبعضهم : تستقصي في شرائك على البسر ثم تهب الكثير . ولا يقال : قال : إن الواب يعطى فضله وإن المتبون يبن عقله . وقال بعضهم : إنما أعن عقل وبصرى فلا يمكن التابن منه . وإذا وهبت أعطى له ولا أستكثر منه شيئا .

الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمساعة وحط البعض . ومرة بالإمهال والتأخير . ومرة بالمساهلة في طلب جودة التند . وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرءا سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »^(١) فليقتنم قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اسبح يسمع لك »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من أنظر مصرا أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا » وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »^(٣) . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا كان سرقا على نفسه : حوسب فلم يوجد له حسنة . فقيل له : هل عملت خيرا قط ؟ فقال : لا إلا أني كنت رجلا أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا المومر وانظروا المومر »^(٤) . وفي لفظ آخر « وتجاوزوا عن المومر » . فقال الله تعالى : نحن أحق بذلك منك . فجاءه الله عنه وغفر له « وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض دينارا إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله . فإذا حل الأجل فأظفره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة »^(٥) وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر . حتى يكون كالمتصدق بجميعه في كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بمشر أمثلها والقرض بثان عشرة »^(٦) فقيل في معناه : إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج . ولا يحصل ذل الاستراض إلا محتاج . ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلا بدين . فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن ضع الشطر ففعل . فقال للديون : قم فأعطه »^(٧) وكل من باع شيئا وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى القرض .

وروي أن الحسن البصري باع بئله بأربعة درهم . قلبا استوجب المال قال له المشتري : اسبح يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت منك مائة . قال له : فأحسن يا أبا سعيد . فقال : قد وهبت لك مائة أخرى . فقبض من حقه مائتي درهم . فقيل له : يا أبا سعيد . هذا نصف الثمن . فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا . وفي الخبر « خذ حقلك في كفاف وعفاف واف أو غير واف . يحاسبك الله حسابا يسيرا »^(٨) .

- (١) « رحم الله سهل البيع وسهل الشراء » تقدم في الباب قبله . (٢) « اسبح يسمع لك » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات (٣) « من أنظر مصرا أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا » وفي لفظ آخر « أظله الله » تمت ظله يوم لا ظل إلا ظله . رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كبن بن عمرو (٤) حديث : ذكر رجلا كان سرقا على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة . فقيل له : هل عملت خيرا قط . قال : لا إلا أني كنت رجلا أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا المومر ... رواه مسلم من حديث أبي السعد الأضاري . وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة . (٥) « من أقرض دينارا إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله . فإذا حل الأجل فأظفره بعده فله بكل مثل ذلك الدين صدقة » أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة « من أنظر مصرا كان له مثل كل يوم صدقة . ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة » وسنده ضعيف . وراه أحمد والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين . (٦) « رأيت على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بمشر أمثلها والقرض بثان عشرة » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٧) « أومأ إلى صاحب الدين بيده ضع الشطر ... » متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٨) « خذ حقلك في عفاف ... » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله « يحاسبك الله » حسابا يسيرا » وله ولا بن جبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة .

الرابع : في توفية الدين : ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشي إليه بتقاضاه ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيركم أحسنكم قضاء »^(١) ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وليسلم أجود بما شرط عليه وأحسن ، وإن عجز فليؤن قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم « من أدان ديناً وهو ينوى قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه »^(٢) وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ، ومهما كلف صاحب الحق بكلام غش فليحمله وليقابل به بالظلم . اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جله صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاءه ، فجعل الرجل يشدد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به بأصحا به فقال : « دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً »^(٣) ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض ، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض من غنى والمستقرض يستقرض من حاجة ، وحسن ذلك ينبي أن تكون الإحاطة للشئرى أكثر ؛ فإن البائع راغب عن السلعة ينبي ترويجها ، والمشتري محتاج إليها : هذا هو الأحسن ، إلا أن يمدى من عليه الدين حده ، فقد ذلك نصرة في منه عن تدبيرة وإحاطة صاحبه ، إن قال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقتل : كيف تنصره ظالماً ؟ فقال : منعك إياه من الظلم نصرة له »^(٤) .

الخامس : أن يقلل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل إلا متدب مستقرض بالبيع ، ولا ينبي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استعراار أخيه . قال صلى الله عليه وسلم « من أقال نادماً صفقت أقاله الله عثرته يوم القيامة »^(٥) . أو كما قال .

السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالسببية وهو في الحال عازم على أن لا يظالمهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، فقد كان في صالح السلف من لدن قرآن الحساب : أحدهما ترجمته بجهولة ، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أوطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه ، فكان يقول : خذ واغن ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار ، بل صد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في دفتر أصلاً ولا يجهله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يترك قاض ، وإلا فأنت في حل منه وسمة ؛ فهذه طرق تجارات السلف وقد اندست ، والقائم به يحى لهذه السنة ، وبالجملة : التجار يحكم الرجال وبها يتحسن دين الرجل وورعه ، ولذلك قيل :

لا يغررك من المر • • • قيس رقه أو إزار فوق كفه • • • ب الساق منه رقه

أو جبين لاح فيه • • • أثر قد قلمه ولدى الدرهم فانظر • • • غبه أو ورعه

ولذلك قيل : إذا أتى على الرجل جبراته في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تسكروا في صلاحه .

وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد فقال : اتقى بمن يعرفك ، فأناه برجل فأثنى عليه خيراً . فقال له عمر : أنت

(١) « خيركم أحسنكم قضاء » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) « من أدان ديناً وهو ينوى قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » أخرجه أحمد من حديث عائشة « مامن عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ » وفي رواية له « لم يزل معه من الله حارس » وفي رواية للطبراني في الأوسط « إلا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه » (٣) « دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » متفق عليه من حديث أنس . (٥) « من أقال نادماً صفقت أقاله الله عثرته يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

جاءه الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ؛ فقال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : فاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورجع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيت قائما في المسجد معهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ! قال : نعم ، فقال : اذهب فليست تعرفه . وقال الرجل : اذهب فأنتي بمن يعرفك .

الباب الخامس : في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه وبم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا وصفته غاسرة ، وما يقوته من الربح في الآخرة لا يني به ما يناله في الدنيا ، فيكون بمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه . وقال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحواله إليه في العاجل ، وأخرج شيء إليه في العاجل أحسنه عاقبة في الآجل . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته : إنه لا يدلك من نصيبك في الدنيا ، وأنت إلى نصيبك في الآخرة أحوج فأبداً بنصيبك من الآخرة ، فخذ فإنيك ستر على نصيبك من الدنيا فتظلمه . قال الله تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أي لا تنس في الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فإنها موزعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات .

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول : حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة ، فليشو بها الاستغفار عن السؤال ، وكيف الطمع عن الناس استثناء بالاحلال عنهم ، واستماعة بما يكسبه على الدين ، وقياماً بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، وليشو التمسح للسدين ، وأن يجب لسائر الخلق ما يجب لنفسه ، وليشو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه وليشو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق ، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا في طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر الدنيا ربح في الآخرة ،

الثاني : أن يقصد القيام في صنعة أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المايش وملك أكثر الخلق ، فانتظام أمر الكل يتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ، ولو أقبل بهم على صنعة واحدة لتعطلت البراق وهلكوا ، وعلى هذا عمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتي رحمة (١) » أي اختلاف مهمهم في الصناعات والحرف . ومن الصناعات ما هي مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التعم والترين في الدنيا ، فليستغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافيا عن المسلمين مهما في الدين ، وليجنب صناعة النقش والصبغة . وتشيد البنيان بالجلس وجميع ما تزخر به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين . فأما عمل الملاهي والآلات التي يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصانغ مراكب الذهب أو خواتم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصي والآخرة المأخوذة عليه حرام . ولذلك أوجبت الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة في الحل ، لأنها إذا قصدت للرجال فهي محرمة ، وكونها مبيأة للنساء لا يلحقها بالحل المباح . ما لم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد . وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بفلا السمر .

الباب الخامس : في شفقة التاجر على دينه

(١) « اختلاف أمتي رحمة » تقدم في العلم .

ويكره أن يكون جزرا . لما فيه من مساواة القلب . وأن يكون حجاما أو كناسا لما فيه من غامرة التجارة . وكذا الدباغ وما في منته . وكره ابن سيرين الدلالة . وكره قتادة أجرة الدلال . ولعل السبب فيه قلة استثناء الدلال عن الكذب والإفراط في الثناء على السلعة وترويجها . لأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر . ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب . هذا هو العادة . وهو ظلم . بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب . وكرهوا شراء الجيوان للتجارة . لأن المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي يصده لعلامة وحلوه . وقيل : بيع الحيوان واشترى الموان . وكرهوا الصرف . لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير . ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها . وقيل : يتم الصير في ربح إلا باعتداهما معاملة بدقائق النقد . قلنا يسلم الصير في وإن احتاط . ويكره الصير في وغيره كسر الصحيح والدانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ورد نهي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح . وأنا أكره الكسر . وقال : يشتري بالدانير دراهم ثم يشتري بالدرهم ويصوفه . واستحبوا تجارة البز . قال سعيد بن المسيب : ما من تجارة أحب إلي من البز . ما لم يكن فيها أيمان وقد روت « خير تجارتكم البز وغير صناعتكم الخرز^(٢) » وفي حديث آخر « لو أتمر أهل الجنة لا تخرروا في البز . ولو أتمر أهل النار لا تخرروا في الصرف^(٣) » وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز . والتجارة . والحمل . والحياطة . والحلو . والتجارة . وعمل الخفاف وعمل الحديد . وعمل المغازل . ومعالجة حيد البر والبحر . والوراقة . قال عبد الوهاب الوراق . قال لي أحمد بن حنبل : ما صنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب . ولو كنت صائفا يدي لصنعت صنعتك . ثم قال لي : لا تكتب إلا مواسعة . واستبق الحواشي واطور الأجزاء . وأربعة من الصنائع موسومون عند الناس بضعف الرأي : الحماكة . والقطنون . والمغازلون . والمحلون . ولعل ذلك لأن أكثر غلطاتهم مع النساء والصبيان . ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل . كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل . وعن مجاهد : أن مريم عليها السلام مرت في طلبها لميسى عليه السلام بحماكة . فظلت الطريق فأرشدها غير الطريق . فقالت : اللهم انزع البركة من كبهم . وأتهم فقراء . وحفرهم في أعين الناس . فاستجيب دعائهما . وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفایات كفسل الموتى ودفنهم . وكذا الأذان وصلاة التراويح . وإن حكم بصحة الاستجارة عليه . وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع . فإن هذه أعمال حقها أن يتجر فيها الآخرة . وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدينا عن الآخرة ولا يستحب ذلك .

الثالث : أن يمنه سوق الدنيا عن سوق الآخرة . وأسواق الآخرة المساجد . قال الله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الله تعالى ﴿ في بيوت أفن الله أن رفع ويدكر فيها اسمه ﴾ فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته . فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد . كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لديناكم . وكان صالحوا السلف يجعلون أول

(١) حديث الترمذي عن كسر الدينار والدرهم ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى النبي ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائرة بينهم إلا من بأس . زاد الحاكم : أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ، ويكسر الدينار فيجعل ذهبا . وضعفه ابن حبان . (٢) « خير تجارتكم البز ، وخير صنائعكم الخرز » لم أقف له على إسناد ، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب . (٣) « لو أتمر أهل الجنة لا تخرروا في البز ، ولو أتمر أهل النار لا تخرروا في الصرف » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف وروى أبو يعلى والحقلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق .

التجار وآخره للأخرة والوسط للتجارة ، ولم يكن يبيع الحريية والرموس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة ، لأنهم كانوا في المساجد بعد . وفي الخبر «إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة المبد وفيها في أول النهار وفي وآخره ذكر الله وخير : كفر الله عنهما ما بينهما من سيئ الأعمال» (١) وفي الخبر «تلتق ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وحبناهم وهم يصلون ؛ فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أني قد غفرت لهم» (٢) ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأول والعصر ، فينبغي أن لا يخرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ، فاقفوه من فضيلة التسمية الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهمالم يحضر الجماعة صلى عند بعض العلماء . وقد كان السلف يتدرون عند الأذان ويغنون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقرابيط لحفظ الحرايف في أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم . وقد جاء في تفسير قوله تعالى «لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» (٣) أنهم كانوا حدادين وخراذين ؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشتي فسمع الأذان لم يخرج الإشتي من الغرز ولم يوقع المطرقة ورى بها وقام إلى الصلاة . والرابع : أن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالليل والتسليم ، فذكر الله في السوق بين الثغافين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم «ذاكر الله في الثغافين كالقاتل خلف الثغارين . وكالحى بين الأموات» وفي لفظ آخر «كالشجرة الخضراء بين المحشم» وقال صلى الله عليه وسلم «من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير . كتب الله له ألف ألف حسنة» (٤) وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لثيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله في السوق يجيئ يوم القيامة له نسوة كضوء القمر . وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها . وكان عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق . ومن شر ما أحاطت به السوق . اللهم إني أعوذ بك من بين فاجرة وصفقة خاسرة . وقال أبو جعفر الطرقاني : كنا يوما عند الجنيد . جرى ذكر ناس مجلسون في المساجد يتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويمسكون من يدخل السوق ؛ فقال الجنيد : كم ممن هو في السوق حكمة أن يدخل المسجد ؟ يأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويطلب مكانه . وإني لأعرف رجلا يدخل السوق وردة كل يوم ثلثة ركة وثلاثون ألف تسبيحة . قال : فسبح إلى وهى أنه يعنى نفسه ؛ فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا لتنعم في الدنيا ؛ فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة . والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد . وإنما التجارة بالتقوى . قال صلى الله عليه وسلم «اتق الله حيثما كنت» (٥) فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المجردين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال . وبه تكون حياتهم وعيشهم . لإذ فيه يرون تجارتهم وربحهم . وقد قيل : من أحب الآخرة طاش . ومن أحب الدنيا طاش . والآخر يظلو ويروح في لاش . والمائل عن عيوب نفسه قاش .

(١) «إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة المبد وفي أول النهار وآخره ذكر الله وخير كفر الله ما بينهما من سيئ الأعمال» أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بن مالك ضعيف بمناه .

(٢) «تلتق ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ ...» متفق عليه من حديث أبي هريرة ؛ يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ...»

(٣) «من دخل السوق قال لا إله إلا الله لا شريك له ...» تقدم في الأذكار .

(٤) «اتق الله حيثما كنت» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة . وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج .
وبأن يركب البحر في التجارة ؛ فمما مكروهان . يقال : إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق . وفي الخبر
« لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو »^(١) . وكان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : لا تكن
أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها ؛ فإن بها باض الشيطان وفرخ . روى عن معاذ بن جبل وصعد الله بن عمر :
أن إبليس يقول لولده زبور : سر بكتنايك فأت أصحاب الأسواق . زين لهم الكذب والخلف والخديعة والمكر
والتعيا . وكان مع أول داخل وآخر خارج منها . وفي الخبر « شر البقاع الأسواق . وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم
خروجاً »^(٢) . وتعام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته ؛ فإذا حصل كفايته وقتها انصرف واشتغل بتجارة الآخرة
هكذا كان صالحو السلف ؛ فقد كان منهم من إذا بيع دافعا انصرف فباعه . وكان حاد بن سلة يبيع الخزفي سقط
بين يديه ؛ فكان إذا ربح حيتين رفع حفته وانصرف . وقال إبراهيم بن يشار : قلت لإبراهيم بن آدم رحمه الله :
أمر اليوم أعمل في العطين فقال : يا ابن يشار ، إنك طالب ومطلوب . يطلبك من لافوته وتطلب ما قد كفته .
أما رأيت حرصا محروما وضيفا مروزقا ؟ قلت : إنني دافعا عند البقال ؟ فقال عز علي بك . تملك دافعا وتطلب
العمل ؛ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر . ومنهم بعد العصر . ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوما أو يومين
وكانوا يكتفون به .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يبتغي مواقع الشبهات ومغان الرب ولا ينظر إلى الفتاوى
بل يستغنى قلبه ؛ فإذا وجد فيموازاة اجتنبه . وإذا حمل إلى المسلمة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة
« وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن . فقال : من أين لكم هذا ؟ فقالوا : من الشاة ؛ فقال : ومن
أين لكم هذه الشاة ؟ » قيل : من موضع كذا ؛ فشرب منه ثم قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً
ولا نعمل إلا صالحاً »^(٣) . وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا
من طيبات ما رزقناكم) »^(٤) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الثي . وأصل أمه ولم يرد . لأن ما وراء
ذلك يتعدى . وسنتين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ؛ فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن
كل ما يحمل إليه ^(٥) . وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ؛ فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة
أو دبا فلا يعامله . وكذا الاجتناد والظلة لا يعاملهم أبداً ولا يعامل أصحابهم وأعوامهم ، لأنه معين بذلك على الظلم .
وحكى عن رجل عن أنه تولى عمارة سور لثمن الثغور . قال : فوقع في نفسي من ذلك شيء . وإن كان ذلك العمل
من الخيرات بل من فرائض الإسلام . ولكن كان الأمير الذي تولى في محله من الظلة . قال : فسألت عسفيان رضي الله

(١) « لا تترك البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو » أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو ، وقيل إنقطع
(٢) « شر البقاع الأسواق وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » تقدم صدر الحديث في الباب السادس من
العلم ، وروى أبو نعيم في كتاب حرمة للمساجد من حديث ابن عباس « أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها
إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » .

(٣) حديث سؤاله عن اللبن والشاة ، وقوله « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً »
رواه الطبراني من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف .

(٤) « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : كان لا يسأل عن كل ما يحمل إليه . رواه أحمد من حديث جابر : أن النبي ﷺ وأصحابه مروا بامرأة
فدجحت لهم شاة ... ، فأخذ النبي ﷺ لمة فلم يستطيع أن يسفيها ، فقال : هذه شاة دجعت بنير إذن أهلها ... وله
من حديث أبي هريرة : كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه ... وإسناده جيد . وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتى
به من عند أهله ، والله أعلم .

عنه فقال : لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير ، قلت : هذا سور في سبيل الله للسليبي ! فقال : نعم ، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقايمهم ليوفر لك أجره ؛ فتكون قد أحبت بقاء من يعصى الله . وقد جاء في الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » وفي الحديث « إن الله لينضب إذا منح القاسق » وفي حديث آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » ودخل سفيان على المهدي ويده درج أبيض ، فقال : يا سفيان أعطني الدواة حتى أكتب ، فقال : أخبرني أي شيء تكتب ، فإن كان حقا أعطيتك . وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبرين عنده أن يثاوله ليتنا ليختم به الكتاب ، فقال : ثاولني الكتاب أولا حتى أنظر ما فيه ، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الطلبة ومعاملتهم أشد أنواع الإعاقة : فينبغي أن يحتجها ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلا . وبالجملة فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لا يعامل ، وليكن من يعامل أقل ممن لا يعامله في هذا الإيمان . قال بعضهم : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون : عامل من شئت إلا فلانا وفلانا ثم أتى زمان آخر فكان يقال : لا تعامل أحدا إلا فلانا وفلانا ، وأخشى أن يأتي زمان ينهب هذا أيضا . وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون ، إن الله وإنا إليه راجعون .

السابع : ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته مع واحد من معامليه ، فإنه يراقب ومحاسب ، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فصلة وقوله إنه لم أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟ فإنه يقال : إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئا وقفة ، ومحاسب عن كل واحد محاسب على عدد من عمله . قال بعضهم : رأيت بعض التجار في النوم ، قلت : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : نشر على خمسين ألف صحيفة ، قلت : هذه كلها ذنوب ، فقال : هذه معاملات الناس يند كل إنسان عاملته في الدنيا ، لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب في عملهم العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن أقصر على العدل كان من الصالحين ، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقيدين ، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب .

ثم كتاب آداب الكسب والمعيبة بمحمد الله ومنه

(١) « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن ، وقد ذكره للسنف هكذا على الصواب في آفات اللسان .

(٢) « إن الله لينضب إذا منح القاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن عدى في الكامل ، وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » غريب بهذا اللفظ المعروف « من قر صاحب بدعة... » ورواه ابن عدى من حديث عائشة ، والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة . قال ابن الجوزي : كلها موضوعة .

كتاب المحرول والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربيع الماديات من صكتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ؛ ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأنم اعتدال ؛ ثم غذاه فى أول نشوره بلبن استصفاه من بين قرث ودم سائفا كلاء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والاحتمال ؛ ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال وقهرها بما اقترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرهما جند الشيطان المشر للإضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم بجرى الدم السيل ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والجمال ، إذ كان لا يذره إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال ؛ فبقى لما زمت بزمام الحلال عاتبا غاسرا ماله من ناصر ولا وال . والصلاة على محمد الهادى من الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » (١) رواه ابن مسعود رضى الله عنه . وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهما : وأتقيا على الجوارح فهما . ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا . وصار غموض عليه سببا لاندراس عمله . إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود . وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات . والحشيش الثابت فى الموات . وما عدا . فقد أخبثت الأيادى المعادية . وأفسدت المعاملات الفاسدة . وإذا تعذرت التناعة بالحشيش من الثبات لم يبق وجه سوى الانساع فى المحرمات ؛ فرفضوا هذا التقطع من الدين أصلا . ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا . وهبأت هبأت فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهاة . ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات : ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها . واستطار فى الخلق شررها . وجب كشف النطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان . ولا يخرجها التعصيق عن حيز الإمكان .

ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشهوات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والمجزم والإحمال ومطائنا فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية (الباب الخامس) فى إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم . (الباب السادس) فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة .

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » تقدم فى الزكاة دون قوله « على كل مسلم » وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « واجب على كل مسلم » وإسناده ضعيف .

الباب الأول : في فضيلة الحلال ومفمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومفمة الحرام

قال الله تعالى ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ امن بالأكل من الطيبات قبل العمل . وقيل ان المراد به الحلال . وقال تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالكم يتسكعاً بالباطل﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ الآية . وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بينكم وبينكم﴾ ثم قال ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ ثم قال ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ ثم قال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ جعل أكل الربا أول الأمر مؤذناً بحاربة الله ، وفي آخره تعرضاً للنار ، والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى . وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ولما قال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالمحدثين واحداً .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وفي رواية « زهد الله في الدنيا » وروى : أن سمعاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله محابب الدعوة ، فقال له : أطلب طعمتك تستجب دعوتك » ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال « رب أشمت أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يا رب يا رب ، فأني يستجاب لذلك » وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة : من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل » فقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوباً

(١) « طلب العلم فريضة على كل مسلم » تختم في العلم . (٢) « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « من سعى على عياله في سبيل الله » ولأبي منصور في مسند الفردوس « من طلب مكسبه من باب حلال يكف بها وجهه عن مسئلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » وإسناده ضيف . (٣) « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب « من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولأبي عدى نحوه من حديث أبي موسى ، وقال : حديث منكر . (٤) حديث : أن سمعاً سأل النبي ﷺ أن يسأل الله أن يجعله محابب الدعوة ، فقال له « أطلب طعمتك تستجب دعوتك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه . (٥) « رب أشمت أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام ... » أخرجه مسلم من أبي هريرة بلفظ : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشمت أغبر ... (٦) حديث ابن عباس « إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة : من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل » لم أقف له على أصل ، ولأبي منصور في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود « من أكل لقمة من حرام لم يقبل له صلاة أربعين ليلة ... » وهو منكر .

بشرة درهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالتار أولى به (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في طلب الحلال (٤) « روى هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً . وقال صلى الله عليه وسلم « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح واقه عنه راض (٥) « وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أغفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قدفه في النار (٦) « وقال عليه السلام « خير دينكم الورع (٧) « وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله (٨) « ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : وأما الورعون فأما استحي أن أحاسنهم وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربأشد عند الله من ثلاثين زينة في الإسلام (٩) « وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه « المدة حوض البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المدة صددت العروق بالصحة ، وإذا سقمت صددت بالسقم (١٠) « ومثل الطلعة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل (أفن أسس بنيانه هل تقوى من الله) الآية . وفي الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار (١١) « وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال : تكلمت لقوم فأعطوني ، فأدخل أمابعه في فيه وجعل يقي حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إني أعترئ إليك ما حملت العروق وخاطف الأما (١٢) . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : أو ما علمتم أن الصديق

(١) « من اشترى ثوباً ببشرة درهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء » ورواه من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٢) « كل لحم نبت من الحرام فالتار أولى به » أخرجه الترمذي من حديث كعب بن جحرة وحسنه . وقد خدم (٣) « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر . قال ابن العربي في عارضة الأحوصي شرح الترمذي : إنه باطل لم يصح ولا يصح . (٤) « العبادة عشرة أجزاء ، فتسعة منها في طلب الحلال » رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس ، إلا أنه قال « تسعة منها في الصمت والمباشرة كسب اليد من الحلال » وهو منكر . (٥) « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح واقه عنه راض » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « من أمسى كلاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وفيه ضعف . (٦) « من أصاب مالا من مأم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أغفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قدفه في النار » رواه أبي داود في اللراسيل من رواية القاسم بن عجيبة مرسل .

(٧) « خير دينكم الورع » تقدم في العلم . (٨) « من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله » لم أقف له على أصل (٩) « درهم من ربأشد عند الله من ثلاثين زينة في الإسلام » رواه أحمد والدارقطني من حديث عبد الله حنظلة وقال : ستة وثلاثين ، ورجاله ثقات ، وقيل : عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً . والطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « ثلاثة وثلاثين » وسنده ضعيف . (١٠) حديث أبي هريرة « للعدة حوض البطن ، والعروق إليها واردة » أخرجه الطبراني في الأوسط ، والمقبلي في الضعفاء وقال باطل لا أصل له . (١١) « من اكتسب مالا حراماً فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ؛ ولأن حبان من حديث أبي هريرة « من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه » . (١٢) « إن أبابكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأله فقال : تكلمت لقوم فأعطوني فأدخل أمبعه في فيه وجعل يقي . وفي بعض الأخبار أنه ﷺ لا أخبر بذلك قال أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً » رواه البخاري من حديث عائشة : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ؛ فقال له الغلام : أأندري ما هذا ؟ فقال : وما هو ؟ قال : كنت تكلمت لإنسان في الجاهلية فذكره ، دون المرفوع منه ، فلم أجده

لا يدخل جوفه إلا طيبا . وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا . فأدخل أحسنه متبعا . وقاله عائشة رضى الله عنها : إنكم لتفعلون من أفضل العبادات . هو الورع . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : لو صليت حتى تكونوا كالحنانيا . وصمت حتى تكونوا كالأوتار . لم يقبل ذلك مشك إلا بورع حاجر . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ما أدرك من أدرك إلا من كان يقبل ما يدخل جوفه . وقال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب الله صدقا . فاطر عند من فطر يمسكين . وقيل لإبراهيم بن آدم رحمه الله : لم لا تقرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لي دلو شربت منه . وقال سفيان الثوري رضى الله عنه : من أتقن من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب للنسج بالبول والثوب للنسج لا يطهره إلا الماء . والذنب لا يكفره إلا الحلال . وقال يحيى بن معاذ الطاعة خزائن خزانة الله إلا أن مفتاحها النماء . وأسائه لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام . وقال سهل التستري : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة . وأكل الحلال بالورع . واجتناب التلبى من الظاهر والباطن والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالا ولا يعمل إلا في سنة أو ضروره . ويقال : من أكل الشبه أربعين يوما أظلم قلبه ؛ وهو تأويل قوله تعالى (لا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقال ابن المبارك : رد دم من شبه أحب إلى من أن تصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف . حتى بلغ إلى سائة ألف . وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكلة فيقلب قلبه . فينقل كالآدم ولا يعود إلى حاله أبدا . وقال سهل رضى الله عنه : من أكل المحرام عصت جوارحه شاء أم أبى . علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ووقفت للخيرات . وقال بعض السلف : إن أول لذة يأكلها العبد من حلال ينفر له ماسلف من ذنوبه . ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى في آثار السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثا . فإن كان معتقدا لبدعة فلا تمالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق . وإن كان سواه الطعمة فمن الهوى ينطق . فإن لم يكن مكنى العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تمالسوه .

وفي الأخبار المشهورة من عل عليه السلام وغيره : إن الدنيا حللها حساب وحرامها عذاب . وزاد آخرون وشبهها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع طعاما إلى بعض الأبدال فلم يأكل . فسأله عن ذلك فقال : نحن لا نأكل إلا حلالا . فذلك تستقيم قلوبنا وبدوم سالنا ونكاشف للملكوت ونفاهد الآخرة . ولو أكلنا مما نأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ولذهب الخوف والمساعدة من قلوبنا . فقال له الرجل : فإني أصوم الدهر وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين مرة . فقال له البذل : هذه الثمرة التي رأيتني شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة في ثمانية ركنة من أعمالك . وكانت شربته من لبن طيبة وحشية .

وقد كان بين أحد بن حنبل ويحيى بن معين حجة طويلة . فجهره أحد إذ سمعه يقول : إز لا أسأل أحدا شيئا . ولو أعطاني الشيطان شيئا لأكته . حتى اعتذر يحيى وقال : كنت أمرح فقال : ترح بالدين . أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال (كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) .

وفي الخبر : أنه مكتوب في التوراة « من لم يبال من أين . طعمه لم يبال الله من أي أبواب النيران أدخله » وعن علي رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاما إلا عتوما حذرا من الشبهة .

واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة فذكروا الربط . فقال وهيب : هو من أحب الطعام إلى . إلا أني لا أكله لاختلاط رطب مكة بيسانين زبيدة وغيرها . فقال له

ابن المبارك : إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال : وما سببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصواب ، فنتى على وهيب ، فقال سفيان : قلت الرجل ، فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أهون عليه ، فلما أتق قال : قد عني أن لا أكل خبزاً أبداً حتى ألقاه . قال : فكان يشرب اللبن ، قال فأثمة أمه بلبن فسألها فقالت هو من شاة بني فلان ، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لحم فذكرت ، فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعى ؟ فكتكت . فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين ، فقالت أمه : اشرب فإن الله يغفر لك ، فقال : ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنا لم مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافي رحمه الله من الوردعين ، فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبيك كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه ، ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها . فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتب الفقه . ونحن الآن نشير إلى إجماعه في سياق تقسيم : وهو أن المال إنما يحرم إما لمخفى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه .

القسم الأول : الحرام لصفة في عينه كالخنزير والخنزير وغيرها

وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أصنام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كاللحم والطين وغيرها . أو من النبات ، أو الحيوانات .

أما المعادن : فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالأكل ، وفي بعضها ما يجري مجرى السم ، والخنزير لو كان مضراً لحرم أكله ، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر . وفائدة قولنا : إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل ، أنه لو وقع شيء منها في مرة أو طعام مائع لم يصير به محرماً .

وأما النبات : فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة ، فزيل العقل : الخمر والسكر والسكرات ، ومزيل الحياة : السموم . ومزيل الصحة : الأدوية في غير وقتها . وكان مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والسكرات . فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قتله لعينه ولصفته ، وهي الشدة الطرية . وأما السم فإذا خرج عن كونه مضر لقلته أو لعينه بنفيه فلا يحرم .

وأما الحيوانات : فتقسم إما يؤكل وإلى مالا يؤكل ، وتفصيله في كتاب الأطعمة . والنظر يطول في تفصيله ، لاسيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر . وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روعى فيه شروط الذابح والآلة والذبح . وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبايح . وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام . ولا يحل إلا ميتتان : السمك والجراد . وفي معناهما ما يستحيل من الأطعمة كندود التفاح والخل والجبن . فإن الإحراز منها غير ممكن . فأما إذا أفرحت وأكلت فحكمها حكم الذبائح والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة : لا سبب في تحريمها إلا الاستقذار . ولو لم يكن لكن لا يكره . فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالحيثيات لعموم الاستقذار . فيكفه أكله . كالألجج المخاط وشربه كره

ذلك ، وليست السكراة لثباتها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخل الدباب في الطعام إذا وقع فيه^(١) ، وربما يكون حاراً ويكون ذلك سبب موته ، ولو تهرت نمل أو ذبابة في قدر لم يجب إراقها ، إذ المستفاد هو جرمه إذا بقي له جرم ، ولم تنجس حتى يحرم بالنجاسة ، وهذا يدل على أن جرمه للاستفاد ، ولذلك نقول : لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن دائق حرم الكل لا لنجاسته فإن الصحيح أن الأذى لا ينجس بالموت ، ولكن لأن أكله محرم احتراماً لاستفاداً . وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تخل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرو وكل ما يقضى بنجاسته منها ، بل تناول النجاسة مطلقاً محرم . ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات . وأما من الثبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج . فإن نجاسة المسكر تنلظ الزجر عنه لكونه في مظنة التشوف . ومهما ونمت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقعة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه ولا يحرم الاتضاع به لنير الأكل . فيجوز الاستصباح باليمن النجس . وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها . فنهى جامع ما يحرم لصفة في ذاته .

القسم الثاني : ما يحرم خلل في جهة إثبات اليد عليه

وفيه يتسع النظر فنقول : أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره فالذي يكون بغير اختياره كالإرث والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنبيل المعادن . أو يكون من مالك . والذي أخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً . والمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالنكاح أو لاستحقاق الأخذ كزكاة المتعين والنفقات الواجبة عليهم . والمأخوذ تراضياً إما أن يؤخذ بموضع كالبيع والهدايا والأجرة . وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية . فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

(الأول) : ما يؤخذ من غير مالك : كنبيل المعادن ، وإحياء الموات . والاصطياد . والاحتطاب . والاستقاء من الآبار . والاحتشاش . فهذا حلال بشرط أن لا يكون للمأخوذ محتصا بنى حرمة من الآدميين . فإذا انفك من الاختصاصات ملكها أخذها ، وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات .

(الثاني) : المأخوذ قهراً من لاحرمة له وهو التي والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين . وذلك حلال للسلطان إذا أخرجها منها الخس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد وتفصيل هذه الشروط في كتاب السهر من كتاب التي والغنيمة وكتاب الجزية .

(الثالث) : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه . فيؤخذ دون رضاه . وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق . واستوفاه من ملكه الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق . وتفصيل ذلك في كتاب تفرير الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات . إذ فيها النظر في صفة المستحقين الزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق . فإذا استوفيت شرائطها كان للمأخوذ حلالاً .

(الرابع) : ما يؤخذ تراضياً بمأوغة . وذلك حلال إذا روعي شرط الموصين وشرط المعادين وشرط الفطنين : أعني الإيجاب والقبول . مع ما عدا الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة . ويسان ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضيان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكناية والصدقات وسائر المعاملات .

(١) حديث الأمر بأن يخل الدباب في الطعام إذا وقع فيه . رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض . وهو حلال إذا روعي فيه شرط المقود عليه وشرط المعادين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره . وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات .

السادس : ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات المحس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا . وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض . فلهذا يجمع مدخل الحلال والحرام أرومانا إلى جنبتها ليحلل الربدأ فإن كانت طمعت متفرقة لامن جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور . فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات ينهى أن يستغنى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل . فإنه كما يقال للعالم : عاقتك ؟ يقال للجاهل : لم لأمت جهلك ولم تعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم ؟

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث . لكن بعضه أخيب من بعض . والحلال كله طيب . ولكن بعضه أطيّب من بعض وأحسن من بعض . وكما أن الطبيب يصح على كل حلو بالحرارة ولكن يقول : بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر وبعضها حار في الثانية كالفايز . وبعضها حار في الثالثة كالديس وبعضها حار في الرابعة كالسحل كذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى . وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه فتتعدى بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريبا . وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر . فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر . وكذا غيره فلذلك نقول : الورع عن الحرام على أربع درجات :

ورع الدول : وهو الذي يجب الفسق باقحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض لثأر بسبه : وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم . ولكن المفق يرخس في التناول بناء على الظاهر . فهو من مواقع الشبهة على الجملة . فنفس التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية .

الثالثة : ما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حله . ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم . وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس . وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » (١) .

الرابعة : ما لا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس . ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله . أو تطرق إلى أسباب المسئلة له كراهية أو معصية . والامتناع منه ورع الصديقين . فهذه درجات الحلال جملة إلى أن تفصلها بالأمثلة والشواهد .

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة وإطراح سمة الفسق . فهو أيضا على درجات في الخبث . فالأخوذ بمقد فاسد كالمعاطة مثلا فبالا يجوز فيه المعاطة حرام . ولكن ليس في درجة المنسوب على سبيل القهر . بل المنسوب أغلظ إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير

(١) « لا يبلغ العبد درجة للمتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » رواه ابن ماجه . وقد تقدم .

وليس في المعاطاة إيذاء ، وإنما فيه ترك طريق التمدد فقط ، ثم ترك طريق التمدد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا ، وهذا التفاوت ينسبك بتقدير الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي ، على ماسياقي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، بل المأخوذ طلباً من فقير أو صالح أو من قيم أخيه وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق ، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذي ، فيه دقات في تفاصيل الحياث لا ينبغي أن ينهل عنها ، فلو لا اختلاف درجات المعصاة لما اختلفت درجات التار وإذا عرفت مثرات التنظيط فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة ، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشبي ، وهو مطلب حصر فيما لا حصر له وبذلك على اختلاف درجات الحرام في الحب ماسياقي في تمارض المنفورات وترجيح بعضها على بعض ، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإننا نقدم بعض هذا على بعض .

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدنا

أما الدرجة الأولى : وهي ورع المدول ، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه بما يدخل في المداخل الست التي ذكرناها من مداخل الحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لا وجوب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كاسياقي في باب الشبهات إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام . ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع للموسرين ، كن يتنعم من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه ، وهذا وسواس ، ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) وعمله على نهى التزبه . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كلما أصبحت ودع ما أعتيت »^(٢) والإيماء : أن يجري الصيد فيفسب عنه ثم يتركه ميتاً ، إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر . والذي تختاره كاسياقي : أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين . وقوله « دع ما يريبك » أمر تزبه ، إذ ورد في بعض الروايات « كل منتهون غاب عنك ما لم تجد فيه أثراً غير سهمك » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في السكب المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإن أعاف أن يكون إنما أسك على نفسه » على سبيل التزبه لأجل الخوف . إذ قال لأبي ثعلبة الخنسي « كل منه » فقال : وإن أكل منه ؟ فقال « وإن أكل كل »^(٣) وذلك لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لاحتتمل هذا الورع . وحال عدي كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء . مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به فأمثلة هذه الدرجة نذكرها في التريض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة .

أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين . فيشهد لما قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس غفلة ما به بأس » وقال عمر رضي الله عنه : كنا ندفع تسمية أشتار الحلال غفلة أن تقع في الحرام ،

(١) « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث الحسن بن علي .

(٢) « وكل ما أصبحت ودع ما أعتيت » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه وقال :

إن للرفوع ضعيف .

(٣) حديث قال لأبي ثعلبة « كل منه » ؛ فقال : « وإن أكل ؟ قال : « وإن أكل » رواه أبو داود من رواية عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ، ومن حديث لأبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادها جيد ، والبيهقي موقوفاً عليه وقال : إن الرفوع ضعيف .

وقيل : إن هذا عن عباس رضى الله عنهما ، وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثال ثرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فجعلها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خشية الزيادة ، وكان بعضهم يحرز : فكل ما يستوفيه يأخذ بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار ، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس ، فإن ذلك حلال في الفتوى ، ولكن يخاف من فتح بابه أن يتجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وترك الورع .

فمن ذلك ما روي عن علي بن معبد أنه قال : كنت ساكنا في بيت بكراه ، فكشبت كتابا وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأثر به وأجفئه ، ثم قلت : الحائط ليس لي ، فقالت لي قمى : وما قدر تراب من حائط ، فأخذت من التراب حاجتي ، فلما تمت فإذا أنا بشخص واقف يقول : يا علي بن معبد ، سيم غدا الذي يقول : وما قدر تراب من حائط ، ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته ، فإن التقوى درجة تقوت بقوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله .

ومن ذلك ما روي أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته حاتكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أجاد القول فأطادت الجواب ، فقال : بل أحبيت أن تضعيه بكفك ثم تقولين فيها أثر التراب فتسمعين بها عتفك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين ، وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين . فأخذ بأفقه حتى لا تصيبه وقال : وهل يتضح منه إلا برصه لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه تمر من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ »^(١) أي أيتها .

ومن ذلك ما روي بعضهم أنه كان عند معتز فأتى ليلالقال اطفأوا السراج فقد حدث اللوثة حتى في الدهن . وروى سليمان التيمي عن نسيمة البطارية قالت : كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيبا من طيب المسلمين لتيمة ، فباعته طيبا فجعلت تقوم وتزبد وتنقص وتكسر بأستانها ، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسح به مخارضا فدخل عمر رضى الله عنه فقال : ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته فقال : طيب المسلمين تأخذينه ، فانزع الخمار من رأسها وأخذ جرة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه ، ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح ، قالت : ثم أتينا مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها ، فأدخلت أصبعها فيها ثم مسح به التراب ، فهذا من عمر رضى الله عنه وروح الفتوى ، لحوف أداء ذلك إلى غيره ، وإلا فنسل الخمار ما كان يبيد الطيب إلى المسلمين ، ولكن اتلفه عليها زجرا وودعا وإقواء من أن يعمد الأمر إلى غيره .

ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يعمل بمجرة لبعض السلاطين فيبخر المسجد بالعود فقال : ينبغي أن يخرج من المسجد ، فإنه لا يتضح من العود إلا رائحته ، وهذا قد يقارب الحرام . فإن القدر الذي يثبت بثوبه من رائحة الطيب قد يصد وقد ينجس به ، فلا يدرى أنه يساق به أم لا .

وسئل أحمد بن حنبل عن سقعت منه ورقة فيها أحاديث قبل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردعها ؟ فقال : لا بل يستأذن ثم يكتب . وهذا أيضا قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا ، فاهو في عمل الشك والأصل تحريره فهو حرام ، وتركه من الدرجة الأولى ، ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها — وإن كانت الزينة مباحة في نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن الثعال السبئية فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للعين فأدجو ، وأما من أراد الزينة فلا .

(١) حديث : أخبذ الحسن بن علي تمر من الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ » أي أيتها . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

رضى الله لما ولى الخلافة كانت له زوجة يحبها . فطلقها خيفة أن تفسد عليه بشفاعه فى باطل فيطعنها ويطلب رضاها . وهذا من ترك مالا بأس به عاقبة مما به اليأس : أى عاقبة من أن يقضى إليه . وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات . حتى استكثر الأكل واستمال الطيب للشرب فإنه يحرك الشهوة ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره . وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم . مباح فى نفسه ولكن يسبج الجرم ويدعو إلى طلب مثله . ويأثم من ارتكاب مالا يحل فى تحصيله . وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة فى وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرة أولاً ثم بالحرث ثانياً ؛ فقلنا تلغوا قبتها من خطر . وكذا كل ما اخذ بالشهوة فقلنا يخطو عن خطر . حتى كره أحمد بن حنبل تخصيص الحيطان وقال : أما تخصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تخصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه . حتى أنكر تخصيص المساجد وتزيينها . واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أن يكمل المسجد ؛ فقال « لا ، عريش كعريش موسى ^(١) » وإنما هو شئ مثل الكحل يطلى به . فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه . وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رقى ثوبه رقى دينه . وكل ذلك خوفاً من مريان أنواع الشهوات فى المباحات إلى غيرها ؛ فإن المحظور والمباح تشبهتا النفس بشهوة واحدة . وإذا تعودت الشهوة استرسلت . فاقضى خوف التقوى الودع عن هذا كله ؛ فكل حلال انفك عن مثل هذه الخفاة فهو الحلال الطيب فى الدرجة الثالثة ، وهو كل مالا يخاف أداؤه إلى مصيبة ألبنة .

أما الدرجة الرابعة : وهو وروج الصديقين ، فالحلال عندهم كل مالا يتقدم فى أسبابه مصيبة ولا يستعان به على مصيبة ولا يقصد منه فى الحال والمآل قضاء وطر ، بل يتناولون الله تعالى فقط والتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله ، وهؤلاء الذين يرون كل ما ليس لله حراماً ، أمثالاً لقوله تعالى (قل الله ثم ذرم فى خوضهم يلعبون) وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم ، المتفردين لله تعالى بالقصد . ولا شك فى أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمصيبة ليتورع عما يقتدر بسبب اكتسابه مصيبة أو كرامية ؛ فمن ذلك ما روى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لو تمسحت فى أقدام قليلا حتى يعمل الدواء ، فقال : هذه نسيئة لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة . فكأنه لم تحضره نية فى هذه المشية تعلق بالدين . فلم يجز الإقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش فى جبل وما يخرج منه . فتناولت من الحشيش وشربت من الماء . وقلت فى نفسى : إن كنت قد أكلت يوماً حلالاً طيباً فهو هذا اليوم فتهب بى هائف : إن القوة التى أوصلتك إلى هذا الموضوع من أين هى ؟ فرجعت وندمت . ومن هذا ما روى عن نسي التون المصرى أنه كان جائعاً عجوساً . فبحث إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجان . فلم يأكل . ثم اعتذر وقال : جاءنى على طبق ظالم . يعنى أن القوة التى أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة . وهذه التاية القصوى فى الودع . ومن ذلك أن بشراً رحمه الله كان لا يشرب المساء من الأتهار التى حفرها الأمراء . فإن التهر سبب لجريان المساء ووصوله إليه وإن كان المساء مباحاً فى نفسه فيكون كالمستمتع بآثار المحفور بأعمال الأجر . وقد أعطوا الأجرة من الحرام ؛ ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال . وقال لصاحبه : أفسدته إذ سقيته من الماء الذى يجرى فى النهر الذى حفرته الظلة . وهذا أبعد من شرب نفس الماء . لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك المساء . وكان بعضهم إذا مر فى طريق الحج لم يشرب من المصانع التى عملتها الظلة مع أن الماء مباح ولكنه بقى عفوصاً بالمصنع الذى عمل به بمال حرام . فكأنه انتفاع به . وامتناع نسي التون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله ، لأن يد السجان لا توصف بأنها حرام . بخلاف الطبق المنسوب إذا حل عليه ، ولكنه وصل إليه

(١) أنه سئل أن يكمل المسجد فقال « لا ، عريش كعريش موسى » أخرجه الدارقطني فى الأفراد من حديث أبي السرداء وقال : غريب .

بقوة اكتسبت بالغناء الحرام ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه من اللين خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جمل ، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخليه البطن عن الخيث من ورع الصديقين ، ومن ذلك ؛ التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يحيط في المسجد ، فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد . وسئل عن المأذول يجلس في قبة في القابر وفي وقت يحاف من المطر ، فقال : إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفا بعضهم سراجاً أسمرجه غلامه من قوم يكرهه ما لهم . وامتنع من تجرير تور النيز وقد بقي فيه حجر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شمع نعله في مشعل السلطان ؛ فإنه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة .

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمة الفتوى وهو ورع العبدول وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس له مما أخذ بشوة أو توصل إليه بمكرهه ، أو انفصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط ، فكما كان العبد أشد تقديراً على نفسه أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط ، وأبعد عن أن ترجع كفة سيئاته على كفو حسناته ، وتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع ، كما تفاوت درجات النار في حق الطلبة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث ، وإذا علت حقيقة الأمر فإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحنط وعلى نفسك ترخص . والسلام .

الباب الثاني : في مراتب الشبهات ومثارها وتميزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يسلها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لنفسه ودنياه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » (١) فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها ، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل ، فنقول :

الحلال المطلق : هو الذى خلا من ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه ، وانحصر عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقعاً عند جمعه وأخذونه الهواء في ملك نفسه أو في أرض مباحة .

والحرام المحض : هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها ، كالشدة المطرية في الحر ، والتجاسة في البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعا كالخصل بالظلم والربا ونظائره ، فهذان طرفان ظاهران ، ويتحقق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتسب تنزيهه ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ، فإن سيد البر والبحر حلال ، ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفنت منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه في يده وخبرته ، فكل هذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختلف من الهواء ، ولكنه في معنى ماء المطر ،

الباب الثاني : في مراتب الشبهات

(١) « الحلال بين والحرام بين ... » متفق عليه من حديث الثعلبي بن بشر .

والاحتراز منه وسواس . ولقد هذا الفن وروح الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا هو مجرد دلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل : فإن كان قاطعاً كما وجد حلقة في أذن السمكة ، أو كان محتملاً كما لو وجد على الطيبة جراحة يحتمل أن يكون كما لا يقدر عليه إلا بعد العنقب ، ويحتمل أن يكون جرحاً ، فهذا موضع الروع ، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتال المعلوم دلالة كالاختال المعلوم في نفسه ، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المير فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث ، وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المعنوية ما تنفأ عن الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين تفأ عن سببين ، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوى العقد المتقابل له فصيده شكاً ، ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً لم يثبت أصل عدم الزيادة . ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بغير ستين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعا أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جواز أن يكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكاً ، إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثاً ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه اليوم والتجويز بغير سبب ، فهذا يلتحق بالحلال المطلق : ويلتحق بالحرام المحض ما يتحقق تجريه وإن أمكن طرياً محلاً ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن في يده طعام لم يورثه الذي لا وارث له سواء ، فثابت عنه فقال : يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى قأكه ، فأقده عليه إقدام على حرام محض ، لأنه احتال لاستدنت له ، فلا ينبغي أن يمد هذا الخط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة نفي بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان مسدداً عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومعارات الشبهة خمسة :

المثار الأول : الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً ، أو غلب أحد الاحتمالين ، فإن تعادل الاحتمال كان الحكم المأخوذ فيه ليس صحيح ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دالة معتبرة كان الحكم الغالب ، ولا يثبت هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلتقسمة إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها . مثاله أن يرمى إلى صيد فيخرجه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام لأن الأصل التحريم ، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك ، كما في الأحداث والتجاسات وركعات الصلاة وغيرها ، وعلى هذا قوله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم « لا تأكل فله قتل غيرك »^(١) فذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو صدقة سأل عنه حتى يعلم أيهما هو^(٢) . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقالت له بعض نساؤه : أرق يا رسول الله ، فقال : أجل ، وجدت ثمرة نخشيت أن تكون من الصدقة^(٣) » وفي رواية « فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقة » ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال : كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، ففرطنا منزلاً

(١) « لا تأكل فله قتل غيرك » قال لعدي بن حاتم ، متفق عليه من حديثه .

(٢) « كان إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٣) « أنه أرق ليلة فقال له بعض نساؤه : أرق يا رسول الله ! فقال : « أجل ، وجدت ثمرة فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقة » أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

كثير الضباب فينا القصور تغل بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه » فأكدنا القصور (١)، ثم أمهله الله بعد ذلك أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا (٢). وكانت امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الدج حلالا.

القسم الثاني : أن يعرف الحل ويشك في المحرم ، فالأصل الحل وله الحكم ، كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر ، فقال أحدهما : إن كان هذا غرابا فأمرأتى طائقي ، وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فأمرأتى طائقي . والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزم اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابهما وتطبيقهما حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسئلة ، وأقوى الصعي بالاجتناب في رجلين كانا قد تنازعا ، فقال أحدهما للآخر : أنت محسود ، فقال الآخر : أحدهما زوجته طائقي ثلاثا ، فقال الآخر : نعم ، وأشكل الأمر ، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح ، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له ، إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك ، وهذا في معناه .

فإن قلت : وأي مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فأعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة ، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور ، فإنه مهما يتيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جازاه أن يتوضأ به ، فكيف لا يجوز أن يشربه ؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك ، إلا أن هنا دقيقة : وهو أن وزيان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا ؟ فيقال : الأصل أنه ما طلق ووزي من مسئلة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشبه عينه ، فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة ييقين الطهارة فيبطل الاستصحاب ، فكذلك هنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجتين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة ، فنقول : اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم : يستحب بغير اجتهاد . وقال قوم : يستحصل يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يبنى الاجتهاد . وقال المقتصدون : يجهتد وهو الصحيح ، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول : إن كان غرابا فزيتب طائقي ، وإن لم يكن فعمرة طائقي ، فلا جرم لا يجوز له غشيانها بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة ، ونحرمها عليه لأنه لو طمئنها كان مقتضاها للحرام قطعا ، وإن وطئ أحدهما وقال : أقصر على هذه ، كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح ، ففي هذا افرق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق ، بخلاف الشخصين . إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه .

فإن قيل : فلو كان الإناءان لشخصين فيلغى أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإيمانه لأنه يتيقن طهارته وقد شك الآن فيه . فنقول : هذا محتمل في الفقه . والأرجح في ظني المنع . وإن تعدد الشخصين وهنا كالتحاده . لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا . بل وضوء الإنسان بماه غيره في رفع الحدث كوضوئه بماه نفسه . فلا يتبين لاختلاف الملك واتصاده أثر ، بخلاف الوضوء لوجه الغير فإنه لا يلح . ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق . فوجب تقوية الاستصحاب بعلامه لينفع بها قوة يقين النجاسة للمقابلة ليقرن الطهارة . وابواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه . وقد استقصيناه في كتب الفقه ، ولنا بهذا الآن إلا التنبية على قواعدها .

(١) حديث : كنا في سفر مع النبي ﷺ ، فأصابنا الجوع ، فزلنا منزلا كثير الضباب ، فينا القصور تغل بها إذ قال النبي ﷺ « أمة من بني إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه » فأكدنا القصور . أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث عبد الرحمن وحسنه . وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف . قال البخاري : وحديث ثابت أصح .

(٢) « أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما أوجب تحليه بظن غالب ، فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ، فهذا ينظر فيه ؛ فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعاً فالتى تختار فيه أنه يحل . واجتنابه من الورع ، مثاله : أن يرمى إلى صيد فيصيب ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله في هذا القسم ، واختار أنه حلال ، لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدع اليقين بالشك .

فإن قيل : فقد قال ابن عباس : كل ما أصعبت ودع ما أنعمت . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتُ عرفتُ فيها سهمي ، فقال « أصعبت أو أنعمت ؟ » فقال : بل أنعمت ، قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه ، فله أمان على قتلته شيء »^(١) . وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل . فإني أخاف أن يكون إنما أمسكك على نفسه »^(٢) . والغالب أن السبب المعلم لا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه ، وهذا التحقيق : هو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب . وتمام السبب بأن يفرض إلى الموت سلباً من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة ، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه . فالجواب : أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحول على الورع والتزبه ، بدليل ما روى في بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب هناك ما لم تجد فيه أثراً غير سهمك »^(٣) . وهذا تنبيه على المعنى الذي ذكرناه : وهو أنه إن وجد أثراً آخر قد تعارض السيلان بتعارض الظن ، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس للظنون والعمومات المظنونة وغيرهما . وأما قول القائل : إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكاً في السبب فليس كذلك ، بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه ، ويدل على صحة هذا الإجماع ، على أن من جرح وغاب فوجد ميتاً فيجب التقصص على جرحه ، بل إن لم يقب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في بطنه ، كما يموت الإنسان فجأة ، فينبغي أن لا يجب التقصص إلا بجزء الرقبة والجرح المذنف ، لأن العمل العائنة في الباطن لا تؤمن ، ولا جعلها يموت الصحيح فجأة ، ولا قاتل بذلك مع أن التقصص مبناه على الشبهة ، وكذلك جنتين المذكاة حلال ، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم يتفخ فيه الروح ، وغرة الجنين يجب ، ولعل الروح لم يتفخ فيه ، أو كان قد مات قبل الجناية بسبب آخر ، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة ؛ فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلائل تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه ، فكذلك هذا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أخاف أن يكون إنما أمسكك على نفسه » فالتأني رحمه الله

(١) حديث عائشة أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأرنب فقال : رميتُ عرفتُ فيها سهمي . فقال « أصعبت أو أنعمت ؟ » قال : بل أنعمت . قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه لله أمان على قتلته شيء . » ليس هذا من حديث عائشة ، وإنما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ بصيد فقال : إني رميته من الليل فأعاني ، ووجدت سهمي فيه من الند وعرفت سهمي ؟ فقال « الليل خلق من خلق الله عظيم ، لله أعانك عليها شيء » رواه أبو داود في اللاميل ، والبيهقي وقال : أبو رزین اسمه مسعود ، والحديث مرسل قاله البخاري .

(٢) قال لعدي بن كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسكك على نفسه » متفق عليه من حديثه

(٣) « كل منه وإن غاب هناك ما لم تجد فيه أثر سهم غيرك » متفق عليه من حديث عدي بن حاتم .

في هذه الصورة قولان ، والذي تختاره الحكم بالتحريم ، لأن السبب قد تعارض ، إذ الكلب المعلم كالآلة والوكيل يمسك على صاحبه فيجعل ، ولو أسترسل المعلم بنفسه فأخذ ، لم يجل ؛ لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ، ومهما انبست بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آله وأنه يسمى في وكالته ، ودل أكله آخراً على أنه أمسك لنفسه لصالحه ، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالمشك ، وهو كالو وكل رجلا بأن يشتري له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله لم يجل الموكل وظوفاً . لأن الوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعاً ، ولادليل مرجح والأصل التحريم ، فهذا يلتحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث .

القسم الرابع : أن يكون الحل معلوم ولكن يطلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً ، فرفع الاستصحاب وبقي بالتحريم ، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبق له حكم مع غالب الظن ، ومثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإثنيين على علامة معينة توجب غلبة الظن فوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوء به ، وكذا إذا قال : إن قتل زيد محرماً أو قتل زيد حبيداً منفرداً بقتله فأمرأتى طالق فجرحه وظاب عنه فوجد ميتاً : حرمت زوجته ، لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق ، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيراً احتمل أن يكون تغيره بطول المسك أو بالنجاسة فيستعمله ، ولو رأى ظلية بالث فيه ثم وجده متغيراً واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المسك لم يجر استعماله ، إذ صار البول المشاهد دالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء ، فأما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين ، ومنع الخمر والصلاة في المقابر المتبوخة والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الزائد على ما يتعد الاحتراز عنه ، وجبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأههما يعتبر ، وهذا جار في حل الشرب من أواني منمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لا يجل شربه ، فأذن ما أخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد في أحدهما يوجب رفع الأصل ، وسأني بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط ، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك في طريان محل عليه أو ظن ، وبأن الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين مالا يستند إليه ، وكل ما حكنا في هذه الأقسام الأربعة بمجمله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه ، فالقدم عليه لا يكون من ذمة المتقين والصالحين بل من ذمة العدول الذين لا يقضي في قولي الشرع بقسمة وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة ، إلا ما ألفتناه برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلاً .

المثار الثاني للشبهة : شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقع بعدد لا يصح من الجانبين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور ، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو : إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط الماشعات ، أو يكون اختلاط استتھام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعبد والنور والأفراس ، والذي يختلط بالاستتھام فلا يخلو : إما أن يكون ممماً يقصد عينه كالمروض ، أو لا يقصد كالتنقود . فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن تسهم العين بعدد محصور . كالو اختلطت الميتة بمذقة أو بشر مذكيات ، أو اختلطت

رضيعة بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع ، لأنه لا مجال للاجتهاد والملاحظات في هذا : وإذا اختلطت بمدد محصور سارت الجملة كالنهي الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل قيطراً اختلاطاً بمحرم ، كما لو أوقع العلاق على إحدى زوجتين في مسئلة الطائر ، أو يخطئ قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة ، وهذا قد يشكل في طرمان التحريم كعلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب ، وقد نهنا على وجه الجواب . وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فنصف الاستصحاب وجانب الخطر أغلب في نظر النزع ، فذلك ترجيح ، وهذا إذا اختلط حلال محصور بمحرم محصور . فإن اختلط حلال محصور بمحرم ، فلا ينبغي أن وجوب الاجتناب أولى .

القسم الثاني : حرام محصور بحلال غير محصور . كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم هذا اجتناب نكاح أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء ممنه ، وهذا لا يجوز أو يمل بكثرة الحلل ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام يتسع حلال ولا قائل به ، بل الملة القليلة والحاجة جميعا ، إذ كل من ضاح له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح ، وكذلك من علم أن مال الدنيا عاقله حراما قطعا لا يلزم ترك الشراء والأكل ، فإن ذلك حرج ، وما في الدين من حرج ، ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن (١) وغل واحد في الفضيعة عبادة (٢) ، لم يمتنع أحد من شراء الجبان والعباءة في الدنيا ، وكذلك كل مامرق ، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربى في الدرهم والدنانير ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدرهم والدنانير بالسكينة (٣) . وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضا في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين ، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين ، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار .

فإن قلت : فكل عدد محصور في علم الله ، فإحد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضا إن تمكن منه .

فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول : كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لمصر على الناظر عدم مجرد النظر ، كالألف والآلاف فهو غير محصور ، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور ، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن ، وما وقع الشك فيه القلب . فإن الإثم حراز القلوب . وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لواجهة « استفت قلبك وإن أتوك وأتوك وأتوك (١) » وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في التني والإثبات وأوساط متشابهة . فالفتى يقضى بالظن . وحل المستفتي أن يستفتي قلبه . فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بينه وبين الله . فلا ينتجيه في الآخرة قوى الفتى ؛ فانه يقضى بالظاهر وأنه يتولى السرائر .

(٤) حديث سرقة المحن في زمان النبي ﷺ : متفق عليه من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قطع سارقا في مجن قيمته ثلاثة دراهم .

(٢) « غل واحد من النائم عبادة » رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، واسم المال كركرة .

(٣) حديث أن في الناس من كان يربى في الدرهم والدنانير ، وماترك النبي ﷺ ولا الناس الدرهم بالسكينة ، وسأى حديث جابر بنه بحديث ، وهو يدل على ذلك .

(٤) « استفت قلبك وإن أتوك وأتوك وأتوك » قاله لواجهة تهم .

القيم الثالث : أن يخطئ حرام لا يحصر بجلال لا يحصر ، كحكم الأموال في زماننا هذا ؛ فإني يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المنصور إلى غير المنصور كمنصور إلى المنصور ، وقد حكمنا ثم بالتحريم ، فلهذا منا به ؛ والذي يختاره خلاف ذلك ؛ وهو أنه لا يحرم هذا الاختلاط أن يتناول شيء بميته احتمل أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقرن تلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فكره وروع وأخذه حلال لا يفسق به آكله . ومن العلامات : أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتى ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس ؛ فأما الأثر : فاعلم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، إذا كانت أثمان الخمر ودرهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال ، وكذا غلول الأموال ، وكذا غلول الفتيمة ، ومن الوقت الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال « أول ربا أضمه ربا العباس »^(١) ما ترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمر وسائر المعاصي . حتى روى أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضي الله عنه ؛ لعن الله فلانا هو أول من سبب الخمر ، إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم شئها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يجر في النار عبادة قد غلبها »^(٢) وقتل رجل فقتلوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا يساوي درهمين قد غلبها^(٣) ، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يتمتع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهى أصحاب يزيد ثلاثة أيام . وكان من يتمتع من تلك الأموال مشاراً إليه في الروع ، والأكثرون لم يتمتعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة . ومن أوجب ما لم يوجب السلف الصالح وزعم أنه قطن من الشرع ما لم يتغلطوا له فهو موسوس مختل العقل ولوجاز أن يزداد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا تستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم « إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن وشعر الحزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن ، والرأيا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال فاهم أولى بفهم الشرع من غيرهم .

وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع الصفقات وخرب العالم إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدي ذلك لاعماله إلى الاختلاط .

فإن قيل : فقد نقلتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضرب وقال « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو في اختلاط غير المنصور ؛ قلنا يحمل ذلك على التنزه والروع أو نقول الضرب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول .

فإن قيل هذا معلوم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الفتيمة وغيرها ولكن كانت تهي الأقل بالإضافة إلى الحلال فإذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر ما في أيدي الناس لقساد المعاملات وإحمال شروطها وكثر الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فنأخذ ما لا لم يشهد

(١) « أول ربا أضمه ربا العباس » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) « إن فلانا في النار يجر عبادة قد غلبها » رواه البخاري من من حديث عبد الله بن عمر ، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٣) « قتل رجل فقتلوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا يساوي درهمين قد غلبه » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني .

عليه علامة في عينه التحريم قبل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أم من الورع إذا كان قليلا .

ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ما ليس بنادر فهو الأكثر ويؤمنون أنهم قسبان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر ومثاله أن الخنثى فما بين الخنثى نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثيرا وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضا بل هو كثير . والفقيه إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عند عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر .

فإذا فهم هذا فيقول : قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأبيات التي تكررت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم .

أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر فإنهم الجندية إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشرم ؛ فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلا فيملك إقليبا يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلفة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره ، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لملك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم متلامع تتميم في المشقة ولا يتصور ذلك بل كفاية الواحد منهم يجمع من ألف من الرعية وزيادة ، وكذا القول في السراق فإن البلدة السكيرية تقتل منهم على قدر قليل .

وأما المستند الثاني وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضا كثيرة وليست بالأكثر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشرط الشرع فصد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره قل عددت معاملاته وحده لكان عدد الصميع منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان برحمته في البلد مخصوصا بالجماعة والحيث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيرا فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضا عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستبعادها إياه واستحاطتها له وإن كان نادرا حتى ربما يظن أن الزنا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتحيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة .

وأما المستند الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتواله ؛ فإذا نظرنا إلى شاة مثلا وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من خمسمائة ولا يخلو هذا أن يطرأ إلى أصل من تلك الأصول غصب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الجيوب والقواكه تحتاج إلى حسيانة أصل أو ألف أصل متلا إلى أول زمان الشرح ولا يكون هذا حلالا ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالا وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهي أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدينار ولا تخرج إلا من دار الضرب وهي في أيدي الظلمة مثل المعادن في أيديهم يمتنون الناس منها ويلومون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصبا فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يطرأ إليه عقد فاسد

ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحيث في الصحارى والموات والمقارن والخطب المباح ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستئثار والتوالد فيكون قد بذل حلالا في مقابلة سرام فهذا هو أشد الطرق تخيلا .

والجواب أن هذه النجاسة لم تنفأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النجاسة الذي نحن فيه والتحقيق بما ذكرناه من قبل وهو تناقض الأصل والغالب إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها وقدرها من سبب غالب يخرجها عن الصلاح له فيضاهي هذا محل القولين الشافعي رضي الله عنه في حكم التجاسات ، والصحيح عندنا أنه يجوز الصلاة في السوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين السوارع طاهر وأن الوضوء من أواني المشركين جائز وأن الصلاة في المقابر المبروشة جائزة فثبت هذا أولا ثم نقيس ما نحن فيه عليه ، وبطل على ذلك توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوسل عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية مع أن مشركهم الحمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعنا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم؟ بل تقول نعم قطعا انهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصاصين والمصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، وإن الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر ، بل تقول نعم انهم كانوا ياكلون خبز البر والشعير ولا يفسلون مع أنه يداوس بالبر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلبا ينجس منها وكانوا يركبون الدواب وهي تفرق وما كانوا يفسلون ظهورها مع كثرة تعرضها في التجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها ، وكانوا يشون حذاء في الطرق وبالنصال ويعاون معها ويجلسون على القربا ويمشون في الطين من غير حاجة ، وكانوا لا يمشون في البول والعدرة ولا يجلسون عليها ويستزهون منه ، ومتى تسلم السوارع عن التجاسات مع كثرة الكلاب وأبوها وكثرة الدواب وأروائها ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمطار تختطف في مثل هذا حتى يظن أن السوارع كانت تنسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب مهابت فذلك معلوم استحالة بقاء قطعا فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين .

فأما الظن الغالب الذي يستثار من رد الفرام إلى مجارى الأحوال فلم يثبتوه وهذا عند الشافعي رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضؤون من الحياض وفيها المياه القليلة والأبدى المختلفة تنقسم فيها على الدوام ، وهذا قاطع في هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحقيق حكم الحل بمسك النجاسة .

فإن قيل : لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوضؤون في أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها؟ قلنا : إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معصية وهي عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تساهوا حيث لم يجب وكان في محط تسامحهم هذه الصورة التي تناقض فيها الأصل والغالب قيات أن الغالب الذي لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح ، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس لأن أشر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تنضب عنها ، وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الظهور المحض ، فالافتراق في ذلك لا يقصد في الغرض الذي أجمعنا فيه ، على أننا نجري في هذا المستند

على الجواب الذي قدمناه في المستندين السابقين ولا نسلم مذكروه من أن الأكثر هو الحرام لأن المال وإن كثرت أصوله فليس يوجب أن يكون في أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم مما تعلق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض ، وكأن الذي يتبادر غصب اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا ينصب ولا يبرق فهكذا كل مال في كل عصر وفي كل أصل المنصوب من مال الدنيا والمتناول في كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ، ولستأ ندري أن هذا الفرع بعينه من أي التقسيم ؟ فلا نسلم أن الغالب يحرره فإنه كما يزيد المنصوب بالتوالد يزيد غير المنصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لإحالة في كل عصر وزمان أكثر ، بل الغالب أن الحبوب المنصوبة تنصب للأكل لا للابنور وكذا الحيوانات المنصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى التوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام ؟ وليغتهم المسترشد من هذا طريق مرة الأكثر فإنه ملة قدم وأكثر العلماء ينظرون فيه فكيف العوام ؟ هذا في التولد من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فإنها مختلة مسيلة يأخذونها في بلاد الترك وغيرها من شاء ، ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا بحالة لا الأكثر ، ومن حاز من السلاطين مدناً ظلّه منع الناس منه فأما ما يأخذه الأخذ منه فيأخذ منه السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستئابة في إثبات اليد على المباحات والاستتجار عليها ، فليستأجر على الاستئابة إذا حاز الماء دخل في ملك المستقله واستحق الأجرة فكذلك النيل فإذا فرضنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن بقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظالماً ببقاء الأجرة في ذاته ، وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعين ذهب السلطان الذي غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو التند الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلموه إليهم إلا شيئاً قليلاً يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز ، وإن فرض دنا غير مضروبة من دنا غير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لإحالة ، نعم السلطان يظلم أجراً دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحسمة السلطان فيأخذ السلطان عرض من حسمته وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر المئتين فكيف يكون هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشمّر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبضوا الورع وسدوا بابها واستحبوا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلال .

فإن قيل : فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فإذا تقولون فيه إذا لم يكن في العين المتناولة علامة خاصة .

فنقول الذي نراه أن تركه ورجع وأن أخذه ليس بحرام لأن الأصل الحلل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما في طين الصودع ونظائرها . بل أزيد وأقول : لوطبق الحرام الدنيا حتى علم يقيناً أنه لم يبق في الدنيا حلال لكنكت أقول نستأفق تهديد الشروط من وقتنا ونفوق عما سلف وتقول ما يجوز حده انكس إلى ضده فمعها حرم الكل حل الكل ، وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاختلاط نعمة :

(أحداً) أن يقال بدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم .

(الثاني) أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمي يزوجون عليها أياماً إلى الموت .

(الثالث) أن يقال يقتلون قدر الحاجة كيف شاءوا مرة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال

وجه وجه .

(الرابع) أن يقيعوا شروط الشرع ويستأفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة .

(الخامس) أن يقتصر واقع شروط الشرع على قدر الحاجة .
وأما الأول فلا يخفى بطلانه .

وأما الثاني فيأفل قطعاً لأنه إذا اختصر الناس على سد الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فضايقهم المواتن وبطلت الأعمال والصناعات وحربت الدنيا بالكلية وفي خراب الدنيا خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة . وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا لئيم بها مصالح الدين .

وأما الثالث وهو الاختصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والنزاع والراضى وكيفما اتفق فهو دفع لشد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد فتتبدل الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام وعلينا وذو اليد له قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجاً فإننا أيضاً محتاجون وإن كان الذي أخذته في حقي زائداً على الحاجة فقد سرقته من هو زائد على حاجته يرمه وإذا لم يراع حاجه اليوم والسنة فما الذي نراعى وكيف يضبط ؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد .

فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذي يد على مافى يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصباً بل يؤخذ برضاه والراضى هو طريق الشرع وإذا لم يجوز إلا بالراضى فللراضى أيضاً مناهج في الشرع تتعاقب به المصالح . فإن لم يعتبر فلم يتبين أصل الراضى وتعطل تفضيله ؟

وأما الاحتمال الخامس وهو الاختصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لا تقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لوجه لإجباؤه على الكفاية ولا لإدخاله في فتوى العامة لأن أيدي الطلبة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق ، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لاحق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويدبر على الكل الأموال . وما فيوماً أو سنة فسنة . وفيه تكليف شلطة وتضييع أموال أما تكليف الشلطة فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق بل لا يتصور ذلك أصلاً وأما التضييع فهو أن ما فضل عن الحاجة من القواكه والحبوب والحبوب ينبغي أن يلقي في البحر أو يترك حتى يمتفن فإن الذي خلقه الله من القواكه والحبوب ذات على قدر توسع الخلق ونرفهم فكيف على قدر حاجتهم ؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة تنبسط بالخلق عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية التقيح ، بل أقول لو ورد في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويحدد تفصيل أسباب الأملاك بالراضى وسائر الطرق ويقفل ما يفضله لوجود جميع الأموال لحلال من غير فرق وأحق بقولي : يجب عليه ، إذا كان النبي بمن يمت مصلحة الخلق في دينهم ودنياهم إذا لا يتم الإصلاح برد الكفاية إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يمت الإصلاح لم يجب هذا . ونحن نجهز أن يقدر الله سبحانه على الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون في دينهم فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويميت من يشاء ويحيى من يشاء . ولكننا نقدر الأمر جارياً على ما ألف من سنة الله تعالى في بنة الأنبياء لصالح الدين والدنيا . ومال أقدر هذا وقد كان ما أقدر ؟ فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من مئتا سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبيدة الأوثان وإلى مصدقين له قد شاع النفاق فيهم كاشاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة . والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين ، أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما المصدقون فكانوا يتعاملون مع أصل التصديق

كما يتسائل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فساكنات الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما ، نعمنا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعرض لمخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع وما ثبت تحرجه في شرع لا ينقلب حلالا لبيعة رسول ولا ينقلب حلالا بأن يسلم الذي في يده الحرام ، فإننا لا تأخذ في الجزية من أهل الذمة مانعته بعينه أنه ثمن خمر أو مال با قد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن ، وأمر العرب كان أشد لمعرم النهب والغارة فيهم ، فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى ، والاحتمال الخامس هو طريق الورع . بل تمام الورع الاقتصاد في المباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة . ونحن الآن نتكلم في الفقة المنوط بمصالح الخلق وقوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدينية والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يعطل بطلانه الملك أيضا . فالخبرون إنما سخروا ليتعلم الملك الملوك وكذلك المقبولون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لدى الدين وهو ملك الآخرة ولولاه لما سلم لنوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يحرصوا على كونه عن طريقهم ويشترطوا بأموال الدنيا وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) .

فإن قيل : لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر ، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي ولكن لابد من دليل عصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة وما ذكرتموه من التفسيرات كلها مصالح مرسله فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاضطرار فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسلة ؟

فأقول : إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفيتنا برهاننا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابه مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأكثر هو الحرام فيحل التناول أيضا قبرهاته ثلاثة أمور :

(الأول) القسم الذي حصرناه وأبطلناه منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما كان أحرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل ، وقول القائل : هو مصلحة مرسله ، هوس . فإن ذلك إنما نخيل من تخيله في أمور منظونة وهذا مقطوع به فإننا لا شك في أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمنظونة ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الخفيض والعبد مخرب الدنيا أولا ولدين بواسطة الدنيا ثانيا ، فلا يشك فيه لاجتياج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المنظونة المتعلقة بأحاديث الأشخاص .

(البرهان الثاني) أن يطل بقياس محرر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنفون بالاقضية الجزئية عليه وإن كانت الجزئيات مستحقة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر السكلي الذي هو ضرورة التي لو بحث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لحرب العالم ، والقياس المحرر الجزئي هو أنه تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المبينة من الأمور التي ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على ملين الشوارع وجرعة النصرانية وأواني المشركين ، وذلك قد اثبتناه من قبل بفعل الصحابة ، وقولنا : انقطعت العلامات المبينة ، احتراز عن الأواني التي ينطرق الاجتهاد إليها ، وقولنا : ليست محصورة ، احتراز عن اليأس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية .

فإن قيل : كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يعلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم؟
 نقول : الأمور لأحرم لصفة في عينها حرمة الحر والتحريم خلقت على صفة تستند لقبول المعاملات بالتراضي
 كإتلاف الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في جلال هذا الاستعداد منها فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج من
 قبول المعاملة بالتراضي بدخول التملك عليها كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول التجاسة عليه ولا فرق بين
 الأمرين ، والجواب الثاني : أن اليد دالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن
 الشرع أحقه به إذ من أدعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل برامة ذمة وهذا استصحاب ، ومن ادعى عليه ملك
 في يده فالقول أيضا قوله إقامه اليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على
 خلافة علامة معينة .

(البرهان الثالث) هو أن كل مائل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعا فبأن لا يعتبر
 إذا دل بطريق الظن أولى ويثبت أن ما علم أنه ملك زيد فحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالا في
 العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصود لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة
 ولو دل على أن له مالا محصورا في عشرة مثلا أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالتى يشك في أن له
 مالا سوى صاحب اليد أم لا ؟ لا يزيد على الذي يتيقن قطعا أن له مالا لكن لا يعرف عينه فليجوز التصرف فيه
 بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة ، فيكون هذا الأصل شاعدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد ماله
 يصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقه منه
 سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير ليس ذلك إلا لحكمتنا بأن المصلحة تقتضي أن ينتقل الملك إليه
 ويحل له قضيتها بموجب المصلحة .

فإن قيل : ذلك يخص بالتصرف فيه السلطان؟ نقول : والسلطان لم يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي
 لاسبب له إلا بالمصلحة وهو أنه لو ترك لضعاف فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من
 التضييع فرجع عليه والمصلحة فيها يشك فيه ولا يسلم تحريره أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي
 إذا تزعاجها بالشك وتكليفهم الاقتصاد على الحاجة ، يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه وجهات المصلحة تختلف فإن
 السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبقى بذلك المال فتعثر فتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء وبدور
 مع المصلحة كيفها درات ، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن هذا الحق غير مأخوذ
 في أحيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دالة في ملك الأعيان كالم يؤخذ السلطان والفقراء الأخذون
 منه يعلم أن المال حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملك في هذا
 المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلا النظر في امتزاج الماتعات والبرام والعروض في يد مالك واحد وسيأتي
 بيانه في باب تفصيل طريق الخروج من الغلط .

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما في قرائته وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال
 السبب المحلل .

مثال المعصية في القرائن : البيع في وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المنصوبة والاحتطاب بالقدوم المنصوب

والبيع على بيع العتد والسوم على سومه فكل نهى ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الانتفاع من جميع ذلك وروح ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب يحكمها بحريمه . وتمتمة هذا الخط شبهة فيه تسمع لأن الصحة في غالب الأمر تعلق لإرادة الاشتياق والمجمل ولا اشتياق منها بل العصيان بالذبح يسكن التغير معلوم وحل الذبيحة أيضا معلوم ولكن قد تشتت الصحة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالصحة هذا قسمية هذا شبهة له وجه وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة ، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسأى فعادة الفقهاء التسامح في الاطلاقات . ثم اعلم ان هذه الكراهة لها ثلاث درجات :

الأول منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تنهى إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بوجع الموسوسين وبينهما أرساط ثلاثة إلى الطرفين ، فالكراهة في صيد كلب مغضوب أشد منها في الذبيحة يسكن مغضوب أو المتعص بسهم مغضوب إذ الكلب اهتياؤه وقد اختلف في أن الحاصل به لملك الكلب أو الصيد ، ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة فإن الورع لملك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الجليس لملك الأرض في الزرع لكن كائن الحرام ، ولكن الأقوى أن لا يثبت حق حبس كالأوطى بطاحونة مغصوبة واقتصر بشبكة مغصوبة إذ لا يمتنع حق صاحب الشبكة في منعها بالصيد ، ويليه الاحتياط بالقدوم المغضوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكن المغضوب إذا لم ينهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، ويليه البيع في وقت النداء فإنه ضميم التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ، ولو أقصد البيع بمثله لأنفسد بيع كل من عليه درهم ذكاة أو صلاة فائقة وجوبها على الفور أو في نته مظلة دأق فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء ، وينجر ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلة وكل من في ذمة درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفصل الواجب عليه ؛ إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهى على الخصوص وبما سبق إلى الأهمام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالمخدر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يخرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم .

وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئا من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية المبالغة أنه رد بالذك . ومثل هذا الوم وتقدير المتأخر أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم ومك المتظنون^(١) ، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أومر عند التغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأبوسوا عن القيام بما فطره الله ، فكان أن الموسوس في الطهارة قد يسجد عن الطهارة تركها فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهاهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسسوا وتركوا التمييز وهو عين الضلال .

وأما مثال الواحق : فهو كل تصرف يفضى في سياقه إلى معصية وأعلاه بيع العنب من الحار وبيع الغلام من المروء بالنجور بالغبان وبيع السيف من قطاع الطريق وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه . والأقوى أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكن المغضوب والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإعاقة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد فالمأخوذ من هذا مكروه كراهة شديدة وتركه من الورع المهم وليس بحرام ، ويليه في الرتبة بيع العنب عن يشرب الخمر ولم يكن بخارا وبيع السيف عن

(١) « هلك المتظنون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ، وتقدم في قواعد الفوائد .

ينزوي وظلم أيضا لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة خيفة أن يشتريه ظالم فهذا ورع فوق الأول والكرامية فيه أخف ، ويليها ما هو مبالغة ويكاد يلحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لا يجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث لأنهم يستعملونها على الحرث ويبيعون الطعام من الفائلة ولا يبيع منهم البقر والدنان والآلات الحرث وهذا ورع الوسوسة إذ يتجرأ على أن لا يبيع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحرث ولا يبيع من الماء العام لذلك ، وينهى هذا إلى حد التطلع المنتهى عنه . وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لابد وأن يسرف إن لم يره العلم المحقق ، وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستغفر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ، ولهذا قال عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » والمتشككون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وبالجملة لا ينبغي للإنسان أن يشغل بملأى الوعر إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذمته من غير سماع كان ما يفعله أكثر ما يصلحه . وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفا من أن يبيع العنب من يتخذه خمرأ . وهذا لا أعرف له وجها إن لم يعرف هو سببا خاصا يوجب الإحراق ؟ إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدرا منه من الصحابة . ولو سجاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإفلاتات .

وأما المقدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات :

(الدرجة العليا) التي تشتد الكراهة فيها : ما يقع أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بملف مغضوب أو رعت مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سببا لبقاتها وربما يكون الباقي من دمها ونحما وأجزائها من ذلك الملف وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ، وقتل ذلك عن جماعة من السلف . وكان لأن يعبد الله الطوسي البروغندي شاة يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها ففعل عنها مائة فتاوت من ورق كرم على طرف بستان تركها في البستان ولم يستعمل أكلها .

فإن قيل : فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلا فبعاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سميت ، فقال عمر رضي الله عنه : أوعيتها في الحمى ؟ فقالا : نعم ؟ فشاطرها . فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من الملف لصاحب الملف فليوجب هذا تحريما .

قلنا : ليس كذلك فإن الملف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين الملف فلا شركة لصاحب الملف شرعا ولكن عمر غرمهما قيمة الكلال ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد ، كما شاظر سعد بن أبي وقاص ما له لأن قدم من الكوفة ، وكذلك شاظر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافيا على حق علمهم وقدره بالقطر اجتهدا .

(الرتبة الوسطى) ما قل عن بشر بن الحرث من امتناعه عن الماء المساق في نهر حفرة الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصى الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظالم وهو أرفع منه وابلغ في الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل إليه على يد سجان ، وقوله : أنه جأش على يد ظالم ، ودرجات هذه الرتبة لا تنحصر .

(الرتبة الثالثة) وهي قريب من الوسواس والمبالغة : أي يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا

أو القذف وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل بل الاستناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام إذا كفر لا يمتنع بجعل الطعام ويخرج هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغيبه أو كذبه وهو غاية التطوع والإسراف فليضبط ما عرف من ورع فنى التون وبشر بالمصيبة في السبب الموصل كالتبر وقوة اليد المستفاد بالغذاء الحرام .

ولو امتنع عن الشرب بالسكوز لأن صانع الفخار الذى عمل السكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه لكن هذا وسواسا . ولو امتنع من لحم شاة سابقا أكل حرام فهذا أبعد من يد السجن لأن الطعام يسوقه قوة السجن والشاة تمشى بنفسها والسائق يمتنع عن المدول في الطريق فقطع فهذا قريب من الوسواس . فاطر كيف ندرجنا في بيان ما تدعى إليه هذه الأمور .

واطمأن أن كل هذا خارج عن قوى علماء الظاهر فإن قوى الفقيه تخصص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ما عداه من ورع المتقين والصالحين . والقنوى في هذا ما قاله رحمته الله لراوية إذ قال « استفت قلبك وإن أوتوك وأوتوك وأتوك » وعرف ذلك إذ قال « الإثم حراز القلوب » وكل ما حاك في صدر المرید من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حوازة القلب استغفر به واطمأن قلبه بقدر الحوازة التي يجدها بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في مساواة قلبه ، ولو أقدم على ما هو حلال في قوى علماء الظاهر ولكنه يجد حوازة في قلبه فذلك يضره . وإنما الذي ذكرناه في التنبه عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حوازة في مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحوازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه فيجب عليه أن يستعمل الراية وصار ذلك حكما في حقه وإن كان محطتا في نفسه ، أو تلك قوم شددوا فشد الله عليهم ، ولذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة ولو أخذوا أولا بمعوم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لا يجزأ ذلك . فلا تنفل عن هذه الدقائق التي رددناها تقيا وإثباتا فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجماعه يوشك أن يزل في درك مقاصده .

وأما المصيبة في الموضع فله أيضا درجات .

(الدرجة العليا) التي تشتد الكراهة فيها أن يشتري شيئا في النعمة ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعني قبل قضاء الثمن ولا هو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، ولو لم يقضه أصلا لكن متفاديا للظلة بترك ذمته مرتبة بالدين ولا ينتقل ذلك حراما . فان قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلة تصرفه في الدرهم الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه بما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيقاع . هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم النعمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفيق الثمن من الحرام أو بعده لأن الذي توعى الفتوى به ثبوت حق الحبس البائع حتى يتعين ملكه بأقباض النقد كما تبين ملك المشتري ، وإنما يطل حق حبه إما بالإبراء أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك

نفسه وهو عاص به عصيان الرأى العظيم إذا أكله بنى إذن المرتب ، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن
ولكن أصل التحريم شامل ، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيئة قلب البائع أو من غير طيئة قلبه . فأما
إذا وفى الثمن الحرام أولاً ثم قبض فإن كان البائع عالماً بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقي
له الثمن في ذمته إذا ما أخذه ليس يشتر ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام
وكانت بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض المبيع حتى حبسه لا يبطل بهذا التلبس فأكله حرام بتحريم أكله الموهون
إلى أن يبره أو يوفى من حلال أو رضى هو بالحرام ويرى فيصح إيراؤه ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى
الفقه وبين الحكم في الدرجة الأولى من الحل والحزمة فأما الامتناع عنه فن الودع المهم لأن المعصية إذا تمكنت
من السبب الموصل إلى الشيء تشدد الكرامة فيه - كما سبق - وأقرى الأسباب الموصلة الثمن ولو الثمن الحرام لما رضى
البائع بتسليمه إليه فرضاه لا يخرج عن كونه مكروها كراهية شديدة ولكن العدالة لا تنخرم به وتزول به درجة
التقوى والودع . ولو اشترى سلطان مثلاً ثوباً أو أرضاً في الذمة وقبضه يرضى البائع قبل توفية الثمن وسله إلى نفسه
أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف إذ وقع الشك في طرق المعصية
إلى الثمن وتفاوتت بفتاوت كثرة الحرام وقتله في مال ذلك السلطان وما يوجب على الظن فيه وبعضه أشد من
بعض والرجوع فيه إلى ما ينقدح في القلب .

(الرتبة الوسطى) أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن بتباً لمعصية ؛ كما لو سلم عوضاً عن الثمن عبثاً
والأخذ شارب الحر أو سيفاً وهو قاطع طريق فهذا لا يوجب تحريمه في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضى فيه
كراهية دون السراهية التي في النصب . وتفاوتت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن
وتدوره ومهما كان العوض حراماً ففدله حرام وإن احتمل تحريمه ولكن يظن فيه أنه مكروه وعليه ينزل عندى
النبى عن كسب الحجام وكراهته (١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلق الناضج (٢) وما سبق إلى الوم
من أن سببه مباشرة التجاسة والقدر فاسد إذ يجب طرده في الدباغ والكناش ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن
طرده في القصاب التجاسة أكثر منه الحجام والقصاب فان الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسح بالقطنة ، ولكن السبب
أن في الحجامه والقصد تقرب بنية الحيوان وإخراجها للدم وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحمل
بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة محسوس واجتهاد وربما يظن نافعاً ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى ولكن
يحكم بحله بالظن والاحتمال . ولذلك لا يجوز للقصاب قصد صبي وعبد ومعتوه إلا باذن وليه وقول طبيب ولولا أنه
حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجره الحجام (٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين
إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى . وهذا كل ينبغي أن تذكره في القرائن المقررة بالسبب فانه أقرب إليه .
(الرتبة السفلى) وهى : درجة الموسوسين وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلاً

(١) حديث النبى عن كسب الحجام وكراهته : رواه ابن ماجه من حديث أبى مسعود الأنصارى ، والنسائي من
حديث أبى هريرة بإسنادين صحيحين : نهى النبى ﷺ عن كسب الحجام ، وللبخارى من حديث أبى جحيفة : نهى
عن ثمن الدم ، وسلم من حديث رافع بن خديج « كسب الحجام خبيث » .

(٢) حديث : نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلق الناضج ، رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث
عبيدة أنه استأذن النبى ﷺ في إحالة الحجام ، فقهاه عنها ، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال : أعلقه ناضجك وأطعمه رقيقك
وفى رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال : ألا أطعمه أيتامى ، قال : لا ؛ قال : أفلا تصدق به ؟ قال لا ، فرخص
له أن يعلقه ناضجه .

(٣) « أعطى النبى ﷺ أجره الحجام » متفق عليه من حديث ابن عباس .

واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . وروى عن المفهومة أنه قال في هذه الواقعة : لا يجوز ، واستشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لمن أله اليهود حرمت عليهم الخور فباعوها وأكلوا أثمانها » (١) . وهذا غلط لأن بيع الخور باطل إذا لم يبق في الخمر منه في الشرع ، وثمن البيع الباطل حرام ، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فيتباع بجمارية أجنبية فليس لأحد أن يورع منه ، وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدرج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا يتحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد ولكن المقصود من التعديد التثريب والتفهم .

فإن قيل : فقد قال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه » (٢) ثم أدخل ابن عمر أصبيه في أذنيه وقال : سمنا إن لم أكن سمعته منه .

قلنا : ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لافي النعمة وإذا اشترى في النعمة فقد حكتنا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمصيبة تطرقت إلى سيئه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالشترى في وقت النداء . ونحوه .

المثار الرابع : الاختلاف في الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف في السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرم . والدليل سبب لمعركة الحل والحرم فهو سبب في حق المرأة ولم يثبت في معركة الفير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سيئه في علم الله ، وهو إما أن يكون تعارض أدلة الشرع أو تعارض العلامات الباطنة أو تعارض الشكاه .

(القسام الأول) إن تعارض أدلة الشرع مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح في جانب الخطر وجب الأخذ به ، وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ، ولكن الورع تركه . وإتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرآن وإن كان لا يحسن الطلب . وليس للمستفتي أن يقتض من المذهب أو سمعها عليه ، بل عليه أن يبحث حتى يثبت على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً ، نعم إن أفتى له إمامه بثنى وإمامه فيه عتاف فالتفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد ، وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحسن وتخصيص وظن فالورع له الاجتناب فلقد كان المفتون يفتون بمحل أشياء لا يقدرون عليها قط تورعوا عنها وحذروا من الشبهة فيها فلننضم هذا أيضاً على ثلاث مراتب :

(الرتبة الأولى) ما يتأكد الاستحباب في التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح للمذهب الآخر عليه . فن المهمات التورع عن فرية الكلب الممل أكل منها وإن أفتى الفتى بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض ، وقد اخبرنا أن ذلك حرام وهو أقيس قول الشافعي رحمه الله . ومهما وجد الشافعي قول جديدموافق

(١) حديث للنفرة أن النبي ﷺ لمن أله اليهود حرمت عليهم الخور فباعوها : لم أجده هكذا ، والمعروف أن ذلك في الشحوم ؛ في الصحيحين من كلام جابر « وأتاه الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها فباعوها بأموها فكلوا ثمنه » .

(٢) « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم ... » تقدم في الباب قبله .

لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه ميباً ، وإن أفتى الملقى بالقول الآخر . ومن ذلك الورع عن متروك التسمية ، وإن لم يخفف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الأيقظارة في إيجابها ، والأخبار متواترة فيه فانه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن السيد « لذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت عليه اسم الله فكل » (١) ، وتقل ذلك على التكرار ، وقد شمر الذبح بالبسة (٢) وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط ، ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمي أو لم يسم » (٣) واحتمل أن يكون هذا عاماً موجباً لأصرف الآية وظاهر الأخبار عن ظواهرها ، ويحتمل أن يخص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل ، وقد كان حله على الناسي ممكناً تمهيداً لعنقه ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكناً [مكاناً] أقرب رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال للمقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى .

(الثانية) وهي مزاحة لدرجة الوسواس أن يتورع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح ، وعن الضب . وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين : إن ذكاته ذكاة أمه (٤) صح لا يطرُق احتيال إلى متنه ولا نصف إلى سنده ، وكذلك صح أنه أكل الضب على ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) . وقد نقل ذلك في الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم يخله هذه الأحاديث ، ولو بلغت لقال بها وإن أنصف وإن لم ينصف متصف فيه كان خلافه غلطاً لا يستد به ولا يورث شبهة ، كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد . (الرتبة الثالثة) أن لا يشتر في المسألة خلاف أصلاً ولكن يكون الحل معلوماً بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس في غير الواحد فهم من لا يقبله فأنا أتورع ، فان النقطة وإن كانوا عدولاً فاللفظ جائز عليهم والكذب لفرض حتى جائز عليهم ، لأن العدل أيضاً قد يكتب والوهم جائز عليه فانه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم ، فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمونه من عدل تسكن نفوسهم إليه . وأما إذا طرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فلتتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلاً . وخلاف من عايف في أخبار الأحاد غير معتد به وهو كخلاف النظام في أصل الإجماع . وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب ويقول ليس في كتاب الله ذكر اللبن والحاق ابن الإبن بالإبن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين واللفظ عليهم جائز إذ خالف النظام فيه ، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بمجموعات القرآن إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن

(١) « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل » متفق عليه من حديث عدي بن حاتم ، ومن حديث أبي ثعلبة الخشني . (٢) حديث التسمية على الذبح : متفق عليه من حديث رافع بن خديج « ما ظهر اللحم وذكر اسم الله عليه فكلوا ، ليس السن والظفر » . (٣) « المؤمن يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم » قال المصنف إنه صح . قلت : لا يعرف بهذا اللفظ فضلاً عن صحته ، ولأبي داود في الراشدين رواية الصلت مرفوعة « ذبيحة السلم لحلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » وللطبراني في الأوسط من ، والدارقطني ، وابن عدي ، والبيهقي من حديث أبي هريرة قال رجل : يا رسول الله ، الرجل منا يذبح ويمنى أن يسمى الله ؟ فقال « اسم الله على كل مسلم » قال ابن عدي منكر والبيهقي من حديث ابن عباس « السلم يكفيه اسمه ؟ فإن نسي أن يسمى حين يذبح فليس وليذكر اسم الله ثم لا يأكل » فيه محمد بن سنان ، ضعفه الجمهور (٤) « ذكاة الجنين ذكاة أمه » قال المصنف : إنه صح حجة لا يطرُق احتيال إلى متنه ولا نصف إلى سنده ، وأخذ هذا إمام الحرمين ؛ فإنه كذا قال في الأساليب ، والحديث رواه أبو داود الترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان من حديث أبي سعيد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد ، وليس كذلك . وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد . وقال عبد الحق : لا يحتج بأسانيدنا كلها . (٥) حديث أكل الضب على المائة التي فيها قال المصنف : وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالفه ابن الوليد .

العمومات لا صيغة لها وإنما يحتاج بما فيه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس ، فإذا لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليتهم ذلك ، ومهما أشكل أمر من الأمور فليستف فيه القلب وليدع الورع ما يريه إلى ما لا يريه ، وليترك حزازات القلوب وحكايات الصدور ، وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوي على حرازة في مظان الوسواس ولا ينحرف عن الحرازة في مظان الكراهة ، وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى قنوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله (١) .

القسم الثاني : تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمه فانه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحه على أنه حلال ، ويدل نوعه ونذوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران . وكذلك غير عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف ، وسيأتي تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال .

القسم الثالث : تعارض الأشياء في الصفات التي تتأبط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال لفقهاء فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه ، وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها ، فالمتقى يقف بحسب الطان الورع والاجتناب ، وهذا أغصن منارات الشبه فإن فيها صوراً يتحير الملقى فيها تحيراً لازماً لا حيلة فيه إذ يكون النصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتضابطين لا يظهر له ميله إلى أحدهما وكذلك الصدقات المبرورة إلى المحتاجين فإن من لاشئ له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ، ويصدى بينهما مسائل ظامضة كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ، ويتعدى منه التقطر في مقدار سعة الدار وأثاثها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دوتها ، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصغر لا من الخرف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتها وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين ، وشئ من ذلك لأحد له . والوجه في هذا ما قاله عليه السلام « دع ما يريك إلى ما لا يريك » (٢) ، كل ذلك في عمل الريب إن توقف الملقى فلا وجه إلا التوقف ، وهو أم مواقع الورع .

وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات ، وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر ، وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى ، وليس البشر وقوف على حدودها ، فادون الرطل المكي في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم ، وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية ، وما بينهما لا يتحقق له حد . فليترك الورع ما يريه ، وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بمحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الله فانه لا يحتمل ما دونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقدير ، فليست الألفاظ القوية كذلك فلا لفظ في كتاب الله وسنة رسول الله

(١) حديث : لم يرد كل أحد إلى قنوى قلبه وإنما قال ذلك لوابصة ، وتقدم حديث وابصة ، وروى الطبراني من حديث وابصة أنه قال ذلك لوابصة أيضاً ، وفيه الغلاء بن ثعلبة مجهول .
(٢) « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ختم في الباب قبله

صلى الله عليه وسلم إلا يتطرق اليك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوسايا والأوقاف ، فالوقف على الصوفية مثلا مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ . وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفى على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ . وإلا فلا مطمع في استيفائها ، فهذه اشتباهاات تدور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين ، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجع جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها . فهذه ماثرات الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أعظم مثل أن يأخذ طاماما مختلفا فيه عرضا عن عتب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشككا به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها ، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشر حصرها فإتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليتب فان الإثم حراز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أتاح الملقى أما حيث حرمه فيجب الامتناع . ثم لا يمول على كل قلب فرب موسوس ينفر عن كل شيء من ورب شره متساهل مطمئن إلى كل شيء . ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يتجنى به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فمن لم يثق بقلب نفسه فيلتبس الثور من قلب هذه الصفة وليعرض عليه واقعه ، وجاء في الزبور « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : قل لبي إسرائيل إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجلى فذلك الذي أنظر إليه وأزهد بصري وأباهي به ملائكتي » .

الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والمجوم ، والإهمال ومطأها

اعلم أن كل من قدم إليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تهب فليس لك أن تفقش عنه وتساءل وتقول : هذا مما لا أحقق حله فلا أخذه بل أفقش عنه . وليس لك أيضا أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تدقق تحريمه بل السؤال واجب مرة وسحرام مرة ومتدوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الثاني فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريية . ومنشأ الريية ومثارها إما أن يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول : أحوال المالک

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولا أو مشكوكا فيه أو معلوما بنوعه يستند إلى دلالة . الحالة الأولى : أن يكون مجهولا والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه كزوى الأجناد ، ولا ما يدل على صلاحه ككتاب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرهما من العلامات . فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلا لا تعرف من حاله شيئا ولا عليه علامة تنسب إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول ؛ وإذا دخلت بلدة غريبا ودخلت سوقا ووجدت رجلا غيازا أو قصابا أو غيره ولا علامة تدل على كونه مرييا أو خائنا ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله ، ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سيان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدري وبين ما يشك فيه ، وقد عرفت بما سبق أن الورع ترك ما لا يدري . قال يوسف بن أسباط : منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . ونكلم جماعة في أشق الأحوال

فقالوا : هو الورع ، فقال لهم حسان بن أبي سنان : ما شئ عندى أسهل من الورع ، وإذا حاك في صدرى شئ تركته . فخذ شرط الورع ، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول : حكم هذه الحالة أن المجهول أن قدم إليك طعاماً أو حل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلماً دلائلنا كافيان في المجهوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تشك الظن به فإن أسأت الظن بهنى عينه لأنك رأيت فساداً من غيره فقد جنت عليه وأثمت به في الحال نقداً من غير شك ، ولو أخذت المال لكن كونه حراماً مشكوكاً فيه . ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضوا الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا يزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يهتزون من الأسواق ، وكان الحرام أيضاً موجوداً في زمانهم وما قتل عنهم سؤال إلا عن رية إذا كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه بل سأل في أول قدمه إلى المدينة عما يحمل إليه : أسدقة أم هدية ؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم قراء فطلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم إسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة ، وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل : أسدقة أم لا ؟ إذ العادة ما جرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك دعاه أم سلمة رضي الله عنها ودعاه الخياط رضي الله عنه كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدم إليه طعاماً فيه قرع ، ودعاه الرجل القارسي فقال عليه الصلاة والسلام « أنا وعائشة ؟ » فقال : لا ، فقال : « فلا » . ثم أجابه بعد فطلب هو وعائشة يتساوآن ففرب إليهما رضي الله عنهما ولم ينقل السؤال في شئ من ذلك ، وسأل أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رآه من أمره ، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاه من لبن ليل الصدقة إذ رآه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يأفقه كل مرة . وهذه أسباب الرية وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصياً بأجابته من غير تفتيش ، بل لو رأى يحملها ومالا كثيراً فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير فن أين يجتمع هذا من الحلال ؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وأزيد على هذا وأقول : ليس له أن يسأله بل أن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدرى من أين هو فهو حسن فيتلطف في الترك ، وإن كان لا يده له من أكله فليأكل بغير سؤال إذ السؤال إيذاء وهناك شر وإحاش وهو حرام بلا شك .

فان قلت : لعله لا يتأذى ؟ فأقول : لعله يتأذى فأنت تسأل حذراً من « لعل » فان تمت قلل ماله حلال وليس الإسم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام ، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء في ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لا يدرى هو فقيه إساءة ظن وهناك شر وفيه تجسس وفيه تثبت بالغبية وإن لم يكن ذلك صريحاً . وكل ذلك منهى عنه في آية

الباب الثالث : في البحث والسؤال

(١) حديث سؤاله في أول قدمه إلى المدينة عما يحمل إليه أسدقة أم هدية : رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان « أن النبي ﷺ لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام ، فسأله عنه أسدقة أم هدية ... » تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة .

(٢) كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أسدقة أم لا : هذا معروف مشهور ، من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري في منيع أبي شعيب طعاماً للنبي ﷺ ، ودعاه خامس خمسة .

(٣) حديث دعاه أم سلمة : متفق عليه من حديث أنس .

(٤) حديث أنس : أن خياطاً دعا النبي ﷺ فقدم له طعاماً فيه قرع : متفق عليه

(٥) حديث دعاه الرجل القارسي فقال « أنا وعائشة ... » رواه مسلم عن أنس .

واحدة قال الله تعالى ﴿ اجتنبو أكثرأ من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يقب بمصنكم بعضا ﴾ وكما زاهد جعل يوحش القلوب في التفتيش ويتكلم الكلام الحسن المؤذى وإنما بحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشبهة بأكل الحلال ، ولو كان بائعه بعض الدين لكن خوفا على قلب مسلم ان يتأذى أشد من خوفه على جلته ان يدخله مالا يدرى وهو غير مؤاخذ بمالا يدرى إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم ان طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بد من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ؛ هذا هو المألوف من الصحابة رضى الله عنهم ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمنفع فلن يبلغ أحد مد أحدم ولا نصيفه ولو اتفق مافى الأرض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما بيرة فقيل : إنه صدقة ؛ فقال : « هو لها صدقة ولنا هدية ^(١) » ولم يسأل على المصدق عليها فكان المصدق مجبولا عنه ولم يتمتع .

الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أورثت روية فلذلك روية صورة روية ثم حكما . أما صورة الروية فهو أن تدله على تحريم مافى يده دلالة إما من خلقت أو من زيه وثيا به أو من قبله وقوله ، أما الخلقة : فبأن يكون على خلقة الأراك والبواى والمعروفين بالظلم وقطع الطريق ، وأن يكون طويل القارب ، وأن يكون الشعر مفردا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب : فالقباة والقطنسة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم .

وأما الفعل والقول : فهو أن يشاهدته الإقدام على مالا يحل ؛ فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضا فى المال ويأخذ مالا يحل ؛ فهذه مواضع الروية . فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئا أو يأخذ منه هدية أو يجهيه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات ؛ فيحتمل أن يقال إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قالها مثل هذه الدلالة فأورثت روية فالجواب غير جائز ، وهو الذى تختاره وتفق به لقوله صلى الله عليه وسلم « دمع ما يريك إلى مالا يريك ^(٢) » فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب » وهذا ^(٣) له وقع فى القلب لا ينكر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل : أصدقه هو أو هدية ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه . وسأل عمر رضى الله عنه . وكل ذلك كان فى موضع الروية وحمله على الورع وإن كان يمكننا ولكن لا يعمل عليه إلا بقياس حكى والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة أورثت روية فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيرا واحتمل أن يكون بطول المكث فإن رأينا طيية بالت فيه ثم احتمل ان التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فان طول الشوارب وليس القباة وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع ان تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالنصب والظلم او يعتقد عقد الربا . فأما إذا رآه قدشم غيره فى غضبه او اتبع نظره امرأته ربه فهذه الدلالة ضعيفة فحكم من إنسان يتخرج فى طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة ؛ فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بعد فليستغف العبد فى مثل ذلك قلبه . وأقول ان هذا ان رآه من مجهول فله حكم وإن رآه عن عرفه بالورع فى الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذ تعارضت

(١) « أكلة طعام بيرة قيل إنها صدقة فقال : هو لها صدقة ولنا هدية » متفق عليه من حديث أنس .

(٢) « دمع ما يريك » تقدم فى البابين قبله

(٣) « الإثم حزاز القلوب » تقدم فى العلم

حكم آخر إذ تمارضت الدلائل بالإضافة إلى المال وتساقطت وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدلائل تناسب المال على الخصوص فكيف من متخرج في المال لا يخرج في غيره وكف من بحسن الصلاة والوضوء والقرأة ويا كل من حيث يجد الحاكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن يتأبط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب وهو حكم حرازة القلب . ثم ليقب دليقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جندبا أو عامل سلطان أو نائحة أو مغنية فإن دل على أن في ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا بل كان السؤال من الورع .

الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك غنى في حل المال أو تحريمه مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعسألته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فهنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول ، فالأول الإقدام . والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » (١) فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والسياب ، فهنا السؤال واجب لا محالة كما في موضع الرية بل أولى .

المثار الثاني : ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لافي حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح في سوق أحوال من طعام غصب واشترأها أهل السوق فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضی الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنمة وغيرها ، وكانوا لا يسألون في كل عقد ، وإنما السؤال تقل عن أحادهم نادرا في بعض الأحوال وهي محال الرية في حق ذلك الشخص المعين ، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يميل لأخذه مجانا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الصافي رحمه الله ، وصاحبه أولى بالتمنع عند أي حنفية رحمه الله ، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذربيجان : إنكم في بلاد تدع فيها الميتة فانظروا ذكيت من ميتة . أذن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضاً تباع وأكثر الجلود كان كفلك . وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم في بلاد أكثر قصابها الجوس فانظروا الذكي من الميتة غصب بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلتفرضها .

مسألة : شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام متصوب أو مال منسوب ، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدار على سلطان ظالم له أيضا مال موروث ودعته أوتجاره وأورجل

(١) « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » . تقدم في الزكاة .

ناهر يماثل بمعاملات صحيحه يربى أيضا . فان كان الاكثر من ماله حراما لا يجوز الاكل من ضيقه ولا قبول هديته ولا صدقة إلا بعد التفتيش ، فان ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك . وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشبه فهذا في عمل النظر لأنه على رتبة بين الرتين ، إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر مئنت مثلا وجب اجتناب الكل وغذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لاسيا إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان ، وبخلافه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها في الحال بقيتنا والحرام الذي خالفه ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا في الحال وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود في الحال فهو ومسألة اختلاط الميتة واحد . وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك ويشبهه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يملك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جداً ولكن النظر في كونه سقما منافض للمداه ، وهذا من حيث النقل أيضا غامض لتجاذب الأشياء ، ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ما ينقل فيه عن الصعابة من الامتناع في مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم .

وما ينقل من إقدام على الأكل كالأكل أبي هريرة رضى الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبابة أن عين ما يأكله من وجه مباح ، فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم : لو أعطاني السلطان شيئا لأخذته وطرده الإباحة فيها إذا كان الاكثر أيضا حراما مهما لم يعرف عين المأخوذ واحتمل أن يكون حلالا ، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين - كما سيأتى في باب بيان أموال السلاطين - فأما إذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجودا في الحال لم يكن الأكل حراما ، وإن تحقق وجوده في الحال - كما في مسألة اشتباه الذكية بالميتة - فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من التشابهات التي يصحر الملقى فيها لأنها مترددة بين مشابة المحصور وغير المحصور .

والرخصة إذا اشتمت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كان بيعة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد . ولو سئلت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها ، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضوح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل روى صيدا فوقع في ملك غيره أيسكون الصيد للراى أو لملك الأرض ؟ فقال : لا أدري ، فراجع فيه مرات فقال : لا أدري . وكثيرا من ذلك حكيناه من السلف في كتاب العلم فليقطع الملقى طمعه عن ذلك الحكم في جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما يعاملون السلاطين فقال : إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة في الأقل ويحتمل المسامحة في الاكثر أيضا . وبالجملة فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجعون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لشعاطيه عقداً واحداً فاسداً أو لمعاملة السلطان مرة ، وتقدير ذلك فيه بعد والمساءلة مشكلة في نفسها .

فان قيل : فقد روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه رخص فيه وقال : خذ ما يعطيك السلطان فانما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضى الله عنه في ذلك فقال له السائل : إن لي جارا لأأعله لإخيتي يدعونا أو نحتاج فنستسلفه فقال : إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه فان لك للمبتأ وعليه المأثم . وأتى سليمان يمثل ذلك . وقد علل على بالكثرة وعمل ابن مسعود رضى الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المبتأ أى أنت لا تعرفه . وروى أنه قال رجل لابن مسعود

رضي الله عنه : إن لي جارا يأكل الربا فيدعوننا إلى طعامه أفأفنيه ؟ فقال : نعم . وروى في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعي ومالك رضي الله عنهما بجواز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالف الملم الحرام ؟

قلنا : أما ما روى عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يتمتع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الفسل لا يجد غيره . ولست أنكر أن رخصت صريح في الجواز وقوله يحمل الورع ولكنه لو صح فال السلطان له حكم آخر فإنه يحكم كثره يكاد يلتحق بما لا يحصر - وسيأتي بيان ذلك - وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما متعلق بمال السلطان - وسيأتي حكمه - وإنما كلاتنا في آحاد الخلق وأموالهم قرية من الحصر . وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه فقيل إنه إنما نقله خوات النبي وأهله ضعيف الحفظ والمشهور عنه ما يدل على توقف الضمائم إذ قال : لا يقول أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبها قدح ما يريك إلى ما لا يريك وقال : اجتنبوا الحكاكات ففيها الإثم .

فان قيل : لم قلتم إذا كان الأكثر حراما لم يجوز الأخذ به أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص ، واليد علامة على المال حتى إن من يبرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والكثرة توجب فلنا مرسلا لا يتعلق باليمن فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله ﷺ « دع ما يريك إلى ما لا يريك » لأنه محصور ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فان ذلك توجب ريتو مع ذلك قطعت بأنه لا يجوز .

فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوي . فاذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المختلط موجود في الحال ، والمال غير خال عنه ، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام « دع ما يريك إلى ما لا يريك » لا يبقى له عمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجودا في زمانه وكان لا يدعو على أي موضع حمل هذا كان في معناه . وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فان نجرم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، والكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا الحصر وقد اجتمعا حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه : لا تجتهد في الأواني إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر . فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة . ومن قال يأخذ أي آنية أراد بلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الثرب أيضا فيلومه التجويز هنا بمجرد علامة اليد . ولا يجري ذلك في بول اشتبه بماء إذ لا استصحاب فيه ولا ظن له أيضا في ميتة اشتبهت بذكاة إذ لا استصحاب في الميتة ، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك . فهنا أربع متعلقات : استصحاب ، وقلة في المخلوط أو كثرة ، وانحصار أو اتساع في المخلوط . وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد . فن يفصل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه . فحصل ما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أنه وكل واحد إما أن يعلم يقين أو ظن عن علامة أو توهم . فالسؤال يجب في موضعين : وهو أن يكون الحرام أكثر يقينا أو ظنا كما لو رأى تركيا مجهولا يحتمل أن يكون كل ماله من غنمية وإن كان الأقل معلوما باليقين فهو محل التوقف وتكاد تشير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية فالسؤال غير واجب فيها أصلا .

مسألة : إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدرار كان قد أخذه أو وجه آخر ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا ؟ فله الأكل ولا يلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع ، ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدركه الأكل أو الأكل فله أن يأخذ به الأكل . وقد سبق أن أمر الأكل لمشكل وهذا يقرب منه .

مسألة : إذا كان في يد المتولى التصيرات أو الأوقاف أو الرصايا مالا ويستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ ما يملكه إليه صاحب الوقت ؟ فظهر : فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يبرها المتولى وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالمتولى أنه لا يصرف إليه ما يبره إلا من المال الذي يستحقه ، وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى من عرفه أنه لا يخطئ ولا يبال كيف يقبل فعليه السؤال ؛ إذ ليس هنا يد ولا استحباب يحول عليه ، وهو وزان سؤال رسول الله ﷺ عن الصدقة والمدينة عند تردده فيها لأن اليد لا تخص المديونية عن الصدقة ولا استحباب فلا ينبغي منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامه اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته واحتمل أن يكون مجوسيا لم يمن له ما لم يعرف أنه مسلم إذ اليد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيحوز أن يظن بالذي ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم وإن كان الخطأ ممكنا فيه فلا ينبغي أن تتلبس المواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد .

مسألة : له أن يشتري في البلد دارا وإن علم أنها تشتمل على دور مفضوبة لأن ذلك الاختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط ورع . وإن كان في سكة عشر دور مثلا إحداها منصوب أو وقف لم يجر الشراء ما لم يتميز ويجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لا بد أن تكون محصورة .

مسألة : حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لا يبالي بغضب مثله ، إذ يجب إهداء الطعام بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال . نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله من هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استرأب لأنهم لا يرضون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضا لما أن قدم عليه بمال كثير فقال : ويحك أكل هذا طيب ؟ من حيث إنه تعجب من كثرة وكان هو من رعيته لا سيما وقد رفق في صيغة السؤال ، وكذلك قال علي رضي الله عنه : ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورقته ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة : قال الخارث الحاسبي رحمه الله : لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع ، لأنه ربما يبدو له ما كان مستورا عنه فيكون قد حمله على منك السر ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء ، وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لامن الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن منك السر ، وإنارة البغضاء أهم ، وزاد على هذا قال : وإن رآه من شيء أيضا لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب ويجنبه الخبيث فإن كان لا يطعم قلبه إليه فيحترز متلفعا ولا يهلك ستره بالسؤال ، قال : لأن لم أر أحدا من العلماء فعله ، فهذا منع ما اشتهر به من الوعد يدل على مساعدة فيما إذا غلط المال الحرام القليل ولكن عند

التوم لا عند التحقق لأن لفظ الرية يدل على التوم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراجع هذه الدقائق بالسؤال .

مسألة : ربما يقول القائل : أي فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام ومن يستعمل للمال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال ؟ فأقول : مهما علم مخالفة الحرام لمال إنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك مديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة السؤال منه ، فينبغي أن يسأل من غيره ، وكذا إن كان يباع وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن منهما كما يسأل التولى على المال الذي يملكه أنه من أي جهة وكما سأل رسول الله ﷺ عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤمن ولا يهتم القائل فيه ، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال ، فلا يهتم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح ، وكذلك يسأل عبده وغلامه ليحرف طريق اكتسابه فهنا يفيد السؤال فإذا كان صاحب المال منهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واحد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز بقوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس ، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال ، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من تولى العداة في ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فإن البواطن لا يطلع عليها وقد قيل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكمن من شخص تعرفه وتعرف أنه قد بقتحم المعاصي ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبي مميز ممن عرفته بالثبوت فقد تحصل الثقة بقوله فيحصل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لا يدرى من حاله شيء أصلاً فهذا ممن يجوزنا الأكل من يده دلالة ظاهرة على ملكه . وربما يقال إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ، وهذا فيه فطر ، ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة قيد ظناً قوياً إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فليستظر إلى حد تأثيره في القلب فإن القلب هو المقع في مثل هذا الموضع والقلب الضائع إلى قرائن خفية يضيئ عنها نطق التعلق فليأمل فيه . وبدل على وجوب الالتفات إليه ماروي عن عقبة بن الحرث و أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فرعمت انها قد أرضعتا وهي كاذبة ، فقال : دعها ، فقال : إنها سوداء — يصغر من شأنها — فقال عليه السلام : فكيف وقد رعت انها قد أرضعتكما ؟ لا خير لك فيها دعها عنك^(١) — وفي لفظ آخر — كيف وقد قيل « ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر اشارة غرض له فيه كان له وقع في القلب لاحالة ؛ فذلك يتأكد الأمر بالاخترار فإن اطمان اليه القلب كان الاخترار حتماً واجباً .

مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ، ويجوز أن يرجح في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ، ويجوز أن يرجح أحد المجانين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة وذلك بما يتناسب تصويره .

مسألة : لو تهب متاع مخصوص قصاص من ذلك النوع متاعاً في يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون من المنصوب فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المنصوب فله أن يشتري . وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في

(١) حديث عقبة « إني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فرعمت انها قد أرضعتا وهي كاذبة » رواه البخاري من حديث عقبة ابن الحارث .

تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب النصب فليس يدل على الحل إلا اليد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع وتوقعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة . ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أن أرد له قلب المستقي لينظر ما الأقوى في نفسه فإن كان الأقوى أنه منصوب لزم تركه وإلا له شرائه . وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المشابهات التي لا يبرهنها كثير من الناس فن توقعنا فقد استبرأ لمرضه ودينه ومن اقتحمها فقد حارم حول الحلي وخاطر بنفسه .

مسألة : لو قال قائل : قد سأل رسول الله ﷺ عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال (١) فيجب السؤال عن أصل المال أم لا ؟ وإن وجب فمن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول : لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الرية المتضمنة السؤال إما وجوباً أو ورها . ولا غاية السؤال إلا حيث تنقطع الرية المتضمنة له وذلك يختلف باختلاف الأحوال فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال : اشتريت ، اقتطع بسؤال واحد ، وإن قال : من شاتي ، وقع الشك في الشاة . فإن قال : اشتريت ، اقتطع وإن كانت الرية من الظلم وذلك ما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المنصوب فلا تنقطع الرية بقوله : إنه من شاتي ، ولا بقوله : إن الشاة ولشاتي شاتي ، فإن أسنده إلى الرواة من أبيه وحالة أبيه جهولة اقتطع السؤال ، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثر التوالد وطول الإيمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه فينتظر في هذه المعاني .

مسألة : سئل عن جماعة من سكان عاقاه الصوفية وفي يد خادمهم الذي يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك المسكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخطط السكك ويتفق على هؤلاء . هؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة ؟ فقلت : إن هذا يلخص إلى سبعة أصول :

(الأصل الأول) أن الطعام الذي يقدم إليهم في الغالب يشتريه بالمعاطة والذي اختاره صحة المعاطة لا سيما في الإطعمة والمشغرات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف .

(الأصل الثاني) أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو في الذمة ؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام ، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب ، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شرائه بعين مال حرام .

(الأصل الثالث) أنه من أين يشتريه فإن اشتري ممن أكثر ماله حرام لم يجوز وإن كان أقل ماله فقيه نظر قد سبق ، وإذا لم يعرف جلا له الأخذ بأنه يشتريه ممن ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله يبين كالمجهول ، وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال .

(الأصل الرابع) أن يشتريه لنفسه أو لقوم فإن المتول والخادم كالتائب وله أن يشتري له ونفسه ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجري بالمعاطة فلا يجري اللفظ ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطة ، والقصاب والخباز ومن يماهله يحول عليه ويقصد البيع منه لئلا يضرهم فتنزع عن جهته ويدخل في ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم .

(١) « سأل النبي ﷺ وسلم عن لبن قدم إليه ... » قدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمال .

(الأصل الخامس) أن الخادم يقدم الطعام لأبيه فلا يمكن أن يحصل ضيافة وعدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتياداً على عوضه من الوقت ؛ فهو معاوضة ولكن ليس يبيع ولا إقراض لأنه لو انتفض لطلبتهم بالتمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه ، فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة المحبة بشرط الثواب - أعني هدية لا لقط فيها من شخص تقتضى قرينة حاله أنه يطلع في ثواب - وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً قبل تقديمه إلا حقه من الوقت ليقتضى به دينه من الحجاز والتصاب والبقال فهذا ليس فيه شبهة إلا لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب .

(الأصل السادس) أن الثواب الذي يلزم فيه خلاف ، فقتيل إنه أقل مثمول وقيل قدر القيمة وقيل ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة ، والصحيح أنه يبيع وضاه فإذا لم يرض عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقت ؛ فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناصباً ورضى به الخادم صح أيضاً ، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقت الآخر الذي يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام ، والحرام لم يدخل في أيدي السكان ، فهذا كالحلل المتطرق إلى الثمن - وقد ذكرنا حكمه من قبل - وأنه متى يقتضى التحريم متى يقتضى الشبهة ؛ وهذا لا يقتضى تحريماً على ما فصلناه فلا تغلب الهدية حراماً يتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام .

(الأصل السابع) أنه يقتضى دين الحجاز والتصاب والبقال من ربح الواقفين فلأن وفي ما أخذ من حقه بقيمة ما أطلعهم فقد صح الأمر ، وإن قصر عنه فرضى التصاب والحجاز بأي ثمن كان حراماً أو حلالاً ؛ فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً فليفتت إلى ما قدمناه من الشراء في التهمة ثم قضاء الثمن من الحرام ، هذا إذا علم أنه قضاء من حرام ، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالصبة أريد ، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الروع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرة أقوى في النفس كما أن الخبر إذا طال حال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده . فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تفريج الوقائع الملتفة الملتبة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يسجر عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع . في كيفية خروج الثائب عن اللطام المالية

اعلم أن من تاب وفي يده مختلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أخرى في مصرف المحرم فلينظر فيما .

النظر الأول : في كيفية التمييز والإخراج

أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غضب أو ودية أو غيره فأمره سهل ، فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبساً مختلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الامثال كالحبوب والتعود والادهان . وإما أن يكون في أعيان متباعدة كالعبيد والودع والثياب فإن كان في المتباعدات أو كان شائفاً في كله كما كتبت اللال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المراجعة وصدق في بعضها ، أو من غضب دعنا وخلطه بدنه نفسه ، أو فعل ذلك في الحبوب ، أو الدرهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً . فإن كان معلوم القدر

مثل أن يعلم أن قدر النصف من جله ماله حرام فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقتان أحدهما : الأخذ باليقين والآخر : الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لانجوز في الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال النعمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوفق بها . وأما ههنا يمكن أن يقال : الأصل أن مافي يده حرام ، بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهدا ، ولكن الورع في الاخذ باليقين . فإن أراد الورع فطريق التحرى والاجتهاد أن لا يستيق إلا القدر الذى يتيقن أنه حلال . وإن أراد الاخذ بالظن فطريقه مثلا أن يكون في يده مال تجارة فقد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث ملاحرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحرى في كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانيين في الحل والحرمه . والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جازاه الإمساك والورع أخرجه وإن شك فيه جاز الإمساك والورع أخرجه ، وهذا الورع أكد لأن صار مشكوكا فيه ، وجزأ إمساكه اعتقادا على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفا بدين يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا مايقب على ظنه أنه حلال وليس أخذ الجانيين بأولى من الآخر وليس يتبين في الحال ترجيح وهو من المشكلات .

فإن قيل : هب انه اخذ باليقين لكن الذى يخرج به ليس يدرى انه عين الحرام فعمل الحرام مايقب في يده فكيف يقدم عليه ؟ ولوجاز هذا لجاز ان يقال : إذا اختلطت مئة بتسع مذكاة فهي العشرة فان بطرح واحدة . أى واحدة كانت . - وبأخذ الباقي ويستطه ولكن يقال : لعل المية فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال انها الحرام ؟

فتقول : هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المسال يحل بإخراج البديل لطرق المعارضة إليه ، وأما المية فلا تتطرق المعارضة إليها فليكتف العطاء عن هذا الإشكال بالفرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبهت به ، وقد سئل احمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا فقال : بيع السك حتى يتبين ، وكان قدرهن آنية فلما قضى الدين حل إليه المرتين آيتين وقال : لا أدري أيتهما آيتك ؟ فتركهما فقال المرتن : هذا الذى هو لك وإنما كنت أخترتك ؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع ولحسنا نقول إنه غير واجب . فلنفرض المسألة في درهم له مالك معين سائر فتقول : إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر ، لأنه لا يخفى إما أن يكون الردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه ، فالاحتياط أن يتباها باللفظ فإن لم يفلا وقع التفاس والتبادل بمجرد المعاوضة ، وإن كان المنصوب منه قد فات له درهم في يد الناصب وعصر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح ، فإن المضمون له بملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه . فتقول : لأنه أيضا كان قد سلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالثائب فيقع هذا بدلا عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك ، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التفاس لو ألتف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه ، بل في عين مسألنا لو ألقى كل واحد مافي يده في البحر أو أحرقه كان قد ألتفه ولم يكن عليه عهدة الاخر بطريق التفاس ؛ فكذا إذا لم يلف فان القول بهذا أولى من الصير الى ان من يأخذ درهما حراما ويطره في ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجورا عليه لا يجوز التصرف

فيه وهذا المنصب يؤدي إليه ، فأنظر ما في هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ ، والمعاينة بيع ومن لا يجعلها بيعاً فحيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالة وحيث يمكن التلغظ ، وههنا هذا التسليم والتسلم للبيعة قطعاً والبيع غير ممكن لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم في عينه وقد يكون ما لا يقبل البيع كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والوطب وكل ما لا يباع البعض منه بالبعض .

فإن قيل : فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجهتموه بيعاً ؟ قلنا : لا يجعله بيعاً بل نقول هو بدل عما فات في يده فيملكه كما يملك المثلث عليه من الرطب إذا أخذ مثله ؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال : لا تأخذ درهما أصلاً إلا عين ملكي فإن استهم فأنكره ولا أمه وأعطى عليك ماله . فأنقول : على القاضي أن ينوب عنه في القبض حتى يطلب للرجل ماله فإن هذا عين الثمن والتضييق والشرح لم يرد به فإن عجز عن القاضي ولم يجد فليحكم رجلاً متديناً ليقض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويقدر على نية الصرف إليه درهما ويتعين ذلك له ويطلب له الباقي ، وهذا في خط المائعات أظهر وألوم .

فإن قيل : فينبغي أن يحمل له الأخذ ويقتل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولاً ثم التصرف في الباقي ؟ قلنا : قال قائلون يحمل له أن يأخذ ما دام يبق قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك . وقال آخرون : ليس له أن يأخذ ما لم يخرج قدر الحرام بالثوبة وقصد الإبدال . وقال آخرون يجوز للأخذ في التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصى هو دون الأخذ منه ، وما يجوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر له أن يأخذ حقه من هذه الحلة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حق . وبالنسبة وإخراج حق الغير وتمييزه يتدفع هذا الاحتمال فهذا المال يرجع هذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك ما محتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما محتمل فيه رجوع القيمة وما محتمل فيه رجوع العين يقدم على ما محتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين وينصرف فيهما ويقول على قصد الحقك من موضع آخر ؛ إذ الاختلاط من الجاهلين وليس ملك أحدهما بأن يقدر قائماً بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه أو ينظر إلى الذي خلط فيجعل بفعله متلفاً لحق غيره وكلاهما بعيدان جداً . وهذا واضح في ذوات الأمثال فانها تقع عوصاً في الإنلاقات من غير عقد فأمّا إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضي فإن أبي أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متائلة القيم فالطريق أن يبيع القاضي جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى المتسرع منه مقدار قيمة الأقل ، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الإصلاح لأنه مشكل ، وإن لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتول ذلك بنفسه ، هذه هي المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لاختيارها وفيها سبق تنبيه على العلة ، وهذا في الحنفية ظاهر ، وفي التتوذة دونه ، وفي العروض أغعض ، إذا لا يبيع البعض بدلاً عن البعض ، فلذلك احتج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل .

مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفاً وهو قدر حقه سامحه الورثة ؛ فإن النصف الذي له لا يتميز حتى يقال : هو المردود ، والباقي هو المنصوب ، ولا يصير ميلاً بنية السلطان ، وقصد حصر النصب في نصيب الآخرين .

مسألة : إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار وكان قد حصل منه ارتفاع ، فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة ، وكذلك كل منسوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته ما لم يخرج (١٧ — إجماع علوم الدين ٢)

أجرة المنصوب، وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجرة المييد والنياب والأواني وأمثال ذلك ما لا يتبادر إلى ذهنها ما يصر ولا يدرك ذلك إلا بالاجتهاد وتخمين، وهكذا كل التوقيعات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأنقى، وما ربحه على المال المنصوب في عقود عقدها على الأمانة وقضى الثمن منه، فهو ملك له ولكن فيه شبهة، إذ كان ثمنه حراماً كما سبق حكمه، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة، وقد قيل: تنفذ بأجارة المنصوب منه للصلحة فيكون المنصوب منه أولى به، والقياس أن تلك العقود تفسخ وتسرّد الثمن وترد الأعيان فإن عجز عنه لكثرة نفى أموال حرام حصلت في يده فالمنصوب منه قدر رأس ماله، والفضل حرام يجب إخراجه ليتصدق به، ولا يحمل الغاصب ولا للمنصوب منه، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده.

مسألة: من ورث مالا ولم يدرك أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة، فهو حلال باقتناع العلماء، وإن علم أن فيه حراما وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري، فإن لم يعلم ذلك ولو كان علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلامين واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئا، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لعلو المدة، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراجه ذلك القدر بالاجتهاد. وقال بعض العلماء: لا يلزمه والإثم على المورث، واستدل بما روى أن رجلا ممن ولي عمل السلطان مات، فقال صحابي: الآن طاب ماله، أي لوارثه، وهذا ضعيف، لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل، فقد كان في الصحابة من يتساهل، ولكن لا تذكره لحرمة الصحبة، وكيف يكون موت الرجل ميمناً للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا؟ نعم إذا لم يتيقن بجور أن يقال: هو غير مأخوذ بما لا يدري، فيطيب لوارث لا يدري أن فيه حراماً أم يتيقناً.

النظر الثاني: في المصرف

فلذا أخرج الحرام لله ثلاثة أحوال:

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائبا فيستظر حضوره أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع قوائمه إلى وقت حضوره.

وإذا ما يكون لمالك غير معين وقع البأس من الوقوف على عينه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا. فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويرفق حتى يضح الأمر فيه، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كقول النخعي فاتها بعد تفرق الغزاة، كيف يقدر على جمعهم، وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً مثلاً على ألف أو ألفين، فهذا ينبغي أن يتصدق به.

وإذا ما مال الفتي والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة، وأمثال هذه الأمور التي يشترك بها كل من يمر بها من المسلمين، ليسكون عاماً للمسلمين، وحكم القسم الأول لاشبهة فيه. أما التصديق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضي فيسلم إليه المال إن وجد قاضياً متديناً، وإن كان القاضي مستحلاً فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتداء به فيما لا يضمنه، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه، بل يحكم من أهل البلد علماً متديناً. فإن التحكيم أولى من الانفراد، فإن عجز فليتول

ذلك بنفسه ، فإن المقصود الصرف ، وأما عين المصارف فأما فطلبه لمصارف دقيقة في المصالح ، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صرف هو أولى عند القدرة عليه .

فإن قيل : ما دليل جواز التصدق بما هو حرام ، وكيف تصدق بما لا يملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال : لا أنصدق إلا بالطيب ولا أرضى لغيري مالا أرضاء لنفسي . فنقول : نعم ، ذلك له وجهان واحتال ، وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس : أما الخبر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاء المصلية التي قدمت إليه ، فكلته بأنها حرام ؛ إذ قال ﷺ أطعموها الأسارى (١) ولما نزل قوله تعالى (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون) كذبه المشركون وقالوا الصحابة : ألا ترون ما يقول صاحبكم ، يزعم أن الروم ستغلب ، فغاطهم أبو بكر رضي الله عنه بإذن رسول الله ﷺ ؛ فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضي الله عنه بما فأمرهم به ، قال عليه الصلاة والسلام : هذا سحت ، تصدق به وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكلن قد نزل تعريم التهاد بعد إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المخاطرة مع الكفار (٢) وأما الأثر فإن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بملكها لينقذه الثمن ، فطلبه كثيرا فلم يجده ، فصنع بالثمن وقال : اللهم هذا عنه إن رضي وإلا فالأجر لي . وسئل الحسن رضي الله عنه عن ثوبة الغلال وما يؤخذ منه بعد تفرق الجيش ، فقال : تصدق به . وروى أن رجلا سولت له نفسه فغل مائة دينار من النسيئة ، ثم أتى أميره ليردها عليه فأن أن يقبضها وقال له : تفرق الناس ، فأتى معاوية فأن أن يقبض ، فأتى بعض النساك فقال : ادفع نحسها إلى معاوية ، وصدق بما يقبض ، فبلغ معاوية قوله ، فلهف إذ لم يخطر له ذلك ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والمحاسن والمحاسن وجماعة من الورعين إلى ذلك .

وأما القياس فهو أن يقال : إن هذا المال مرددين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير ، إذ قد وقع اليأس من مالكم ، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى غير أولى من إلقائه في البحر ؛ فإنا إن رميناه في البحر فقد فوتنا على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة ، وإذا رميناه في يد فقير بدعوا لالك حصل لالك بركة دعاه وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر لالك بغير اختياره في التصديق لا يبين أن يشكر ؛ فإن في الخبر الصحيح « إن للزراع والناس أجرا في كل ما يصيب الناس والطيور من ثماره وزرعه » (٣) وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل : لا تصدق إلا بالطيب ؛ فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلة لا الأجر وتردنا بين التصديق وبين الصدق ورجعنا جانب التصديق على جانب التضييع . وقول القائل : لا نرضى لغيرنا مالا

الباب الرابع : في كيفية خروج الثائب عن الظالم

(١) حديث : أمر النبي ﷺ بالتصدق بالشاء المصلية التي قدمت بين يديه وكلته بأنها حرام ، إذ قال « أطعموها الأسارى » رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة ، فلما رجعنا لقينا راعي امرأة من قريش قال : إن ثلاثة تدعوك ومن مراكب إلى طعام ... وفيه : قال « أجد لهم شاة أخذت بغير إذن أهلها » وفيه قال « أطعموها الأسارى » وإنسانه جيد . (٢) حديث : مخاطرة أبي بكر المشركين بإذنه ﷺ لما نزل قوله تعالى (ألم غلبت الروم) وفيه قال النبي ﷺ « هذا سحت » فصديق به . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، وليس فيه أن ذلك كان بإذنه ﷺ ، والحديث عند الترمذي وحسنه ، والمحاسن وصححه دون قوله أيضا « هذا سحت » تصدق به . (٣) « أجر الزارع والناس في كل ما يصيب الناس والطيور » أخرجه البخاري من حديث أنس « ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة »

مالا نرضاه لأنفسنا ؛ فهو كذلك ؛ ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه وللفقر حلال إذا حله دليل الشرع ، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل قد وحيثا له الحلال ونقول ان له أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا يفتي عنهم يكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدق عليهم ، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ونترسم في بيان هذا الأصل أيضا مسائل .

مسألة : إذا وقع في يده مال من يد سلطان قال قوم : يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدق به ، واختار المحاسبي ذلك وقال : كيف يتصدق به قلل له مالكا مميئا ولو جاز ذلك لجاز أن يترك من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم : يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعاقة للعظام وتكثير لأسباب ظله فالرد إليه تنصيص لحق المالك ، واختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكه فيتصدق به عن مالكه فهو خير للمالك إن كان له مالك معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لا يكون له مالك معين ويكون حق المسلمين فرد على السلطان تنصيص فإن كان له مالك معين فالرد على السلطان تنصيص وإعانة السلطان العظام وتقويت لترك دعاء الفقير على المالك وهذا ظالم ؛ فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه بالفتنة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يملكها ثم وإن كان غنيا من حيث أنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك ولا يؤثر في التمتع بالتصدق .

مسألة : إذا حصل في يده مال لا مالكا له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم : يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فضل ، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال : الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل ويتنظر لطف الله تعالى في الحلال ، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أسك ذلك اليوم عنه ، فإذا بقي عاد إليه ، فإذا وجد حلالا مميئا تصدق بمثل ما اتفق من قبل ويحكون ذلك قرضا عنه ، ثم أنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وألا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع ، وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما اتفق قرضا عنه فيه نظر ولا شك في أن الورع إن يجعله قرضا ، فإذا وجد حلال تصدق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لاسيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعديا بنفسه وكسبه حتى يغلظ الأمر عليه فيه .

مسألة : إذا كان في يده حلال وحرام أو شبه وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحاجة عليه أوكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرصهم من الحرام إن كان لا يقضى بهم إلى ما هو أشد منه فإن أفضى فيعلمهم بقدر الحاجة . وبالجملة كل ما يحضره في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع الطوالعيال وربما تعدوا إذا لم تعلم إذا لم تتول الأمر بنفسها قليلا بالحلال بنفسهم بمن يقول ، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يحض قوته وكسوته وبين غيره من المؤمنين كأجرة الصباغ والصباغ والتجارة والحلال والإحلال بالثورة والدعوى وعمارة المنزل وتعمد الداية وتسجير الثنور وخبث الحطب ودعوى السراج فليخص

بالحلال قوة ولباسه ، فإن ما يتعلق بيده - ولا غنى به عنه - هو أولي بأن يكون طيبا وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيجوز أن يقال ينص القوت بالحلال لأنه يمتزج بجمعه ودمه ، وكل لحم نبت من حرام فالتار أولى به . وأما الكسوة فمأخذها ستر عورته ودفع آخر البرد والإضرار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندى . وقال الحرث المحاسبي : يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدقو الطعام لا يبقى عليه لما روى أنه « لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بشرة درهم فيها درهم حرام »^(١) وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد وردت في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام^(٢) مراعاة اللحم والعظم أن ينبت من الحلال أولى ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه ما شره مع الجبل حتى لا ينبت منه لحم يثبت ويبقى .

فإن قيل : فإذا كان الكل منصرفا إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة وما مدرك هذا الفرق ؟ قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما ففشل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فتبى عن كسب الحجام فروجع مرات ففزع منه فقيل : إن له أياما فقال : أعلقوه الناضح^(٣) فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته فإذا انتفع سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه .

مسألة : الحرام الذى يده ليرصد على الفقراء أنه أن يوسع عليهم وإذا أئق على نفسه فليصنق ما قدر وما أئق على عياله فليقتصد ، ولكن وسطا بين التوسيع والتصنق فيكون الأمر على ثلاث مراتب . فإن أئق على ضعيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه ، وإن كان غنيا فلا بطعمه إلا إذا كان في برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئا فإنه في ذلك الوقت فقير ، وإن كان الفقير الذى حضر ضيفا فحيا لو علم ذلك لتورع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعا بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره . ولا ينبغي أن يحول على أنه لا بدى فلا يضره فإن الحرام إذا حصل في المعدة أثر في مساواة القلب وإن لم يضره صاحبه ، ولذلك تقياً أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد فشا بها على جبل ، وهذا وإن أئقنا بأنه حلال لفقراء أكلناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والحرا إذا أكلناه بالضرورة فلا يفتن بالطيبات .

مسألة : إذا كان الحرام أو المشبه في يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فإن كانا يستخطان فلا يوافقهما على الحرام المخصص بل ينهما فلا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى ، فإن كان شبهة وكان امتناعه الورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاها بل هو واجب فليتلطف في الامتناع ، فإن لم يقدر فليوافق وليلق الأكل بأن يصغر القمة ويطيل المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان والأخ والأخت قريبان من ذلك لأن حبهما أيضا مؤكد . وكذلك إذا أبسته أمه ثوبا من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليس بين يديها وليتزع في غيبته وليجهد أن لا يصل فيه إلا عند حضورهما فيصل في حلة المضطر ، وعند تمارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلت إليه أمه رطبة وقالت : بجنى عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم صعد غرفة فصعدت

(١) « لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بشرة درهم وفيها درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٢) حديث الجسد نبت من الحرام تقدم . (٣) حديث أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما ... وفيه « أعلقوه الناضح » أخرجه أحمد والطبراني

من رواية عباة بن رفاع بن خديج : أن جمه حين مات ترك جارية وناضحا وعلما حجاما ... وليس المراد بمجده رافع ابن خديج فإنه بقي إلى سنة أربع وسبعين فيحمل أن المراد جمه الأعلى ولم أره ذكر في الصحابة وفي رواية للطبراني عن عباة بن رفاع عن أبيه قال « مات أبى » وفي رواية له عن عباة قال « مات رفاع على عهد النبي ﷺ ... » وهو مضطرب

أمه ورواه فرأته يتقياً ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة . وقد قيل لأحمد بن حنبل : سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ فقال : لا . فقال أحد : هذا شديد . فقيل له : سئل محمد بن مقاتل المياداني عنها فقال : بر والديك ؟ فإذا تقول ؟ فقال للسائل : أحب أن تعطيني فقد سمعت ما قال ثم قال : ما أحسن أن تداريها .

مسألة : من في يده مال حرام غرض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية لأنه مفلس ولا يجب عليه الزكاة إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع المشرى ، وهذا يجب عليه إخراج الكل إما رداً على المالك إن عرفه أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك ، وأما إذا كان مال شبهة فيحتل أنه حلال فإذا لم يخرج منه من يده لزمه الحج لأن كونه حلالاً يمكن ولا يسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره وقد قال الله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وإذا وجب عليه التصديق بما يزيد على حاجته حيث يطلب على ظنه تحريره فإنزكاة أول بالوجوب ، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص يتيقن . وقد قال قوم يلزمه الصوم دون الإطعام إذ ليس له يسار معلوم . وقال الحاشي : يكفيه الإطعام . والنفى بفتنارة : أن كل شبهة حكمتنا بوجوب اجتنابها . وألزمناه إخراجها من يده ليكون احتيال الحرام أغلب على ماذكرناه ففعله الجع بين الصوم والإطعام ، أما الصوم فلاه مفلس حكماً ، وأما الإطعام فلاه قد وجب عليه التصديق بالجميع ويحتل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة .

مسألة : من في يده مال حرام أمسكه الحاجة فأراد أن يتطوع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به لأنه سياًكل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة أولى . وإن كان لا يقدر على أن يمشي ويحتاج إلى زيادة للركوب فلا يجوز الأخذ بثل هذه الحاجة في الطريق كالأجور شراء المركوب في البلد . وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغنى به عن بقية الحرام فالإقامة في انتظاره أولى من الحج ماشياً بالمال بالحرام .

مسألة : من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجهد أن يكون قوته من الطيب ، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل ، فإن لم يقدر فليجهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام وملبسه حرام ؛ فليجهد أن لا يكون في يده حرام ولا على ظهره حرام فإنا وإن جوزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة . وما ألحقناه بالطيبات ، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما هو مضطر إليه من تناول ما ليس بطيب ففساد ينظر إليه بين الرحمة وتجاوزته بسبب حرقه وخوفه وكرهه .

مسألة : سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل : مات أبي وترك مالا وكان يماثل من تكره معاملته ، فقال : تدع من ماله بقدر ما ربح ، فقال : له دين وعليه دين ، فقال : تقضى وتقضى ، فقال : أقرى ذلك ؟ فقال : أقدته محبساً بدينه ؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحري باخراج مقدار الحرام إذ قال : يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلا عما بذله في المعاملات الفاسدة بطريق التفاضل والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وغول في قضاء دينه على أنه يتيقن فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس : في إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر إلى ثلاثة أمور : في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ؟ وفي صفته التي يستحق بها الأخذ . وفي المقدار الذي يأخذه ، هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؟

النظر الأول في جهات الدخول للسلطان

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية اثنان :

مأخوذ من الكفار — وهو الغنيمة المأخوذة بالقتل — والغنى ، وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة ، وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاينة .

والقسم الثاني : المأخوذ من المسلمين — فلا يحل منه إلا فئان : الموارث وسائر الأمور الضائعة التي لا يتعين لها مالك ، والأوقاف التي لا تتولى لها . أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام .

فإذا كتب لفقهاء أو غيره إدراج أو صلة أو خبطة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية : فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية أو على الموارث ، أو على الأوقاف ، أو على ملك أحياء السلطان ، أو على ملك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على يباح من جهة التجار ، أو على الخزاة .

فالأول : هو الجزية ، وأربعة انحاسا للصالح ونحسا لجهات معينة . فما يكتب على الخس من تلك الجهات أو على الانحاس الأربعة لما فيه مصلحة ودعوى فيه الاحتياط في التصرف فهو حلال ، بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعي ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير ، فإنه أيضاً في عمل الاجتهاد والسلطان أن يفعل ما هو في عمل الاجتهاد ، وبشرط أن يكون الذي تؤخذ الجزية منه مكتسباً من وجه لا يعلم تحريمه فلا يكون عامل سلطان ولا يباح خر ولا صياً ولا امرأة ، إذ لا جزية عليها . فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار ما يصرف ، فيجب النظر في جميع ذلك .

الثاني : الموارث والأموال الضائعة فهي للصالح والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراماً أو أكثراه أو أقله وقد سبق حكمه ، فإن لم يكن حراماً بقى النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة ثم في المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف : وكذا يجري النظر فيها كما يجري في الميراث مع زيادة أمر وهو شرط الواقف حتى يكون المأخوذ موافقاً له في جميع شرائطه .

الرابع : ما أحياء السلطان ، وهذا لا يطرأ فيه شرط إذ له أن يعطي من ملكه ما شاء لمن شاء أي قدر شاء . وإنما النظر في أن الثالب أنه إحياء يكره الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام ، فإن الإحياء يحصل بحرق القنات والأبنار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه . فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نهينا عليها في تعلق الكرامة بالأعوان .

الخامس : ما اشتراه السلطان في القنعة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضي ثمنه من حرام وذلك بموجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيله .

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أمواله القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لا شبهة فيه ، وهو أكثر الإدارات في هذا الزمان إلا ما على أراضي العراق فإنها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يكتب على يراع يماثل السلطان فإن كان لا يماثل غيره فإله كمال خزانة السلطان . وإن كان يماثل غير السلطان أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسيأخذ بدله من الخزانة فالحلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام .

الثامن : ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه يمينته من الحلالا احتمالا قريبا له وقع في النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم : كل ما لا أتيقن أنه حرام فل أن أخذه ، وقال آخرون : لا يحل أن يؤخذ ما لم يتحقق أنه حلال فلا تحمل شبهة أصلا . أو كلاهما إسراف ، والاعتدال ما قدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفت فيه كما سبق .

ولقد احتج من يجوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال - مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام - بما روى عن جماعة من الصحابة أنهم أدرکوا أيام الأئمة الثلاثة وأخذوا الأموال : منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وجابر بن مالك والمسور بن عمره ، فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك ، وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج . وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعي وإبراهيم والحسن وابن أبي ليلى ، وأخذ الشافعي من هرون الرشيد ألف دينار في دفعة ، وأخذ مالك من الخلفاء أموالا وقال على رضى الله عنه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر ، وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا بخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل ، الا ترى قول أبي ذر الأحنف بن قيس : خذ العطاء ما كان تحلة فإذا كان اثمان دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أعطيتنا قبلتنا وإذا منعنا لم نسال ، وعن سعيد بن المسيب : ان أباهريرة رضى الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منه وقع فيه ، وعن الشعبي عن مسروق : لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار . أى يجعله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام - وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : ان المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول : لا أسأل أحدا ولا أورد ما رزقني الله ، وأهدى إليه ناقة قبلها وكان يقال لها ناقة المختار ، ولكن هذا يعارضه ما روى ان ابن عمر رضى الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار ، والإسناد في رده أثبت ، وعن نافع انه قال : بعث ابن عمر إلى ابن عمر بستين ألفا قسمها على الناس ، ثم جاءه سائل فاستقرض لمن بعض من أعطاه وأعطى السائل ، ولما قدم الحسن بن علي رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال : لا يجيزك بجائزة لم أجزمها أحدا فبلك من العرب ولا أجيزها أحدا بسلك من العرب ، قال : فأعطاه أربعمائة ألف درهم فأنفعا ، وعن حبيب

ابن أبي ثابت قال : لقد رأيت بجارة المختار لابن عمر وابن عباس قبلاًهما فقيل ما هي ؟ قال : مال وكسوة . وعن الزبير بن عدي أنه قال : قال سلمان إذا كان لك صديق حامل أو تاجر يتألف الربا فدعك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئاً فأقبل فإن المنأ لك وعليه الوزر . فان ثبت هذا في المرنى فالظالم في معناه . وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية . وقال حكيم بن جبير : مررتا على سعيد بن جبير وقد جعل حاملًا على أسفل الفترات فأرسل إلى العشارين أطلعونا بما عندكم فأرسلوا طعاماً فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدى : أتى إبراهيم أبي - وهو عامل على حلوان - فأجازه فقبل وقال إبراهيم : لأبأس بجارة المال إن المال مؤنة ووزن . ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فأعطال فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة . وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى . وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الروع كالحلفاء الراشدين وأبي ذر وغيرهم من الزهاد فانهم امتنعوا من الحلال المطلق زهداً ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى غنور ورعاً وتقوى . فأقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفاً وما نقل عن الحسن من قوله لا أتوضأ من ماء صيرفي ولو ضاق وقت الصلاة لأن لا أدري أصل ماله : كل ذلك روع لا ينكر ، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضاً . فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلاطين الظالم .

والجواب : أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردم وإنكسروا ، وإن كان ينطرق إلى امتناعهم احتيال الروع فينطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتيالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الروع فإن الروع في حق السلاطين أربع درجات :

الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئاً أصلاً كما فعله الروعون منهم ، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون حتى إن أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم ففرمها لبيت المال ، وحتى إن عمر رضي الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوماً فدخلت ابنته له وأخذت درهماً من المال فنهض عمر في طلبها حتى سقطت للصفحة عن أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدم في فمها فأدخل عمر أصبعه فأخرجها من فيها وطرحه على الحراج وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للسلبيين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهماً فرمى لعمر رضي الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك في يد التلام فساءله عنه فقال : أعطانيه أبو موسى ، فقال : يا أبا موسى ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من بيت عمر أردت أن لا يبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمنظلة ، ورد الدم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالاً . ولكن خاف ألا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبصره لدينه ويقتصر على الأقل امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم « دعه ما يريك إلى ما لا يريك »^(١) وقوله « فمن تركها فقد استبرأ لمرضه ودينه »^(٢) ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال صلى الله عليه وسلم حين

الباب الخامس : في إدارات السلاطين

- (١) « دعه ما يريك إلى ما لا يريك » ختم في الباب الأول من الحلال والحرام .
- (٢) « من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه » متفق عليه من حديث الثمان بن بشير وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام .

بمع عبادة بن الصامت إلى الصدقة « اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة يبيع على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها قواج فقال يا رسول الله أمكننا يكون ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده ، إلا من رحم الله قال فوالذي يمكك بالحق لا أعلم شيئاً أبداً (١) » وقال عليه السلام « إني لأخاف عليكم أن تتركوا يمدى الإنسا أخاف عليكم أن تنافسوا (٢) » وإنما خاف التنافس في المال . ولذلك قال عمر رضي الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال : إني لم أجد قسماً فيه إلا كالأل مال البتة ؛ إن استغنيت استغففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وروى أن أبناً لطاوس اقتل كئيباً من لسانه إلى عمر بن عبد العزيز فأعطاه ثلثاة دينار ، فباع طاوس ضئيلة له وبعت من ثمنها إلى عمر بثلاثة دينار ، هذا مع أن السلطان مثل عمر بن عبد العزيز . فهذه هي الدرجة العليا في الورع .

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذ من جهة حلال فاشتال يد السلطان على حرام آخر لا يضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما قل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكثر الصعابة والورع منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المباليين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان ، وقد كان من أشد أنكرار عليهم وأشد دم لموالم ؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عمر - وهو في مرضه وأشفق على نفسه من ولايته وكوة مأخوذاً عند الله تعالى بها - فقالوا له : إنا لترجو لك الخير ، حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت . . . وصنعت . . . وابن عمر ساكت ، فقال : ما تقول يا ابن عمر ؟ فقال : أقول ذلك إذا طالب المكسب وذكت النفقة وسرد قري . وفي حديث آخر أنه قال : إن الخبيث لا يكفر الخبيث وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شراً . فقال له ابن عمر : ألا تدعولي ، فقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبل الله صلاة بنهر طهور ولا صدقة من غلول (٣) » وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : ما شيعت من الطعام مذ انتهيت الدار إلى يومئذ هذا وروى عن علي رضي الله عنه أنه كان له سويق في إناء مخوم يشرب منه ، فقيل : أتعمل هذا بالمراق مع كثرة طعامه ؟ فقال : أما إني لا أختمه بخلا به ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه وأكره أن يدخل بطني غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لا يسيبه شيء . إلا خرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفاً فقال : إني أخاف أن تنفق دراهم ابن عمر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدري : ما منا أحد إلا وقد مالق به بالدنيا إلا ابن عمر . فهذا يتضح أنه لا يظن به وبمن كان في منصبه أنه أخذ ما لا يدري أنه حلال .

الدرجة الثالثة : أن يأخذ ما أخذه من السلطان لينصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين ، فإن ما لا يمين ماله هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد يقول أخذه منه وتفرقه أولى من تركه في يده ، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتي وجهه . وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك : إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتنون بها ؛ لأن ابن عمر فرق ما أخذ حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقه ستين ألفاً ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد جاهد مال تصدق به وقال : رأيت أن أخذه منهم وأصدق أحب إلي من أن ادعوا في أيديهم ، وهكذا فعل الشافعي رحمه الله بما قبله من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

(١) « قال لعبد بن الصامت حين بعته إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة يبيع بحملي على رقبتك . . . » أخرجه الشافعي في المسند من حديث طاوس ومرسلاً ولأبي جلي في المجمع من حديث ابن عمر مختصراً أنه قال لعبد بن عبادة وإسناده صحيح . (٢) « إني لأخاف عليكم أن تتركوا يمدى الإنسا أخاف عليكم أن تنافسوا » متفق عليه من كلام عقبة بن عامر . (٣) « لا يقبل الله صلاة بنهر طهور ولا صدقة من غلول » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر

الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق انحلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال ، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر ما لهم حراما . ويدل عليه تحليل علي رضي الله عنه حيث قال : فإن ما يأخذه من الحلال أكثر . فهذا ما قد جوزوه جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر . ونحن إنما نقول فيه في حق أفراد الناس ، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهد إلى جواز أخذه مالم يعلم أنه حرام اعتادا على الأغلب ، وإنما منتهاه إذا كان الأكثر حراما فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدارات الظلة في زماننا لا تجري مجرى ذلك وأنها تقاربه من وجهين قاطعين .

أحدهما : أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والتي المنتمة لوجودها وليس يدخل منها في شيء في يد السلطان ؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ وللمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر مئزر عشرة .

والوجه الثاني : أن الظلة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستغفرين من ظلمهم ومتشفين إلى استئافه قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجرازم ، وكانوا يمشون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقبلون المنية بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يملعون السلاطين في أغراضهم ولا يفتشون بحالهم ولا يكثرون جمعهم ولا يجنون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم ويذكرون المنكرات منهم عليهم ، فإكان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أسابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بحيلة إلا لمن طمعوا في استئافهم والتكثير بهم والاستئاف بهم على أغراضهم والتجمل بشفيان بحالهم وتكليفهم المواظبة على العناء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ونفسيهم . فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد في الخدمة ثانيا ، وبالثناء والبذاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستئاف رابعا ، وبتكتير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والولاء والمتانعة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقايحه ومساوئ أعماله سابعا ؛ لم ينم عليه بدرم واحد ولو كان في فضل الناسي رحمه الله مثلا ؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المفاق فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالخذادين في أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطهم ومراعاتهم وخدمة أعمالهم واحتيال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبراهيم وكل ذلك معصية - على ماسنيين في الباب الذي يلي هذا - فإذا قد تبين ما تقدم مدخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك - لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم - فلا يحرم الآخذ ولكن يكره لعان سنيبه عليها في الباب الذي يلي هذا .

النظر الثاني من هذا الباب : في قدر المأخوذ وصفة الآخذ

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس التي - والموارث فإن ماعدها عما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس - أو خمس غنمية ، وما كان من ملك السلطان بما أحياء أو اشتراه فله أن يعطى ماشاء لمن شاء . وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة

أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب ، فأما الثاني الذي لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه . هذامو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقاً في بيت المال لكونه مسلماً كثيراً جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على خصوصين بصفات . فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمراً يقوم به تمتدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لثقل عليه ما هو فيه ؛ لله في بيت المال حتى الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ؛ أعي العلوم التي تتعلق بمصالح الدين من علم الفقهاء والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلومون والمؤذنون . وطلبة هذه العلوم أيضاً يدخلون فيه ؛ فإنهم إن لم يكسبوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ؛ وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الأجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسيف عن أهل العداوة وأهل البني وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج ؛ أعي العمال على الأموال الحلال لأعلى الحرام ، فإن هذا المال للمصالح والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فالعلماء حراسة الدين وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يقيه ؛ فيجوز أن يكون له ولئن يجري مجراه في العلوم المحتاج إليها في مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إردار من الأموال ليتصرفوا لمعالجة المسلمين ؛ أعي من يعالج منهم بغير أجره ، وليس يشترط في هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع النفي . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدم أيضاً بمقدار بل هو إلى اجتهد الإمام وله أن يوسع ويضيء وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية في دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم . وقد كان عمر رضي الله عنه يعطى جماعة اثني عشر ألف درهم نقرة في السنة . وأثبتت عائشة رضي الله عنها في هذه الجري يقو جماعة عشرة آلاف وجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء . فإن خص واحداً منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك السلطان أن يخص من هذا المال قوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك في السلف ولكن يبنى أن يلقب فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصفة كان فيه بعت الناس وتحميهم على الاشتغال والتشبه به فقهه قائمة الخلع والصلوات وضروب التخصصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان . وإنما النظر في السلاطين الظلمة في شيئين .

(أحدهما) أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته ، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟

(والثاني) أنه ليس بعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للأحد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الآخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلاً ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول : فالذي نراه أنه لا يمنع أخذ الحق ، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعصر خلمه وكان في الاستبدال به فتنه فائرة لا فتناء وجب تركه ووجب الطاعة له كما تبى طاعة الأمراء ، إذ قد ورد في الأمر بطاعة الأمراء (١) والمنع من سل اليد عن مساعدتهم (٢) وأمر وزواجر . فالذي نراه : أن الخلاف معتدلة للمتكفل

(١) « الأمر بطاعة الأمراء » أخرجه البخاري من حديث أنس « أسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبية » ولسلم من حديث أبي هريرة « عليك بالطاعة في منشطك ومكروهك ... » وله من حديث أبي ذر وأوسان التي ^{في حديث} أن أسمع وأطيع ولو العبد جميع الأطراف (٢) « المنع من سل اليد عن مساعدتهم » أخرجه شمس

بها من بنى العباس رضى الله عنه ، وأن الولاية نافذة للسلطين في أقطار البلاد والمبايعين الخليفة — وقد ذكرنا في كتاب المستظري المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهناك الأستار تأليف القاضي أبي الطيب في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه الصلحة فيه — والقول الوجيز أننا تراعى الصفات والشروط في السلطين تشوتا إلى ما راي المصالح . ولو قضينا بطلان الولايات الآن لطلت المصالح رأسا فكيف يفوت رأس المال في طلب الروح ؟ بل الولاية الآن لا تنبع إلا الشوك . فمن بابيه صاحب الشوك فهو الخليفة . ومن استبد بالشوك وهو مطيع للخليفة في أصل الخليفة والسكك فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام . وتحقيق هذا قد ذكرناه في أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد فلنسا نطول الآن به .

وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يسمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه ؟ فهذا ما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فقلنا بعضهم وقال : كل ما يأخذه فالمسلون كلهم فيه شركاء ولا بدري أن حصه منه دائق أو حبة قليتر الكل . وقال قوم : له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط ، فإن هذا القدر يستحقه حاجته على المسلمين . وقال قوم : له قوت سنة ؛ فإن أخذ الكفاية كل يوم صير وهو ذو حق في هذا المال فكيف يتركه وقال قوم : إنه يأخذ ما يعطى والمظلم هم الباقون . وهذا هو القياس لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين كالمنفعة بين الغائبين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم . وهذا لو لم ينق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث . بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالتبض . بل هو كالمصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم ولم يمتنع بظل المالك بقية الأصناف يمنع حقهم ؛ هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والفضل مع تسميع الآخرين لجأز له أن يأخذه والفضل جاز في العطاء ، سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجع عمر رضى الله عنه فقال : إنما فضلم عند الله ولما الدنيا بلاغ . وقضل عمر رضى الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجوبية ستة آلاف وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنها . وأقطع عثان أيضا من السواد خمس جنان ، وأقر عثان عليا رضى الله عنها بما قبل ذلك منه ولم ينكر . وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التي أقول فيها : إن كل مجتهد مصيب ، وهي كل مسألة لا نص على صحتها ولا على مسألة تقرب منها فتكون في معناها بقباس جلي كهلها المسئلة ومسئلة حد الشرب فانهم جلدوا أربعين وثلاثين والكل سنة وحق وإن كل واحد من ابى بكر وعمر رضى الله عنها مصيب بأفلاق الصحابة رضى الله عنهم ؛ إذ المفضل ماود في زمان عمر شيئا إلى الفاضل عما قد كان اخذه في زمان ابى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل في زمان عمر ، واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرأي حق . فليؤخذ هذا الجنس دستوراً للخلافات التي يصوب فيها كل مجتهد ، فاما كل مسألة شذ عن مجتهد فها نص أو قياس جلي — بغلبة أو سوء رأى وكان في القوة بحيث ينقض حكم المجتهد — فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب من أصاب النص أو مافي معنى النص . وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا واخذ من السلطان خلة أو إنداء على التركات أو الجزية لم يصرفا ساقا بمجرد أخذه ، وإنما يقتضى خدمته لهم ومعاونته لإيادهم ودخوله عليهم وثباته وإطراره لهم إلى غير ذلك من لوازم لا يسلم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

= الشيطان من حديث ابن عباس « ليس أحد يفارق الجماعة شرا فيموت إلامات ميتة جاهلية » ولمسلم من حديث أبي هريرة « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية » وله من حديث ابن عمر « من خلع بدأ من طاعة نفي يوم القيامة ولا حجة له » .

الباب السادس : فيما يجل من مخالطة السلاطين الظلمة ومحرم

وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والبال الظلمة ثلاثة أحوال (الحالة الأولى) وهي شر ما أن تدخل عليهم (والثانية) وهي دونها أن يدخلوا عليك (والثالثة) وهي الأسلم أن تعزل عنهم فلا ترام ولا يرونك .

أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليطات وتقديرات توارثت بها الأخبار والآثار ؛ فنتقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم تعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم .

أما الأخبار : فإنه لما وصف رسول الله ﷺ الأمراء الظلمة قال « فن تأذيهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم ^(١) » وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم تركه المناينة والمنازعة . وقال ﷺ « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض ^(٢) » وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال ﷺ « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء ^(٣) » وفي الخبر « خير الأمراء الذين يأتون العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء » وفي الخبر « العلماء أماء الرسل على عباد الله ما لم يخاطبوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم ^(٤) » رواه أنس رضي الله عنه .

وأما الآثار : فقد قال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ؛ قيل : وما هي قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة لا تفش أبواب السلاطين فإنك لتصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك . وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمعون : ما أسمح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيته العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جبرحت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهوام . وقال عبادة بن الصامت : حب القاريء الناسك الأمراء ففاق وجبه الأغنياء . رياه . وقال أبو ذر : من كثر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له : ولم ؟ قال لأنه رضي به بسخط الله . ولستمعمل عمر بن

الباب السادس : فيما يجل من مخالطة السلاطين

- (١) « فن تأذيهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال « ومن خالطهم هلك » . (٢) « سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض » أخرجه النسائي والترمذي وصححه والحاكم من حديث كعب ابن عجرة . (٣) حديث أبي هريرة « أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء » تقدم العلم (٤) حديث أنس « العلماء أماء الرسل على عباد الله ما لم يخاطبوا السلطان ... » أخرجه التتيلي في التتضعاف في ترجمة حفص الأبري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم .

عبد العزيز رجلا قتيلا : كان عاملا للحجاج ؛ فمزله ، فقال الرجل : إنما عملت له على شيء يسير ، فقال له عمر : ازداد حبك بصحبته يوما أو بعض يوم شوما وشرا . وقال الفضيل : ما زاد رجل من سلطان قريبا إلا ازداد من الله بعدا . وكان سعيد بن السيب يجير في الزيت ويقول إن في هذا لغى عن هؤلاء السلاطين . وقال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المفار من . وقال محمد بن سلة : الذباب على العنزة أحسن من قاري . على باب هؤلاء . ولما غاضب الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخنا كبيرا قد أتقنك نعم الله لما فهمك من كتابه وعليك من سنة نبيه محمد ﷺ وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى (لئيبته الناس ولا تكنونه) واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك أنست وحشة الظلم ؛ وسبكت سبيل البغي بدونك لم ين يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتقنوك قلبا تدور عليك رضى ظلمهم وجرا يعبرون عليك إلى بلاهم وسلبا يصعدون فيه إلى ضلالتهم ويدخلون بك الشك على العلماء ويقنطون بك قلوب الجهلاء ؛ فما أيسر ما عرواك في جنب ما عرويا عليك وما أكثر ما أغلوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ؛ فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم (تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) الآية وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا ينفل فداو دينك فقد دخله سقم وهي زادت فقد حضر سفر بعيد (وما ينبغي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) والسلام .

فهذه الأخبار والآثار تدل على مافى غائلة السلاطين من الفتن وأتوار الفساد ولكن تفصل ذلك تفصيلا نفيا تميز فيه المحظور عن المكروه والمباح . فنقول : الداخل على السلطان مترضا لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينشك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مفضوبة ومغلطها والدخول لها بغير إذن الملاك حرام ، ولا يترك قول القائل : إن ذلك مما يتسامح به الناس كثرة أو قات خبز ذلك صحيح في غير المصنوب ، أما المصنوب فلا ، لأنه إن قيل : إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في عمل التسامح ؛ وكذلك الاجتياز فيجوز هذا في كل واحد فيجوز أيضا في المجموع والنصب وإنما تم بفعل الجميع ، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرمه ، فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك لحكم التحريم ينسحب على الكل ، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا اعتيادا على أن كل واحد من المادون إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك ، لأن المجموع مفوت للملك وهو كضربة خفيفة في العلم تباح ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضريات توجب القتل وجب التضامن على الجميع من أن كل واحدة من الضريات لو اقررت لكانت لا توجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم في موضع غير مفضوب ككلمات مثلا فإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستغلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله : السلام عليكم ، ولكن إن جدد أو ركع أو مثل قائما في سلامه وخدمته كان مكروما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم موصية . بل من تواضع لغنى ليس بظالم لأجل غناه — لا لغنى آخر اقتضى التواضع — نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يباح إلا مجرد السلام . فأما قتييل السيد والاختفاء في الخدمة فهو موصية إلا عند الخوف ، أو لإمام عادل أو لأمير أو لمن يستحق ذلك بأمر ديني . قبل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يدعى كرم الله وجهه لما أن لقى به بالشام فلم يشكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاقا لهم وعد ذلك من محاسن القربات .

فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ؛ لأن ذلك واجب فلا ينبغي أن يستطع بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على يساطهم وإذا كان أغلب أموره حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت : فهو أنه سيري في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلاتهم ما هو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ما هو محش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام . بل يرام لأبوين الثياب الحرام وأكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو مغلور في السكوت ؟

فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بقدر فانه لو لم يدخل ولم يشاهد لم توجه عليه الخطاب بالحبسة حتى يستطع عنه بالعذر . وعند هذا أقول من علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت ، بل ينبغي أن يحتز عن مشاهدته .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم أو يثني عليه أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستناده في وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه ، فانه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يندو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : اصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »^(١) فان جاز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومتناقضاً ومكرماً للظالم ، وهذه ثلاث مماس . وقد قال عليه السلام « إن الله لينضب إذا مدح الفاسق »^(٢) وفي خبر آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام »^(٣) فان جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والزكية والثناء على ما يميل : كان عاصياً بالتصديق والإعانة ؛ فان التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتفحيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة .

ولقد سئل سفيان الثوري رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت فان ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تتوب إليه نفسه ثم يعرض عنه . فان جاوز ذلك إلى إظهار الحب والوثوق إلى لقائه وطول بقاءه : فان كان كاذباً عصى معصية الكذب والتفاق ، وإن كان صادقاً عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن ينفذه في اقتويته . فالعص في الله واجب ، وعصب المعصية والراضى بها عاص ومن أحب ظالماً فان أحب لظلمه فهو عاص لمحبهه وإن أحب لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم ينفذه وكان الواجب عليه أن ينفذه . وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير وينفرض لأجل ذلك الشر وسبأني

(١) « من دعا لظالم بالبقاء قد أحب أن يعصى الله في أرضه » تقدم .

(٢) « إن الله لينضب إذا مدح الفاسق » تقدم .

(٣) « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » تقدم أيضاً .

في كتاب الإخوة والمجاهدين في الله وجه الجمع بين البنض والحب . فإن سلم من ذلك كله وهبات ١ فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في التهمة ويذكرى نعم الله عليه ويكون مقتحماً نهى رسول الله ﷺ حيث قال « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فأنها مستخلة للرزق »^(١) وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتجييسه لإيادهم إن كان ممن يتجمل به ، وكل ذلك إما مكرهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين^(٢) فقال : ادخل من الباب الآخر ، فقال : لا والله لا يقتدى بي أحد من الناس لجلد مائة وألبس المسوح .

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذر دين .

(أحدهما) أن يكون من جهنم أمر لإزام لا أمر لإكرام وعلم أنه لو امتنع أرضى أو فد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لإطاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية .
(والثاني) أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم فذلك رخصة بشرط أن لا يكتنب ولا يثنى ولا يدع نصيحة يتوقع لما يقبولا فهذا حكم الدخول .

الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً لجواب السلام لا بد منه . وأما القيام والإكرام فلا يحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه باكرام العلم والدين مستحق للإحاد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد . فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام . ولكن الأول أن لا يقوم إن كان معه في خوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر غضبه للدين وإعراشه عن أمرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه في جمع فراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه التية . وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن يصحبه فإن كان يتقارف ما يعرف تحريمه وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب . وأما ذكر تحريم ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخبره فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يسرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها فرض الظالمين غير معصية لمصلحة ذلك من الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذا يجب عليه التعريف في محل جهله والتخويف فيما هو مستجرب . عليه الإرشاد إلى ما هو غافل عنه عما يفتنه من الظلم ، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع الكلام فيه أولاً ، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة وضوءها ، فيبني أفاعله إذا دق دق الباب فإذا هو بمحمد بن سليمان فأنه قد دخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالي إذا رأيتك أمثالت منك رعباً ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بطله وجه الله ما به كل شيء . وإن أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شيء »^(٣) ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستين بها قال : ارددها على ظلمته بها ،

(١) « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فأنها مستخلة للرزق » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الفضير « أفلا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تردوا نعم الله عز وجل » وقال صحيح الإسناد .

(٢) « دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين » أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد .

(٣) حديث حماد بن سلمة مرفوعاً « إذا أراد بطله وجه الله ما به كل شيء . وإذا أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شيء » مفضل وروى أبو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع « من خاف الله خوف الله منه كل شيء . ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء » وللعليل في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلامه منكر .

قال : وإنه ما أصطليتك إلا عاويثته ، قال : لاساجة لي بها ، قال : فتأخذها فتقسمها ، قال : لعل إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه يسل في قسمتها فيأثم قاذوها عني .

الحالة الثالثة : أن يمتزلم فلا يرام ولا يروته وهو الواجب إذ لاسلامة إلا فيه ؛ فله أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يجب مهادم ولا يثني عليهم ولا يستنبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم ؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهو الأحسن . وإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم : [إنا بيني وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإياهم في غد لعل وجل وإلما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم ، وما قاله أبو الفرداء : إذا قال : أهل الأموال يأكلون وأنا كل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ونسلم فضول أموال يكونون إليها وننظر معهم إليها وعلمهم حسابها ونحن منها برآء . وكل من أحاط عليه ظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحيط ذلك من درجته في قلبه . فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لاساعة ، والمعصية ينبغي أن تكره فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة ، فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنايته على حقه .

فإن قلت : الكراهة لانتخل تحت الاختيار فكيف يجب ؟

قلنا : ليس كذلك فإن الحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له فإن من لا يكره معصية الله لا يجب الله وإنما لا يجب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة . وإذا أحبه كره ما كره وأحب ما أحبه وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا .

فإن قلت : فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ؟

فأقول : نعم يهمل الدخول منهم ثم ادخل ؛ كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدس حاجبا إلى مكة فلما دخلها قال اتنوني رجل من الصحابة قاتل ؛ يا أمير المؤمنين قد تقاضوا فقال : من الاثنين ، فأتى بطاوس البائي فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه وجلس بإذنه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فنضب هشام غضبا شديدا حتى لم يقطه ؛ فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال له : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فأزداد غضبا وغيطا ، قال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل بدي ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بنير إذني وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فأتى أخلمهما بين يدي رب الموءة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبن ولا ينضب علي ، وأما قولك لم تقبل بدي فأتى سمعت أمير المؤمنين علي بن طالب رضي الله عنه يقول : لا ينحل لرجل أن يقبل بد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكتب ، وأما قولك لم تكنني فأتى الله تعالى سبي أنبياءه وأوليائه فقال يا يحيى يا عيسى ، وكفى أعداءه فقال (تبت يدا أبي لهب) وأما قولك جلست بإزائي فأتى سمعت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام : عظمي ، فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقتلاد وعقارب كاللغزال تلدغ كل أمير لا يبعد في رعيته . ثم قام وهرب . وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : أدخلت على أبي جعفر المنصور بنى فقال لي : أرفع [إلينا حاجتك] ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأ رأسه ثم رفعه فقال : أرفع [إلينا حاجتك] ، فقلت : إنما أزلت هذه المذلة بسيفو المهاجرين والأنصار

وابنائهم يموتون جوعاً فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا حاجتك ، قلت : جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لحازنه : كم أفتت ؟ قال : بضعة عشر درهماً ، وأرى هنا أموالاً لا تليق الجبال حملها ، وخرج فنهكنا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أزموا وكانوا ينفرون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم .

ودخل ابن أبي عميلة على عبد الملك بن مروان فقال له : تكلم ، فقال له : إن الناس لا يشجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعاناة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك وقال : لا يحملن هذه الكلمة مثالا نصب عيني ما عشت .

ولما استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه عبداً له بن عامر أناه أصحاب رسول الله ﷺ وأبطل عنه أبو ذر . وكان له صديقاً - فعاتبه ، فقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه» (١) ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال : أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحق من سلطان وما أجهل من عصاة ! ومن أغر عن اعتزى ، أيها الراعى السوء دفعت إليك غنا سماناً صاحباً فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركتهما ظلاماً تنصنع ، فقال له والى البصرة : أتعزى ما الذى يمر لك علينا ويحبنا عنك ؟ قال لا ، قال : فله الطمع فبنا وترك الإسكاف لا فى أيدينا .

وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك ، فسمع سليمان صوت الرعد فجرح ووضع صدره على مقدمة الرجل ، فقال له عمر : هذا صوت رحمتي فكيف إذا سمعت صوت عذابي ؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال : ما أكثر الناس ، فقال عمر : خصيئك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم .

وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكم هم أن تغفلوا عن العمران إلى الخراب فقال : يا أبا حازم كيف التقدم على الله ؟ قال يا أمير المؤمنين أما الحسن فكان نائباً يقدم على أهله وأما السوء فكان لا يقيم يقدم على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليت شمرى مالى عند الله ؟ قال أبو حازم أعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال (إن الأبرار لى نعيم وإن الفجار لى جحيم) قال سليمان : فأين رحمة الله قال : قريب من المحسنين ثم قال سليمان : يا أبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ قال : أهل البر والتقوى قال : فأى الأصحاب أفضل ؟ قال : أداء القرائن مع اجتناب المحارم قال : فأى الكلام أسمع ؟ قال قول الحق عند من يخاف وترجو قال : فأى المؤمنين أكبر ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها ، قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أو تفتيقى ؟ قال : لا بد فإنها نصيحة تلقها إلى ، قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخفوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا ، فلو شمرت بما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال له رجل من جلسائه : بئساً قلت ، قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبينته للناس ولا يكتمونه . قال : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال : أن تأخذ من حله قضضه فى حقه ، فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : من يطلب الحق ويخاف من النار . فقال سليمان : ادع لى . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك غخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى ، فقال : أوصيك وأوصى ، عظم ربك ونزله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر

(١) حديث أبى ذر «إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه» لم أفت له على أصل

ابن عبد العزيز لأبي حازم : عظمي ، فقال : اضطلع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن . فقلل تلك الساعة قربة . ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين إني مكلّمك بكلام فاحتملوا إن كرهته فإن وراثة ما تحب إن قبله ، فقال : يا أعرابي إنا لنجد بسمة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه قد تكفك رجال أساموا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم وورثك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمهم على ما أتمتلك الله تعالى عليه فإنهم لم يأثروا في الأمانة تعديما وفي الأمانة خسفا وعسفا وأنت مسئول عما اجترحوه وليسوا بمسؤولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غيبا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : يا أعرابي أما إنك قد سلكت لسانك وهو أقطع سيفيك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لأهلك . وحكى أن أبا بكر دخل على معاوية فقال : اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج منك وفي كل ليلة تأتي عليك لآزداد من الدنيا إلا ببدأ ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى أترك طالب لآخرته وقد نصب لك علما لا يجوزها فما أسرع ما تبغى المسلم وما أوشك ما يلحق بك الطالب وإننا وما نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون بأن إن خيرا غير وإن شرا فشر . فمكنا كل دخول أهل العلم على السلاطين أعني علماء الآخرة فالأما علماء الدنيا فيدخلون ليقربوا إلى قلوبهم فيدلوهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في مرض الوضوء لم يكن قصد الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفي هذا غروران يترهبهم الحق (أحدهما) أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوضوء . وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتجصيل المعرفة عندهم ، وعلامة الصدق طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوضوء غيره ممن هو من أقرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الإصلاح فينبغي أن يفرج به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم كن وجب عليه أن يعالج مريضا خائما فقام بمعالجته غيره فإذ يظلم به فرحه . فإن كان يصادف في قلبه ترجيحاً لكلامه على كلام غيره فهو مغرور (الثاني) أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع غلامه . وهذا أيضا مظنة الغرور . ومعياده ما تقدم ذكره .

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلترسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل :

مسألة : إذا بحث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له ماله معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يجب التصديق به على المساكين - كما سبق - فلك أن تأخذه وتولى التفرقة ولا تصمى بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول :

الأول أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل :

الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت تمد يدك إليه ولا تدخله في ضمانك ، فإن كان كذلك فلا تأخذه ، فإن ذلك محذور ولا يبي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام .

الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيمتدحون أنه خلال فيمتدحون بك في الأخذ ويستلزن به

على جوازهم ثم لا يعرفون ، فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ وينفلون عن تفرقه وأخذهم على نية التفرقة ، فالتفتى وللقبى به ينفى أن يحترز عن هذا غاية الاحتراز فإنه يكون فقه سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلا أتى به إلى ملك بمنهد من الناس ليكرمه على أكل لحم الخنزير فلم يأكل ، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل ، فقيل له في ذلك فقال : إن الناس قد اعتقدوا أني طوئيت بأكل لحم الخنزير ، فإذا خرجت سالما وقد أكلت فلا يعلمون ماذا أكلت فيقولون . ودخل وهب ابن منبه وطاوس على محمد بن يوسف . أنشئ الحاجاج - وكان عاملا وكان في غداة باردة في مجلس بارز فقال لغلامه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن . أي طاوس - وكان قد قد على كرمي فألقى عليه فلم يزل يحرك كفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فضرب محمد بن يوسف فقال وهب : كنت غنياً عن أن تنضيه لو أخذت الطيلسان وصدقت به قال : نعم لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه - طاوس - ولا يصنع به ما أضع به - إذن فعلت .

الغائلة الثانية : أن يتحرك قلبك إلى حبه لتخصيصه إياك وإثارة لك بما أتقده إليك ، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك هو السليم الفاتل والداه البغين أعنى ما يحجب الظلة إليك ؛ فإن من أحبه لابد أن يحرص عليه وتدهن فيه . قالت عائشة رضي الله عنها : جبلت النفوس على حب من أحسن إليها . وقال عليه السلام « اللهم لا تجعل لتأجير عندي يدا فيجبه قلبي »^(١) بين بين أن القلب لا يكاد يمتنع من ذلك. وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك ابن دينار بمشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأناه محمد بن واسع فقال : ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال : مل أصحابي فقتلوا : أخرجه كله ، فقال أفتدك الله أقلبك أشد حياً له الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ قال : لا بل الآن ، قال : إنما كنت أعاف هذا . وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره عزله ونكبه وموه وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله ، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم ، قال سليمان وابن مسعود رضي الله عنهما : من رضى بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قيل لا ترضوا بأعمالهم فإن كنت في القوة تبحث لاترداد حياً لم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالا يرضفها فقتيل له : ألا تخاف أن تصمم ؟ فقال : لو أخذ رجل يدي وأدخلني الجنة ثم صهي به ما أحبه قلبي ، لأن الذي سخره للأخذ يدي هو الذي أبغضه لأجله شكرا له على تسخير إياه . وبهذا تبين أن أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه سلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه التوائل .

مسألة : إن قال قائل : إذا جاز أخذ ماله وتفرقه فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفي وديته وتسكر وتفرق على الناس ؟ فنقول : ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه ، وليس هذا كما لو بعته إليك ، فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بماله يعلم مالكة فيقبل تسليمه على أنه لا يعرف مالكة فإن كان بمن يشك عليه منه فلا يجوز أن يقبل منه المال مالم يعرف ذلك . ثم كيف يسرق ويحتل أن يكون ملكه قد حصل له بشرائه في ذمت ؟ فإن البعد دلالة على الملك . فهذا لاسبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندى واحتمل أن تكون له بشرائه في الذمة أو غيره وجب الرد عليه . فإذا لا يجوز مرة ما لم يضمنهم ولا من أودع عنده . ولا يجوز إنكاره وديتهم ويجب الحد على سارق ما لم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لم فعتد ذلك يسقط الحد بالدعوى .

(١) « اللهم لا تجعل لتأجير عندي يدا فيجبه قلبي » أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى في كتاب : فضيح السمر والأيام مرسلا وأسانيده كلها ضعيفة .

مسألة : العامة معهم حرام لأن أكثر ما لهم حرام فأ يؤخذ عوضا فهو حرام ؛ فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فينبغي النظر فيما سلم إليهم ، فإن علم أنهم يصون الله به كبيع الديباغ منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع الثوب من آثار ، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساء فهو شبهة مكروهة ، هذا فيما يعضى في عينه من الأموال : وفي معناه بيع الفرس منهم ، لاسيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إصانة لهم بفرسه وهي عظورة . أما بيع الدرام والنفائير منهم وما يجري مجراها مما لا يعضى في عينه بل يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إصانتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والنواب وسائر الأسباب ، وهذه الكرامة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجره حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب ، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ، ولو انتصب وكلامه لم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجرة فهو مكروه من حيث الإعانة ، وإن اشتري لهم ما يعلم أنهم يقتصدون به للمصيبة كالغلام والديباغ والفرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام . فيما ظهر قصد المصيبة بالابتاع حصل التحريم ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلائلها عليه حصلت الكرامة .

مسألة : الأسواق التي بنوها بالمال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكناها ، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان حاصيا بسكنائه ، ولئلا أن يشتروا منهم ، ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء منها فإن ذلك إصانة لسكنائهم وتكثير لكراماتهم ، وكذلك معاملة السوق التي لاخراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لم عليها خراج ، وقد بالغ قوم حتى تحرموا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضي التي لم عليها الخراج فأنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة ، وهذا مخلوفاً للدين ومخرج على المسلمين فإن الخراج قد عم الأراضي ولا يغني بالناس عن ارتفاق الأرض ولا معنى للمنع منه ، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها . وذلك مما يطول ويتداوى إلى حسم باب المعاش .

مسألة : معاملة قضاةهم وعلماءهم وخدماهم حرام كما ملتهم بل أشد . أما القضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جسمهم ويفرون الخلق بربهم فأنهم على ذى العلماء ويحتاطون بهم ويأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والافتداء بنوى الجامع الحشمة . فهم سبباً لقياد الخلق إليهم . وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من القصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باحتمال الحلال بمالهم . قال طائوس : لأشد عندهم وإن تحققت لأن أخاف تدميمهم على من شهدت عليه . وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، فولا القضاة سوء والعلماء سوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم . ولذلك قال عليه السلام : « لا تزال هذه الأمة تحت يده الله وكفنه ما يمالئ قراؤها أمراءها » (١) وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المقهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بدمهم ، وقد قال سفيان : لا تغتاط السلطان ولا من مخالطه . وقال : صاحب العلم وصاحب الفؤاد وصاحب القرباس وصاحب البيطة بعضهم شركاء بعض . وقد صدق فإن رسول الله

(١) « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكفنه ما لم يمالئ قراءوها أمراءها » أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلًا ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي وابن عمر بلفظ « ما لم يعظم أبرارها فغارها ويدان خياريها شرارها » وإسنادهما ضيف .

صلى الله عليه وسلم لمن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر^(١) وقال ابن مسعود وحى الله عنه «أكل الربا وموكله وشاهداه» وكتبه ملعونون على لسان محمد ﷺ^(٢) وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله ﷺ^(٣) وقال ابن سيرين: لا يحمل السلطان كتابا حتى تعلم ما فيه . وامتنع سفيان رحمه الله عن منأولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال: حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حوالهم من خلعهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعا . روى ابن عثان بن زائدة أنه سأل رجل من الجند وقال: أين الطريق؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون منوجبا إلى ظلم فيكون هو يارشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع التناق مع التجار والحاكمة والحجابين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الدلب والفسق عليهم؛ بل مع الكفار من أهل الذمة، وإنما هذا في الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواطنين على إيذاء المسلمين الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشماثرها. وهذا لأن المصيبة تنقسم إلى لازمة ومعتمدية، والفسق لازم لا يتعدى وكذا الكفر وهو جناية على حق الله تعالى وحسابه على الله . وأما معصية الولاة بالظلم وهو متعد فإثما يغلظ أمرهم لذلك ويقتدر عزم الظلم وعزم التمدي يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازا فقد قال ﷺ «يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار»^(٤) وقال ﷺ «من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر»^(٥) فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلاذته القبياء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة . فمن روى على تلك الهيئة تدين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذي جنى على نفسه إذ تريا برزهم، ومساواة الرى تدل على مساواة القلب ولا يجانن إلا مجنون ولا يتغيب بالفساق إلا فاسق، نعم الفاسق قد يلبس فيتغيب بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتغيب بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوادم وإثما نزل قوله تعالى (إن الذين توافم الملائكة ظلالي أنفسهم) في قوم من المسلمين كانوا يكثرزون جماعة للمشركين بالمخالفة . وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم، فقال: ما بال الأخيار؟ قال: إنهم لا يضيرون لغضبي فكانوا يؤاكلتهم ويشاربونهم. وهذا يبين أن بعض الظلمة والغضب لله عليهم واجب . وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ «إن الله لعن علماء بني إسرائيل إذ غالطوا الظالمين في معاشهم»^(٦) .

(١) «أن النبي صلى الله عليه وسلم على آله وسلم لمن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذي حديث غريب . (٢) حديث ابن مسعود «أكل الربا وموكله وشاهداه» وكتبه ملعونون على لسان محمد ﷺ رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للفنائي دون قوله «وشاهداه» ولأن داود «لعن النبي ﷺ آكل الربا وموكله وشاهداه» قال الترمذي وصححه وابن ماجه وشاهداه . (٣) حديث جابر «لعن النبي ﷺ آكل الربا وموكله وشاهداه» أخرجه مسلم من حديثه، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذي بقوله وفي الباب وابن ماجه من حديثه «إن آخر ما أزلت آية الربا أن النبي ﷺ مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة» وهو من رواية ابن السبب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه . (٤) «يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار» أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) «من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر» أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي أمامة «يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأذناب البقر ...» وللمسلم من حديث أبي هريرة «يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوم في أيديهم مثل أذناب البقر» وفي رواية له «صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ...» . (٦) حديث ابن مسعود «لعن الله علماء بني إسرائيل إذا غالطوا الظالمين في معاشهم» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه «قال النبي ﷺ لما وقت بنو إسرائيل في المعاصي: نههم علماءهم فلم يتهاوا فبالسوم في مجالسهم وواكلهم وشاربهم فغضب الله قلوب بعضهم بعضا ولعنهم على لسان داود ويعيسى بن مريم» لفظ الترمذي وقال حسن غريب .

مسألة : المواضع التي بنماها الظلمة كالقناطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحاط بها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة، والورع الاحترازا ما أمكن وإن وجد عنه معدلا تأكد الورع، وإنما يجوز العبور وإن وجد معدلا لأنه إذا لم يعرف تلك الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقدرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلا إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير، ثم يجب عليه الاستئذان من المالك الذي يمرقه. وأما المسجد فإن بنى في أرض مفضوبة أو بمخشب مضروب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلا ولا الجمعة بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المفضوبة تسقط الفرض وتنقذ في حق الاقتداء؛ فذلك يجوزنا للمعتدى الاقتداء بمن صلى في الأرض المفضوبة وإن عصى صاحبه بالوقوف في النصب، وإن كان من مال لا يعرف مالكة فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناء ولو على بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين. ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عدول لمن يصل فيه مع اتساع المسجد؛ أعني في الورع. قيل لأحمد ابن حنبل : ما حديثك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالمسكرة؟ فقال: حتى أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتها الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضا. وأما الخلق والتجسس فلا يمنع من الدخول لأنه غير متنع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه. وأما البواري التي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن رصدت لمصلحة عامة جاز اقتربها، ولكن الورع العدول عنها فإنها محل شبهة. وأما السقاية لحكمها مذكرونها وليس من الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إلا إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة. وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رعية الأرض مفضوبة أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقة فلا رخصة للدخول فيه وإن التمس المالك فقد أُرصد له من الخير، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله. وهذه الأبنية إن أُرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الصائفة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك لولادة وأرباب الأمر.

مسألة : الأرض المفضوبة إذا جعلت شارعا لم يحرم أن يتخطى فيه ألبته وإن لم يكن له مالك معين جاز، والورع العدول إن أمكن، فإن كان الشارع مباحا وفوقه سباط جاز العبور وجاز الجلوس تحت السباط على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقع في الشارع للفعل، فإذا اتنع بالسقف في دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا مراد إلا لذلك. وهذا حكم من يدخل مسجد أو أرضا مباحة سقف أو حوط بنفسه فإنه بمجرد التخطى لا يكون متعظا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائنة في المحيطان والسقف حر أو يرد قسرا من بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذا لم يحرم الجلوس على النصب لما فيه من الماسة بل للانتفاع، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستئذان به فلا فرق بينهما.

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد مثل عنها في الفتاوى

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو نقدا ويشترى به طعاما فن الذي يحمل له أن يأكل منه ؟ وهل يخص بالصوفية أم لا ؟ قلت : أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحمل لهم إذا أكلوه رضا الخادم ولكن لا يحظر عن شبهة ، أما الحل فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية ولكن هو الملقى لا الصوفية ؛ فهو كالرجل المليل يعطى بسبب عياله لأنه متكفل بهم وما يأخذ يبيع ملكا له لا المليل وله أن يطعم غير المليل إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك الملقى ولا يتسلط الخادم على الشراء به التصرف فيه ؟ لأن ذلك مضمحل إلى أن المعاطاة لا تكن وهو ضعيف ، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا . ويعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخلق إذ لا خلاف أن له يطعم منه من يقدم بعدهم ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى ورائه ، ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يمين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجد تسليط الأحاد على التصرف فإن الداعلين فيه لا ينصرفون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة ، وإنما تصرف فيه الولاية ، والخادم لا يجوز له أن يتصرف نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة فإن منهم عنه منوه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقته كما ينقطع عن مات عياله .

مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فن الذي يجوز أن يصرف إليه ؟ قلت : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يحول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي ، والضابط الكلي أن كل من هو بصفة إذا نزل في خاتمه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عنهم فهو داخل في غيارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفقر وزى الصوفية وأن لا يكون مشغلاً بحرفة وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخلق . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم وبعضها ينتج بالبعض فالفسق يمنع الاستحقاق لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة ، فالذي يظهر فسقه وإن كان على زهم لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولنا نعتير فيه الصغائر ، وأما الحرقة والاشتغال بالكسب يمنع هذا الاستحقاق فالمدققان والمامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذي يخدم بأجره كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية ولا ينتج هذا بالزى والمخالطة ، فأما الروافة والحياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاملها ، فإذا تعاملوا لا في حانوت ولا على جهة اكتساب وحرقة فلذلك لا يمنع الاستحقاق وكان ذلك ينتج بمساكنته إياهم مع بقية الصفات ، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة لا تمنع ، وأما الوعظ والتدريس فلا ينافي اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزى والمساكنة والفقر إذ لا يقتاض أن يقال صوفي مقرر وصوفي واضط وصوفي عالم أو مدرس ، ويقتاض أن يقال صوفي تاجر وصوفي عامل ، وأما الفقر فإن زال بنفى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية ، وإن كان له مال ولا يفي دخله بخرجه لم يعطل حقه ، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات . وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر ولكن من لا يتعاملهم وهو في داره أو في مسجد على زهم ومشتغل بأخلاصهم فهو شريك في سهمهم وكان ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زهم ووجد فيه بقية الصفات

فلا يستحق إلا إذا كان ماسكنا لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية فالمخالفة والذى ينوب كل واحد منها عن الآخر . والفقيه الذى ليس على زهم هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعد صوفيا وإن كان ماسكنا معهم ووجدت بقية الصفات لم يعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما ليس للزفة من يد شخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق ، وعلمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما التأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن مجتهم .

مسألة : ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ، فغير الصوفى أن يأكل معهم برضام على ما قدمتهم مرة أو مرتين فإن أمر الألعمة ميناء على التسامح حتى جاز الاتفاق بها في الغنائم المشتركة ، والقول أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معاشهم ، وما أوصى به للصوفى لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضره من العمال والتجار والقضاة والفقهاء عن لهم غرض في استئالة قلوبهم يحمل لهم الأكل برضام ، فإن الواقف لا يتف إلا معتقدا فيه ما جرت به عادات الصوفية فيزول على العرف ولكن ليس هذا على الدوام ، فلا يجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على القوام ويأكل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الوقف بمشاركه غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زهم وأخلاقهم فله الزول عليهم ، وكونه فقيها لا ينافي كونه صوفيا ، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف ، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الخلق بقولهم : إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم ، وأن الحجاب هو العلم المنمودون المصود ، وذكرنا المصود والمنموم وشرحهما ، وأما الفقيه إذا لم يكن على زهم وأخلاقهم فلهم منه من الزول عليهم فإن رضوا بجزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكان عدم الزى تحريم المساكنة ولكن برضا أهل الزى ، وهذه أمور تشبه لها العادات وفيها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في التنى والإثبات ومتشابهة أوساطها فن استقر في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كانهما عليه أيواب الضمات .

مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض وقد حرمت إحداهما دون الأخرى . فقلت : بأذن المال لا يبيذه قط إلا لغرض ، ولكن الغرض إما أجل كالثواب وإما عاجل ، والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبة إما للمحبة في عينها وإما لتوصل بالمحبة إلى غرض ورادها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة :

الأول : ما غرضه الثواب في الآخرة وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أو عالما أو منتسبا بما ينسب ديني أو صالحا في نفسه متدينا . فاعلم الآخذ أنه يطالب حاجته لا يحل له أخذه أن لم يكن محتاجا ، وما علم أنه يطالب لشرف نسبة لا يحل له أن علم أنه كاذب في دعوى النسب ، وما يعطى لطلبه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما يعتقد المعطى ، فإن كان خيل إليه كالأف العلم حتى يشبه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له ، وما يعطى لدينسه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه أن كان فاسقا في البطن فسقا لو علمه المعطى ما أعطاه . وثالثا يكون الصالح بحيث لو انكشف باطله لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجليل هو الذى يجيب الخلق إلى الخلق . وكان المتودعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتساعروا في المبيع خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك مخطر والتقى حتى لا كالم والنسب فينبى أن يحتب الآخذ لدين ما أمكن .

القسم الثالث : ما يقصد به في الما قبل غرض معين كالتمتع بهدى إلى التمتع طعما في خلته فهذه هبة بشرط الثواب لا يخفى حكمها وإنما محل عند الوفاء بالثواب المعلوم فيه وعند وجود شروط المقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالاحتياج إلى السلطان يهدي إلى وكيل السلطان وغاصته ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال ؛ فينظر في ذلك العمل الذي هو الثواب فإن كان حراما كالسعى في تجزير إردار حرام أو ظلم إنسان أو غيره حرم الأخذ ، وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها ، وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما وكان فيه تمسك بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فإ يأخذه حلال مهما وفي بالعرض ، وهو جاز بحري الجماعة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل مقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يمينني في غرض كذا أو ينعم علي بكذا واقترع في تجزير غرضه إلى كلام طويل ؛ فذلك جميل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس يحرم إذا كان لا يسعى في حرام ، وإن كان مقصوده يحصل بكلمة لا تنب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك القمعة من ذي الجاه فتيده كقوله للوالب لا تنفق دونه باب السلطان أو كرضه بين يدي السلطان فقط ، فهذا حرام لأنه عرض من الجاه ، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل من التهي عنه - كما سيأتي في هذا باب المالك - وإذا كان لا يجوز العرض عن إسقاط الشفعة والرد بالمصيب ودخول الأعصان في هواء الملك ومجلة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العرض على كلمة واحدة ينه بها على دواء يتفرد بمعرفة كواحد يتفرد بالعلم بنيت يقلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعرض فإن عمله بالتلفظ به غير مقوم كحبة من مسسم فلا يجوز أخذ العرض عليه ولا على غيره إذ ليس يقتل علمه إلى غيره وإنما يحصل لنبيه مثل علمه ويبقى هو طالما به ، ودون هذا : الحاذق في الصناعة كالصيفي مثلا الذي يزيل اعوجاج السيف أو المرأة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولحذقه بإصا به فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير في قيمة السيف والمرأة فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات تصب الرجل في تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : ما يقصد به المحبة وجعلها من قبل المهدى إليه لا لترض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأ كيدا للصحة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود العقلاء ومدوب إليه في الشرع قال عليه السلام « تهادوا تحابوا » (١) وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان في الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة في محبة ولكن إذا لم تحين تلك الفائدة ولم يتمثل في نفسه غرض معين يبيته في الحال أو المال سمي ذلك هدية وحل أخذها .

الخامس : أن يجلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبة لا لمحبة ولا لأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بهما إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمة لكان لا يهدي إليه ، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية في ظاهرها ، فإن كان جاهه بولاية تولاهما من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك لكان لا يهدي إليه فهذه رشوة عرضت في معرض الهدية إذ القصد

بها في الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن الزور ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى وآية أنه لا يبنى المحبة أنه لو ولى في الحال غيره سلم المال إلى ذلك الغير؛ فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراما، والمعنى فيه متعارضا فإنه دائر بين الهدية المحضة وبين الرشوة المنذورة في مقابلة جهاء في عرض معين، وإذا تمارضت المشاهدة القياسية وعصفت الأخبار والآثار أحدهما تيمم الميل إليه، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك قال عليه السلام «يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالمهدية والقتل بالموعظة يقتل البريء، لتوعظ به العامة»^(١)، وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن السحت فقال: يقضى الرجل الحاجة فيهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لاتصّب فيها أو تبرع بها لا على قصد أجرة، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض، شفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فنضب ورحها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكل فيما يقى منها. وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال: سحت. وأخذ عمر رضى الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولدها من بيت المال وقال: إنما أعطيتنا مسكانكم متى إذ علم أنهما أعطيا لأجل جهاء الولاية. وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى عاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتهما بجمهر فأخذه عمر رضى الله عنه فباعه وأعطاهما ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين. وقال جابر وابو هريرة رضى الله عنهما: هدايا الملوك غلول. ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية فقال: كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة^(٢) أي كان يتقرب إليه ثبوته لا لولايته ونحن إنما نعطي للولاية. وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ بعث واليا على صدقات الأزدي فلما جاء إلى رسول الله ﷺ أمسك بعض ما معه وقال: هذا لكم وهذا لي هدية، فقال عليه السلام: ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيتك هديتك إن كنت صادقا، ثم قال: مال استعمل الرجل منك فيقول هذا لكم وهذا لي هدية ألا جلست في بيت أمه لهدى له والذي نفسي بيده لا يأخذ منك أحد شيئا ينهر حقه إلا اتى الله بحمله فلا تأتينا أحدكم يوم القيامة يهيمر له رءاء أو بقرة لها خوار أو شاة تهر، ثم رفع يده حتى رأيت بياضا لإبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت^(٣) وإذا ثبتت هذه التشديدات فالتقاضى والوالى يبنى أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد الزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته، وما يعلم أنه إنما يعطاه لولايته غرام أخذه، وما اشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا؟ فهو شبهة فليجتنبه.

ثم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله اعلم

(١) «يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالمهدية والقتل بالموعظة، يقتل البريء لتوعظ به العامة» لم أقف له على أصل.

(٢) «كان النبي ﷺ يقبل الهدية» أخرجه البخارى من حديث عائشة.

(٣) حديث أبي حميد الساعدي «أن النبي ﷺ بعث واليا إلى صدقات الأزدي فلما جاء قال: هذا مالكم وهذا هدية لي» متفق عليه.

كتاب أداب الأخوة والصحة والمعايشة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بطائفة التخصيص طولا وامتانا ، وآلف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخذاناً وفي الآخرة رفقاء وعزلاناً ، والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلًا وعدلاً وإحساناً .
أما بعد : فإن التحاب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجارى العادات ، ولها شروط بها يتحقق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى وفيها حقوق يبرعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان . فيأتيام بحقوقها يتقرب إلى الله تعالى وبالحفاظ عليها تنال الدرجات العلى ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في فضيلة الألفة والأخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . (الباب الثاني) في حقوق الصعبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . (الباب الثالث) في حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد يلى بهذه الأسباب .

الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق ، لحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابير ، ومهما كان الثمر محموداً كانت الثمرة محموداً . وحسن الخلق لا تحصى في الدين فضيله ، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال (وإنك لملى خلق عظيم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « أكرم ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ^(١) » وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ « فقال : خلق حسن ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتكم بحسن الأخلاق ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يوضع في الميزان خلق حسن ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حسن الله خلقاً أمرى ، وخلقه فيطمعه النار ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها هرة عليك بحسن الخلق ،

صكتاب آداب الصعبة .

الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة

- (١) « أول من يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق » أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة وقال : صحيح الإسناد وقد تقدم . (٢) حديث أسامة بن شريك : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) « بعثت لأتكم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقي ، والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة . (٤) « أفضل ما يوضع في الميزان خلق حسن » رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء وقال : حسن صحيح . (٥) « ما حسن الله خلقاً أمرى ، وخلقه فيطمعه النار » أخرجه ابن عدى والطبرانى في مكارم الأخلاق وفي الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبى هريرة . قال ابن عدى : في إسناده بعض النكرة .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتنفو عن ظلمك وتعطي من حرمك (١) ولا يجنى أن ثمة الخلق الحسن الآفة واقطاع الوحشة ومنها طاب المشر طابت الثمرة ، كيف وقد ورد في التناء على نفس الآفة سباً إذا كانت الراجعة هي التقوى والدين وحسب الله . ومن الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقتضى . قال الله تعالى مظهراً عظيم منه على الخلق بنعمة الآفة (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقال (فأصبحتم بنعمة إخواناً) أى بالآفة . ثم ذم التفرقة وجزع عنها فقال عز من قائل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا - إلى - ألمستم تهتدون) وقال ﷺ : « إن أقربك منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً للموثون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » (٢) وقال ﷺ « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » (٣) وقال ﷺ في التناء على الأخوة في الدين « من أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » (٤) وقال ﷺ « مثل الأخوين إذا اتقيا مثل البيدين تنفسل إحداهما الأخرى ، وما التقي مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » (٥) وقال في الترغيب في الأخوة في الله « من آخى إماماً في الله رفقه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله » (٦) وقال إندريس الخولاني لماذا : إلى أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوهم كالقمر ليلة البدر ، يفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله تعالى » (٧) ورواه أبو هريرة رضى الله عنه وقال فيه « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوهم نور ليسوا بأنباء ولا شهداء يغطهم النديون والشهداء ، فقالوا : يا رسول الله صفهم لنا ، فقال : هم

(١) « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال : وما حسن الخلق ؟ قال « تصل من قطعك وتنفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك » رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه . (٢) « إن أقربك منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً للموثين أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » رواه الطبراني في معجم الأعلام من حديث جابر بسند ضعيف . (٣) « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني من حديث سهل ابن سعد ، والحاكم من حديث أبو هريرة وصححه . (٤) « من أراد الله به خيراً رزقه أخيراً صالحاً إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » غريب بهذا اللفظ ، وللصوف أن ذلك في الأمير . ورواه أبو داود من حديث عائشة « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إذا نسى ذكره وإذا ذكر أعانه ... » ضعه ابن عدى ، ولأبي عبد الرحمن السلي في آداب الصلوة من حديث علي « من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين » . (٥) « مثل الأخوين إذا اتقيا مثل البيدين تنفسل إحداهما الأخرى » الحديث رواه السلي في آداب الصلوة ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الخزيات .

(٦) « من آخى أخاً في الله عز وجل رفقه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء عمله » أخرجه البيهقي في كتاب الإخوان من حديث أنس « ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة » وإسناده ضعيف . (٧) حديث : قال أبو إندريس الخولاني لماذا : إلى أحبك في الله ؟ فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت النبي ﷺ يقول « تنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ... » أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل : إن أبا إندريس قال : قلت والله إلى لأحبك في الله قال : فإني سمعت النبي ﷺ يقول « إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ لفظ « المتحابون في جلالهم منابر من نور يغطهم النديون والشهداء » قال حديث حسن صحيح ، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري « إن لله عبداً ليسوا بأنباء ولا شهداء يغطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقرهم من الله ... » وفيه تحابوا في الله وتصافوا به صنع الله لهم يوم القيامة منابر من نور تتجلو وجوهم نوراً وليهم نوراً يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرحون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه .

المشايرون في الله والمتجالسون في الله والمزاورون في الله^(١) وقال عليه السلام « ما تحاب اثنان في الله الا كان أحهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه^(٢) » ويقال : إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتصق به كما تلتصق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم بعضاً لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل (ألفتنا بهم ذرياتهم وما انتابهم من عملهم من شيء) وقال عليه السلام « إن الله تعالى يقول : حقت محبة الذين يتزاورون من أجل وحقت محبة الذين يتعابون من أجل وحقت محبة الذين يتبادلون من أجل وحقت محبة الذين يتناصرون من أجل^(٣) » وقال عليه السلام « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المشايرون بجلال أعظمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي^(٤) » وقال عليه السلام « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ على عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتماعاً على ذلك وقرىبا عليه ورجل ذكر الله غالياً ففاضت عيناه ورجل دعت امرأة ذات حسب ورجال فقال إنى أخاف الله تعالى ورجل تصدق بمدة فأخفاها حتى لا تمل شمله ما تنفق يمينه^(٥) » وقال عليه السلام « ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه : طيب وطيب بمشاك وطابت لك الجنة^(٦) » وقال عليه السلام « إن رجلاً زار أخاه في الله ، فأرسل له ملكاً فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أזור أخى فلاناً فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فينبهه لك عندك ؟ قال : لا ، قال : نعم ؟ قال : أحبه في الله ، قال : فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة^(٧) » وقال عليه السلام « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله^(٨) » فلذا يجب أن يكون للرجل أعداء ينفذهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله . ويروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء : أما زهدك في الدنيا فقد جعلت الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد تمرزت في ولكن هل عادت في عدواً أو واليت في ولياً ؟ وقال عليه السلام « اللهم لا تجعل لفاخر على من قرضه من عجة^(٩) » . ويروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام : « لو أنك عديت بعبادة أهل السلاوات والأرض وحب ليس في الله وبعض ليس في الله ما أغنى عنك من الله شيئاً » وقال عيسى عليه السلام : تحببوا إلى الله يفض أهل المصطفى وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم التسواوا الله يظلمهم قالوا : يا روح الله فنجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يريد في عملكم كلاماً من رغبكم في الآخرة عملد . وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : يا ابن عمران كن يقظاً وأردت

(١) حديث أبي هريرة « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ... » أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات . (٢) « ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح الإسناد . (٣) « إن الله يقول : حقت محبة الذين يتزاورون من أجل ، وحقت محبة الذين يتعابون من أجل ... » أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عتبة وحديث عبادة بن الصامت ، ورواه الحاكم وصححه . (٤) « إن الله يقول يوم القيامة : أين المشايرون بجلال أعظمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » أخرجه مسلم . (٥) حديث أبي هريرة « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٦) « ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طيب وطابت لك الجنة » أخرجه ابن عدى من حديث أنس قوله « شوقاً إليه ورغبة في لقائه » وقرئتمدى وابن ماجه من حديث أبي هريرة من عاد مرضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناد من طيب وطابت بمشاك وتبوات من الجنة منزلاً قال الترمذي : غريب . (٧) « إن رجلاً زار أخاه في الله فأرسل له ملكاً فقال : أين تريد ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد من حديث البراء بن عازب ، وفيه لث بن أبي سليم مختلف فيه . والحراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٩) « اللهم لا تجعل لتاجر على منة ... » تقدم في الكتاب الذي قبله .

لنفسك إخواناً وكل خدن أو صاحب لا يؤذك على مسرق فهو لك عدو . وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام فقال : يا داود مالي أراك متنبذاً وحيداً ؟ قال : إلهي ! قلت الخلق من أجلك ، فقال المولى عز وجل : يا داود كن يقظاً ، وارعد لنفسي أخداً ، وكل خدن لا يؤافقك على مسرق فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقبى قلبك ويباعدك مني . وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لي أن يحميني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك ؟ قال : خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك . وفي بعضها : خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي ﷺ « إن أحبك إلى الله الذين يأفون ويؤفون وإن أبغضك إلى الله المشامون بالنيمة المفرقون بين الإخوان » (١) وقال ﷺ « إن لله ملكاً نصفه من النار ونصفه من التلج يقول : اللهم كما ألفت بين التلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين » (٢) وقال أيضاً « ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة » (٣) وقال ﷺ « المتحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس الممود سبعون ألف غرة يشفرون على أهل الجنة يعني حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى المتحابين في الله فيضيئ حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس ، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم : المتحابون في الله » (٤) .

الآثار : قال علي رضي الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة إلا تسمع إلى قول أهل النار (فالتا من شافين ولا صديق حميم) . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : والله لو سمعت النهار لا أظفره وقت الليل لا أنامه وأقنعت مال غلفاً غلفاً في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما تفنى ذلك شيئاً . وقال ابن السكيت عند موته : اللهم أنت تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطعك فأجمل ذلك قربة لي إليك . وقال الحسن - علي منه - يا ابن آدم لا يتركك قول من يقول المرء مع من أحب فإنه لن تلق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع . وقال الفضيل في بعض كلامه : هاهنا تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأي عمل عملته ؟ بأي شهوة تركتها ؟ بأي غيظ كظمته ؟ بأي رحم قاطع وصلتها ؟ بأي ذلة لأخيك غفرتها ؟ بأي قريب باعده في الله ؟ بأي بعيد قاربته في الله ؟ ويروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل عملت لي عملاً قط ؟ فقال : إلهي ! إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت ، فقال : إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور ، فأى عمل عملت قال موسى : إلهي ادعني على عمل هو لك ، قال : يا موسى هل واليت لي ولياً قط ؟ وهل عادت في عدواً قط ؟ فلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله ، وقال ابن مسعود : لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام بعد الله سبعين سنة لبعث الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضي الله عنه : مصارمة الفاسق قربان إلى الله وقال لرجل ل محمد بن واسع : إن لأحبك في الله ، فقال : أحبك الذي أحببتني ثم حول وجهه وقال : اللهم إني

(١) « إن أحبك إلى الله الذين يأفون ويؤفون ... » أخرجه الطبراني في الأوسط والضعيف من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) « إن لله ملكاً نصفه من النار ونصفه من التلج يقول اللهم كما ألفت بين التلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين » رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والرياض بن سارية بسند ضعيف . (٣) « ما أحدث عبد أخاً في الله تعالى إلا أحدث الله له درجة في الجنة » ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم . (٤) « والمتحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس الممود سبعون ألف غرة ... » رواه الحكيم الترمذي في التوهر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

أعز ذلك أن أحب إليك وأنت لي بمنزلة . ودخل رجل على داود الطائي فقال : ما حاجتك ؟ فقال زيارتك ، فقال : أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ولكن انظر ماذا ينزل في أنا إذا قيل لي : من أنت فتراه ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لا والله ، ، أمن المباد أنت ؟ لا والله ، أمن الصالحين أنت ؟ لا والله . ثم أقبل يريخ نفسه ويقول كنت في الشبهة فاسمعا قلنا شئت صرت مرثيا والله للرأي شر من الفاسق وقال عمر رضي الله عنه : إذا أصاب أحدكم ود من أخيه فليتمسك قلنا بحسب ذلك . وقال مجاهد : المتحابون في الله إذا اتقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تحات عنهم الخطايا كاحتجاب ورق الشجر في الشتاء إذا يس . وقال الفضيل : نظر الرجل إلى أخيه على المودة والرحمة عبادة .

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا

أعلم أن الحب في الله غامض ويتكشف النطاء عنه بما نذكره : وهو أن الصفة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق ؛ كالصحة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار ، وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ؛ وهو الذي نريد بيانه إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لاحالة إذ لا تواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها . والصفة عبارة عن الجمالسة والمخالطة والمجاورة . وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحب فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا يقصد مخالطته ، والذي يجب فأما أن يجب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراه وإما أن يجب لقواصل به إلى مقصود ، وظلته المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فلهذه أربعة أقسام :

أما القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك يمكن وهو أن يكون في ذاته محبوا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيد في حق من أدرك جماله وكل لذيد محبوب . والذلة تفتح الاستحسان والاستحسان يقع المناسبة والملازمة والموافقة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعي حسن الخلقة وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعي كمال العقل وحسن الأخلاق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ويتبع كمال العقل غرارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم ، وكل مستحسن يستلذ به ومحبوب . بل في اتلاف القلوب أمر غامض من هذا فإنه قد تستحکم المودة بين شخصين من غير ملاحظة في صورة ولا حسن في خلق وخلق ولكن مناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء يجذب إليه ، بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الإطلاع عليها ، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال « الأرواح جنود مجنونة فما تعارفت منها اتلفت وما تناكرت منها اختلف ^(١) » فالتناكر نتيجة التباين والاختلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف وفي بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجنونة تلتقي فتقتل في الهواء ^(٢) » وقد كفى بعض العلماء عن هذا بأن قال : إن الله تعالى خلق الأرواح فخلق بعضها قلنا وأطاح بالعرش فأبى روحين من فلقين تمارقا هناك فالتقيا توارصا في الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين يلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط ^(٣) » وروى « إن امرأة بمكة كانت تضحك

(١) « الأرواح جنود مجنونة فما تعارفت منها اتلفت وما تناكرت منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة البخاري تعليقا من حديث عائشة . (٢) « الأرواح تلتقي فتقتل في الهواء » أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي « إن الأرواح في الهواء جند مجنونة تلتقي فتقتل ... » (٣) « إن أرواح المؤمنين يلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده بن عمرو بن قنبر عن أبيه بن عبد الله بن مسعود عن دراج يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده بن عمرو بن قنبر عن أبيه بن عبد الله بن مسعود عن دراج يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » (٢١ - إحياء علوم الدين ٢)

النساء وكانت بالمدينة أخرى فزلت الملكية على المدينة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأخبرتها ، فقالت : أين زلت قد كرت لها صاحبها ، فقالت : صدق الله ورسوله (١) سمعت رسوله صلى الله عليه وسلم يقول : «الأرواح جنود مجنونة ... الحديث » والحق في هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للاختلاف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطناً وظاهراً أمر مفهوم . وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وغاية هذيان المتعم أن يقول : إذا كان طالعهم على تسديس طالع غيره أو تليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتعنى التناسب والتواد ، وإذا كان على مقابلة أو تريعه اقتضى التبايض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجارى سنة الله في خلق السموات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب ، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم الإقليلا ، ويكفي في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم «لو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد جاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومناقب واحد جاء حتى يجلس إليه (٢) » وهذا يدل على أن أشبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به . وكان مالك بن دينار يقول لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال فرأى يوماً غراباً مع حمامة فسبب من ذلك فقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ، ثم طارا فإذا هما أهرجان فقال من ههنا اتفقا ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأثر إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتفقا كلا في الحال فلا بد أن يفترا ، وهذا معنى خفى تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل كيف تفارقنا فقلت قولاً فيه إصاف
لم يك من شكل ففارقته والناس أشكال والآف

فقد ظهر أن الإنسان قد يجب لذاته لا لفائدة تتال منه في حال أو مآل بل لجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية . ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والفتاح المشرب بالحرارة وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عينها . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك من لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض ممنوم صار ممنوماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاءها . وإن لم يصل به غرض ممنوم فهو مباح لا يوصف بمحمد ولا ثم إذ الحب إما محمود وإما ممنوم وإما مباح وإما لا يحمد ولا يثم .

القسم الثاني : أن يحبه لئال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب وما يجب لتهمه كان ذلك التهم هو المحبوب بالحقيقة . ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب

(١) حديث : إن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فزلت الملكية على المدينة فدخلت على عائشة فذكرت حديث «الأرواح جنود مجنونة» أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده بالقبضة بسند حسن ، وحديث عائشة عند البخاري طليقاً مختصراً دونها كما تقدم .

(٢) «لو أن مؤمناً دخل إلى مجلس وفيه مائة منافق ومؤمن واحد جاء حتى يجلس إليه» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود ، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ، ولم يخرجوه ولم يلق المسند .

والفضة ولا غرض فهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث أنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل إلى نيل جله أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جلعه ويجب خواجهه لتحسينهم حاله عنده وتهديم أمره في قلبه ، فالتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس بقصد به إلا الدنيا كحب التلبذ لأستاذه فهو أيضا عارج الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فحبه العلم ، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوه الجاه والقبول ، والعلم وسيلة إليه والأستاذ وسيلة إلى العلم ، فليس في شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك من لا يؤمن بالله تعالى أصلا . ثم ينقسم هذا أيضا إلى منعم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح وإنما تتكسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها .

القسم الثالث : أن يحبه لآدائه بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهذا من جملة المحبين في الله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التطعيم في ملكوت السماء ، إذ قال عيسى عليه السلام من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء . ولا يتم التعلم إلا بتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحمة الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التطعيم في ملكوت السماء فهو محب في الله ، بل يصدق بأمواله الله ويجمع الضيفان ويحيى لهم الأطلعة الفضية الثرية تقربا إلى الله فأحب طباعا لحسن صنعه في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله ، وكذا لو أحب من يتولى منه له إرسال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله ، بل يزيد على هذا وتقول : إذا أحب من يغضمه بنفسه في غسل ثيابه وكس يديه وطبخ طعامه ويفرغه بذلك العلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله ، بل يزيد عليه وتقول : إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه وسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل والتقرب إلى الله فهو محب في الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولى الأئمة وكان الواسي والواسي جميعا من المتحابين في الله ، بل يزيد عليه وتقول : من نسك امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان يصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله . ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإتيان على العيال حتى القيمة بعضها الرجل في في امرأته (١) بل تقول : كل من استمر بحب الله وحبه رضا وحبه لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لتأجبه له أو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل ، بل أزيد على هذا وأقول : إذا اجتمع في قلبه عبتان ، محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد العبتان جميعا حتى صلح لأن يتوصل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلحه للأمرين فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهيات الدنيا بالمواساة في المال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة فهو وسيلة إليهما فهو محب في الله ، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في المعاجل حظا ألبته

(١) « أنجز في الإتيان على الببال حتى القيمة بعضها الرجل في في امرأته » وتقدم .

إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه في جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) وقال عيسى عليه السلام في دعائه: اللهم لا تشمت في عدوى ولا تسؤ في صديق ولا تجعل مصيبتى لدينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى فدفع شامة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل: ولا تجعل الدنيا أصلاً من همى، بل قال: لا تجعلها أكبر همى. وقال نبينا ﷺ في دعائه: اللهم إني أسألك رحمة آتال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة (١) وقال: اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (٢) وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة منافضاً لحب الله تعالى لحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون منافضاً لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحيا غداً لأن الغد سيمر حالاً راضية فالخلة الراضة لا بد أن تكون مطلوبة أيضاً، إلا أن الحظوظ المأجلة منقسمة إلى ما يصاد حظوظ الآخرة وينم عنها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يصاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالسكاح الصحيح واكل الحلال وغير ذلك، فما يصاد حظوظ الآخرة لحق الماقل أن يكرمه ولا يحبه أعني أن يكرمه ببقوله لا بطلبه، كما يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حوت رقبته لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهي بطلبه ولا يستغنى لو أكله فإن ذلك محال، ولكن على معنى أنه يزجره صفه عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به. والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويحذره وأحدهما حظ عاجل والآخر أجل لكان في زمرة المتحابين في الله، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً أو تعلمه عليه تحصلته منه لتقص حبه بسببه فالتقدير الذي ينقص بسبب فقدته هو الله تعالى، وله على ذلك التقدير ثواب الحب في الله وليس بمستكثر أن يشتد حبه لإنسان لملة أغراض ترتبط له به فإن امتنع بعضها نقص حبه وإن زاد زاد الحب، فليس حبه للذهب كحبه للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة. فإذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله. وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فكل الزيادة من الحب في الله فكله وإن دق فهو عزيز. قال الجرجوري: تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رقى الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفي الثالث بالمرودة حتى ذهب المروء ولم يبق إلا الرهبة والرغبة.

القسم الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به إلى أمر ودار ذاته وهذا أصل البرجمات وهو أدقها وأغصنها، وهذا القسم أيضاً ممكن فإن من آثار غلبة الحب يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد، فمن أحب انساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوه وأحب من يخفمه وأحب من يشي عليه محبوه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوه، حتى قال بقية بن الوليد: إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه، وهو كما قال: ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهة ويجب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بنى عامر:

- (١) «اللهم إني أسألك رحمة آتال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة» أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه ﷺ بعد صلاة الليل وقد تقدم.
- (٢) «اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة» أحمد من حديث بشر بن أبى أرطاة نحوه بسند جيد.

أمر على الديار ديار ليسلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

فلئن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يمتد من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد ، ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لا يكتفى فيه ويكون اتساع الحب في تعديده من المحبوب إلى ما يكتفنه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراس المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستول على حتى انتهى إلى حد الاستتار فيمتد إلى كل موجود سواء ، فإن كل موجود سواء أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعه وخطه وجميع أفعاله ، ولذلك كان عليه السلام إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال : إنه قريب العهد بربنا (١) وحب الله تعالى تارة يكون لصديق الرجل في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدنى ضرور المحبة وأعلاما — وسياق تحقيقها في كتاب المحبة من ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى — وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى يمتد إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يمتد إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه ولكن فرط الحب ينصف الإحساس بالآلم والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يشعر إدراك الآلم . وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاناة فإن قوة المحبة تثير فرحا يشعر إدراك الآلم فيه وقد انتهت حجة الله بقوم إلى أن قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاء حتى قال بعضهم : لا أريد أن أنال مغفرة الله بمصيبة الله . وقال سحنون :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فأخسر

وسياق تحقيق ذلك في كتاب المحبة . والمقصود أن حب الله إذا قوى أمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بأداب الشرع . وما من محبة للآخرة ومحبة لله إلا إذا أخبر من حال رجلين أحدهما طامع بالآخرة والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ، ثم ينصف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة ، فذلك الميل هو حب في الله والله من غير حظ فإنه إنما يحب لأن الله يحب ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فإذا قوى حمل على اللوالة والنعرة والذنب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل ، ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموتى من العباد والعبادة ومن الصحابة والتابعين بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، وتبين ذلك بنصفه عند طعن أعدائهم في واحد منهم وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخلفه وأحبين إليه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحفظ النفس

(١) « كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال إنها قريب عهد بربها » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس ، وأبو داود في المراسيل ، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة عن قوله « وأكرمها الخ » وقال : إنه غير محفوظ ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون مسح عينيه بها وما عبده وقال الترمذي حسن صحيح .

وقد يغلب بحيث لا يبق لنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب، وعنه خبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال : وما لجرح إذا أرضاكم ألم . وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض المخطوط دون بعض كن
تسمح نفسه بأن يشاطر محبوه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشرة فقاصد الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف
درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته ، فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه
شيئا مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالا فسلم أبنته التي هي قرة عينه وبذل جميع
ماله . قال ابن عمر رضي الله عنهما « بينا رسول الله ﷺ جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خطها على
صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه عن الله السلام وقال له يا رسول الله مالي أرى أبا بكر عليه عباءة
قد خطها على صدره بخلال ؟ قال : أفق ماله على قبل الفتح ، قال : فأقره من الله السلام وقل له يقول لك ربك
أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال : يا أبا بكر هذا جبريل
يقربك السلام من الله ويقول أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فيكي أبو بكر رضي الله عنه وقال :
أصل ربي أسخط أنا عن ربي راض أنا عن ربي راض (٤) . فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عبدا أو
أحب شخصا راعيا في علم أو في عبادة أو في خير فإنما أحبه في الله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه
فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وهذا ينضح البغض في الله أيضا ولكن نريد بيانا .

بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يجب في الله لابد أن يبغض في الله فإنه إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله
فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وعقوت عند الله ، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده وهذا
متلازمان لا يفضل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب
والبغض داء دفين في القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المعين والمبغضين في المقاربة والمباعدة
وفي المخالفة والموافقة فإذا ظهر في الفعل حب والولاية ومعاداة ؛ ولذلك قال الله تعالى : هل واليت في وليا وهل عادي
في عدوا ؟ كما نقلناه ، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته بقدر أن يحب أو لم يظهر لك إلا فسقه
وبجوره وأخلاله السيئة فتقدر على أن تبغضه ، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنه يقول كيف
أجمع بين البغض والمحبة وما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والولاية والمعاداة وأقول
ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في المخطوط البشرية ؛ فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال
يجب بعضها ويكره بعضها فإنه يحب من وجه ويبغضه من وجه . فن له زوجة حسنة فاجرة أو ولد ذكي خديم
ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين ؛ إذ لو فرض له ثلاثة أولاد
أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال
متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم ، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه النجور ومن غلبت

(٤) حديث ابن عمر : بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خطها على صدره بخلال فزل جبريل
فأقرأه من ربه السلام ... أخرجه ابن حبان والبيهقي في الضعفاء ، قال الذهبي في الميزان : هو كاذب .

عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب ، وذلك بأن تعلى كل صفة حظا من البغض والمحبة والإعراض والإقبال والصحبة والتطيعه وسائر الأعمال الصادرة منه .

فإن قلت : كل مسلم بإسلامه مطاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام ؟ فأقول : تحبه لإسلامه وتبغض لمصيبته وتكون معه على حالة لو فسدت بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما ونك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه . وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقه والطاعة له فن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكأن معه على حالة متوسطة بين الاتقياض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبلغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ، ولا تبلغ في إيمائه مبالغتك في إيمائه من خالفك في جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط نارة يكون ميله إلى طرف الإمامة عند غلبة الجناية ونارة إلى طرف المحاملة والإكرام عند غلبة المواقة ؛ فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسلطه أخرى .

فإن قلت : فإذا يمكن إظهار البغض ؟ فأقول أمان القول فيكف اللسان عن مكاتبه وعادته مرة بالاستغفاف والتغليظ في القول أخرى . وأما الفعل فيقطع السعي في إيمائه مرة وبالسعي في إيمائه وإفساد مآربه أخرى . وبعض هذا أشد من بعض وهي بحسب درجات الفسق والمصيبة الصادرة منه . أما ما يجري مجرى المفوضة التي يعلم أنه متدبر عليها ولا يصير عليها فالأول في السر والإخفاء . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبه وأخوه فله حكم آخر - وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء - . وأما إذا لم تأكد أخوه وصحبه فلا بد من إظهار أثر البغض إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستغفاف وتغليظ القول عليه . وهذا أشد من الإعراض وبحسب غلظ المصيبة وخفها ، وكذلك في الفعل أيضا ربتان ؛ إحداها : قطع المودة والرفق والتقصير عنه وهو أقل الدرجات ، والأخرى : السعي في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لا بد منه ولكن فيأخذ عليه طريق المصيبة . أما ما لا يؤثر فيه فلا ، مثله رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكن مضبوطا بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بئس وتحريض عليه ، فإذا قدوت على إيمائه لئيم لغرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه لبقوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه ، أما الإغارة فلو تركتها لإظهار التشنج عليه في فسقه فلا بأس ، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تلطف بإيمائه وإظهار الشفقة عليه ليمتد مودتك وقبيل تصحك بهذا حسن ، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تمينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت مصيبته بالجناية على حقه أو حق من يملك به وفيه ذل قوله تعالى (ولا تأتوا أروا الفضل منكم والسعة) إلى قوله تعالى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) إذ تكلم مسطح بن أثانة في واقعة الإفك^(١) خلف أبو بكر أن يقطع عنده رقه . وقد كان يواسيه بالمال فزلت الآية مع عظم مصيبة مسطح ، وآية مصيبة تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي عنها ؛ إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالجنى عليه في نفسه بتلك الواقعة والعفو عن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ، فأما من ظلم غيرك وعصى الله بفلا يحسن إحسانا إليه لأن في الإحسان إلى الظالم إسداء إلى المظلوم

(١) « كلام مسطح في الإفك وجر أبي بكر له حتى نزلت : ولا تأتوا أروا الفضل منكم ... الآية » مشق عليهم من

وحق المظالم أولاً بالمرعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن المظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حرك الغفو والصفح وطرق السلف قد اختلف في إظهار البنض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البنض للظلمة والمتبذعة وكل من عصي بمعية متبذعة منه إلى غيره ، فأما من عصي الله في نفسه فنهى من نظر بين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة ، فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكاثر في أدنى كلمة ، حتى هجر يحيى بن معين لقوله : إني لا أسأل أحداً شيئاً ولو حل السلطان إلى شيئاً لأخذته . وهجر الحرث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال : إنك لا بدأن تورد أولاً شبهتهم وتحمل الناس على الفكر فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبا ثور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»^(١) وهذا أمر يختلف باختلاف الثنية وتختلف الثنية باختلاف الحال ، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أوردت هذا تساهلاً في المعاداة والبنض وله وجه ولكن قد تلبس به المداينة فأكثر البراءة على الإغضاء من المداينة مراعاة القلوب والخوف من وحشتها وتعارها ، وقد يلبس الشيطان ذلك على النبي الآخر بأنه ينظر بين الرحمة وعك ذلك أن ينظر إليه بين الرحمة إن جن على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الحذر ، وكيف لا يفضله وقد كتب عليه قتل هذا قد تصح له نية في الإغضاء عن الجنابة على حق الله وإن كان يفتاغ عند الجنابة على حقه ويترحم عند الجنابة على حق الله فهذا مدهن مغرور بمكيكة من مكاييد الشيطان فلينبه له .

فإن قلت : فأقل الدرجات في إظهار البنض المجر والإعراض وقطع الرق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول : لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب فإننا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتماطروا الفواحش في زمان رسول الله ﷺ والصحابة ما كانوا يهجون بالكيفية بل كانوا منقسمين فهم إلى من ينظر القول عليه ويظهر البنض له ، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتقاعد . فله دفاق دبلية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكرومة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يمتد من المحبوب إلى غيره وإنما المتدلى إفرط الحب واستيلاؤه ، وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلاً .

بيان مراتب الذين ينفضون في الله وكيف يمعاملتهم

فإن قلت : إظهار البنض والمداينة بالفعل إن لم يكن واجباً فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفاسق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلماً واحداً أم لا ؟ فأقول : أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يحل أن يكون مخالفاً في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد مبتدع أو كافر والمبتدع إما داخ إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بسجوه أو باختياره . فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة :

الأول : الكفر ، فالكافر إن كان عارفاً فهو يستحق القتل والإرثاق وليس بمدحذين لإماته ، وأما الذي فإنه لا يجوز إنبائه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى احتيق الطرق وبترك المخالفة بالسلام ؛ فإذا قال :

(١) «إن الله خلق آدم على صورته» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السلام عليك، قلت: وعليك. والأولى الكف من مخالفته ومعاملته ومواكلته وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كرامة شديدة يكاد يقضى ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية، وقال ﷺ « المسلم والمشرک لا تراهما »^(١) وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ الآية.

الثاني: المبتدع الذي يدور إلى بدعته، فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذي لأنه لا يقر بجرية ولا يسمع بعقد فته وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لإعالة ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن الكافر غير متد، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يفتنون إلى قوله إذ لا بدعي لنفسه الإسلام واعتقاد الحق. أما المبتدع الذي يدور إلى البدعة ويرغم أن ما يدور إليه حتى فهو سبب لغواية الخلق بشره متد، فالاستعجاب في إظهار بضمو معاداته والانتطاع عنه وتحذيره والتشجيع عليه يبدعته وتغير الناس عنه أشد، وإن سلم في غلوة فلا بأس برد جوابه، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقع في نفسه بدعته ويؤثر في زهره ترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجبا فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحسام أو في قضاء حاجته وغرض الزجر أم من هذه الإعراض، وإن كان في ملا فترك الجواب أولى تنفيرا للناس عنه وتقييحا لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لاسيما فيما يظهر الخلق. قال عليه السلام « من اتهم صاحب بدعة ملا الله قلبه أمنا وإيمانا ومن أمان صاحب بدعة آمنه الله يوم القزح الأكبر ومن ألان له وأكرمه أو لقيه يشر فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم »^(٢).

الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر على الصبر ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يبالغ بالتقليد والإمالة بل يتلف به في التصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع التصح وكان في الإعراض عنه تقييح لبدعته في عينه تأكد الاستعجاب في الإعراض، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجود طبعه ووروخ عقده في قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحها شاعت بين الخلق وعم فسادها. وأما المعاصي بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخطئ إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره كالظلم والنصب وشهادة الزور والنية والتضريب بين الناس والمشي بالنية وأمثالها، أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى ما يدور غيره إلى الفساد كصاحب الماخوذ الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهوى أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدور غيره إلى فعله كالذي يشرب ويؤذي، وهذا الذي لا يدور غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة، وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر، فهذه التقسيات تحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولا نسلك بالكل مسلكا واحداً.

(القسم الأول) وهو أشدهما: ما يتعرض به الناس كالظلم والنصب وشهادة الزور والنية والبيعة هؤلاء الأول الإعراض عنهم وترك مخالفتهم والانتقاض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إنباء الخلق، ثم هؤلاء

(١) «لؤمن والمشرک لا تراهما» رواه أبو داود والترمذي عن حديث جرير «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا يارسول الله ولم؟ قال «لا تراهما» ورواهما النسائي مرسلًا وقال البخاري: الصحيح أنه مرسل.

(٢) «من اتهم صاحب بدعة ملا الله قلبه أمنا وإيمانا...» أخرجه أبو نعيم في الحلية والمروعي في ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند صيف.

ينقسمون إلى من يظلم في المنام وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض وبعضها أشد من بعض فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جدا ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لتبريم كان الأمر فيه أكثرا وأشد :

(الثاني) صاحب الماخور الذي يجبه أسباب القساد ويسهل طرقة على الخلق فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم ، وإن كان على وفق رضام فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى الغزو أقرب ولكن من حيث إنه تمتد على الجلة الخيرة فهو شديد . وهذا أيضا يقتضي الإهانة والإعراض والمقاومة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوحا من الزجر له أو لتبريم .

(الثالث) الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة عظمو يحضه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صوفى بحبسته بما يتبع به ولو بالضرب والاستخفاف فإن انتهى عن المنكر واجب ، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من مآته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب التصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل التصح والزجر بالتلفظ أو بالتخليط إن كان هو الأنفع ؛ فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطة حيث يعلم أنه يضر وأن التصح ليس ينفعه ، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة ، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فمتد هذا يقال « الأعمال بالنيات » إذ في الرق والنظر بين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتي فيه القلب فأمره إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى صدق إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعصب والتهاد باظهار العلو والإدلال بالصلاح ، وقد يكون رفقته عن مباحته واستئالة قلب الوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشة وقرته في جهل أو مال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان ويبيد أعمال أهل الآخرة ، فكل راغب في أعمال الدين يجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال ، والقلب هو الملقى فيه وقد يصيب الخلق في اجتاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو ظالم به وقد يقدم وهو يحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة . وسياق بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربيع المملكات .

ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روى أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله ﷺ مرات وهو يعود ، فقال واحد من الصحابة : لئنه الله ما أكثر ما يشرب ، فقال ﷺ : « لا تكن حرونا للشيطان على أخيك »^(١) أو لفظا هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرق أولى من العنف والتخليط .

بيان الصفات المشروطة فيمن يختار صحبتته

اعلم أنه لا يصلح للصحة كل إنسان . قال ﷺ « والمرء على دين خليله فلينظر أحكم من يخال »^(٢) ولا بد أن يتبين بمضال وصفات يرغب بسببها في صحته وتشرط تلك الحصول بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود في الإضافة إلى المقصود فظهر الشروط . ويطلب من الصحة فوائد دينية ودنيوية : أما الدنيوية فكانت انتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من اغراضنا . وأما الدينية فيجتمع فيها أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تصنيع الأوقات

(١) « إن شارب خمر ضرب بين يدي النبي ﷺ » وفيه « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٢) « والمرء على دين خليله » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح إنشاء الله

في طلب الثروت ، ومنها الاستماعة في المهمات فيكون عدة في الصائب وقوة في الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد العطاء ، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فليطلب تدخل في شفاعة أخيك . وروى في غريب التفسير في قوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا وعلوا الصالحات ويزيدهم من فضله) قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للمبد شفع في إخوانه ؛ ولذلك حث جماعة من السلف على الصلحة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد ؛ فبهذه الفوائد تستدعي كل قاعدة شرعاً ولا يحصل إلا بها ، ونحن نقصها ؛ أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن يؤثر محبة خمس خصال أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا ، أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في محبة الأحمق فإن الروحنة والتعطية ترجع عاقبتها وإن طالت . قال علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أما الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أرى حلياً حسن آباء
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء مشاء
ولثى من الثى مقاييس وأشباه
ولقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف والأحق قد يشارك وهو يريد تفكك وإماتتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر :

إني لأمن من صدو قائل وأعاف خلا يقره جنون
فالعقل في واحد وطريقه أدرى فأرصد والجنون فتون

ولذلك قيل : مقاطعة الأحق قربان إلى الله . وقال التوري : النظر إلى وجه الأحق خطيئة مكثوبة ، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وغاف ما هو المعلوم عنده لعمري عن فهم صفاته وتقوم أخلاقه فلا خير في صحبه . وأما الفاسق المصير على الفسق فلا فائدة في صحبه لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة ومن لا يخاف الله لا يؤمن فآفته ولا يوثق بصدقه بتغير الأغراض . وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى (فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه) وقال تعالى (فأعرض عن تولي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) وقال (واتبع سبيل من آتاك إلى) وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما المبتدع ففي صحبه خطر سراية البدعة وتندى شؤماً إليه فالمبتدع مستحق الهجر والمقاطعة فكيف يؤثر صحبه ؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحديث على طلب الدين في الصديق فما رواه سعيد بن المسيب قال : عليك يا إخوان الصديق تنش في أكتافهم فإنهم زينة في الرغاء وعد في البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحميتك ما ينالك منه واعتزل عدوك واحذر حديثك إلا الأمين من القوم ولا آمين إلا من غشى الله فلا تصحب الفاجر تعلم من لجوره ولا تطلعه على شرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة الطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحته زانك وإن تحدثت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مدحت يدك بخير مدحا وإن رأى منك حسنة عدما وإن رأى سيئة سدما ، اصحب من إذا سأله أعطاك وإن سكت ابتدأك وإن تولت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولنا أمراً أمرك وإن تنازعنا أثرك ؛ فكانه جمع هذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائماً بجميعها . قال ابن أكرم : قال المأمون فأين هذا ؟ قيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال :

لا قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحداً . وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكرم مرثى ويستريحك فيكون ملك في الثواب ويؤثرك بالراغب وينثر حسنتك ويطوى سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك .

وقال على رضي الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك يوم ينثر نفسه لينفك
ومن إذا وب زمان صدحك شئت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تعلم منه شيئاً في أمر دينك فينفكك ، أو رجل تعلمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حوله فلا يشبع منه ، وآخر مر كله فلا يترك منه . وآخر فيه حومة غلظ من هذا قيل أن يأخذ منك . وآخر فيه ملحوة غلظ منه وقت الحاجة فقط . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب نخبة : الكذاب فإنه كمن على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، والأحمق فإنه كمن لست منه على شيء يريد أن ينفكك فيضرك ، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، والجبان فإنه يسلك ويفر عند الفتنة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل أنها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لا ينالها . وقال الجنيد : لأن يصحني فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحني قارىء سيء الخلق . وقال ابن أبي الحواري : قال لي أستاذي أبو سليمان : يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلاً ترفق به في أمر دينك ، أو رجلاً تزيد منه وتتضح به في أمر آخرتك ، والاشتغال به في دينك خير . وقال سهل بن عبد الله : اجنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبابة النافلين ، والقراء اللداعين ، والمتسوقة الجاهلين . واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط الصحبة في مقاصد الدنيا مشروطاً بالصحبة في الآخرة إلا أن قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لأخرك وأخ لأخاك وأخ لنفسه ، وكلما تجمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جميع تتفرق الشروط فليهم بالإعانة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه . والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الماء لا يحتاج إليه قط ، ولكن العبد قد يتبلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع . وقد قيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فيها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال . ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ، ومنها ماله ثمر وظل جميعاً ، ومنها ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تزق الثياب ولا تطعم فيها ولا شراب ، ومثله من الحيوانات الفارة والعقرب ، كما قال تعالى (يدعون من ضره أقرب من نفسه لبئس المولى وبئس المصير) وقال الشاعر :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقه وذلك ليس له طعم ولا ثمر

فاذا لم يجد رفيقاً يؤاخي ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من المجلس السوء والمجلس الصالح خير من الوحدة ؛ ويروى مرفوعاً . وأما الداية وعدم التمسك فقد قال الله تعالى (واتبع سبيل من أناب إلى) ولأن مشاهدة الفسق والفاسق تهون أمر المحصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها : قال سعيد بن المسيب : لا تنظروا إلى الفلانة فتحبب أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلامه في غائلتهم وإنما

السلامة في الانقطاع عنهم . قال الله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) أى سلامة والآلف بدل من الهاء ، ومعناه إذا سلمنا من إنهم وأتم سلمت من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها ، فنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بها . وأما الحرص على الدنيا فصحت سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء بل الطبع يرقى من الطبع من حيث لا يدري صاحبه ، فجمالة الحرص على الدنيا تحرك الحرص وجمالة الزاهد تزهّد في الدنيا فلذلك تكره صحة طلاب الدنيا ويستحب صحة الراغبين في الآخرة : قال على عليه السلام : أحيوا الطلعات بمجالسة من يستحي منه . وقال أحد بني حنبل رحمه الله . ما أوقفني في بلية إلا مصيبة من لا أحشمه . وقال لقمان : يا بني جالس العلماء وزاحمهم يركبك فك فإن القلوب لتحنيا بالحكمة كما تحنيا الأرض الميتة بوابل القطر .

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كمقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها فيما بين النكاح - كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح - فكذلك عقد الأخوة فلاخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يحصمه ثمانية حقوق :

الحق الأول في المال

قال رسول الله ﷺ « مثل الأخوين مثل اليمين نفسل إحداهما الأخرى ^(١) » وإنما شبهما باليمين لا باليد والرجل لأنهما يتماونان على غرض واحد فكذلك الأخوان إنما تم أغوتهما إذا ترفقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المسامحة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار والمواضاة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب :

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو غلامك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا استجرت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تنوجه إلى السؤال فإن أحرجه إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة . الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوه منزلك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يثق لإزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهي العليا أن تؤثر على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهنّ رتبة الصديقين ومتهى درجات الصحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضاً ؛ كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفهم أبو الحسين التوري فيادر إلى السيف ليكون هو أول مقتول فقبل له في ذلك فقال : أجبته أن أوثر إخواني بالحياة في هذه الحقبة ، فكان ذلك سبب نجاتهم جميعهم في حكاية طويّة ، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتبة مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم يتعقد بعد في الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور

وأما الدرجة الدنيا فليست مرضية عند قوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال فقال أحاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا ، ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لاتعامله في الدنيا قال أبو حازم إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دينك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله (وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون) أي كانوا خطاء في الأموال لا يميز بعضهم رزقه عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نمل ، لأنه أضافه إلى نفسه ، وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه فأنفذت فأنفذت فأخبرت الجارية مولاهما فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبي هريرة رضى الله عنه وقال : إني أريد أن أراخيك في الله فقال : أتعري ماحق الإخاء ؟ قال : عرفت ، قال : أن لا تكون أحق بدنيارك ودرمك مني ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذنب عني . وقال علي بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال : لا . قال : فليتم باخوان . ودخل قوم على الحسن رضى الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أسليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلنفي أن أحدم بمنع أخاه الدم ؟ قاله كلكم مني . وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال : إني أريد أن أراخك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أمك لشيتك منك : قال : لا . قال : أجبني صدقك ، قال : فكان إبراهيم بن آدم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من وافقه وصحبه رجل شارك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رقيقه وأخذ حزمة من شرك وجعلها في القصعة وردعا إلى صاحب الهدية ، فلما جاء رقيقه قال : أين الشرك ؟ قال : ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان ؟ قال : كنت تعطيه شركاكين أو ثلاثة . قال : اصبح يسمع لك ، وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه - بغير إذنه - رجلا رآه رجلا فلما جاء رقيقه سكك ولم يكره ذلك . قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال : أخى فلان أخرج مني إليه قبعت به إليه قبعت ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن سرقا أذان دينا قتيلا وكان على أخيه خيشة دين قال : فذهب مسروق فقضى دين خيشة وهو لا يعلم وذهب خيشة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن : بورك الله لك فيها (١) فأثره بما أثره به ، وكأته قبله ثم أثره به ، وذلك مساواة والبداءة والإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الداراني : لو أن الدنيا كلها لي لعلتها في ثم أخ من إخواني لاستقلتها له . وقال أيضا : إني لأتقم القصة أعا من إخواني فأجد طمعها في حلق . ولما كان الاتفاق على الإخوة أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضى الله عنه : لعشرون درهما أعطيا أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضا : لأن أضع صاعا من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلى من أن أعطي رقة . واقتداء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتمع منها سواكين أحدهما موعج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله كنت والله أخى بالمستقيم مني فقال (وإن صاحب مضعب صاحبها ولو ساعه من التبار إلا سئل عن محبة هل أقام فيها حق الله أم أخاه (٢) فأشار بهذا إلى أن الإيثار

(١) ولما أتى النبي ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله لك فيها ، رواه البخاري من حديث أنس .

(٢) وأنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتمع منها سواكين أحدهما موعج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه ... ثم أقف له على أصل .

هو القيام بحق الله في الصلوة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بر يقتل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة لينتقل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تغسل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل (١) وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أصعب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه (٢) » وروى ابن مالك بن دينار وعبد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبا فأخرج محمد بن واسع سلة بها طعام من تحت سرير الحسن ليجل يأكل فقال له مالك : كف يدك حتى يخرج صاحب البيت ؛ فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل ، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا فدخل الحسن وقال : يا مريك هكذا كنا لا نحترم بعضنا بعضا حتى ظهرت وأصحابك . وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى (أو صدقكم) وقال (أو ما ملكتكم مفاتيح) إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفرض التصرف كما يريد ، وكان أخوه يخرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني: في الإحاة بالنفس في قضاء الحاجات

والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضا لها درجات كما للدواء بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والتقدير ولكن مع البشاشة والاستبصار وإظهار الفرح وقبول المنة . قال بعضهم : إذا استغنيت أهلك حاجة فلم يقضها قد كره ثانية فعله أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكري عليه وأقرأ هذه الآية (والفرق بينهم الله) وقضى ابن شريفة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاءه بدية ؛ فقال : ما هذا ؟ قال لا أسديته لي ؛ فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أهلك حاجة فلم يجد نفسه في قضائها فحاشا الصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموت . قال جعفر بن محمد : إنى لا تسارع إلى قضاء حوائج أعدائك غفلة أن أردم فيستغنوا عنى . هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ وكان في السلف من يفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفتقرون من أبيهم إلا عيشة بل كانوا يرون منه ماله يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها من حيث لا يبرئه أخوه . وهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال يمينون ابن مهران : من لم تنقض بصدقة لم تقضك عداوته . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا وإن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله تعالى أصفاه وأصلها وأرقها ؛ أصفاه من الذنوب وأصلها في الدين وأرقها على الإخوان (٣) » وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أم من حاجتك ، وأن تكون متقدرا لأوقات الحاجة غير غافل من أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتقنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل

(١) « ستر حذيفة للنبي ﷺ ثوب حتى اغتسل ثم ستره ﷺ لحذيفة حتى اغتسل » لم أجده أيضا .

(٢) « ما أصعب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه » تقدم في الباب قبله بقول : أشدهما حال صاحبه

(٣) « إن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله أصفاه وأصلها » أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الجولاني إلا أنه قال « أئبها وأرقها » وإسناده جيد .

تقوم بمجاهدة كأنك لا تدري أنك قت بها . ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها بل تتفلسفه بقوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تتجهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه في الله بمثل الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . وفي الأثر « مازار رجل اعان الله شوقا إلى لقاءه إلا ناداه ملك من خلفه طيب وطابت لك الجنة » (١) وقال حماد : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودهم أو مشاعيل فأعينهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وروى « إن ابن عمر كان يلتفت بينا وشمالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال : أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحدا فسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعنته » (٢) وفي رواية : وعن اسم جده وعشيرته . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة التوكي . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليلي ، وقال : ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثا من غير حاجة له إلى فعلت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : جليلي على ثلاث : إذا دنا رجبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسمت له . وقد قال تعالى (رحما بينهم) إشارة إلى الصفقة والإكرام ومن تمام الصفقة أن لا ينفرد بطعام لأحد أو يحضروا في مسرة دونه بل يتنصص لفراجه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت فهو أن يكتم من ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يباريه ولا يناقشه وأن يكتم عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتاح به ذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فرما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسراره التي بها إليه ولا يبينها إلى غيره البتة ولا إلى أحد أسدقائه ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من ثلوم الطبع وخسب الباطن ، وأن يكتم عن القدح في أحبائه وأهله وولده ، وأن يكتم عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بلفك . وقال أنس « كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا بشئ . يكرهه » (٣) والتأذي يحصل أولا من المبلغ ثم من القاتل ، نعم لا ينبغي أن يخفى ما يسمع من اللئام عليه فإن السرور به أولا يحصل من المبلغ للدخ ثم من القاتل ، وإخفاء ذلك من الحسد . وبالجمله فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا إلا إذا يوجب عليه النطق في امر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فاذا ذاك لا يبالي بكرامته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .

أما ذكر مساويه وعيوبه ومساوى أهله فهو من النفية وذلك حرام في حق كل مسلم ويرجرك عنه أمران : أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئا واحدا مذموما فهو على نفسك ما تراه من أخيك

(١) « مازار رجلا أخا في الله ... » تتعمد في الباب قبله .

(٢) حديث ابن عمر « إذا أحببت أحدا فسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته ... » أخرجه الخرائطي في مكالم الأخلاق والبهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نامة وقال غريب ، ولا يعرف ليزيد بن نامة سماع من النبي ﷺ . (٣) حديث « أنس كان لا يواجه أحدا بشئ يكرهه » أخرجه أبو داود والترمذي في التهاويل والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف .

وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الحصة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستغفله بخصلة واحدة مذمومة ، فأى الرجال المهذب ؟ وكل ما لاتصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقه عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثاني : أنك تعلم أنك لو طلبت مئزما من كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ، وإن تجد من تصاحبه أصلاً ، فما من أحد من الناس إلا وله عاين ومساو ، فإذا غلبت الحسن المساوى فهو الغاية والمنتهى . فالؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه عاين أخيه لينبذ من قلبه التوقير والاحترام . وأما المناق في اليمين فإنه أبداً يلاحظ المساوى والمعيوب .

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المماذير والمناقب يطلب الشرات . وقال الفضيل : الفترة المفعول ذلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام « استعينوا بالله من جوار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره » (١) ، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بمخال فيه ويمكن تقييده أيضاً . روى أن رجلاً أتى علي بن أبي طالب عليه السلام فلما كان من الغد معه فقال عليه السلام « أنت بالأمس ثقي عليه واليوم تنم ؟ » فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه ، وأغضيتني اليوم فقلت أفصح ما فيه فقال عليه السلام « إن في البيان لسحراً » (٢) وكأنه كره ذلك نفسه بالسحر ، ولذلك قال في خبر آخر : « البذاء والبيان شعبان من التفات » (٣) وفي الحديث الآخر : « إن الله يكره لكم البيان ، كل البيان » ، وكذلك قال الشافعي رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطبع الله ولا يمضي ، وما من أحد يصي الله ولا يلطم . فمن كانت طعنته أغلب من معاصيه فهو عدل ، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله فيأن تراه في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إسداء الظن ، فسوء الظن غيبة بالقلب ، وهو منتهى عنه أيضاً ؛ وحده أن لا تحمل فقه على وجه قاسم ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف يمتين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه عليك أن تحمل ما تشاهد على سبيل ونسيان إن أمكن وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى قسراً وهو الذي يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكاً ضرورياً لا يقدر على دفعه ، وإلى ما مشؤوه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان ؛ فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تزله على الوجه الأخرى من غير علامة تخص به ، وذلك جناية عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن . إذ قال عليه السلام « إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وإن يظن به ظن السوء » (٤) وقال عليه السلام « إياكم

(١) « استعينوا بالله من جوار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره » أخرجه البخاري في التاريخ عن حديث أبي هريرة بسند ضعيف واللفظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح « تخونوا بالله من جوار السوء في دار المقام » (٢) حديث « أن رجلاً أتى علي بن أبي طالب عليه السلام فلما كان من الغد معه ... » وفيه « فقال عليه السلام إن من البيان لسحراً ... » أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک من حديث أبي بكر إلا أنه ذكر للمصح والتم في مجلس واحد لا يؤمن ورواه الحاكم من حديث ابن عباس بسند أطول منه بسند ضعيف أيضاً . (٣) « البذاء والبيان شعبان من التفات » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٤) « إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وإن يظن به ظن السوء » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله « وعرضه » ورجاله ثقات إلا أن أبا علي التيسابوري قال : ليس هذا عندي من كلام النبي ﷺ إنما هو عندي من كلام ابن عباس ، ولأن ما جعوه من حديث ابن عمر ، وسلم من حديث أبي هريرة « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » (٥) « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والظن فإن الظن أكذب الحديث وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس ، وقد قال ﷺ « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تخاطموا ولا تدايروا وكونوا عباد الله إخوانا » (١) والتجسس في طلوع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . وكيفيك نتيجا على كمال الرتبة في ستر التقيح وإظهار الخليل أن الله تعالى وصف به في البقاء قليل : يا من أظهر الجليل وستر التقيح ، والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستر العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيب فكيف لا تتجاوز أنت عن من هو مثلك أو فوقك وما هو بكم حال لأعبدك ولا غطوك ؟ وقد قال عيسى الحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم تأمنا وقد كشف الربح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطي ، قال : بل تكشفون عورته ! قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ فقال : أحذركم بسم بالكلية في أخيه فيريد عليها ويشيعها بأعظم منها .

واعلم — هداك الله — أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يجب أن يعامل به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوي والعيوب ، ولو ظهر له منه تقصير ما ينتظره اشتد عليه غظه وغضبه فما أبعد إذا كان ينتظر منه مالا يضره له ولا يرم عليه لأجله ، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال (ويل للطفلين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوا أو ودنوا من الناس هم مطعون) وكل من يلمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية . ومنافا للتقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها البناء الدفين في الباطل وهو الحقد والحسد فإن الحقوق المحسودة بلاء باطنه بالبحث ولكن يحبه في باطنه ويخفيه ولا يبيده بهما لم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويتشع الباطن بحب الدفين . ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فلا تقاطع أولى . قال بعض الحكماء : ظاهر الكتاب خير من مكنون الحقد ، ولا يريد لطف الحقد إلا راحة منه ، ومن في قلبه سخيصة على مسلم فإيمانهم فيسوأمره غطر وقلبه غيب لا يصلح لقاء الله . وقد روى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال : كنت باليمن ولي جليهودي يخبرني عن التوراة فقدم على اليهودي من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الإسلام فأسلنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة ، فقال اليهودي صدقت ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به ، إنا نعدمته ونمت أمته في التوراة : إنه لا يحمل لأمري أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيصة على أخيه المسلم ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب لله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزله ومها ك شخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الأخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرأيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بمعرفة كمرته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة » (٢) وفي خبر آخر « فكأنما أسيا موءودة » (٣) وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهو أمانة » (٤) وقال « المجالس بالأمانة

(١) « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تخاطموا ولا تدايروا وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذي قبله . (٢) « من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال « يوم القيامة » ولم يقل « في الدنيا » ولمسلم من حديث أبي هريرة « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » وللشيخين من حديث ابن عمر « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » (٣) « فكأنما أسيا موءودة من قبرها » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عتبة بن عامر « من رأى عورة فسترها كان كمن أسيا موءودة » زاد الحاكم « من قبرها » وقال صحيح الإسناد .

(٤) « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهي أمانة » أخرجه أبو داود من حديث الترمذي جابر وقال حسن .

إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ، ومجلس يستحل فيه فرج حرام ، ومجلس يستحل فيه مال من غير حله (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما تجالس للتجالس بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره (٢) » .

قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك السر ؟ قال : أنا فبره . وقد قيل : صدور الأحرار قلوب الأبرار . وقيل إن قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه ؛ أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيده من حيث لا يدري به فن هذا يجب مقاطعة الخفي والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم . وقد قيل لآخر : كيف تحفظ السر ؟ قال : أجمد الخبر وأحلف للمستخبر . وقال آخر : أستره وأستر أني أستره . وصبر عنه ابن المعتز فقال :

ومستودعي سرأ تبوأ كشمه فأودعته صدرى فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه :

وما السر في صدرى كثار بغيره لأنى أرى المتجور ينظر النثر

ولكننى أنساه حتى كأننى بما كان منه لم أحط ساعة خبرا

ولو جلا كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم سرا

وأفشى بعضهم سرأ له إلى أخيه ثم قال له : حفظت ؟ فقال : بل نسيت . وكان أبو سعيد الثوري يقول : إذا أردت أن تواخي رجلا فأضبه ثم ص عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ؛ فإن قال خيرا وكنتم شرك فاحسبه . وقيل لأبي يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لا خير في صحبة من لا يجب أن يراك إلا مصروما ، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قال بعض الحكماء : لا تصحب من يتفجر عليك من أربع : عند غضبه وعند رضاءه ، وعند طمعه وعند هواه ، بل يفتنى أن يكون صدق الأخوة تائبا على اختلاف هذه الأحوال ، ولذلك قيل :

وترى الكريم إذا تصرم وصله يخفى التبييع ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهانا

وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل — يعني عمر رضى الله عنه — يقدمك على الأشياء فاحفظ عن عسأ : لا تشين له سرا ولا تفتن عنده أحدا ولا تجر من عليه كذبا ، ولا تصنع له أمرا ، ولا يظلم منك على على خيانة ، فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف . ومن ذلك السكوت عن الماراة والمدافعة في كلاما يتكلم به أخوك قال ابن عباس : لا تمار سفيها فيؤذيك ، ولا حليما فيقلبك . وقد قال عليه السلام : « من ترك المراء وهو مبطل ينه في بيت في رضى الجنة ومن ترك المراء وهو حق ينه في بيت في أعلى الجنة (٣) » هذا مع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر

(١) « المجالس بالأمانة إلا ثلاث مجالس... » أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه.

(٢) « إنما تجالس للتجالس بالأمانة لا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره » أخرجه أبو بكر بن لال في

مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضيف ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلا والمحاكم وصححه من حديث ابن عباس « إنكم تجالسون بينكم بالأمانة » .

(٣) « من ترك المراء وهو مبطل ينه في بيت في رضى الجنة ... » تقدم في الم

على قدر النصب . وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المراءاة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع يقع أولاً بالأراء ثم بالأقوال ثم بالأيديان . وقال عليه السلام « لا تعابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً » المسلم أخو المسلم لا يظله ولا يحرمه ولا يغفل عنه ، بحسب المراء من الشر أن يحقر أخاه المسلم (١) » وأشد الإحتمار المراءاة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسب إلى الجهل والحق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقات وإظهار الصدر وإيمحاء . وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال « خرج رسول الله ﷺ ونحن نتجلى فضرب وقال : ذروا المراء لقلعة خيرة وذروا المراء فإن قلعة قليلة وإنه يبيع العداوة بين الإخوان (٢) » وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله ابن الحسن إياك وعماراة الإخوان فإنك لن تدمم مكر حليم أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وكثرة المراءاة توجب الضيع والقطيعة وتورث العداوة ، وقد قال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باع على المراءاة إلا إظهار التمييز بعزيز العقل والفضل واحتمار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والفتن والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضمناته الأخوة والمصافة ؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تنمده موعداً تخلفه (٣) » وقد قال عليه السلام « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ولكن ليسهم منكم بسط وجه وحنن خلق (٤) » والمراءاة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المراءاة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلاً . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال لي أين ؟ فلا تصحب لي قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالمرافق فكنت أجيبه في الثواب فأقول : أعطني من مالك شيئاً ؛ فكان يلقني إلى كيسه فأخذ منه ما أريد ، فليته ذات يوم قلت احتاج لي شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إغائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإيعاء . وأعلم أن قوام الأخوة بالمواقفة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الجهمي : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحباب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت محب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان لستفاد منهم لا ليتخلص من أذام ، والسكوت معناه كف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويثقله في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالمسأل عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء المافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعالها كراحتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فعني الأخوة المساعدة في السراويل الضراء وقد

- (١) « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قبل هذا بسبعة أحاديث . (٢) حديث أبي أمامة « خرج علينا النبي ﷺ ونحن نتجلى فضرب وقال ذروا المراء لقلعة خيرة فإن نعمه قليل فإنه يبيع العداوة بين الإخوان » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي برداء ورواه أنس دون ما بعد قوله « لقلعة خيرة » ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور والبيهقي في مسند القردوس من حديث أبي أمامة ققط وإسنادهما ضيف . (٣) حديث ابن عباس « لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تنمده موعداً تخلفه » أخرجه الترمذي وقال غريب لا تعرفه إلا من هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضيف الجمهور (٤) « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ولكن ليسهم منكم بسط الوجه وحنن الخلق » أخرجه أبو يعلى اللؤلؤ والطبراني في معارج الأخلاق وابن عدى في الكامل وضيفه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة .

قال عليه السلام « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ^(١) » وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فان عرف انك تحبه أحبك بالطبع لاجلته ، فاذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لاجلته فلا يزال الحب يزايد من الجانبين ويتضاعف ، والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال « تهادوا تحابوا ^(٢) » ومن ذلك ان يدعو بأحب أسماءه إليه في غيبته وحضوره .

قال عمر رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : ان تسل عليه إذا غيبته أولاً ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسماءه إليه . ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هوئالته عنده فان ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك التناء على أولاده وأهل بيته وفضله حتى على عقله وهيبته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به هؤلاء من غير كذب وإفراط ولكن تحسب ما قبل التحسين لا بد منه وأكدم ذلك أن تبلغه ثناء ما أنى عليه مع اظهار الفرح فان اخفاء ذلك يحس الحسد ومن ذلك ان تفكره على صميمه في حقل بل على نيتيه وان لم يتم ذلك .

قال علي رضى الله عنه : من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمد على حسن الصلوة ، وأعظم من ذلك تأثيرا في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تموض لمرضه بكلام صريح أو تريض لغيره في التشهير في الحماقة والنصرة وتبكيك التمتن وتقليط القول عليه والسكوت عن ذلك موهج الحسد ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة وإنما شية رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين أحدهما لاخرى لينصر أحدهما الآخر ويثوب عنه ^(٣) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يثلمه ^(٤) » وهذا من الاتظام والحد لان إهماله لتزيين عرضه كما هو له لتزيين لجه ، فأخس بأخ يراك والكلاب تفتسك وتحرق لحرمك وهو ساكت لا تحرك الصفقة والمحبة الدفع عنك أو تحريق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق القوم ولذلك شبه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) والملك الذي يمثل في المنام ما تطالعهم الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة : يمثل النبية يأكل لحوم الميتة ، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فانه يتأهب الناس لأن ذلك الملك في تمثيله يراعي المشاركات المناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال يجري الروح ، لافي ظاهر الصور .

وإن حماية الأخوة تدفع ذم الأعداء وتعتن المحتئين واجب في عقد الأخوة . وقد قال مجاهد : لا تذكر أخاك يذكرك في غيبتك ، فإن لك فيه مقياران ، أحدهما : أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل وكان أخوك حاضرا ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغي أن تعامل للعرض لمرضه به .

والثاني : أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره ، فإكان يتحرلا في قلبك من النصرة له بمسمعته ومراى ؟ فينبغي أن يكون في غيبته كذلك فقد قال بعضهم : ما ذكر أخ ل يقبب إلا تصورته جالسا فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر . وقال آخر : ما ذكر أخ ل إلا تصورته يقبى في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه . وقد نزل أبو الدرداء إلى ثورين يمران في فدان فوق أحدهما علك جسمه فوق الآخر ، فبكى وقال : هكذا الإخوان في الله يعملان الله فإذا وقف أحدهما واقفا الآخر . وبالواقفة يتم الإخلاص ومن لم يكن خلصا في إخائه فهو منافق . والإخلاص استواء القلب والشهادة

(١) « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث القدام

ابن معد يكرب :

(٢) « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة .

(٣) « تشبيه الأخوين باليدين » تقدم في الباب قبله .

(٤) « للمسلم أخو المسلم » تقدم في أثناء حديث قبله بسمة الحديث .

واللسان والقلب والسر والملائية والجاعة والخلة والاختلاف ، والتفاوت في شيء من ذلك مذابة في المودة وهو دخل في الدين ووليعة في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المواجهة والمصاحبة فإن حق الصحة قبل لا يلبثه إلا محقق فلا يجرم أجره جزيل لاتبائه إلا موقف . ولذلك قال عليه السلام « أباهر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » (١) فانظر كيف جعل الإيمان جزء الصحة والإسلام جزء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المسفة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحة تقتضي حقاً كثيراً في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تتوحد .

ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ؛ فإن كنت غنيا بالم فليكنك مواساة من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفع في الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فليكنك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة ليتزجر عنه وتنبه على عيوبه وتصح القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فإنا كنا على الملا فهو توبيخ وفضيحة وما كنا في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن » (٢) أي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو أقدر لم يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة .

وقال القاضي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فضحه وشانه . وقيل لسمر : أحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحتني فيما بيني وبينه فتمم وإن قرعني بين الملا فلا . وقد صدق ؛ فإن النصيح على الملا فضيحة وآفة تعال بما يقاب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله محتوماً إلى الملائكة الذين يحضون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب محتوماً ليقرأه ، وأما أهل الملت فينادون على رموس الأشهاد وتستلطف جوارحهم بفصاحتهم فيزدادون بذلك خزيًا واقتضاحاً لو نودوا بالله من الخزي يوم العرض الأكبر .

فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كأن الفرق بين المدارة والمداينة بالعرض الباعث على الإغضاء . فإن اغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن اغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهبائك وسلامة جهاك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الحق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالخالفعة ولا مع الشيطان إلا بالمداواة .

فإن قلت : فإذا كان في النصيح ذكر العيوب فيه إباحش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟

فاعلم أن الإباحش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلم فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب ، أعني قلوب المغفلة ، وأما الحق فلا يلتفت إليهم فإن من ينهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة انصرفت بها لتترك نفسك عنها كالزكن ينهك على حية أو عقرب تحت ذلك وقد همت بأهلك ، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حقهك ! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألها شما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه

- (١) « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشرط الأول قطع وقال الترمذي « مؤمناً » قال « واجب للناس ما يحب لنفسك تكن مسلماً » وقال ابن ماجه « مؤمناً » قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القاضي في مسند الشهاب بلفظ الصنف (٢) « المؤمن مرآة المؤمن » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

يستندى ذلك من إخوانه ويقول : رحم الله امرأ أهلى إلى أخيه عيوبه ، وانلك قال عمر لسبلان وقد قدم عليه : ما الذى يملك منى مما تكره ؟ فاستغنى ، فألع عليه فقال : بلغنى أن لك حلتين تلبس إحداهما بالثار والأخرى بالليل وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائة واحدة ، فقال عمر رضى الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما قبل بملك غيرهما ؟ فقال : لا .

وكتب حذيفة المرشى إلى يوسف بن أسباط : بلغنى أنك بت دينك بميتين ، وقفت على صاحب لبن قلت : بكم هذا ؟ قال : بدينس ، فقلت له : لا ... شمن ! قال : هو لك ، ولكن يرفلك . اكشف عن رأسك فتامع الناظرين ، واثبه عن رقدة الموت واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون آيات الله من المستهزئين ، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ينضمهم للتاصحين إذ قال (ولكن لا يحبون التاصحين) وهذا فى عيب هو غافل عنه فأما ما علت أنه يعلمه من قصة فأتانا هو مقهور عليه من طبعه فلا يبنى أن يكشف فيه سره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف فى النصح بالمرض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدى إلى الإيحاء ، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه وأنه معطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وهذا كله فيما يتعلق بتصميمه فى حرك فالواجب فيه الاحتمال والفوف والصفح والتمامى عنه ، والتمرض لذلك ليس من النصح فى شيء . نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطعية فالكتاب فى السر خير من القطعية والتمريض به خير من التصريح والمكاتبه خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، إذ يبنى أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراحاتك إياه وقيامك بحقه واحتياك قصصه لا الاستمالة به والاسترقاق منه .

قال أبو بكر الكنانى : صحبتني رجل وكان على قلى تميلة فوجيت له يوما شيئا على أن يول مائى قلى فلم يزل ، فأخذت بيده يوما إلى البيت وقلت له : ضع رجلك على خدى ، فأبى ، فقلت : لا بد ، ففعل ؛ فوال ذلك من قلى . وقال ابو على الرباطى : صحبت عبد الله الرازى وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ غلله ووضع فيها الزاد وحلها على ظهره فإذا قلت له اعطنى قال أأست قلت أنت الأمير ؟ فملكك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسى إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عنى المطر فكنت أقول مع نفسى ليتنى مت ولم أقل أنت الأمير .

الحق الخامس : الفوف عن الزلات والمفوات

وهفة الصديق لا تخطو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية أو فى حرك بتقصيره فى الآخرة ، أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فملكك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله ، فإن لم تقدر وبقي مصرا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى إدامة حق مودته أو مقاطعته ، فذهب أبو ذر رضى الله عنه إلى الاقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابضه من حيث أحبه ، ورأى ذلك من مقتضى الحب فى الله والبض فى الله ، وأما أبو الدرداء وجماعه من الصحابة فذهبوا إلى خلافه ، فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وسال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يسرح مرة ويستقيم أخرى ، وقال إبراهيم النخعى لا قطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا ، وقال أيضا : لا تحمدون الناس برة العالم فإن العالم يول الزلة ثم يتركها ، وفى الخير « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانظروا فيه » (١) وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان أخاه فخرج إلى الشام فقال عنه بعض من قدم عليه وقال :

(١) « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانظروا فيه » رواه البخوى فى اللجم وابن عدى فى الكامل من حديث عمرو

ما فعل أخى؟ قال: ذلك أخو الشيطان قال . مه ، قال : إنه ظوف الكبار حتى وقع في الحفر ، قال : إذا أردت الخروج فأذن فكتب عند خروجه إليه « بسم الله الرحمن الرحيم » (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) الآية ، ثم عاتبه تحت ذلك وعده ، فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله ونصح لي عمر قتاب ورجع .

وحكى أن آخرين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال : إني قد اعتلكت فإن شئت أن لا تعقد على صحبتي لله فاضل ، فقال : ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيتك أبدا ، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمضي الله أخاه من هواء ، فطوى أربعين يوم في كلها يسأله عن هواء فكان يقول : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من النعم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بمدان كاد يثقل هو والرضا . وكذلك حكى عن آخرين من السلف انقلب أحدهما من الاستقامة فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره . فقال : أخرج ما كنن لي في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن أخذ بيده وأطلق له في المعالجة وأدعوه بالعود إلى ما كنن عليه .

وروى في الإسرائيليات أن آخرين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحا يدرم فرأى بشيا عند اللعاب فرمى بها وعشقها واجتهدا إلى خوة ووافيا ، ثم أقام عندهما ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنابته قال : فافترقه أخوه واهتم بشأه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتقه وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفطر استحيائه منه فقال : قم يا أخى فقد علت شأنك وقصتك وما كنت قط أسب إلى ولا أعر من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فاعتصرف معه ، فبهذه طريقة قوم وهي ألطف وأقنع من طريقة أبي ذر رضي الله عنه ، وطريقت أحسن وأسلم .

فإن قلت : ولم قلت هذا ألطف وأقنع ومقارن هذه المصيبة لا يجوز مؤاخاة ابتداء فحبب مقاطعته ابتداء لأن الحكم إذا ثبت ببله فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارعة المصيبة ؟

فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرقة والاعتناء والتعطف المقتضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحة . ومهما قوطع واقطع طمعه من المصيبة أضر واستمر ، وأما كونه أقنع فلأن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت نأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وقره وقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أسأته جائحة وألمت به آفة اقتر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليحان على الخلاص من تلك الوعة التي ألمت به .

فالأخوة عدة للتأنيبات وحوادث الزمان وهذا من أشد التوائب ، والفاقر إذا صاحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فيسرع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان : مهما فترت في العمل فطرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع لي في العبادات فارتقى الكسل وعملت عليه أسبوعاً وهذا التحقيق وهو أن الصداقة كلمة النسب والتقريب لا يجوز أن يهجر بالمصيبة . ولذلك قال الله تعالى لئنبي صلى الله عليه وسلم في عشرته (فإن عصوك فقل إني بريء عما تعملون) ولم يقل إني بريء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب ، وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وأخوة الدين أو كد من أخوة القرابة ، ولذلك قيل للحكيم : أما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً لي ، وكان الحسن يقول : كم من أع لم تفه أمك ؟ ولذلك قيل :

القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعا قطعه الله . فإذا الرقاء بعقد الأخوة إذ أصبح انعتاقا واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الناس فإنه لم يقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصلة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها بل قال قائلون : الانفراد أولى ؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فهي عنه ومذموم في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنبه الطلاق إلى ترك النكاح ، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح قال عليه السلام « شرار عباد الله المشاؤون بالنيمة المفقرون بين الأحبة ^(١) » وقال بعض السلف في سر زلات الإخوان : رد الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه ، فإذا انقضى من عبة عدوك وهذا لأن التفرق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مفارقة الصبيان من محابه ، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال « مه » وبرزه وقال « لا تكفوا عونا للشيطان على أخيك ^(٢) » فهذا كله يبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفساق محدورة ، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضا محدورة ، وليس من سلم عن ممارسة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تمازضا فكان الرقاء بحق الأخوة أولى ، هذا كله في زلته في دينه .

أما زلته في حقه بما يرجب لإحسانه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتياط بل كل ما يعتدل تزيله على وجه حسن ويتصور تمديد عذره فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستبطل لولة أخيك سبعين عذرا ، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك بما أقامك ؛ يتعذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فانت المغيب لا أخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تنضب إن قدرت ، ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله : من استنضب فلم ينضب فهو حمار ، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حمارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نياية عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم النضب ، وظلم النافة ، وظلم المحفوة . وقال آخر : ما شتمت أحدا قط ، لأنه إن شتمني كريم فأنأ أحق من غفرها له ، أو لثم فلا أجمل عرضي له غرضا ثم تمثل وقال :

وأغفر هوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم التميم تكريما

وقد قيل :

خذ من خيلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر
فالعر أقصر من مما تبة الخليل على النير

ومما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صدقا فاقبل عذره . قال عليه السلام « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس ^(٣) » وقال عليه السلام « المؤمن سريع النضب سريع الرضا ^(٤) » فلم يصفه بأنه

(١) « شرار عباد الله المشاؤون بالنيمة للمفقرون بين الأحبة » رواه أحمد من حديث أسباط بن زيد بسند ضعيف

(٢) « لا تكفوا عونا للشيطان على أخيك » رواه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في الباب قبله .

(٣) « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل صاحب مكس » أخرجه ابن ماجه وأبو داود في الراسل من حديث جودان واختلف في محبته وجهه أبو حاتم وبقي رجاله ثقات ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف

(٤) « المؤمن سريع النضب سريع الرضا » لم أجده هكذا ولترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري « ألا

إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ... » وفيه « ومنهم سريع النضب سريع الغم فذلك بتلك » .

لا يغضب . وكذلك قال الله تعالى (والكاظمين الغيظ) ولم يقل والفاقدين الغيظ ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يرحم الإنسان فلا يتألم ، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكذا أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ، ولا يمكن قلمه ولكن يمكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضى التثني والانتقام والمساكفة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن ، وقد قال الشاعر :

ولست بمستيق أعما لاتبه على شعث أى الرجال المهذب ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تمنهه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول ، قال : لجرته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على بعض الأخ خير من مناهته ، والمناهة خير من العقوبة ، والعقوبة خير من الرقعة . وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الرقعة . قال تعالى (صلى الله أن يجعل بينكم وبين الذين ماديتم منهم مودة) وقال عليه السلام و أحب حبيبيك هو نا ماعسى أن يكون بينضك يوما ما ، وأبيض بينضك هو نا ماعسى أن يكون حبيبيك يوما ما (١) ، وقال عمر رضي الله عنه : لا يكن حبيك كلفا ولا بينضك تلقا : وهو أن تحب أن تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق الثالث

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، قدنعو له كما قدنعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » (٢) وفي لفظ آخر « يقول الله تعالى بك أبداً يا عبدي » (٣) وفي الحديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » (٤) وفي الحديث « يدعو الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد » (٥) وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسئلهم بأسمائهم ، وكان ابن يوسف الأصفهاني يقول : يؤين مثل الأخ الصالح ؟ أم لك يقتسمون ميراثك ويقتسمون بما خلفته هو منفرد بحركته مهم ما قد مضى وما صرت إليه ، يدعوك في ظلة الليل وأنت تحت أطباق النرى ، وكان الأخ الصالح يقتدى بالملائكة ، إذا جاء في الخبر « إذا مات العبد قال الناس : ما خلف ؟ وقالت الملائكة : ما قدم » (٦) « يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ، ويقال : من بلغه موت أخيه فرحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الميت في قبره مثل الفريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ قريب » (٧) وإذ لا يدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال : وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه من نور فيقول : هذه

(١) « أحب حبيبيك هو نا ما عسى أن يكون بينضك يوما ما ... » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوي تردد في رصه .

(٢) « إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء .

(٣) « الدعاء للأخ بظهر الغيب » وفيه « يقول الله بك أبداً عبدي » لم أجد هذا اللفظ . (٤) « يستجاب للرجل

في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعه من حديث عبد الله بن عمرو

« إن أسرع الدعاء دعوة غائب لائب » (٥) « دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد » أخرجه الدارقطني في اللئيل من

حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال مستجابة مكان لا ترد . (٦) « إذا مات العبد قال الناس ما خلف وقال

الملائكة ما قدم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٧) « مثل الميت في قبره مثل الفريق

يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة ولداً أو والد ... » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة قال

الشيخ في اللزآن إنه خبر منكسر جدا

هدية لك من أخيك فلان ، من سند قريبك . قال : فيفرج بذلك كما يفرج الحى بالمهدة .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما أراد الآخرة ؛ فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام « في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله » ورجلان تخافا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ^(١) » وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاء خير من كثيره في حال الحياة ؛ ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عبدا دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين ^(٢) » فن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تمسكهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى السكب الذي على باب داره يبنى أن يمر في القلب عن سائر السكاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شعث به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخين في الله ومتعابين فيه فإنه يحسد نفسه لإفساد ما بينهما قال الله تعالى (وقل لمبادي يقولوا اتقي إلى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) وقال خبرا عن يوسف (من بعد أن نزع الشيطان بني وبين إغوى) وقال ما تروا من أنثان في الله تفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما .

وكان بشر يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة الهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألد الأشياء مجالسة الإخوان والافتقار إلى كفاية ، والمودة الدائمة هي التي تكون في الله ، وما يكون لغرض يؤول بئوال ذلك الغرض .

ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع حسد في ديون دنيا وكيف يحسد وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدة وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال (ولا يمدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم) ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لوم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أسروا ذكروا من كان يأقهم في المنزل الحفن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بني لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغنى عنه لم يقطع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فليتب على نصف مودته لك فهو كثير . وحكي الربيع : أن الشافعي رحمه الله أتى رجلا يبتدأ ثم أن أخاه ولى السيين فتغير له عما كان عليه فكتب إليه الشافعي هذه الأبيات :

أحب فردك من قرادى طائقي أبدا وليس طلاق ذات البين
فإن اردوني فاتها تطليقة ويدوم ودك لي على تثنين
وإن امتعت شفعتا بمنالها فتكون تطليقتين في حبيبتين
وإذا التلات أتكك متى بشة لم تض عنك ولاية السيين

(١) « سبعة يظلمهم الله في ظله .. » قدم غير .

(٢) « أكرامه » يجوز دخلت عليه وقوله إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان » أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

واعلم أنه ليس من الوفاء مواهبة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره . فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذرى عليه
وأنى الحبيب يمودنى فبرمت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفرض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه : إلى من تجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليوم . إليه ، فقال الشافعي : سبحان الله أينك في هذا أبو يعقوب البويطى ؟ فانكسر لما محمد ومال أصحابه إلى البويطى مع أن عمدا كان قد حل عنه مذهبه كله ؛ لكن كان البويطى أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . فنصح الشافعي لله وللسلمين وترك المداينة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله . وآثر البويطى الزهد والخير ولم يسجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالمعادة وصنف « كتاب الأم » الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنّفه البويطى ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالحبة من تمامها التصحفة . قال الأحنف : الإعاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فأحرسها بالتحكم حتى تمتد إلى من طلبك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك التفضل ولا من أخيك التفضير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المغارة ، فغور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجلت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هيئة الخشب

وأشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما ينيل إلى أن حشرتهم ذهبت من قلبي . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لا سيما من يظهر أولا أنه يحب لصديقه — كيلا يتهم — ثم يلقى الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الخيل في التعريب ومن لم يمتدح منه لم تدم مودته أصلا . قالوا واحد لحكم : قد جئت غامليا لحودتك ؟ قال : إن جعلت مهرها ثلاثا فقلت ، قال : وماهى ؟ قال : لا تسمع على بلاغة ولا تخافنى في أمر ولا توطئنى ضوة . ومن الوفاء أن لا يصادق صديقك . قال الشافعي رحمه الله إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عدوانك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكلف

وذلك بأن لا يكلف أعاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يجعله شيئا من أعباءه فلا يستمد منه من جاء ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلفاظه واستماعه به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤته قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه مالا يقتضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتهمهم ، ومن لم يقتض فهو المفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتهمهم ، ومن جعلها دون قدره يلم ويملوا . وتعلم التخفيف بطل بساطة التكليف حتى

لا يستحي منه فها لا يستحي من نفسه . وقال الجنيد : ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لمة في أحدهما . وقال علي عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أماء فيتكلف له فيقطع ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : للؤمن أخو المؤمن لا ينتهه ولا يخشعه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة — كل طبقة ثلاثون رجلا — حارثا الحاسي وطبقته ، وحسنا المسوحى وطبقته ، وسريا السفلى وطبقته ، وابن الكروبي وطبقته ؛ فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لمة في أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصعب ؟ قال من يرفع عنك ثقل التكلف وتقطع بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أقل إخواني على من يتكلف لي وأتخفظ منه ، وأخضعهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي . وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا ما لا يزيد عنده ببر ولا تنقص عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم ؛ فإذن ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء ، وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتخفظ ، وإلا فالطبع يحمله على أن يتخفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده . وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالآداب ومع أبناء الآخرة بالمعروف مع العارفين كيف شئت ؛ وقال آخر : لا تصحب إلا من يرب عنك إذا أذنت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . وقائل هذا ضيق طريق الآخرة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يواجه كل متدين عاقل وبصر على أن يقوم بهذه الشرائع ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مواخيا في الله وإلا كانت مواعاة لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عر الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أماء يكفيك مؤنتك ويحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أماء في الله تحمل أنت مؤنته وتصب على أذاه فمندی جماعة أعرفهم لك ، فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تنصير به ولكن لا تنفع به ، ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتضر به وهو الأحمق أو السوء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه ، فأما الثاني فلا تتجنبه لأنك تنفع في الآخرة بشفاعته وبدعاياه وبرائك على القيام به ، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن أعطيت فما أكثر إخوانك أي وأن يسئهم واحتملت منهم ولم تحسد . وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يترتب في نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الصبر كله لم يقل له أضر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ، وإن صلى الليل كله لم يقل له تم ، وتستوى حاله عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك أن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتخفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت أفته ومن خضت مؤنته دامت موده . وقال بعض الصالحين : إن الله لعن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم « أنا والآخية من أمي يراء التكلف »^(١) وقال بعضهم : إننا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنه به^(٢) إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى ، ونام . فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجماعها ؛ لأن البيت يتخذ للاستخفاف في هذه الأمور الخمس ؛ وإلا فالمسجد أروع لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحسنة وتأكد الانبساط . وقول

(١) « أنا وأمّي برآء من التكلف » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام : ألا إني يرى من التكلف وصالحوا أمّي ؟ وإسناده جيد .

(٢) « إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنه به ... » لم أجده أصلا .

العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك، إذ يقول أحدهم لصاحبه: مرحبا وأحلا وسهلا، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهل تأنس بهم ولا وحشة لك منا، ولك عندنا سهولة في ذلك كله؛ أي لا يشتد علينا شيء مما تريد. ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه يحسن الظن بهم ويسمى الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فقد ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلي على نفسه فهو خير مني وقد قال عليه السلام: «المرء على دين خليله ولا خير في صفة من لا يرى لك مثل ما ترى له» (١) فإنه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان: إذا قيل لك يا شر الناس فضيحت فأنت شر الناس أي ينبغي أن تكون معتقدا ذلك في نفسك أبدا. وسيأتي وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب. وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان آيات:

تذلل لمن إن تنلك له يرى ذاك الفضل لا ليله
وجانب صداقة من لا يرا ل على الأصدقاء يرى الفضل له
قال آخر: ك صديق عرفته بصديق صار أحلى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته في طريق صار عتيق هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال عليه السلام: «بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم» (٢) ومن تمة الانبساط وترك التكلف أن يشارو إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى (وشاورهم في الأمر) ويبني أن لا يخفى عنهم شيئا من أسرارهم كما روي أن يعقوب ابن أخي معروف قال: جاء أسود بن سالم إلى عبي معروف وكان موافيا له فقال: إن بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحق أن يضافك بذلك وقد أرسلى إليك يسألك أن تمصدق له فبما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويتدبها إلا أنه يشترط فيها شروطا: لا يجب أن يشتر بذلك ولا يكون بينك وبينه موازاة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء فقال معروف: أما أنا لو أخيت أحدا لم أحب مفارقه ليلا ولا نهارا ولزرت في كل وقت وأثرته على نفسي في كل حال، ثم ذكر من فضل الأخوة والخب في الله أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فشاركه في العلم (٣) وقاسمه في الدين (٤) وأنكحه أفضل بناته وأحسن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته (٥) وأنا

(١) «لله على دين خليله ولا خير صفة من لا يرى لك مثل ما ترى له» تقدم في الشطر الأول منه في الباب قبله وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدى في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٢) «حسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث «لاندابوا» في هذا الباب. (٣) «أخى النبي عليه السلام عليا وشاركه في العلم» أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى من حديث علي قال: «جمع النبي عليه السلام بين عبد اللطيف...» وفيه «فايكم يابني على أن يكون أخى وصاحبى وورائى فليقيم إلي أحد قسنت إليه» وفيه «حتى إذا كان في الثالثة ضرب يده على بدي» وله وللحاجم من حديث ابن عباس «أن عليا كان يقول في حياة النبي عليه السلام إني لأخوه وولي ووارث عله...» وكل ماورد في أخوته فتصغير لا يصح منه شيء وللتزمي من حديث ابن عمر «وأنت أخى في الدنيا والآخرة» وللحاجم من حديث ابن عباس «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لأصل له وقال ابن طاهر إنه موضوع وللتزمي من حديث علي «أنا دار الحكمة وعلى بابها» وقال غريب. (٤) «مقامته عليا للدين» أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل «ثم أعطى عليا قصر ماعبر وأشركه في هديه» (٥) «أنه أنكحه عليا أفضل بناته وأحسن إليه» هذا معلوم مشهور في الصحيحين من حديث علي «لا أردت أن أبني بفاطمة بنت النبي عليه السلام واعدت رجلا صواغا...» وللحاجم من حديث أم أيمن «زوج النبي عليه السلام =

أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت إيماء في الله رسالتك ولمسأته على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكنني أؤوده متى أحببت ، ومرة أن يلتقي في مواضع نلتقي بها ، ومرة أن لا يغني شيئا من شأنه وأن يطلقني على جميع أحواله ؛ فأخبرني سالم بشرًا بذلك فرضي وسر به . فهذا جامع حقوق الصعبة وقد أجبناه مرة وفصلناه أخرى ، ولا بد من ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تذل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنظر إلى عاصيتهم وتعامي عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم منك روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يغطي كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أسكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسأله وتوجهه لجالس إليه^(١) وكان مجلسه مجلس حياة وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبعا وضحاكاه وجوده أصحابه وتعجبا بما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التيمم اقتداء منهم بفعله وتوقيره له عليه السلام .

وأما السمع فبأن تسمع كلامه مثلثا بسماعه ومصداقا به ومظمرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمراة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرمحك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون . وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإن القبول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما البدان فأن لا يقيضهما عن مساوئهم في كل ما يتعامل باليد .

وأما الرجلان فأن يمتنئيهما وراحم متى الاتباع لامتنئ الشيوخين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويمقد متواضعا حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصعبة وفي ضمنها نوع من الاجتهاد والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلى محبة الخلق فارة بعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزيين باطنه بالحسنة ولحققه وزين ظاهره بالمعاهدة والخمسة لعباده فإنها أعلى أنواع الخمسة إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويترك العبد بحسن خلقه درجة القائم بالصائم وزيادة .

== ابنته فاطمة عليها ... » وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة « يا فاطمة أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ... » . (١) « كان يغطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ... » أخرجه الترمذي في التباين من حديث علي في أثناء حديث فيه « يغطي جلسائه نصيبه لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه من جالسه ومن سأله حاجة لم يرد إلا بها أو يميسور من القول » ثم قال « ومجلسه مجلس حلم وحياء ومبر وأمانة » وفيه « ضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه » وللترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء « ما رأيت أحدا أكثر تبعا من النبي ﷺ » وقال غريب .

غاية لهذا الباب

نذكر فيها جملة من آداب العشرة والمجالسة مع أصناف المخلوق

متنقطة من كلام بعض الحكماء.

إن أردت حسن العشرة فائق صدقك وعدوك ووجه الرضا من غير ذلة لم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع في غير مذلة . وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذم . ولا تنظر في عطفك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصابعك في أذنك وكثرة بصاقتك وتتمكك بظرد الذباب من وجهك وكثرة التقطى والثاقب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى السلام الحسن من حديثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، وانكث عن المصاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بوليك ولا جلابيك ولا شرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك ، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين ولا تنبل بئذ البعد وتوق كثرة الكحل والإسراف في اللعن ، ولا تلغ في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك ووليك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلا منت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف وإن لم من غير خضع ولا تهازل أمتك ولا عيبك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتورق وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجم على ركبتك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنن فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وأرق به رفقك بالصبي وكله بما يشتهي مالم يكن معصية ، ولا يمحنتك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستجبا عنده فإن سقطه الداخل بين الملكيين أهل سقطه لا تنشوز لة لا تقال ، وإياك وصديق المافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجمل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالسلام وترك التخلي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحيى بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق ؛ فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياذ لموضع البصاق ، ولا تبغ في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الفية ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوامج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحمد منهم . وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بمحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده ، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والتدح في الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتخالف عما يجري من سوء أفعالهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمارح ليليا أو غير ليل فإل يلب يحقد عليك والسفيه يهزى عليك لأن الزاح يفرق الهية ويسقط ماء الوجه ويقتب الحق ويذهب بحلاوة الود ويشين فقهه البقيس ويهزى

السفيه ويسقط المأزلة عند الحكم ويعتق المتقون ، وهو يبيت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب النفقة ويورث النفقة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاج إلا من سخط أو طهر . ومن يلبس في مجلس مزاج أو لفظ فليذكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لظنه ففان قيل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » (١) .

الباب الثالث : في حق السلم والرحم والجوار والملاصق

وكيفية للماشرة مع من يلبس هذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تمدن عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بمن تعلم آداب المخالطة . وكل غلط في مخالطة أدب والأدب على قدر حقه وحقه على قدر رابطة التي بها وقست المخالطة . والرابطة إما الترافيق أو انحصار أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأثرة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقاربة لماحق ولكن حق الرحم المحرم أكد ، والحرم حق ولكن حق الوالدین أكد . وكذلك حق الجار . ولكن يختلف بحسب قربه من العار وبعمده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البليدي في بلاد الثغرة يجرى مجرى القريب في الوطن لاخصاصه بحق الجوار في البلد . وكذلك حق السلم يتأكد بتأكيد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حتى الذي عرف بالمشاهدة كفى الذي عرف بالبيع بل أكد منه والمعرفة بدو وقوعا تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحة تتفاوت درجاتها حتى الصحة في الدرس والمكتب أكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة ، والتحليل أقرب من الحبيب ، فالمحبة ما تتكمن من حبة القلب والخلة ما تتخلل من القلب ، فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلا . وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة فأما كون الخلة فوق الأخوة فعناء أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذا خليلا لا اتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) إذ التحليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعت الخلة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أبا فقال « على مني بمنزلة هرون من موسى إلا النبوة » (٣) فعند بعل عن النبوة كما عند أبي بكر عن الخلة ، فشارك أبو بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهملته لما لو كان لشركته في الخلة جمال ، فانه نبه عليه بقوله « لا اتخذت أبا بكر خليلا » وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليته ، وقد روي أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرما فقال « إن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى » (٤) فاذن ليس قبل

(١) « من جلس في مجلس فكثر فيه لظنه فقال قيل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك ... » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه .

الباب الثالث : في حقوق السلم والرحم والجوار

(٢) « لو كنت متخذا خليلا لا اتخذت أبا بكر خليلا ... » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري .

(٣) « على مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٤) « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا .. » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، دون قوله « فأنا حبيب الله وأنا خليل الله » .

المعركة رابطة ولا بعد الخلة درجة ، وما سواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الضميمة والأخوة ويدخل فيما ماوراءهما من المحبة والخلة ؛ وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كسابق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى يقتضى أعضاها إلى أن يوجب الإتيان بالتمسك والمال ، كما أن رأب بكر رضى الله عنه يتيأس على الله عليه وسلم ، وكما أثره طلحة بيده إذ جعل نفسه وقاية لشخصه المزبور صلى الله عليه وسلم ، فمن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين ، وحق الجوار ، وحق الملك - أعني ملك الدين - فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح .

حقوق المسلم

هى إن سلم عليه إذا لقى ، وتجب له إذا دعاه ، وتشتت إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتصدق جنازته إذا مات ، وتبرقسه إذا أغمى عليه ، وتصحب له إذا استصحبك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك^(١) ورد جميع ذلك فى أخبار وآثار . وقد روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربعم من حق المسلمين عليك : أن تعين محسبهم ، وأن تستغفر لذنبهم . وأن تدعو لهم برحمة وطالبهم لصالحهم ، فإذا نظر الصالح إلى الصالح من أمعه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبت عليه واغنمنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الصالح قال : اللهم آمهده وتب عليه واغفر له عقربه . ومنها أن يجب للؤمنين ما يجب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل المؤمن فى ترواحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضائه بالحمى والهرم »^(٢) وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(٣) ومنها أن لا يؤتى أحداً من المسلمين بفعل ولا قول ، قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل « فإن لم تقدر دفع الناس من الشرقاتها صدقة تصدق بها على نفسك »^(٥) وقال أيضاً « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(٦) وتال صلى الله عليه وسلم أتدرون من المسلم ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : من أمته المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر السوء واجتنبه^(٧) وقال رجل : يا رسول الله ما الإسلام

الأخبار الواردة فى حقوق المسلم على المسلم

(١) « هو أن يسلم عليه إذا لقى » قد ذكر عرضنا . وأخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، وإتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » وفى رواية لمسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقى تسلم عليه » وزاد « وإذا استصحبك فأضحه » ولترمذى وابن ماجه من حديث على « للمسلم على المسلم ست » فذكر منها « ويجب له ما يحب لنفسه » وقال « ويصح له إذا غاب أو شهد » ولأحمد من حديث معاذ « وأن يحب للناس ما يحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك » وفى الصحيحين من حديث البراء : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع فذكر منها « وإبرار القسم ونصر للظالم »^(٢) حديث أنس « أربعم من حقوق للمسلم عليك أن تعين محسبهم ، وأن تستغفر لذنبهم ، وأن تدعو لمديهم وأن تحب تأثمهم » ذكره صاحب الترمذى ولم أجده فى إسناده (٣) حديث النعمان بن بشير « مثل المؤمن فى ترواحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضائه بالحمى والهرم » متفق عليه (٤) حديث أبى موسى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » متفق عليه (٥) « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٦) « فإن لم تقدر دفع الناس من الشرقاتها صدقة تصدق بها على نفسك » متفق عليه من حديث أبى ذر (٧) « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث أبى موسى (٨) « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الطبرانى والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمته الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » =

قال : ان يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » وقال بجاهد : يسلط على أهل التناز الحروب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده ، فيتناذى : يا فلان ، هل يؤذيك معنا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين »^(١) وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « يا رسول الله ، علمني شيئا أتضع به . قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يهجر إلى أخيه بنظرة تؤذيه » وقال « لا يحل لمسلم أن يروغ مسلما »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكره أنى المؤمنين »^(٥) وقال الريح ابن خيثم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذ ، وجاهل فلا تعامله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى أوحى إلى تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد »^(٦) ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل : قال الله تعالى لتبني على الله عليه وسلم « خذ المغفر وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل »^(٧) ومن أين أتى أوفى « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأتف ولا يتكبر أن يثنى مع الأرملة والمسكين فيقتضى حاجته »^(٨) ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة قتات »^(٩) وقال الخليل بن أحمد : من تم لك ثم عليك ومن أخرك غير غيرك أخبر غيرك بغيرك . ومنها أن لا يورد في الحجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مها قضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري : قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »^(١٠) وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أقال مسلما عمرته أقاله الله يوم القيامة »^(١١) قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب : بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها « ما أتتم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنهك حرمة الله فينقم الله »^(١٢) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما صفا رجل من مظلة إلا زاده الله بها عزا . وقال

== ورواه ابن ماجه مقتصرا على « المؤمن والمهاجر » والحاكم من حديث أنس وقال : على شرط مسلم ، والمهاجر من هجر السوء ؛ ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمر بن عتبة : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال « أن تسلم قلبك لله وتسلم المسلمون من لسانك ويدك »^(١) « لقد رأيت رجلا في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي هريرة : يا رسول الله ، علمني شيئا أتضع به ، قال « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي بزة قال : قلت يا نبي الله ... فذكره (٣) « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ، ومن كتب الله له بها حسنة أوجب له بها الجنة » رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٤) « لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظرة تؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسل بسند ضعيف ، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين الروزي حمزة بن عبد الله بن أبي سمى وهو الصواب (٥) « إن الله تعالى يكره أنى المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد بإسناد جيد (٦) « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن حجاز ورجاله رجال الصحيح (٧) حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأتف ولا يتكبر أن يثنى مع الأرملة والمسكين فيقتضى حاجته ؛ النسائي بإسناد صحيح ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين . (٨) « من لا يدخل الجنة قتات » متفق عليه من حديث أبي أيوب (٩) « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ... » متفق عليه (١٠) « أقال مسلما عمرته أقاله الله يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم ، وقد تقدم (١١) حديث عائشة : ما أتتم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تصاب حرمة الله فينقم الله متفق عليه بلقط : إلا أن تنهك .

صلى الله عليه وسلم «ما قص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بقفو إلا عزا وما من أحد تواضع لله إلا رفاه الله» (١) ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل . روى علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله » وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد يده فينزعه يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ولم تكن ركبته خارجة عن ركبته جلسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه » (٢) ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يتأذن ثلاثا فإن لم يؤذن لها نصرف . قال أبو هريرة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ « الاستئذان ثلاث فالأولى يستمتنون والثانية يستملحون والثالثة يأذنون أو يردون » (٣) ومنها أن يخافوا الجميع بخلق حسن ويصلحهم بحسب طريقته فانه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأبى بالفقه والعلمى بالبيان آتى وتأذى . ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « ليس منا من لم يوقر كبيرا ولم يرحم صغيرا » (٤) وقال ﷺ « من إجلال الله إكرام ذى الشبهة المسلم » (٥) ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بن أبديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهمية على النبي ﷺ فقام غلام ليحكم فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير » (٦) وفى الخبر وما وقر شاب شيئا إلا قبض الله له في سنة من يوقره » (٧) وهذه بشارة بدوام الحياة فليقتبها لها فلا يوقر لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد عيظا والمطر قيظا وتفيض الثمام فيضنا وتفيض الكرام فيضنا ويهزم الصغير على الكبير والقيم على الكريم » (٨) « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٩) . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيلتقاء الصبيان فيقبل عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه

(١) « ما قص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلا بقفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفاه الله » أخرجه مسلمين حديث أبي هريرة (٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى أهله ، فإن لم تصب أهله فأنت أهله » ذكره الدارقطني في الملل وهو ضعيف ، ورواه القضاة في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا بسند ضعيف (٣) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » أخرجه الطبراني في الأوسط ، والحطابي في تاريخ الطالبين ، وعند أبو نعيم في الحلية دون قوله « واصطناع ... إلى آخره » وقال الطبراني « التجب » (٤) حديث أبي هريرة : كان لا يأخذ أحد يده فينزعه يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ... أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن . ولأبي داود والترمذي وابن ماجهوه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « الاستئذان ثلاث » فالأولى يستمتنون والثانية يستملحون . والثالثة يأذنون أو يردون » أخرجه الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف . وفى الصحيحين من حديث أبي موسى « الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع » (٦) حديث جابر « ليس منا من لم يوقر كبيرا ويرحم صغيرا » رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف ، وهو عند أبي داود ، والبخارى في الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن (٧) « من إجلال الله إكرام ذى الشبهة المسلم » أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن (٨) حديث جابر : قدم وفد جهمية على النبي ﷺ ، قام غلام ليحكم ، فقال ﷺ « مه فأين الكبير ؟ » أخرجه الحاكم وصححه (٩) « ما وقر شاب شيئا لسه إلا قبض الله له في سنة من يوقره » أخرجه الترمذي من حديث أنس بلفظ « ما أكرم ، ومن يكرمه » وقال حديث غريب . وفى بعض النسخ حسن ، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (١٠) « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد عيظا والمطر قيظا ... رواه الترمذي في معجم الأعلام من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود ، وإسنادهما ضعيف (١١) حديث التلطف بالصبيان أخرجه البزاز من حديث أنس : كان من أسفه الناس مع صبي ؟ وقد قدم في النكاح . وفى الصحيحين « يا أبا عمير ما فعل النضر » وغير ذلك

ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم ^(١) «فربما تفاخر الصبيان بمد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حقني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت وواه ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك واردهم» وكان يؤتى بالصغير ليدعوه بالبركة ويسميه فيأخذه فيضه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول: لا تزرموا الصبي بوله فيلذعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أمه فيكثرون ولا يروا أنه تأذى بوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعله ^(٢) «ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا. قال صلى الله عليه وسلم «أتدرون على من حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: على الذين همين السبل القريب ^(٣)» وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب السبل الطلق الوجه ^(٤)» وقال بعضهم «يأمر الله دلي على عمل يدخلني الجنة، فقال إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام ^(٥)» وقال عبد الله بن عمر: إن البرئ من وجه طلق وكلام لين. وقال صلى الله عليه وسلم «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكرة طيبة ^(٦)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها ويطونها من ظهورها، فقال أعرابي: لئن هي بأمر رسول الله قال لئن أطاب الكلام وبذل السلام وخفص بالليل والناس نيام ^(٧)» وقال معاذ بن جبل: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الحباية وحفظ الجار ورحمة اليتم وبين الكلام وبذل السلام وخفص الجناح ^(٨)» وقال أنس رضي الله عنه «عرضت لئن صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت: لي معك حاجة، وكان معه ناس من أصحابه، فقال: اجلسي في أي نواحي السكك شئت اجلسي إليك، ففعلت جلوس إليها حتى قضت حاجتها ^(٩)» وقال وهب بن منبه: إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سبعة أيام؛ فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجد قال: لو اطعتم على خطيئتي وذنبي

(١) «كان خدم من السفر فتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرضون إليه ...» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن جعفر: كان إذا قدم من سفر تلقى بنا. قال: فيلقى بني والحسن، وقال: فجل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفي رواية: تلقى صبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبقني إليه فغلقني بين يديه ثم جئني بإحدى ابنتي فاطمة فأردف خلفه وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير: انذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم فغفلنا وتركك، لفظ مسلم. وقال البخاري: إن ابن الزبير قال لابن جعفر، فآله أعلم. (٢) كان يؤتى بالصغير ليدعوه بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه ... رواه مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيرك عليهم ويخسكهم فأتى بصبي فبال عليه فلما بماه فأبتمه بوله ولم ينسه. وأصله متفق عليه. وفي رواية لأحمد: فيدعو لهم، وفيه «سبوا عليه الماء صبا وللدارقطني: قال ابن الزبير عن النبي ﷺ فأخذه أخذا عنيفا ... وفيه الحجاج بن أرطاة ضعيف. ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم: بينا رسول الله ﷺ مستلقيا على ظهره يلاعب صبا إذا بال، قامت لتأخذه وتضربه قال: «دعيه، اتروني بكون من ماء ...» وإسناده صحيح (٣) «أتدرون على من حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال الذين همين السبل القريب» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل «الذين» وذكرها الحارثي من رواية محمد بن أبي عتيق عن أمه قال الترمذي حسن غريب (٤) حديث أبي هريرة «إن الله يحب السبل الطلق» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه من رواية موري الجلي مسندا. (٥) «إن من واجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والحارثي في مكالم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هاني بن زيد بإسناد جيد. (٦) «اتقوا النار ولو بشق تمرة ...» متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة.

(٧) «إن في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها ويطونها من ظهورها ...» أخرجه الترمذي من حديث علي وقال حديث غريب. قلت وهو ضعيف. (٨) «مأذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث» أخرجه الحارثي في مكالم الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي «وخفص الجناح» وإسناده ضعيف. (٩) حديث أنس «عرضت لئن صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت اجلسي إليك ...» رواه مسلم.

بين وبين لسان خيرا إلى من هذا الأمر الذي طلبه ؛ فأرسل الله إليه ملكا فقال له إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك ففطر ؛ فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال : أي رب من ينصو من هذا ؟ قال الورد العتيق . ومنها أن لا يهد مسلما بعد إلا ويخبر به قال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية (١) » وقال « العدة دين (٢) » وقال « ثلاث في المتناقض : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان (٣) » وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى (٤) » وذكر ذلك ومنها أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم بما يجب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإلتفاف من الاقتار والإتصاف من نفسه وبذل السلام (٥) » وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب نفسك تكن مسلما (٧) » قال الحسن : أرحم الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال : فمن جماع الأمر لك ولولئك ؛ واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين الخلق ، فأما التي لي : تعبدني ولا تشرك في شيئا ، وأما التي لك : فصلك أجزائك به أفقر ما تكون إليه ، وأما التي بيني وبينك : فليكن النماء وعلى الإجابة ، وأما التي بينك وبين الناس فصاحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به . وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أي رب أي عبادك أعبد ؟ قال من أنصف من نفسه . ومنها أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيا به على طو منزلته فينزل الناس منازلهم . روى ابن عثمة رضى الله عنها كانت في سفر فزلزل منزلها فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقال تعافى ؟ فأولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة فقالت : ادعوه إلى الطعام ، فقيل لها : تعطين المسكين وتدمين هذا الثمن ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا يد لنا من أن نزلهم تلك المنازل ، هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطي هذا الذي على هذه الهيئة قرصا . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوت فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلا ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكانا فقدم على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ثم لفه وورى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على نوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني ، ففطر النبي صلى الله عليه وسلم ميمنا وشمالا ثم قال « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (٨) » وكذلك كل من له عليه حق فقيم

- (١) « العدة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف . (٢) « العدة دين » رواه الطبراني في معجمه الأوسط والأخير من حديث علي وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو دواد في المراسيل
- (٣) « ثلاث في المتناقض : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان » متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه . (٤) « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى » رواه البخاري من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وهذا ليس في البخاري . (٥) « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإلتفاف من الاقتار والإتصاف من نفسه وبذل السلام » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووجه البخاري عليه . (٦) « من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليأت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن الناصر نحوه والحارثي في مكارم الأخلاق بلفظه (٧) « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب نفسك تكن مسلما » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف أنه قاله لأبي هريرة وقد تقدم
- (٨) « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وفي أوله قصة في قدوم جرير بن عبد الله أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الزكاة مختصرا

فليكرمه . روى « أن ظر رسول الله ﷺ التي أَرْضَعَتْه جَاءَتْ إِلَيْهِ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ ثُمَّ قَالَ لَهَا مَرْحَبَا بِأُمِّي ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَلَى الرِّدَاءِ ثُمَّ قَالَ لَهَا اشْفَعِي لِي بِسَلَى وَسَلَى تَعْلَى فَقَالَتْ : قَوْمِي قَالَ : أَمَا حَقِّي وَحَقُّ بَنِي هَاشِمٍ فَهَؤُلَاءِ ؛ فَتَقَامُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَقَالُوا : وَحَقُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . ثُمَّ وَصَلُوا بَعْدَ وَأَخَذَهَا وَوَهَبَ لَهَا سَبْعِينَ مِائَةَ دِينَارٍ » فَبَيْعَ ذَلِكَ مِنْ عُمَيْيْنِ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَهُوَ عَلَى وَصَادِقِهَا وَلَا يَكُونُ فِيهَا سَبْعِينَ مِائَةَ دِينَارٍ وَمِائَةً وَبِضْعًا تَحْتَ الَّذِي يَحْسِلُ إِلَيْهِ فَإِنْ أَبَى حَرَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولَ (١) » وَمِنْهَا أَنْ يَصْلَحَ ذَاتَ الْبَيْنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قَالَ ﷺ « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَافِقَةُ » وَقَالَ ﷺ « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ (٢) » وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيَا رَوَاهُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ « بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ إِذْ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَائِيَهُ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا لَئِي أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : وَجَلَّانِ مِنْ أُمِّي جِئْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْ لِي مَظْلَقِي مِنْ هَذَا ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : رَدِّ عَلَى أَخِيكَ مَظْلَقَهُ ، فَقَالَ : لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّالِبُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ : يَارَبِّ فَلْيَجْعَلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي . ثُمَّ فَاضَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْبُكَاءِ فَقَالَ : إِنْ ذَلِكَ يَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ صَاحِبُهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قَالَ : فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى - أَيْ لِلتَّعْلَمِ - أَرَفِعَ بِصِرْكَ فَانْظُرْ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ : يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ قُصُوفٍ وَتَقُصُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ مَكَّةَ بِالْمُزَلُّوْ لَأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لَأَيِّ شَهِيدٍ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : هَذَا لِمَنْ أَصْلَى النَّاسُ قَالَ : يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ ، قَالَ : بِمَاذَا يَارَبِّ ؟ قَالَ : بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ : يَارَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَذْبَحْهُ الْجَنَّةَ . ثُمَّ قَالَ ﷺ أَتَقْوَاهُ اللَّهُ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْلَحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣) » وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَيْسَ بِكَذَابٍ مِنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا (٤) » وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْكَذِبَ وَاجِبًا وَلَا يَقْطَعُ الْوَاجِبَ إِلَّا بِوَاجِبٍ أَكْثَرُ مِنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلَّا أَنْ يَكْتُوبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ (٥) » فَإِنْ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ أَوْ يَكْذِبُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيَصْلَحُ بَيْنَهُمَا أَوْ يَكْذِبُ لِأَمْرَانِهِ لِيَرْضِيَا . وَمِنْهَا أَنْ تَسِرَّ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ سَرَّ عَلَى سَلْمٍ سَرَّهُ اللَّهُ »

(١) « إِنْ ظَرَّ النَّبِيَّ ﷺ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ جَاءَتْ إِلَيْهِ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ ... » أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الطَّيْلِيفِ مَخْتَصَرًا فِي بَسْطِ رِدَائِهِ لَهَا دُونَ مَا يَبْدُو . (٢) « زَعَاهُ ﷺ وَوَسَادَتُهُ وَوَضَعَهَا تَحْتَ الَّذِي يَجْلِسُ إِلَيْهِ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ « أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ ﷺ فَأَتَى إِلَيْهِ وَسَادَتُهُ مِنْ أُمِّ حُشْوَاهَا لَيْفٌ ... » وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلِلطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ « دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مَكْنَى عَلَى وَصَادِقِهَا قَالُوا إِلَيْهِ ... » وَبِإِسْنَادِهِ ضَعِيفٌ قَالَ صَاحِبُ الْإِزْآنِ هَذَا خَيْرٌ سَاقِطٌ (٣) « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ قَالُوا بَلَى قَالَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَافِقَةُ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْبَرَدَاءِ (٤) « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْحَرَاظِيُّ فِي مَكْرَمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ الْإِفْرَاقِيُّ ضَعْفُ الْجَهْدِ (٥) حَدِيثُ أَنَسٍ « بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ إِذْ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَائِيَهُ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا لَئِي أَضْحَكَكَ فَقَالَ وَجَلَّانِ مِنْ أُمِّي جِئْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْ لِي مَظْلَقِي مِنْ هَذَا ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : رَدِّ عَلَى أَخِيكَ مَظْلَقَهُ ، فَقَالَ : لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّالِبُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ : يَارَبِّ فَلْيَجْعَلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي . ثُمَّ فَاضَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْبُكَاءِ فَقَالَ : إِنْ ذَلِكَ يَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ صَاحِبُهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قَالَ : فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى - أَيْ لِلتَّعْلَمِ - أَرَفِعَ بِصِرْكَ فَانْظُرْ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ : يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ قُصُوفٍ وَتَقُصُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ مَكَّةَ بِالْمُزَلُّوْ لَأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لَأَيِّ شَهِيدٍ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : هَذَا لِمَنْ أَصْلَى النَّاسُ قَالَ : يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ ، قَالَ : بِمَاذَا يَارَبِّ ؟ قَالَ : بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ : يَارَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَذْبَحْهُ الْجَنَّةَ . ثُمَّ قَالَ ﷺ أَتَقْوَاهُ اللَّهُ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْلَحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣) » وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَيْسَ بِكَذَابٍ مِنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا (٤) » وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْكَذِبَ وَاجِبًا وَلَا يَقْطَعُ الْوَاجِبَ إِلَّا بِوَاجِبٍ أَكْثَرُ مِنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلَّا أَنْ يَكْتُوبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ (٥) » أَخْرَجَهُ الْحَرَاظِيُّ فِي مَكْرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالْحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَكَذَا أَبُو يَسَى الْوَصَلِيُّ أَخْرَجَهُ بِطَوْلٍ وَضَعْفٍ

البخاري وابن جبان

(٦) « لَيْسَ بِكَذَابٍ مِنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقِبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ .
(٧) « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلَّا أَنْ يَكْتُوبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ ... » أَخْرَجَهُ الْحَرَاظِيُّ فِي مَكْرَمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ حَدِيثِ النَّوَاسِ بْنِ سَمَانَ وَفِيهِ انْقِطَاعٌ وَضَعْفٌ لِمَسْلُوحِهِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقِبَةَ .

تعالى في الدنيا والآخرة (١) » وقال « لا يستر عبد إلا ستره الله يوم القيامة (٢) » وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم لما أخبره « لو سترته بثوبك كان خيراً لك (٤) » فأذن على المسلم أن يستر عورة نفسه حتى إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله . وروى أن عمر رضي الله عنه كان يمر بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : أرايت لو أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليها الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال على رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، إذا بقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مثل مقامهم الأولى ، فقال على رضي الله عنه : مثل مقامك الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان متردداً في أن الوالد له أن يقضي بعله في حدود الله ؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لافي معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفاً ياخبره ، ومال رأي على إلى أنه ليس له ذلك . وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن ألغينا الزنا ، وقد نيط بأربعة من العلول - يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالرود في المكحلة - وهذا قط لا يفتق . وإن عليه القاضي تحقيقاً لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات . ثم انظر إلى كنه ستر الله كيف أسبله على المعصاة من خلقه بتعيق الطريق في كشفه ؟ فترجو أن لا تحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر . ففي الحديث « إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى (٥) » وعن عبد الرحمن ابن صوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فيينا نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فاطلقنا نومه فلما دوناه منته إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر يبسني وقال : أتدري بيت من هذا ؟ قلت : لا ، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فاستري ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما هنا الله عنه قال الله تعالى (ولا تمسوا) فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الشر وترك التبع وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية « إنك إن تقبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تقصدهم (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تقتبوا عورات المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يبيع عورة ومن يتبع عورة الله يفضحه ولو كان في جوف بيته (٧) » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى

- (١) « من ستر على مسلم ستره في الدنيا والآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة والشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة (٢) « لا يستر عبد إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً (٣) حديث أبي سعيد الخدري « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » رواه الطبراني في الأوسط والصغير والخرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٤) « لو سترته بثوبك كان خيراً لك » رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الإسناد ومنع مختلف في صحته (٥) « إن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة ... » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث علي بن أذنب دنيا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فله أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه ومن أذنب دنيا في الدنيا فثوب عليه فله أعدل من أن يثني العقوبة على عبده » لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وسلم من حديث أبي هريرة « لا ستر على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة » (٦) « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تقصدهم » قال لمعاوية أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية (٧) « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تقتبوا عورات المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ... » أخرجه أبو داود من حديث أبي بزة بإسناد جيد والترمذي من حديث ابن عمر وحسنه .

ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيره وقال بعضهم : كنت قاعداً مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بأخر ، فقال : هذا فتوان ، فقال عبد الله بن مسعود : استنكبه فاستنكبه فوجدته فتواناً خبيثاً حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط ففكر ثم رمه ثم قال الجلال : اجده وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده عليه قتيلاً أو مرطاً . فلما فرغ قال الذي جاء به : ما أنت منه؟ قال : عمه ، قال عبد الله : ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سرت الحرمة ! إنه ينبغي للأمام إذا انتهى إليه حد أن يقيم وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ (وليعفوا وليصفو) ثم قال (وإن لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق قطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : وما ينبغي ألا تنكروا عونا للشيطان على أخيك ، فقالوا : ألا عفوت عنه؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيم وإن الله عفو يحب العفو وقرأ (وليعفوا وليصفو) ألا تعجبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم^(١) وفي رواية فكأنما سقى في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لصدقه تنفيره وروى أن عمر رضي الله عنه كان يمس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى لتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يسرك وأنت على مصيبي؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثا قال الله تعالى (ولا تجسسوا) وقد تجسست وقال الله تعالى (وليس البر بأن أتوا البيوت من ظهورها) وقد تسورت على وقد قال الله تعالى (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) الآية وقد دخلت بيتي بنهر إذن ولا سلام ، فقال عمر رضي الله عنه : هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عني لأعود إلي مثلاً أبداً فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبد الله بن عمر : يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في التجوي يوم القيامة؟ قال سمعته يقول «إن الله ليدني من المؤمن فيضع عليه كفه ويمسحه من الناس فيقول : أتصرف ذنب كذا أنصرف ذنب كذا فيقول : نعم يارب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد ملك قال له : يا عبدي إنى لم أستروها عليك في الدنيا إلا رأانا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسنة . وأما الكافرون والمنافقون (فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)^(٢) وقد قال صلى الله عليه وسلم «كل أمي معافي إلا المهاجرين^(٣)» وإن من المهاجرة أن يعمل الرجل السوء سرّاً ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم «من استمع خبر قوم وهم لا يكرهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة^(٤)» ومنها أن يتقى مواضع ألهم صياغة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الشبهة فإنهم إذا حصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً قال الله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) وقال صلى الله عليه وسلم «كيف ترون من يسب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه؟ فقال : نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه^(٥)» وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فقصه رسول الله ﷺ وقال : يا فلان هل من ذنوبي صفة ، فقال :

- (١) حديث ابن مسعود «إنى لأذكر أول رجل قطعه النبي ﷺ أتى بسارق قطعه فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ ...» ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وللخراطقي في مكارم الأخلاق : فكأنما سقى في وجه رسول الله ﷺ رماد ... (٢) حديث ابن عمر «إن الله عز وجل ليدني المؤمن فيضع عليه كفه ويمسحه من الناس فيقول : أتصرف ذنب كذا أنصرف ذنب كذا ...» متفق عليه (٣) «كل أمي معافي إلا المهاجرين ...» متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) «من استمع من قوم وهم لا يكرهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة» ورواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً على أبي هريرة أيضاً . (٥) «كيف ترون من سب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ...» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن نفحة .

يارسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم^(١) ، وزاد في رواية « إني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئا وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفية^(٢) ... الحديث » وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان . وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام الهم فلا يلومن من أساء به الظن . ومرو رجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها امرأتى فقال : هلاحيث لا يراك أحد من الناس ؟ ومنا أن يتفجع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه قال ﷺ « إني أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيي ما أحب^(٣) » وقال معاوية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشفعوا إلى لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر^(٤) » وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن زوج بريدة كان عبدا يقال له ميثب كآنى أنظر إليه خلفها وهو يسكى ودموعه تسيل على لحيت ، فقال ﷺ لعباس « ألا تعجب من شدة حب ميثب لبريرة وشدة بغضها له ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو راجعتني فإياه أبر وولدك ، فقالت : يارسول الله أتأمرني فأفعل ؟ فقال : لا إنما أنا شافع^(٥) » ومنا أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصالحه عند السلام قال ﷺ « من بدأ بالكلام قبل السلام قتل السلام فلا يجيبوه حتى يبدأ بالسلام^(٦) » وقال بعضهم : دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم استأذن فقال النبي ﷺ « أرجع قتل السلام عليكم وادخل^(٧) » وروى جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخلتم بيوتكم فسلوا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدهم لم يدخل بيته^(٨) » وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي « يا أنس أسبغ الوضوء يرد في عمرك وسلم على من لقيته من أمي تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك^(٩) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المؤمنان فصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة وستون لأحسنهما بشرا » وقال تعالى (وإذا حيينم بنحية غيورا بأحسن منها أو ردوها) وقال عليه السلام « والذى نفس بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابروا أولا أدلكم على عمل إذا علمتموه فحاجبكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ،

- (١) حديث أنس « أن رسول الله ﷺ كلم إحدى نساءه فر به رجل فدهاه فقال يا فلان هذه زوجتي فلانة ... » وفيه « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » رواه مسلم (٢) « إني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئا » وقال على رسلكما إنها صفية^(٢) متفق عليه من حديث صفية (٣) « إني أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ... » متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه (٤) « مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان ... » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له في الكبير من حديث مرة بن جندب بسند ضعيف (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « أن زوج بريدة كان عبدا يقال له ميثب كآنى أنظر إليه خلفها يسكى ... » رواه البخاري (٦) « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا يجيبوه الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم والليل واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين (٧) حديث دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم استأذن قال ﷺ « أرجع قتل السلام عليكم وادخل » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلثة بن الحنبل وهو صاحب القصة (٨) حديث جابر « إذا دخلتم بيوتكم فسلوا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدهم لم يدخل بيته » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف (٩) حديث أنس : خدمت النبي ﷺ ثمانى حجج فقال لي « يا أنس أسبغ الوضوء يرد في عمرك وسلم على من لقيته من أمي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف والترمذي وصححه « وإذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك »

قال : أفضوا السلام بينكم ^(١) » وقال أيضا « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة ^(٢) » وقال عليه السلام « إن الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه ^(٣) » وقال عليه السلام « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجرا عنهم ^(٤) » وقال قتادة : كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول : ما ينبغي إلا أني أخشى أن لا يردوا قلعتهم للملائكة . والمصلحة أيضا مع السلام سنة ، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم ، فقال ﷺ : عشر حسنات ، وجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال : عشرون حسنة ، وجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون ^(٥) . وكان أنس رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٦) . ويروى عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد بن هرام : أنه ﷺ مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قفود قافوا بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية ^(٧) . فقال ﷺ « لا تبتدوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدا في الطريق فاضطروه إلى أحقيته ^(٨) » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تصالحوا أهل الأمة ولا تبدؤهم بالسلام فإذا لقيتموه في الطريق فاضطروهم إلى أحقيتكم الطريق » .

قالت عائشة رضي الله عنها : إن رجلا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليكم ، فقال النبي ﷺ « عليكم » قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت بل عليكم السلام والمنة ، فقال ﷺ « يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء » قالت عائشة : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : « قد قلت عليكم ^(٩) » وقال ﷺ « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ^(١٠) » وقال عليه السلام « لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف ^(١١) » قال أبو عيسى : إسناده ضعيف .

وقال ﷺ : « إذا انتهى أحدهم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست

- (١) « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
- (٢) « إذا سلم للمسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة » ذكره صاحب القردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولله في السند (٣) للملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه . لم أقصده على أصل
- (٤) « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم أحد أجرا عنهم » رواه مالك في الوطأ عن زيد بن أسلم مرسل ولأن داود من حديث علي « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجيوش أن يرد أحدهم » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يسلم الراكب على الماشي ... » وسأني في بقية الباب (٥) جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال سلام عليك فقال ﷺ « عشر حسنات ... » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران بن حصين قال الترمذي حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن (٦) حديث أنس : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم . ورفضه متفق عليه (٧) حديث عبد الحميد بن هرام : أنه ﷺ مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قفود قافوا بيده بالتسلم وأشار عبد الحميد بيده . أخرجه الترمذي من رواية عبد الحميد بن هرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت زيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبي حسين عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لأبى به
- (٨) « لا تبدؤا اليهود والنصارى بالسلام ... » رواه مسلم من حديث أبي هريرة (٩) حديث عائشة : إن رجلا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليكم ... متفق عليه (١٠) « يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم « والصغير على الكبير » (١١) « لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف .

الأولى أحق بالأخيرة^(١)» وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ «إذا التقى المؤمنان فصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشراً^(٢)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول «إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة درجة باليدين. تحبون للمصالح عشرة^(٣)» وقال الحسن: المصالحة تزيد في الود. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «تمام تحياتكم بينكم المصالحة^(٤)» وقال ﷺ «قبلة المؤمن أخاه المصافحة^(٥)» ولا بأس بقبلة يد المصطفى في الدين تبرأ به وتوقير له، وروى عن ابن عمر قال: قبلنا يد النبي ﷺ، وعن كعب بن مالك قال: قال لما نزلت توبتي آتيت النبي ﷺ فقبلت يده^(٦). وروى أن أعرابيا قال: يا رسول الله أئذن لي فأقبل رأسك ويدك قال: فأذن له ففعل^(٧) ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتحميا بيكيان. وعن البراء بن عازب: أنه سلم على رسول الله ﷺ وهو يترضا فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصافحه فقال: يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم؟ فقال رسول الله ﷺ «إن المسلمين إذا التقيا فصالحا تحامت ذنوبهما^(٨)» وعن النبي ﷺ قال «إذا مر الرجل بالفرم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام، وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب^(٩)» أو قال وأفضل^(١٠)» والاحتفاء عند السلام منهي عنه قال أنس قلنا يا رسول الله أينحي بعضنا لبعض؟ قال: لا، قال: فيقبل بعضنا بعضا؟ قال: لا، قال: فيصافح بعضنا بعضا؟ قال: نعم^(١١)» والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر^(١٢) وقال أبو ذر: ما لقيت ﷺ إلا صافحي وطلبني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرني جئت وهو على سرير فاترمني فكانت أجود وأجود^(١٣).

- (١) «إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنس «إذا التقى المسلمان فصالحا قسمت بينهما سبعون درجة...» أخرجه الخرائطي بسند ضعيف واللبزاني في الأوسط من حديث أبي هريرة «مائة درجة تسعون لأحبهما وأطبعهما وأبرهما وأحسنهما مسألة لأخيه» وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٣) حديث عمر بن الخطاب «إذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة درجة...» أخرجه البزار في مسنده والخرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٤) حديث أبي هريرة «تمام تحياتكم بينكم للمصالحة» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة ووضفه (٥) «قبلة للمسلم أخاه المصافحة» أخرجه الخرائطي وابن عدي من حديث أنس قال غير محفوظ (٦) حديث ابن عمر: قبلنا يد رسول الله ﷺ أخرجه أبو داود بسند حسن (٧) حديث كعب بن مالك: «لما نزلت توبتي آتيت النبي ﷺ فقبلت يده» أخرجه أبو بكر بن القرى في كتاب الرخصة في تبجيل اليد. بسند ضعيف (٨) «أن أعرابيا قال رسول الله ﷺ أئذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل» أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال «رجليك» موضع «يدك» وقال صحيح الإسناد. (٩) حديث البراء بن عازب: أنه سلم على رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وهو يترضا فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصافحه... ورواه الخرائطي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا «ممن مسلمين يلتقيان فصالحا نزلت مغفرة لهما قبل أن يفترقا» قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراء (١٠) «إذا مر الرجل بالفرم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب» أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث مسعود مرفوعا ووضف البيهقي الرقوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (١١) حديث أنس: قلنا يا رسول الله أينحي بعضنا لبعض؟ قال «لا» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه ووضفه أحمد والبيهقي (١٢) «الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر» أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة... «وفيه» «طاعته وقبلة» وقال حسن غريب (١٣) حديث أبي ذر: ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي. أخرجه أبو داود وفيه رجل من مائة لم يسم وجهه البيهقي في الشعب عبد الله.

والأخذ بالركاب في توقيف العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت^(١)، وأخذ عمر بن زيد حتى رفعه وقال: هكذا فافعلوا يزيد وأصحاب زيد.

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام، قال أنس: ما كان يخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك^(٢). وروى أنه عليه السلام قال مرة: «إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم»^(٣) وقال عليه السلام «من سره أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤) وقال ﷺ «لا يقيم الرجل للرجل من مجلسه حتى يجلس فيه، ولكن توسعوا وتوسعوا»^(٥) وكانوا يخرجون عن ذلك لهذا النهي. وقال ﷺ: «إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أعمام فأوسع له فليأته فإنما هي كراحة أكرمه بها أخوه، فإن لم يوسع له فلينظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه»^(٦). وروى «أنه سلم رجل على رسول الله ﷺ وهو يقول فلم يجب»^(٧)، فيكره السلام على من يقضي حاجته، ويكره أن يقول ابتداء: عليك السلام؛ فقد قال رجل لرسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «إن عليك السلام تحية المرقى» قالها ثلاثاً، ثم قال: «إذا لقي أحدكم أخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله»^(٨) ويستحب الداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا يتصرف بل يقعد وراء الصف. كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها، وأما الثاني فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذهاباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الثاني فاستجيبا فاستجيبا منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»^(٩). وقال ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»^(١٠) وسئل أم هانئ عن النبي ﷺ فقال «من هذه؟» فقيل له: أم هانئ، فقال ﷺ «مرحبا بأم هانئ»^(١١).

ومنها أن يهون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر، ويرد عنه ويتنازل دونه ويُسفره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام. روى أبو الفرداء: أن رجلاً قال من رجل عند رسول الله ﷺ

- (١) أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت؛ تقدم في العلم (٢) حديث أنس: ما كان يخص أحب إليهم من النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك. أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.
- (٣) «إذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال «كما يقوم الأعاجم» وفيه أبو العديس مجهول (٤) «من سر أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال حسن (٥) «لا يقيم الرجل للرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتوسعوا» متفق عليه من حديث ابن عمر (٦) «إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع— يعني له— فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل...» أخرجه البغوي في مصحح الصحابة من حديث ابن شبة ورجاله ثقات وابن شبة هذا ذكره أبو موسى الليثي في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب ابن شبة عن أبيه عن النبي ﷺ أنصرمته، وشية بن جبر والله منصور ليست له صحبة (٧) حديث: أن رجلاً سلم على النبي ﷺ وهو يقول فلم يجب؛ أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: فلم يرد عليه (٨) قال رجل للنبي ﷺ عليك السلام قال «إن عليك السلام تحية للبت...» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن حري المجيعي وهو صاحب القصة قال الترمذي حسن صحيح (٩) «كان ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها... متفق عليه من حديث أبي وقاد الليثي (١٠) «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (١١) سئل أم هانئ عليه السلام «مرحبا بأم هانئ» أخرجه مسلم من حديث أم هانئ.

فرد عنه رجل فقال النبي ﷺ « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » (١) . وقال ﷺ « ما من امرئ يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » (٢) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « من ذكر عند أخوة المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أدركه الله بها في الدنيا والآخرة ، ومن ذكر عند أخوة المسلم قصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة » (٣) وقال عليه السلام « من حمى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بث الله تعالى ملكاً يحميه يوم القيامة من النار » (٤) وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله ﷺ يقول « ما امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع يترك فيه عرضه ويستحل حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره ، وما من امرئ دخل مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمة إلا دخله الله سبحانه وتعالى في موضع يحب فيه نصرته » (٥) .

ومنها نصيب العاطس : قال عليه الصلاة والسلام في العاطس « يقول : الحمد لله على كل حال ، ويقول بسمته : يرحمك الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم » (٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسلما ويقول « إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك فليقل من عنده : يرحمك الله ، فإذا قال ذلك فليقل : يغفر الله لك » (٧) وسمعت رسول الله ﷺ عاطساً ولم يسمت آخر ، فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » (٨) وقال ﷺ « يسمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثاً فإن زاد فهو زكاً » (٩) وروى أنه ﷺ سمع عاطساً ثلاثاً فعطس أخرى فقال له « إنك مزكوم » (١٠) . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا عطس غص صوته ، واستتر بثوبه أو يده (١١) . وروى : خمر وجهه . وقال أبو موسى الأشعري : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول « يهديكم الله » (١٢) وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا وبعد ما يرضى الحمد لله على كل حال

(١) حديث أبي الدرداء « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » أخرجه الترمذي وحسنه (٢) « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده . بن تيزيد بنحوه والخراطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب (٣) حديث أنس « من ذكر عند أخوة المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أدله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على ما ذكر منه وإسناده ضعيف

(٤) « من حمى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار » أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف (٥) حديث جابر وأبي طلحة « ما من امرئ ينصر مسلماً في موضع يترك فيه من عرضه ويستحل حرمة إلا نصره الله تعالى في الدنيا بث الله تعالى ملكاً يحميه يوم القيامة من النار » (٦) « يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذي يسمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم » البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة وأبو بقل البخاري « على كل حال » (٧) حديث ابن مسعود « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ... » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضاً أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله واختلف في إسناده

(٨) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطساً ولم يسمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » متفق عليه من حديث أنس (٩) « سمعنا رسول الله ﷺ إذا عطس ثلاثاً فإن زاد فهو زكاً » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة « سمعت أبا هريرة ثلاثاً ... » وإسناده جيد (١٠) حديث : أنه سمع عاطساً فعطس أخرى فقال « أنت مزكوم » أخرجه مسلم من حديث سفيان الثوري (١١) حديث أبي هريرة : كان إذا عطس غص صوته واستتر بثوبه أو يده أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة : خمر وجهه وفاه (١٢) حديث أبو موسى : « كان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول يهديكم الله » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح

قلنا سلم النبي ﷺ قال « من صاحب الكلمات ؟ » قال : أنا يا رسول الله ما أردت بين إلا خيراً ، فقال : ولقد رأيت انني عشر ملكا كلهم يتدبرونها أهم يكتبها ^(١) » وقال ﷺ « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشك خاصرته » وقال عليه السلام « الطلاس من الله والتأوب من الشيطان فإذا تأمب أحكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : ما ها ، فإن الشيطان يضطك من جوهه ^(٢) » وقال إبراهيم التيمي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله في نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام يارب أقرّب أنت فأنا جيك أم بعيد فأنا يدك ؟ فقال أنا جيلس من ذكرى فقال : فأنا نكون على حال نجلك أن تذكرك عليها كالجنازة والعاقل ، فقال : اذكرني على كل حال .

ومنها أنه إذا لم يبنى شر فينبى أن يتحمله ويثبته قال بعضهم : غاص المؤمن غاصلة وخالق الفاجر خافقة فإن الفاجر برضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو العرواء : إذا لبس في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتضمر وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) قال ابن عباس في معنى قوله (ويدرون بالحسنة السيئة) أي الفحش والأذى بالسلم والمندارة وقال في قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قال بالرضية والرحمة والحياء والمندارة . وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال « اتفدوا له فيس رجل المشبهة هو » فلما دخل آلان له القول حتى شئت أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له : لما دخل قلت الذي قلت ، ثم ألت له القول فقال : يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء لخطه ^(٣) وفي الخبر « ما وقع الرجل به عرضه فهو له صدقة ^(٤) » .

وفي الآخر : خاطبوا الناس بأعمالكم وزابلهم بالقلوب وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه ليس يحكم من لم يعاشر بالمعروف من لا يعد من معاشرته بدأ حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها أن يجنب غافلة الأغنياء ويحاطب بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبي ﷺ يقول « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واخبرني في زمة المساكين ^(٥) » وقال كعب الأحبار : كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد قرأ مسكيناً جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكيناً . وقيل ما كان من كلمة يقال لمعني عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يمسكين . وقال كعب الأحبار : ما في القرآن من (يا أيها الذين آمنوا) فهو في الثوراة « يا أيها المساكين » وقال عبادة بن الصامت : إن النار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين . وقال الفضيل : يلقي أن نيا من الأنبياء قال : يارب كيف ل أن أعلم رضاك حتى ؟ قال : انظر كيف رضا المساكين عنك . وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم ومجالسة الموتى ، قيل ومن الموتى يا رسول الله قال : الأغنياء ^(٦) » وقال موسى : إلهي أين أبنيك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم . وقال ﷺ « لا تبطن فاجراً

(١) حديث عبد الله بن عمر بن ربيعة : أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ فقال الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ... أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد (٢) « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشك خاصرته » أخرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي . بسند ضعيف (٣) « الطلاس من الشيطان ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « الطلاس من الله » فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري : إن الله يحب الطلاس ويكره التأوب ... (٤) حديث عائشة : استأذن رجل على النبي ﷺ قال « اتفدوا له لبس رجل المشبهة ... » متفق عليه (٥) « ما وفي للرب به عرضه فهو صدقة » أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه (٦) « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واخبرني في زمة المساكين » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الترمذي من حديث عائشة وقال غريب . (٧) « إياكم ومجالسة الموتى وما الموتى ؟ قال الأغنياء » أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه وإسناده من حديث عائشة « إياكم ومجالسة الأغنياء »

بنعمته فأنك لا تدري إلى ما يصير بعد الموت فإن من رواه طالباً حيثاً^(١) وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم «من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة عليه السلام» وأنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وهو يشير بأصبعه^(٢) وقال عليه السلام «من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شجرة تمر عليها يده حنة^(٣)» وقال عليه السلام «خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه^(٤)».

ومنها النصيحة لكل مسلم والمجاهد في إدخال السرور على قلبه قال عليه السلام «المؤمن يحب المؤمن كما يحب لنفسه^(٥)» وقال عليه السلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقال عليه السلام «إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئاً فليطه عنه^(٦)» وقال عليه السلام «من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره^(٧)» وقال عليه السلام «من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة» وقال عليه السلام «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاه أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين^(٨)» وقال عليه السلام «من فرج عن مؤمن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة^(٩)» وقال عليه السلام «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل كيف ينصره ظالماً؟ قال «ينصه من الظلم^(١٠)» وقال عليه السلام «إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غماً أو يقضى عنه ديناً أو يعلمه من جوع^(١١)» وقال عليه السلام «من حوى مؤمناً من مناقب يسته بهت أهله ملكاً يوم القيامة يحصى له من نار جهنم» وقال عليه السلام «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والنفع لعباد الله^(١٢)» وقال عليه السلام «من لم يهتم المسلمون فليس منهم^(١٣)» وقال معروف الكرخي: من قال كل يوم، اللهم ارحم أمة محمد كتبته الله من الأبدال — وفي رواية

(١) «لا تبطلن ظجراً بنعمة ...» رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) «من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة البتة» أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه على بن زيد بن جعدان متسكماً فيه (٣) «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة (٤) «من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شجرة تمر عليها يده حنة» أخرجه أحمد والطبراني بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله ترحماً ولا بن جبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى «من مسح يده على رأس يتيم رحمه له ...» (٥) خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه؛ أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف (٦) «للمؤمن يجب للمؤمن ما يجب لنفسه؛ تقدم بلفظ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ولم أره بهذا اللفظ» (٧) «إن أحدكم مرآة أخيه ...» رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم (٨) «من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره» أخرجه البخاري في التاريخ والطبراني والحراطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسل (٩) «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاه أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين» أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس «لأن يحسب أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته — وأشار بأصبعه — أفضل من أن يستكف في مسجد هذا شهرين» وللطبراني في الأوسط: «من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عشر سنين» وكلاماً ضعيف (١٠) «من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة» أخرجه الحراطي في مكارم الأخلاق وابن جبان في الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ: «من أغاث ملهوفاً».

(١١) «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ...» متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (١٢) «إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن ...» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١٣) «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر بعباد الله» ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يسنده وإليه في مسنده (١٤) «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم» أخرجه الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاماً ضعيف

أخرى - اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد كل يوم ثلاث مرات - كتبه الله من الأبدال . وبكى على بن الفضيل يوماً فقبل له ما يبيحك قال : أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة . ومنها أن يهود مرضاهم بالحرمة والإسلام كافرين في إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب المائدة خفة الجلوس وقلة السؤال وإظهار الرقة والبهاء بالمعافاة ونقض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : من ؟ ولا يقول : يا غلام ، ولكن بمحمد يسبح وقال صلى الله عليه وسلم : « تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهة أو على يده ويسأله كيف هو وتنام تحياكم المصافحة » وقال عليه السلام : « من عاد مريضاً فقد في مغارف الجنة حتى إذا قام وكل به سيمون ألق ملك يهلون عليه حتى الليل » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قد عنده قرت فيه » وقال عليه السلام : « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوت منزلتي في الجنة » وقال عليه السلام : « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لمولاه ؟ فإن هو إذا جاءه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدى على إن توفيت أن أدخله الجنة وإن أنا شفيت أن أبدل له لما خيراً من له ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يصعب منه » وقال عثمان رضي الله عنه مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم أعينك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من مشاء ما جدد » قاله امرأته ودخل صلى الله عليه وسلم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له : « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبرا على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فأنت تستحي إحداهن » ويستحب للعليل أيضاً أن يقول : أعود بعمرة الله وقدرته من شر ما أجد وأحذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شكاً أحدكم بكم فليسال أمرأته شيئاً من صلواتها ويشتري به صلا ويشره بهاء الصلاه فيجمع له الحقة والمريء والشفاء .

(١) « من عاد مريضاً فقد في مغارف الجنة ... » أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي بن أبي حمزة السلم عائداً متى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس غفرته الرحمة فإن كان في غدوه صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء ... » لفظ ابن ماجة وصححه الحاكم وحسنه الترمذي والمسلم من حديث ثوبان « من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة » . (٢) « إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قد عنده قرت فيه » الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال « انتمس فيها » قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صحه ابن عبد البر ، وذكر مالك في الوطأ بلاغا بلفظ « قرت فيه » ورواه الواقدي بلفظ « استقر فيها » وللطبراني في الصغير من حديث أنس « فإذا قد عنده غفرته الرحمة » وله في الأوسط من كلام كعب بن مالك وعمر بن حزم « استمتع فيها » .

(٣) « إذا عاد للمسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوت منزلتي في الجنة » أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة أنه قال « ناداه مناد » قال الترمذي غريب ، قلت : فيه عيسى بن سنان القسلي ضعفه الجمهور . (٤) « إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا ما يقول لمولاه .. » مالك في الوطأ مرسل من كلام عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثير التقي ضعيف الحديث والبيهقي من حديث أبي هريرة قال : قال الله تعالى « إذا ابتليت عبدي لمؤمناً فلم ينسكني إلى عواده أطلتته من أسارى ثم أبدله لما خيراً من له ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » وإسناده جيد . (٥) « من يرد الله به خيراً يصعب منه » البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث عثمان : مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم أعينك بالله الأحد الصمد .. » ابن السني في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من كلام عثمان بن عفان بإسناد جيد . (٧) « دخل علي وهو مريض فقال قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بإسناد ضعيف : أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً . وروى البيهقي في الدعوات من كلام عائشة : أن جبريل عليها لاني عليه السلام وقال إن الله يبارك أن أن تدعو بهؤلاء الكلمات .

والمباروك. وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها حريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » قلت : بلى يا رسول الله قال « يقول لا إله إلا الله يحيى ويميت وهو حي لا يموت سبحانه اللهوب العباد والبلاد واحد له حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال . الله أكبر كبيرا . إن كبرياءه ونبأوجلاله وقدرته بكل مكان . اللهم إن أنت أمرضني لتقبض روحي في مرضي هذا فأجعل روحي في أرواح من سبقتهم منك الحسنى وبادعني من النار كما بادعت أولئك الذين سبقتهم منك الحسنى^(١) » وروى أنه قال عليه السلام « عيادة المريض بعد ثلاث فراق ناقة^(٢) » وقال طائوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عيادة المريض مرة سنة فما ازدادت فخافه . وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث . وقال عليه السلام « أغبوا في العيادة وأرجوا فيها^(٣) » وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والتضرع والفرح إلى اللهاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء .

ومنها أن يمسح جنازته قال صلى الله عليه وسلم « من شيع جنازة لله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن لله قيراطان^(٤) » وفي الخبر « القيراط مثل أحد^(٥) » ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن في قرارات كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول المشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإننا راحمون . موعظة بليغة وغظة سريعة ينصب الأول والآخر لاعتقله . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تهر صيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم ما مدت حيا . وقال الأعشى : كنا نهد الجناز فلا ندري لمن نرى لحون القوم كلم ؛ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال : لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومراة الموت قد ذاق وخوف الحائمة قد آمن . وقال عليه السلام « يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله^(٦) » .

ومنها أن يزور قبر يوم والمقصود من ذلك اللهاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم « ما رأيت منظرا إلا والقبر أظفح منه^(٧) » وقال عمر رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى المقابر جلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه ؛ فبكي وبكىنا . فقال « ما يبكيكم ؟ » قلنا بكينا لبكائك . قال « هذا قبر أمته بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى على فأدركني ما يدرك الولد من الرقة^(٨) » وكان عمر رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحية ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد^(٩) » وقال مجاهد . أول

(١) عن أبي هريرة « ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي اللرض والكفارات . (٢) « عيادة للمريض فواق ناقة » ابن أبي الدنيا في كتاب اللرض من كلام أنس بإسناد فيه جهالة . (٣) « أغبوا في العيادة وأرجوا » رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من كلام جابر وزاد « إلا أن يكون متلويا » وإسناده ضعيف . (٤) « من تبع جنازة لله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن لله قيراطان » الشيخان من حديث أبي هريرة . (٥) « القيراط مثل جبل أحد » مسلم من كلام ثوبان وأبى هريرة وأصله متفق عليه . (٦) « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد » مسلم من حديث أنس .

(٧) « ما رأيت منظرا إلا والقبر أظفح منه » الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى غريب . (٨) حديث عمر : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فأبى المقابر جلس إلى قبر ... الحديث في زيارته قبر أمه . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا وأحمد من حديث بريدة وفيه : فقام إليه عمر ففداه بالألم والألم ، يقول يا رسول الله مالك . (٩) حديث عثمان بن عفان « إن القبر أول منازل الآخرة .. » الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده .

ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت العبد وبيت الوحدة وبيت القرية وبيت القلعة ، فهذا ما أعددت لك فا أعددت لي ، وقال أبو برد : ألا أخبركم بيوم تقرأ يوم أوضع في قبري . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فيقبله في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإن قتلتهم لم يتأبوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يفكر لنفسه ولم يبع لهم فقد خان نفسه وعانهم . وقال عليه السلام : « ما من ليلة إلا وينادي مناد : يا أهل القبور من تخبطون ؟ قالوا : نخط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره ^(١) » وقال سفيان : من أكثر ذكر القبر وجده روحه مزدياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبراً فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه وبمكة ساعة ثم قال : (رب ارجعوني لعل أعمل صالحاً فيما تركت) ثم يقول : يارب قد أرجست فاعمل الآن قبل أن لا ترجع وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركو أهل الدنيا في لذاتهم أما ترام مرصعي قد خلت بهم المثلثات وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد آمن من عذاب الله .

وآداب المزمى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التجم .

وآداب تضييع الجنائز لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة المحتضر التذكير في الموت والاستعداد له وأن يمشي أمام الجنائز بقرتها والإسراع بالجنائز سنة ^(٢) هذه جملة آداب تقيه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق .

والجمل العامة فيه أن لا تستعصر منهم أحداً حياً كان أو ميتاً فهلك لأنك لا تدري لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلمه يهتم لك بمثل حاله ويحتم له بالصلاح ؟ ولا تنظر إليهم بين التحطيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغيرة ما فيها . ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا تسقط من عين الله . ولا تبدل لهم دينك لثقل من دنياهم قصص في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا تتأمد بحيث تظهر العداوة فيقول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك وديناك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكراً في الدين تضاد أقوالهم التبيين وتنظر إليهم بين الرحمة لهم لئلا ترضهم لقتل الله وعقوبته بمصائبهم لحسب جهنم يصلونها ، فلك تحفد عليهم ولا تسكن إليهم في موتهم لك وثأبتهم عليك في وجهك وحسن بشرم لك فأنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في الماتة إلا واحداً وربما لا تجده . ولا تفك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ولا تطمع أن يكون لك في القيب والسرا في العلانية فذلك طمع كاذب وأنت تغتر به ؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستجبل الذل ولا تنال الفرض . ولا تعل عليهم تذكر الاستغناء عنهم فإن الله يلجئك إليهم حضرة على التكرار باظهار الاستغناء . وإذا سألت أعا منهم حاجة فعضاها فهو أخ مستغدا وإن لم يقض فلا تاتبه فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشغل بوعظ من لا ترى فيه غايل القبول فلا يسمع منك ويماذك ، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تخصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وغيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك واستمد باقه أن يكلك إليهم . وإذا بلك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أهابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستمد باقه من شرم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي .

(١) « ما من ليلة إلا ينادي مناديا أهل القبور من تخبطون ؟ فيقولون أهل للمساجد ... » لم أجده أصلاً .

(٢) « الإسراع بالجنائز » متفق عليه من كلام أبي هريرة « أسرعوا بالجنائز ... »

واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجلل الله لك موضعاً في قلوبهم فاقه المحب والمبغض إلى القلوب وكن فهم نبيما
لحفيهم أسمى على باطلهم خلوقاً بحقهم صموئلاً عن باطلهم . واحذر صيحة أكثر الناس فأنهم لا يقبلون عثرة ولا ينفرون
ذلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على التقدير والتقدير ويحسدون على القليل والكثير ، يتصفون ولا يتصفون
ويؤاخذون على الخطأ والسيان ولا يصفون ، ينفرون الإخوان على الإخوان بالتيمة والبهتان ، فصحة أكثرهم
خسران وقيلبتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطلهم الحق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في
ملتهم ، ظاهرهم ثياب وباطلهم ذئاب يقطعون بالفتن ويغامزون وراكم بالعمون ويترصون بصديقهم من الحسد
ريب المتن ، يحسون عليك الشررات في صحتهم ليواجموها في غصبتهم ووحشتهم ، ولا تمول على مودعتهم لم تخبره
حق الخيرة ، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تصافيه أو تعامله
في الدينار والدرهم أو تقع في شدة تحتاج إليه ، فإن رضيت في هذه الأحوال فانتفعه أبا لك إن كان كبيراً أو ابناً لك
إن كان صغيراً أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

حقوق الجوار

أعلم أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام . فيستحق الجوار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة
إذا قال النبي ﷺ « الجيران ثلاثة : جاره حق واحد ، وجاره حقان ، وجاره ثلاثة حقوق ، فالجار الذي له
ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق
الجوار وحق الإسلام ، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك (١) » فافطر كيف أثبت للبشر حقاً بمجرد الجوار
وقد قال صلى الله عليه وسلم « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً (٢) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما زال
جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (٣) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليكرم جاره (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم
« أول خصمين يوم القيامة جاران (٦) » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت (٧) »
وبروي أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إن لي جاراً يؤذيني فيشتني ويضيق علي فقال : اذهب
فإن هو صلى الله عليه وسلم فيك فاطمعه الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل
وترضى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم « هي في النار (٨) » . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم « اصبر » ثم قال له في الثالثة أو الرابعة « اطرع متاعك في الطريق » قال : لجلل الناس يعمرون به
ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره قال : لجللوا يقولون : لعنة الله ، فجاءه جاره فقال لرد متاعك فوأك لا أعود (٩)

- (١) « الجيران ثلاثة جاره حق وجاره حقان وجاره ثلاث حقوق ... » أخرجه الحسن بن سفيان والبخاري
في مسندهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدى من كلام عبد الله بن عمرو
وكلامه ضعيف . (٢) « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً » تقدم (٣) « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه من كلام عائشة وابن عمر . (٤) « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »
متفق عليه من كلام أبي شريح . (٥) « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » أخرجه البخاري من كلام أبي شريح أيضاً .
(٦) « أول خصمين يوم القيامة جاران » أخرجه أحمد والطبراني من كلام عتبة بن عامر بسند ضعيف .
(٧) « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت » لم أجده أصلاً (٨) « إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وترضى
جيرانها فقال فيها في النار » أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد (٩) « جاء رجل إلى
النبي ﷺ يشكو جاره فقال اصبر ثم في الثالثة - أو الرابعة - اطرع متاعك على الطريق ... » أخرجه أبو داود
وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم .

وروى الزهري : أن رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره فأمره النبي ﷺ أن ينادي على باب المسجد ألا إن أربعين داراً جواراً قال الزهري : أربعون مكنذا وأربعون مكنذا وأربعون مكنذا وأربعون مكنذا وأربعون مكنذا . وقال عليه السلام « البين والشؤم في المرأة والمسكن والفرس ؛ فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها . غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها . وعين المسكن سمته وحسن جوار أهله ، وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله . وعين الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعبته وسوء خلقه » .

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى قط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء . حق ، ولا يكتفى احتمال الأذى بل لابد من الرقي وإسداء الخير والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يملق بجاره الثني يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا لم منفي معروفه وسد باب دونه ؟

وبلغ ابن المقفع أن جلاً له يبيع داره في دين ركة وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ما قت إذا بهرمة ظل داره إن بأها معلما فدفن إليه ثمن الدار وقال : لا تبيعها . وشكا بعضهم كثرة القمار في داره ؛ فقيل له : لو اقتنيت مراً ؟ فقال : أخشى أن يسمع القمار صوت المهر فيهرب إلى دوز الجيران فأكون قد أحبيت لهم ما لا أحب لنفسى .

وجملة حق الجار : أن يبدأ بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويسود في المرض ويعزي في العسبة ، ويقوم معه في الزاء ، ويهت في الفرح ، ويظهر الشكر في السرور معه ، ويصنع عن زلاته ، ولا يطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضيقه في وضع الجذع على جندره ، ولا في مصب الماء في ميزانه ، ولا في مطرح التراب في فاته ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يقيه النظر فيما يجمه إلى داره ، ويسر ما يتكشف له من عوراته ، ويهش من صرخته إذا نابه نأية ، ولا يغفل عن ملاحقة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويضبط بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلف بوجهه في كفته ، ويرشده إلى ما يحبه من أمر دينه ودنياه . هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لجامعة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أقدمون ماحق الجوار ؟ إن استعان بك أعت ، وإن استصرك نصرت ، وإن استقر منك أقرضته ، وإن اقتصر عنت عليه ، وإن مرض عده ، وإن مات تبست جنازته ، إن أصابه خير متأنه ، وإن أصابه مصيبة عزيت ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحبب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذ ، وإذا اشتريت فأكفه فأكفه له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يفرج بها وفك ليخبط بها ولده ، ولا تؤذ بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها ، ثم قال : أقدمون ماحق الجوار ؟ والذي نفس بيده لا يبلغ حق الجوار إلا من

(١) حديث الزهري « ألا إن أربعين داراً جار » أبو داود في الراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من كلام أبي هريرة وقال « أربعون ذراعاً » وكلامه ضيف (٢) « البين والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها .. » مسلم من كلام ابن عمر « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وفي رواية له « إن بك من الشؤم شيء حقاً » وله من كلام سهل بن سعد « إن كان في الفرس والمرأة والمسكن » وللترمذي من كلام حكيم بن مائة « لا شؤم وقد يكون البين في الدار والمرأة والفرس » ورواه ابن ماجه فضاه محمد بن مائة والطبراني من كلام أسماء بنت عميس : قالت يا رسول الله ماسوء الدار ؟ قال « ضيق صاحبها وخبت جيرانها » قيل فما سوء الدابة ؟ قال « منما ظهرها وسوء خلقها » قيل فما سوء المرأة ؟ قال « عقم رحمها وسوء خلقها » وكلامه ضيف ورويناه في كتاب الحيل للحماني من رواية سالم بن عبد الله مرسل « إذا كان القربس ضرورياً مشثوم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجاً غير زوجها خنت إلى الزوج الأول فهي مشثومة وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة فهي مشثومة » وإسناده ضيف ووصله صاحب القردوس بذكر ابن عمر فيه .

رحمه الله^(١) » وهكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلم شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فأبدا بجارتنا اليهودى ، حتى قال ذلك مراراً فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله ﷺ لم يزل يوحينا بالجوار حتى خشنا أنه سيورثه^(٢) وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجوار اليهودى والنصرانى من أضحيك ، وقال أبو ذر رضى الله عنه : أوصانى خليلي ﷺ وقال : « إذا طبخت قدرًا فأكثر ما دعا ، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرائك فأغرف لهم منها^(٣) » ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله إن لى جارين أحدهما مقبل على يبابه ، والآخر ناء يبابه حتى ، وربما كان الذى عندى لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال : للمقبل عليك يبابه^(٤) وروى الصديق ولله عبد الرحمن وهو ينادى جارا له : فقال : لاتصاح جارك ؛ فإن هذا بيتى والثاس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابورى : سألت عبد الله ابن المبارك قلت : الرجل المجاور يأتى فيسكو غلامى أنه أتى إليه أمرا والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله يرى . وأكره أن أضعه فيجده على جارى ، فكيف أصنع ؟ قال : إن غلامك لعله أن يتحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فأحفظه عليه ، فإن شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أوديت جارك وأدبت على ذلك الحدث ، وهذا تلتف في الجمع بين الحقيقتين .

وقالت عائشة رضى الله عنها : خلال المسكوم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل والمسكافة بالصنائع وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذم صاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن المياه .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامشر المسلمات لائحقن جارة لجارتها ولو فرسن شاة^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن من سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع والجوار الصالح والمركب الخفيف^(٦) » وقال عبد الله : قال رجل : يارسول الله ، كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال « إذا سمعت جيرائك يقولون قد أحسنت قد أحسنت ، وإذا سمعهم يقولون قد أسأت قد أسأت^(٧) » وقال جابر رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم من كان له جوار في حائط أو شريك فلا يمه حتى يصره عليه^(٨) » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجوار يضع جده في حائط جاره شاء أم أبى^(٩) . وقال

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أمدرون ماحق الجار ؟ إن أستمان بك أعتبه وإن استقرنك أقرنته » الخرائطى في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف (٢) حديث مجاهد « كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فأبدا بجارتنا اليهودى .. » أبو داود والترمذى وقال حسن غراب (٣) حديث أبى ذر : أوصانى خليلي ﷺ « إذا طبخت قدرًا فأكثر ما دعا ثم انظر بعض أهل بيت من جيرائك فأغرف لهم منها » رواه مسلم (٤) حديث عائشة : قلت يارسول الله إن لى جارين .. رواه البخارى (٥) حديث أبى هريرة « يساند المسلمين لائحقن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » رواه البخارى (٦) « إن من من سعادة المرء المسلم للسكن الواسع والجوار الخفيف » رواه أحمد من كلام نافع بن عبد الحارث وسعد بن أبى وقاص ، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عبد الله : قال رجل يارسول الله كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت قال : إذا سمعت جيرائك يقولون قد أحسنت قد أحسنت » رواه أحمد والطبرانى وعبد الله بن مسعود ، وإسناده جيد .

(٨) حديث جابر « من كان له جوار في حائط أو شريك فلا يمه حتى يصره عليه » ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار ، وقال صحيح الإسناد ، وهو عند الخرائطى في مكارم الأخلاق بلفظ الضيف ، وابن ماجه من حديث ابن عباس « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » ورجاله رجال الصحيح (٩) حديث أبى هريرة : قضى النبى ﷺ أن الجوار يضع جده في حائط جاره شاء أم أبى . رواه الخرائطى في مكارم الأخلاق هكذا ، وهو متفق عليه بلفظ « لا يمتن أحدكم جاره أن يصره خفية في حائطه » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة

ابن عباس رضي الله عنهما . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يضمن أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره » وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : مالي أراكم عنها معرضين ، والله لألرميتها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً عساه » قيل : وما عساه ، قال « يحبه إلى جيرانه »^(١).

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققن لها أسماء من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بقته »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه »^(٣) وفي رواية أخرى « من سره أن يبد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أفضل ؟ قال « أرقام الله وأوصلهم لرحمه . وأمرهم بالمعروف وأنها من عن المشكر »^(٤) وقال أبو ذر رضي الله عنه : أوصاني خليلي عليه السلام بملة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها »^(٦) وقال عليه السلام « إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون لجارها ، فتتم أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم »^(٧) وقال زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق والأدم فليك بك بني مدج ، فقال عليه السلام « إن الله يمنني من بني مدج يصلتهم الرحم »^(٨) وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : قدمت على أبي ، فقلت : يا رسول الله ، إن أبي قدمت على وهي مشركة فأفصلها ؟ قال « نعم »^(٩) . وفي رواية : أفأفصلها ؟ قال « نعم صلها » . وقال عليه السلام « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثلثان »^(١٠) ولما أراد أبو طلحة أن يصدق بمخاطب كان له يسجبه عملاً يقول له تعالى (لن تأتوا البر حتى تنفقوا مما يحبون)^(١١) قال :

- (١) « من أراد الله به خيراً عساه » رواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني ، والحرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الزهد من كلام عمرو بن الحنف . زاد الحرائطي : قيل وما عساه ؟ قال « حبه إلى جيرانه » وقال البيهقي « يفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله » وإسناده جيد (٢) « يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم .. متفق عليه من كلام عائشة » (٣) « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » متفق عليه من كلام أنس دون قوله « فليتيق الله » وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناده جيد (٤) حديث : أي الناس أفضل فقال « أرقام الله وأوصلهم للرحم » رواه أحمد والطبراني من كلام درة بنت أبي لباب بإسناده جيد (٥) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي ﷺ بملة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ؟ رواه أحمد وابن حبان وصححه (٦) « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ . ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » رواه الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو ، وهو عند البخاري دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » فرواها مسلم من حديث عائشة (٧) « أعجل الطاعات ثواباً صلة الرحم .. » رواه ابن حبان من كلام أبي بكر ، والحرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف (٨) حديث زيد بن أسلم : لما خرج النبي ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق والأدم فليك بك بني مدج ؟ قال « إن الله يمنني من بني مدج يصلتهم الرحم » رواه الحرائطي في مكارم الأخلاق ، وزاد « وطعنهم في لباب الإبل » وهو مرسل صحيح الإسناد (٩) حديث أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أبي فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أبي وهي مشركة فأفصلها ؟ قال « نعم صلها » متفق عليه (١٠) « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان بن عامر الضبي (١١) لما أراد أبو طلحة أن يصدق بمخاطب كان يسجبه عملاً بقوله تعالى (لن تأتوا البر حتى تنفقوا مما يحبون) . . . أخرجه البخاري وقد تقدم .

بارسول الله ، هو في سبيل الله والفقراء والمساكين . فقال عليه السلام « وجب اجرک على الله فاقسمه في أقاربک » وقال عليه السلام « أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح » (١) وهو في معنى قوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصنع عن ظلمك » (٢) وروى أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتأوروا ولا يتجاوزوا ، وإنا قال ذلك لأن التجاور يورث الأرحام على الحقوق ، وربما يورث الرحمة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكيد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لن يجرى ولد والله حتى يجهده مملوكا فيشتره فيعتقه » (٣) وقد قال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله » (٤) وقد قال ﷺ « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجنة يوجد ربها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ربها عاق ولا قاطع رحم » (٦) وقال صلى الله عليه وسلم « بر أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك » (٧)

ويرى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : يا موسى ، إنه من بر والديه وعقبي كنيته بارا ، ومن بر ذؤوق والديه كنيته ظافرا .

وقيل : لما دخل يعقوب على يوسف عليها السلام لم يقم له : فأوحى الله إليه : أتعاظم أن تقوم لأبيك ، وعزى وجلال لا أخرجت من صلبك نبيا .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرهما ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء » (٨) وقال مالك بن ربيعة : بينا نحن

(١) « أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح » رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب ، وفيه الحجاج بن أرطاة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة (٢) « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك . . . » أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف للطبراني نحوه من حديث أبي أمامة وقد تقدم (٣) « لن يجرى ولد والله حتى يجهده مملوكا فيشتره فيعتقه » مسلم من كلام أبي هريرة (٤) « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد » لم أجده هكذا ، وروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس : أتى رجل النبي ﷺ فقال : إني أشتي الجهاد ولا أقدر عليه . قال « هل بقي من والدك أحد ؟ قال : أمي ، قال « قابل الله في برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومتمتع ومجاهد » وإسناده جيد (٥) « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة . . . » أخرجه البيهقي في الشعب من كلام ابن عباس ولا يصح (٦) « إن الجنة يجد ربها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ربها عاق ولا قاطع رحم » الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع ، وفي الأوسط من حديث جابر ، إلا أنه قال « من مسيرة ألف عام » وإسناده ضعيف (٧) « بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » النسائي من حديث طارق الحارثي ، وأحمد والحاكم من حديث أبي رزمة ، ولأبي داود نحوه من حديث كليب بن منعة عن جده ، وله وللقزويني والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده . من أرب : قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم الأقرب فالأقرب » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : قال رجل : من أحق بحسن الصحبة ؟ قال « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » لفظ مسلم (٨) « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين . . . » الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف ، دون قوله « إذا كانا مسلمين » .

عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلة فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من ير أبوى شيء أبرهما بعد وفاتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام حديتهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما (١) وقال ﷺ « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب » وقال ﷺ « بر الوالدة على الولد ضعفان » وقال ﷺ « دعوة الوالدة أسمع إجابة . قيل : يا رسول الله ، ولم ذلك قال : هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط » (٢) .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله من أبر ؟ فقال : « بر والديك » فقال : ليس لي والدان ، فقال : « بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق » (٣) وقال ﷺ « رحم الله والدا أمان وولده على بر » أى لم يجعله على العقوق بسوء عمله . وقال ﷺ « ساورا بين أولادك في العطية » وقد قيل : ولدك رحمتك نفسها سبعا وغلامك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك » وقال أنس رضي الله عنه : قال النبي ﷺ « الغلام يبق عنه يوم السابع ويسمى وبماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فرائشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة حارب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ، ثم أخذ يده وقال أدبتك وعلمتك وأنتكحك » أعود بالله من فتنك في الدنيا وضابطك في الآخرة » (٤) وقال ﷺ « من حق الولد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » (٥) .

وقال عليه الصلاة والسلام « كل غلام رهين أو رهينة بقيقته تذبغ عنه يوم السابع ويحلق رأسه » (٦) وقال قتادة : إذا ذهبت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ العقب حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يفصل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فسأله بعض ولده فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : انتأأفسدته . ويستحب الرقي بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إن لي

(١) حديث مالك بن ربيعة « بينما نحن عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلة فقال هل بقي على من ير أبوى شيء... » رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٢) « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » مسلم من كلام ابن عمر . (٣) « بر الوالدة على الولد ضعفان » غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من كلام بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث . (٤) « الوالدة أسمع إجابة » لم أقف له على أصل . (٥) قال رجل يا رسول الله من أبر ؟ قال « بر والديك » فقال ليس لي والدان فقال « ولدك فكذا أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق » رواه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله « فكذا أن لوالديك » إلخ وهذه القطعة رواها الطبراني من كلام ابن عمر قال الدارقطني في العلل إن الأصح وقفه على ابن عمر . (٦) « رحم الله والدا أمان وولده على بر » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التواب من كلام علي بن أبي طالب وابن عمر بضعيف ورواه التوفاني من رواية الشعبي مرسل (٧) حديث أنس : الغلام يبق يوم السابع ويسمى وبماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب وإذا بلغ سبع سنين عزل فرائشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ يده وقال قد أدبتك وعلمتك وأنتكحك أعود بالله من فتنك في الدنيا والآخرة رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال « وأدبوه لسبع وزوجوه . لسبع عشر ولم يذكر الصوم » وفي إسناده من لم يسم . (٨) « من حق الولد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن وحيد عائشة وضعفها (٩) « كل إنسان رهين أو رهينة بقيقته تذبغ عنه يوم السابع ويحلق رأسه » رواه أصحاب السنن من كلام مرة قال الترمذي حسن صحيح .

عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ! فقال عليه السلام : « إن من لا يرحم لا يرحم » ^(١) وقالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله ﷺ يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أفقه ، فغسل يديه ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » ^(٢) وتمتع الحسن - والتي عليه السلام على منبره - فزل فخله وقرأ قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ^(٣) وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا قد أطعت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إن ابني قد ارتحنني فكرهت أن أجعله حتى يقضى حاجته » ^(٤) وفي ذلك فوائد : إحداهما القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ، وفيه أرفق بالولد والبر ، وتعليم لامته . وقال عليه السلام : « ربح الولد من ربح الجنة » ^(٥) .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعمد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، ومعام ظلية ، وبهم نصول على كل جليظة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، بمنحوك ودم وبمحوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ويوردوا وفاتك ويكرهوا قريك ؟ فقال له معاوية : قه أنت يا أحنف ، لقد دخلت على وأنا أعلو غضبا غيظا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عندهم عن يزيد وبست إليه بما أتى ألف درهم وماتى ثوب فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقامه إياها على السطر .

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بمحبتهم تعرف ما ذكرناه في حق الأخوة ، فإن هذه الزاجلة أكد من الأخوة ، بل يزيد هنا أمران (أحدهما) أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الصلوات وإن لم يحب في الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنقصان بانفرادك منهما بالطعام فليكن أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس أن تسافر في مياح أو نافلة إلا بإذنها ، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كن يسر ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرح الإسلام فليسه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هل باليمن أبوك » قال : نعم ، قال « هل أذنالك » قال : لا ، فقال عليه السلام « فارجع إلى أبوك »

(١) « رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال « من لا يرحم لا يرحم » رواه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث عائشة : قال لي النبي ﷺ يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أفقه ، فغسل يديه ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » لم أجده ههنا ولا أحد من كلام عائشة « أن أسامة عثر بعتة الباب فدى فجعل النبي ﷺ بمه ويقول « لو كان أسامة جارية لخليتها ولكسوتها حتى أفقهها » وإسناده صحيح (٣) « عثر الحسن وهو على منبره ﷺ فزل فخله وقرأ قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أصحاب السنن من كلام يزيد بن الحسن والحسين مما يمشيان ويثران قال الترمذي حسن غريب (٤) حديث عبد الله بن شداد : بينما النبي ﷺ يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه . رواه النسائي من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الشك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٥) « ربح الولد من ربح الجنة » رواه الطبراني في الصغير والأوسط وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منديل بن علي ضعيف .

فاستأذنها ، فإن فعلا فبها ، وإلا فبرها ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله بعد التوحيد (١) . وجاء آخر إليه ﷺ يستشير في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » قال : نعم . قال فآزرها فإن الجنة عند رجلها (٢) . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ما جئتك حتى أبكيك والدي ، فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما (٣) »

وقال ﷺ « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده (٤) » . وقال عليه السلام « إذا استعصبت على أحدكم دابة أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه (٥) »

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح ، فأما ملك الدين فهو أيضا يقتضى حقوقا في المعاشرة لابد من مراعاتها ؛ فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم أطعموه مما تأكلون وأكسوه مما تلبسون ولا تكلفوه من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببت فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تضربوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملككم إياكم (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق (٧) » وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة (٨) » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم نفق عن الخادم ؟ فقصت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدري « هاجر رجل إلى النبي ﷺ من اليمن وأراد الجهاد فقال ﷺ : باليمن أو أواله؟ قال نعم .. » رواه أحمد وابن حبان دون قوله « ما استطعت » إلخ . (٢) جاء آخر إلى النبي ﷺ يستشير في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » قال : نعم . قال : فآزرها فإن الجنة تحت قدميها » رواه النسائي وابن ماجه من حديث معاوية ابن جهمه : أن جهمه أتى النبي ﷺ .. قال الحاكم صحيح الإسناد . (٣) جاء آخر قال : ما جئتك حتى أبكيك والدي فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من كلام ابن عمرو وقال صحيح الإسناد . (٤) « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من كلام أبي هريرة ورواه أبو داود في الراسل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلًا وصله صاحب مسند القردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف (٥) « إذا استعصبت على أحدكم دابة أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه » أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من الحسين بن أبي طالب بسند ضعيف . (٦) كان من آخر ما أوصى به النبي ﷺ أن قال « اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم أطعموه مما تأكلون .. » إلخ وهو مفرق في عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث علي كان آخر كلام النبي ﷺ « الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم » وفي الصحيحين من كلام علي كان آخر وصية النبي ﷺ حين حضره الموت « الصلاة الصلاة وما ملكت إيمانكم » ولها من كلام أبي ذر « أطعموه مما تأكلون وأكسوه مما تلبسون ولا تكلفوه من ينظرون فإن كفتموه فأتعوه » لفظ رواية مسلم وفي رواية لأبي داود « من لا يعك من مملوككم فأطعموه مما تأكلون وأكسوه مما تلبسون ومن لا يلايعك منهم فبيعه ولا تضربوا خلق الله تعالى » وإسناده صحيح . (٧) « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٨) « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة » أحمد مجوعا والترمذي مفرقا وابن ماجه مقتصرًا على « سيء الملكة » من كلام أبي بكر عند أحد منهم متكبر والترمذي البخيل واللذان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقه .

ثم قال « اعف عنه في كل يوم سبعين مرة ^(١) » وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت ، فإذا وجد عبداً في عمل لا يعطيه وضع عنه منه . وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلاً على دابته وغلظه يسبح لله فقال له : يا عبد الله احمله خلقك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مثى خلفه . وقالت جارية لآلئ الدرداء : إني سمعتك منذ سنة فما عمل فيك شيئاً فقال : لم قلبك ذلك ؟ فقالت : أردت الراحة منك ، فقال : أذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهري : متى قلت للملوك أخراك الله فهو حر . وقيل للأخف بن قيس ممن تملكت الحلم ؟ قال : من قيس بن صاصم ، قيل فما بلغ من حله ؟ قال : بينما هو جالس في داره إذ أتته غادمة له يسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فقمره فأت ، فعمشت الجارية ، فقال : ليس يسكن روح هذه الجارية إلا المتي فقال لها : أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه قال : ما أشبهك بمولاك ؟ مولاك يمضى مولاه وأنت تمضى مولاك ، فأغضب يوماً فقال : إنما زيد أن أن اضربك أذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران صيف فاستعمل على جاريته بالعشاء فجاءت سرعة ومعها قصعة مملوءة ، فشرت وأراقها على رأس سيدها ميمون ، فقال : يا جارية أحرقتي ، قالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس أرجع إلى ما قال الله تعالى قال : وما قال الله تعالى ؟ قالت : قال (والكاظمين الفلظ) قال : قد كظمت غيظي ، قالت (والمافين عن الناس) قال : قد عفوت عنك ، قالت : فإن الله تعالى يقول (والله يحب المحسنين) قال : أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن المنكدر . إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له لجمل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ؟ فلم يعنه فسمع رسول الله ﷺ صباح العبد فاطلق إليه ؛ فلما رأى رسول الله ﷺ أسك يده فقال رسول الله ﷺ « سألك بوجه الله فلم يعنه فلما رأيتي أسكت يدك » قال : فإنه حر لوجه الله يا رسول الله ، فقال « ولم تفعل لسمعت وجهك النار ^(٢) » وقال رسول الله ﷺ « العبد إذا وضع لسيده وأحسن عبادة الله لله أجره مرتين ^(٣) ، ولما اعتق أبرأه بكى وقال : كنزك أجزان فذهب أحدهما . وقال رسول الله ﷺ « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشديد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مملوك ذو شؤنة لا يعطى حق الله وفقير غرور ^(٤) » وعن أبي مسعود الأنصاري قال : بينما أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي « اعلم يا أبا مسعود » مرتين فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فالتفت الوسط من يدي فقال « والله أنه أفقر عليك منك على هذا ^(٥) » وقال رسول الله ﷺ « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه ^(٦) » رواه معاذ

- (١) حديث ابن عمر : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله كم تنفو عن الخادم ؟ فصمت ثم قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » رواه أبو داود والترمذي وقال صحيح غريب (٢) حديث ابن المنكدر : أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ضرب عبداً له فجمل العبد يقول أسألك بالله أسألك بوجه الله ؟ فسمع النبي ﷺ صباح العبد .. رواه ابن المبارك في الزهد مراسلاً وفي رواية لسم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره : فجمل يقول : أعوذ بالله . قال فجمل يضربه فقال أعوذ برسول الله ﷺ فتركه ، وفي رواية له : قلت هو حر لوجه ، فقال « أما إنك لو لم تفعل لفتحت النار » أو « لستك النار » (٣) « إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله لله أجره مرتين » متفق عليه من كلام ابن عمر (٤) « عرض على أول ثلاثة يدخلون وأول ثلاثة يدخلون الجنة النار : فأول ثلاثة يدخلون الجنة الشديد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده . » رواه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة . (٥) حديث أبي مسعود الأنصاري : بينما أنا أضرب غلاماً لي سمعت صوتاً من خلفي « اعلم يا مسعود » مرتين .. رواه مسلم . (٦) حديث معاذ « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه » رواه الطبراني في الأوسط والحراطي في مكالم الأخلاق بسند ضعيف .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليقبله وليأكل معه فإن لم يفعل فليأوله لئمة^(١) » وفي رواية « إذا كنى أحدكم مملوكه ستمة طعامه ؛ فكفاه حره ومؤته وقربه إليه فيقبله وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليأوله أو ليأخذ أكلة فليروغها - وأشار بيده - وليضعها في يده وليقل كل منه ودخل على سلمان رجل وهو يصنع فقال : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بشئا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عملين . وقال ﷺ « من كانت عنده جارية فهاضما وأحسن إليها ثم أعقها وتزوجها فذلك له أجران^(٢) » وقد قال ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته^(٣) » .

ثمة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بهين الكبر والأزدراء . وأن يغفر عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهوته أو بجنائيه في معاصيه وجنائيه على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته . وروى فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال « ثلاثة لا يستل عنهم : رجل فارق الجماعة ، ورجل عصى إمامه فأت عاصيا فلا يسأل عنهما ، وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفها مؤنة الدنيا فخرجت بعده فلا يسأل عنها . وثلاثة لا يسأل عنهم رجل يتأذى الله رداه ووداه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل في شك من الله ، وقنوط من رحمة الله^(٤) » .

تم كتاب الصعبة والمعاشره مع أصناف الخلق .

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربيع الماديات من كتب إحياء علوم الدين
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته ، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آياته وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته ، وحرق في قلوبهم النظر إلى منافع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بمرئته كل من طوبت الحجب عن مجاري فكرته فاستأنس بمطالع المسبحات وجهه تعالى في خلوته ، واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحبه سادة الحق وأئمة .

أما بعد : فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى ، مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها فوائدها تدعو إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصعبة من فضيلة المخالطة والمزاولة والمؤالفة يكاد يتناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة ، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم . ويحصل ذلك برسم بابين (الباب الأول) في نقل المناهب والجميع فيها (الباب الثاني) في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والنوائيل .

(١) حديث أبي هريرة « وليأكل معه فإن أبى فليأوله » وفي رواية « إذا كنى أحدكم مملوكه ستمة طعامه .. » متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للتراثي بالفتن الذين ذكرهما الصنف غير أنه لم يذكر علاجه وهذه اللفظة عند البخاري .

(٢) « من كانت عنده جارية فهاضما وأحسن إليها ثم أعقها وتزوجها فذلك له أجران » متفق عليه من حديث أبي موسى .

(٣) « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم .

(٤) حديث فضالة بن عبيد « ثلاثة لا يسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا .. » الطبراني والحاكم وصححه .

الباب الأول في قتل المذاهب والأقوال

وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف الناس فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفصيلها على المخالفة : سفيان الثوري ، وإبراهيم ابن آدم ، وداود الطائي ، وضئيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعي ، وبشر الحافي .

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالفة واستكثار المعارف والإخوان والتألف والتجيب إلى المؤمنين والاستماعة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا : سميد بن المسيب ، والشعب ، وابن أبي ليلى ، ومهناج بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والثاقفي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة .

والمأثور عن العلماء من الكلبيات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين ، وإلى كلمات مقرونة بما يشهد إلى حلة الميل . فنقول الآن مطلقات تلك الكلبيات لتبين المذهب فيها ، وما هو مقرون بذكر الملة نوره عند التعرض للفوائد والفوائد . فنقول : قد روى عن عمر رضي الله عنه قال : خلوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كنى بالله عيا وبالقُرآن مؤسداً بالموت واحطاً . وقيل : اتخذها صاحباً ودع الناس جانباً . وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي : عظمي ، قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله : كلمات أحفظهن من التوراة ، قطع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، وترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتع طويلاً . وقال وهيب ابن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها في الصمت والمعاشر في عزلة الناس . وقال يوسف بن مسلم لعل بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ - وقد كان لرم البيت - فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ، كنت أجالس الناس ولا أكلمهم . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فسكنا منا سبماً لأنسمع له كلاماً ، فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخاطبنا ولا تكلمنا ، فأنتأ يقول :

قليل الملم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
فضى وطر الصبا وأفاد علماً فتأبته الضرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقههم اعتزل ، وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كل مالك بن أنس يشهد الجنازة ويعود المرضي ويعطي الإخوان حقوقهم ترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتبأ للمرء أن يغتر كل عند له . وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو فرغت لنا ؟ فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل : إن لا جد للرجل عندي هذا ، إذا لقينى أن لا يسلم علي ، وإذا مرضت أن لا يعودني . قال أبو سليمان الداراني : بيننا الربيع ابن خثيم جالس على باب دياره إذ جاءه حجر فركبته فشقها ، لجمل سمك السموي يقول لقد وضعت ياربيع فقام ودخل داره فجالس بهد ذلك على باب داره حتى أخرجه جنازته . وكان سميد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لهما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتیان المدينة لجمعة ولا غير ما حتى ماتا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثوري يقول : والله لا بد لي إلا لو لقد دخلت العزلة وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فأنك لا تدري ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن

فضيحة كان من عرفك قليلا. ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له : ألك حاجة ؟ قال نعم ، قال : وما هي ؟ قال إن لا ترائي ولا أراك ولا تعرفني ، وقال وجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر ؟ قال : انصبحنا فقال : فليصحبه الآن ، وقيل : الفضيل : إن عليا ابنك يقول وددت أن أفي مكان أرى الناس ولا يروني فيكي الفضيل وقال : يا ربح على أفلا أنما فقال لا أراهم ولا يرونني ؟ وقال الفضيل أيضا : من سخا فحق الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضل المجالس مجلس في قمر بيتك لا ترى ولا تروى . فهذه أقوال المائلين إلى المروة .

ذكر جميع المائلين إلى المخالفة ووجه منفيها

احتج هؤلاء بقوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) الآية وبقوله تعالى (فألف بين قلوبكم) آمن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالآلفة نزح الفرائل من الصدور وهي الأسباب التي تثير ثقلات الحركة للخصومات ، والمروة لا تنافي ذلك .

واحتجوا بقوله ﷺ « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(١) وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق التي تمتنع بسببه المؤلفة ، ولا يدخل تحت الحسن الخلق الذي إن غايل ألف وألف ولكنه ترك المخالفة اشتغالا بنفسه وطلبا لسلامة من غيره .

واحتجوا بقوله ﷺ « من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه » وقال « من فارق الجماعة فأت فميتة جاهلية »^(٢) وبقوله ﷺ « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه »^(٣) وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بقدر البيعة فالخروج عليهم بغيره ، وذلك مخالفة بالرأى وخروج عليهم وذلك عجز لا اضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر . فالمخالفة فيها تقويض شير الفتنة فليس في هذا تعرض للمروة .

واحتجوا بنبيه صلى الله عليه وسلم عن المهاجرين فوق ثلاث إذ قال « من هجر أعاه فوق ثلاث فأت دخل النار »^(٤) وقال عليه السلام « لا يحل لأمرئ مسلم أن يهجر أعاه فوق ثلاث والسابق يدخل الجنة »^(٥) وقال « من هجر أعاه سنة فهو كسافك دمه »^(٦) قالوا والمروة هجرة بالكلية ، وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس والنجاس فيه يقطع الكلام والسلام والمخالفة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالفة أصلا من غير غضب . مع أن المهاجرين فوق ثلاث يجازر في موضعين ؛ أحدهما : أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . والثاني : أن يرى لنفسه سلامة فيه .

كتاب المروة

الباب الأول : في قول المذاهب والجميع فيها

- (١) « المؤمن إلف مألوف ... » تقدم في الباب الأول من آداب الصبغة (٢) « من ترك الجماعة فأت فميتة جاهلية » مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام . (٣) « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربة الإسلام » الطبراني والخطابي في المروة من كلام ابن عباس بسند جيد (٤) « من هجر أخاه فوق ثلاث فأت دخل النار » أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح (٥) « لا يحل لأمرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « والسابق بالصلح » زاد فيه الطبراني « والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة » (٦) « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه » أبو داود من كلام أبي خراش السلمي حذرد بن أبي حذرد وإسناده صحيح .

والنبي وإن كان عاماً فهو محمول على ما رواه المؤمنين المختصين بدليل ما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم هجر ما ذا الحجة والمحرّم وبعض صفر^(١) . وروى عن عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآل منهن شهراً وصعد إلى غرقة له وهى خواته فلبث تسعاً وعشرين يوماً ؛ فلما نزل قيل له : إنك كنت تسعاً وعشرين ؛ فقال « الشهر قد يكون تسعاً وعشرين^(٢) » وروى عائشة رضى الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائده^(٣) » فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا يقول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأختى قرينة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذا الحاقة لا ينظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلاً حتى مات ، فقال : هذا شيء قد تقدم فيه قوم ؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجراً لمبار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجراً لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة . وكان ملاوس مهاجراً لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة . واحتجوا بما روى : أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال « لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاماً^(٤) » والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء ؛ فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أقبل ذلك حتى أذكره رسول الله ﷺ فقال ﷺ « لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين آلاً تعبون أن ينفر الله لكم وتدخلون الجنة غزواً في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فوات ناقة أدخله الله الجنة^(٥) » .

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه ﷺ قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الغاصية والتاحية والشاردة وإياكم والشعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد^(٦) » وهذا إنما أراد به من اعتزال قبل تمام العلم . وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه لضرورة .

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام « واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني إلى الآيات » ثم قال تعالى « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً » إشارة إلى أن ذلك بركة العزلة ، وهذا ضعيف لأن مخالفة الكفار لا قائمة فيها إلا لدعوتهم إلى الدين . وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه

- (١) حديث : أنه ﷺ هجر عائشة ذا الحجة والمحرّم وبعض صفر . قلت : إنما هجر زينب هذه اللدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح . (٢) حديث ابن عمر : أنه ﷺ اعتزل نساءه وآل منهن شهراً . ؛ متفق عليه . (٣) حديث عائشة : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يؤمن بوائده . أخرجه ابن عدى وقال غريب اللّث والإسناد وحديث عند أبي داود دون الاستثناء ، بإسناد صحيح .
- (٤) حديث : أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى النبي ﷺ فقال « لا تفعل » ؛ أخرجه البيهقي من حديث عيسى بن سلامة قال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين . (٥) عن أبي هريرة : غزونا على عهد النبي ﷺ فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء غزوة فقال واحد من القوم : لو اعتزلت في هذا الشعب - الترمذي وقال صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعين عاماً
- (٦) حديث معاذ بن جبل : الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الغاصية ؛ أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه اقطاعاً .

إلا حرم وإنما الكلام في مخالفة المسلمين وما فهموا البركة لما روي أنه قيل: يا رسول الله الوضوء من جر عمر أحب إليك أو من هذه المظاهر التي يظهر منها الناس؟ قال: بل من هذه المظاهر اتقاسا بركة أيدي المسلمين (١) وروى أنه ﷺ لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها، فإذا التمر المنقطع في حياض الأدم وقد معته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون، فاستسقى منه وقال «استقوني» فقال العباس: إن هذا التيزد شراب قدمته وخيض بالأيدي أفلا أتيتك بشراب أنظف من هذا من جر عمر في البيت؟ فقال «استقوني من هذا الذي يشرب منه الناس التمس بركة أيدي المسلمين» فشرب منه (٢) فإذا كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم؟

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) وأنه فرغ إلى المزلقة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف (وإذا اعتزلوهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) أمرهم بالمزلة. وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والمهجرة إلى أرض الحبشة (٣)، ثم تلاعبوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلبه. وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في المزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال «ليس بك بيتك وأسك عليك لسانك وباك على خلقك» (٤) وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى» قيل: فمن؟ قال «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب العبد الذي التقى الخفى» (٦).

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر؛ فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيهه إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بثور الثيرة من حاله، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم لمن المخالفة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في المزلة لأن المخالفة كما تكون سلامته في العقود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد،

(١) حديث: قبله ﷺ الوضوء من جر عمر أحب إليك أو من هذه المظاهر التي يظهر منها الناس؟ قال «بل من هذه المظاهر» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) «لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فإذا التمر متع في حياض الأدم قد معته الناس بأيديهم» وفيه قال «استقوني من هذا الذي يشرب منه الناس» رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طوس مرسل نحوه (٣) «اعتزاله ﷺ قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والمهجرة إلى الحبشة» رواه موسى بن عتبة في التلغزي ومن طريقة البهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسل، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب بن أبي بكر بن عبد الحارث بن هشام مرسل أيضا، ووصله من رواية أبي سلفة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن الشريكين حصروا بني هاشم في الشعب، وذكر موسى بن عتبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا النبي ﷺ شهم، ومنازى موسى بن عتبة أصح التلغزي وذكر موسى بن عتبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة، ولأبي داود من حديث أبي موسى: أمرنا النبي ﷺ أن نتطلق إلى أرض التجاشي: قال البهقي وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود: بشا النبي ﷺ إلى التجاشي. وروى ابن إسحاق بإسناد جيد ومن طريقه البهقي في الدلائل من حديث أم سلمة «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فاطفوا ببلاد»

(٤) حديث «سأله عتبة بن عامر: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: ليس بك بيتك» أخرجه الترمذي من حديث عتبة وقال حسن. (٥) «أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قيل: ثم من؟ قال: رجل معتزل» متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (٦) «إن الله يحب العبد الذي التقى الخفى» أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص

وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفي مخالطة الناس بمجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الذي يخاطب الناس ويصبر على أذى خير من الذي لا يخاطب الناس ولا يصبر على أذى » (١) وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رجل معتزل بعيد ربه ويبدع الناس من شره » فهذا إشارة إلى شرر بطبعه تأذى الناس بمخالطته . وقوله « إن الله يحب التقى الخفي » إشارة إلى إظهار الخمول وتوق الشهرة . وذلك لا يتعلق بالعزلة فكأن من رغب معتزل تعرفه كافة الناس ؟ ولكن من مخالطة غامل لا ذكر له ولا شهرة ! فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا أنبئكم بخير الناس » قالوا : بلى يا رسول الله ، فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يمير أو يقاتر عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده » وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرو الناس » (٢) فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من المجانين فلا بد من كشف الخطأ بالتصريح بفوائد العزلة وغواطلها ومقايضة بعضها بالبعض ليقين الحق فيها .

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغواطلها

وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ماضئته من آفات النكاح وفوائده ؛ فكذلك القول فيما نحن فيه . فلذلك أولافوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دنيوية ودنيوية . والدنيوية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يترسب الإنسان لها بالمخالطة ؛ كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومساورة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلسات السوء . وأما الدنيوية فتتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ، كتمكين المحترف في خلوته إلى ما يحصل من عنذورات يترسب لها بالمخالطة ؛ كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطعمه في الناس وطمع الناس فيه وانكشاف سر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق الجليس في مرآة أوسوء ظنه أو نجيته أو عاصده أو التأذى بشقه وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع جميع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد :

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستقناس بمناجاة الله تعالى من مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملوكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى . والتسكون بكتاب الله تعالى الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله لذا كرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله

(١) « الذي يخاطب الناس ولا يصبر على أذى » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) « ألا أنبئكم بخير الناس » قالوا : بلى ، قال : فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يمير أو يقاتر عليه » أخرجه الطبراني من حديث أم مبشر إلا أنه قال : نحو المشرق ، بدل : للغرب ، وفيه ابن اسحق رواه بالنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصراً من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

بذكر الله . ولا شك أن هؤلاء تتمتعهم المخالفة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يقبل في جبل حراء وينزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يجيبونه عن الله فكان يده مع الخلق ويقلبه مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استخراق همه بالله فقال « لو كنت متخذًا خليلًا لاختفت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله (٢) » ولما بع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا والإقبال على الله سرا إلا قوة النبوة فلا ينفى أن لا يتوكل ضعيف بنفسه فيقطع في ذلك ، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه .

فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم . وهذا إنما يتصور للمستغرق بحب الله استغراقا لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ، ففي المشتهرين بحب الخلق من مخالطة الناس يده وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط حبه لمحبيه . بل الذي دعاه لم يشوش عليه أمرا من أمور ديناه فقد يستغرقه الحم بحب مخالطة الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه .

وامر الآخرة أعظم عند المعتاد فلا يستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستماعة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء ؟ ما الذي أرادوا بالخلة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم لحيوا حياة طيبة ويدوروا حلالة المرأة ، وقيل لبعض الرهبان : ما أصربك على الوحدة ؟ فقال : ما أنا وحسدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يتاجبني قرأت كتابه وإذا شئت أن أتاجبه صليت . وقيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أضى بك الزهد والخلة ؟ فقال : إلى الأنس بالله .

وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم ابن آدم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له : يا إبراهيم تركت خراسان ؟ فقال : ما تنهأت بالمش إلا هنا أفر بدني من شاعق إلى شاعق ، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقشي : هبك لاتصنك فإي يملكك من جمالة إخوانك ؟ قال : إني أصيب راحة قلبي في جمالة من عنده حاجتي . وقيل للحسن يا أبا سعيد : هنا رجل لم تراه قط جالسا إلا وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيته فأخبروني به ، فنظروا إليه ذات يوم فقالوا الحسن : هذا الرجل الذي أخبرناك به ؟ وأشاروا إليه ، ففزع إليه الحسن وقال له : يا عبيد الله أراك قد حببت إليك المرأة فإي يملكك من جمالة الناس ؟ فقال : أمر شغلني عن الناس قال ؟ فإي يملكك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلني عن الناس . وعن الحسن : فقال له الحسن وما ذاك الفضل يرحمك الله ؟ فقال : إني أصبح وأمس بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بفكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب فقال له الحسن : أنت يا عبيد الله أفقه عندي من الحسن فالهم ما أنت عليه . وقيل : بينا أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأنس بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره . وقال الفضيل : إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخطو بربي ، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي .

وقال عبد الله بن زيد : طوبى لمن عاش في الآخرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يتاجى الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة ، وقال ذو النون المصري : سرور المؤمن ولذته في الخلوة بتناجاة ربه ، وقال مالك بن دينار : من لم

الباب الثاني : فوائد العزلة وغوائها

(١) « كان ﷺ في أول أمره يتنزل في جبل حراء وينزل إليه » متفق عليه عن كلام عائشة نحوه « فكان يخلو بجبل حراء يتخذه فيه » (٢) « لو كنت متخذًا خليلًا لاختلعت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله » أخرجه من كلام ابن مسعود وقد تقدم .

يَأْسُ بِمُحَادَّةِ اللَّهِ عز وجل عن عادة المخلوقين فَيَقْدِرُ عَلَيْهِ وعِي قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحسن حال من اتَّعَمَلَ إلى اللَّهِ تعالى !

ويروي عن بعض السالحين أنه قال : بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلى تنحي إلى أصل شجرة وتستر بها قلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : يا هذا إني أقتضي هذا الجبل دهرًا طويلًا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك عَمِي وفي فيه عَمْرِي فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أياي في مجاهدة قلبي ، فسكت الله عن الاضطراب والفتنة والافتراء ، فلما نظرت إليك خفت أن أفزع في الأمر الأول فإليك عني فإني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح : واغماء من طول المكث في الدنيا ، ثم حول وجهه عني ، ثم قصص يديه وقال : إليك عني يا دنيا لعنيتي وأهلك قفري ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهم قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور العسان ، وجمع مهمهم في ذكره فلا شيء ألد عندهم من مناجاته ، ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس . فإذا في الخطوة أنس بذكر الله واستكثر الله من مرة الله وفي مثل ذلك قيل :

وإني لأستغنى وما بي غشوة لعل خيالاً منك يلقى خيالها
وأخرج من بين المجلس لعلني أحدث عنك النفس بالسرا خيالها

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخرواذه عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاته الناس ويطرد الرخصة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليهتم بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائنة جز بقولك في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر الأتس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يمتلئ بالمخالطة . فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان بحبا لله عارفاً بالله ولاعباً إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . و فراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخطوة وهي أربعة : التنية والتمسك ، والرياء ، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارعة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا .

أما التنية فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربح للمهلكات وجوها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكير بها والتشغل بمحادثاتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون ومن وحشهم في الخطوة . فإن خالطتهم وواقفتهم أئمت وتعرضت لسطح الله تعالى ، وإن سكنت كنت شريكاً ، والمستمع أحد المتأين ، وإن أنكرت أبضوتك وتركوا ذلك الغتاب واعتابوك فإزدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة واشتوا إلى الاستخفاف والفتن .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب كاسيأتي بيانه في آخر هذا الرجب . ومن خالف الناس فلا يملو عن مشاهدة المنكرات فإن سكنت عصي الله به ، وإن أنكرت تعرضت لأنواع من الضرر إذ ربما يجرحه طلب الخلاص منها إلى معاصي هي أكبر ما نهى عنه ابتداء . وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إيماله شديد والقيام به شاق . وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم ﴾ وإنكم تضمنونها في غير موضعها وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ إذا رأى الناس الشكر فلم ينفروه أو شك أن يعصم الله سبحانه ﴾ (١) وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يسأل العبد حتى يقول له ما منك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره فإذا لقن الله لعبد حجت قال يارب رجوتك وخفت الناس ﴾ وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا ط . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر . وفي المرأة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة الخصومات وتحريك لقوائل الصدور كما قيل :

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتصح

ومن جرب الأمر بالمعروف نلم عليه غالباً كجندار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه يقول ياليتني تركته مثلاً . نعم لو وجد أعواناً أسكروا الحاصل حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لاتجد الأعوان فحسبهم واج بنفسك .

وأما الزيادة فهو الداء المضال الذي يسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه . وكل من خالط الناس دارام ، ومن دارام دارام مرءاهم وقع فيها وقوافيه وهلك كما هلكوا . وأقل ما يلزم فيه التفافاً إن خالطت متعديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بشيئا إليهما جميعاً ، وإن جامعتما كنت من شر أوالئهم . وقال صلى الله عليه وسلم « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٢) وقال عليه السلام « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٣) وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة ، وإظهار الصدقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت؟ وكيف أمالك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا فراق محض . قال سرى : لو دخل على أخى فسويت لحيتي يدي لدخله لحيت أن أكتب في جريدة المناقنين .

وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له : ما جاء بك ؟ قال : الموانس يا أبا علي فقال : هي والله بالمرواحة أشبه هل تريد إلا أن تزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك ؟ إما أن تقوم عنى أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طائوس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت يا هشام ؟ فضرب عليه وقال : لم لم تخاطبني بأمر المؤمنين . فقال : لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافك فخطبت أن أكون كاذباً . فن أمكنه أن يحجز هذا الإحراز فليخاطب الناس وإلا فليعرض بأبواب اسمه في جريدة المناقنين . فقد كان السلف يتلاقون ويعتزون في قولهم كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ وكيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ وفي الجواب عنه . فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا ، قال حاتم الأصم لحامد الثقاف : كيف أنت في نفسك ، قال : سالم معاني . ففكر حاتم جواباً وقال : يا حامد السلامة من وراء الصراط والمأفة في الجنة . وكان إذا قيل لميسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لأملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحتاج وأصبحت مرتبها بعمل والخير كله في غيري ولا تقدر أفقر مني

(١) حديث أبي بكر « إنكم ترمون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم ﴾ وإنكم تضمنونها في غير موضعها .. » أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي . حسن صحيح (٢) « إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره .. » ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد

(٣) « تجدون من شرار الناس ذو الوجهين » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) « إن من شر الناس ذو الوجهين » مسلم من حديث أبي هريرة هو والنهي قبله .

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مدينين نستوفى أوزاننا وننظّر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن تجرت من النار . وكان مسفيان الثوري إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأحم ذا إلى ذا وأقر من ذا إلى ذا .

وقيل لأبيس القرني : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح وإذا أصبح لا يدري أنه يمسى ؟ وقيل للمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد . وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لا أرضى حياتي لما أتى ولا أنفى لربي . وقيل لحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أكل رزقي وبني وأطيع عدوه إيليس .

وقيل لمحمد بن زاسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرمل كل يوم إلى الآخرة مرحلة . وقيل لحامد الغلاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتى طافية يوم إلى الليل . فقيل له : ألست في عافية في كل الأيام ؟ فقال : المالفة يوم لا أحصى الله تعالى فيه . وقيل لرجل وهو يهود بنفسه : ما حالك ؟ فقال : وما حال من يريد سفرأ بعيداً بلا زاد ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس وينطلق إلى ملك صدل بلا حجة . وقيل لحسان بن أبي سنان : ما حالك ؟ قال : ما حال من يموت ثم يموت ثم يحاسب .

قال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسة درهم ديناً وهو معيل ؟ فنخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فضعها إليه وقال : خذها فاضرب بها دينك وحماية عدد بها على نفسك وحيالك . ولم يكن عنده غيرها . ثم قال : والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً . وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرأياً منافقاً . فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوهم عن أمور الدنيا فمن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة .

وقال بعضهم : إن لأمرئ أقواماً كانوا لا يتلاقون ولو حكى أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتساملون حتى عن الحاجة في البيت . ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لئمنه فهل هذا إلا مجرد الرياء والتفاني ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ؟ ويقول الآخر كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمستول يشتغل بالسؤال ولا يجيب ، وذلك لمرقتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تتلعق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ؛ إذا سلبت والله القلوب وأما الآن : فكيف أصبحت طافك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة .

وقال رجل لأبي بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فأجابته . وقال حصونا من هذه البدعة . وقال : إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع . كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يغلو عن أنواع من التصنع والرياء والتفاني ، وكل ذلك مذموم ، بعضه محظور وبعضه مكروه . وفي المرأة الخلاص من ذلك ؛ فإن من لقي الحق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقنوموا استنقلوه واغتابوا ومقنوموا لا يذانه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه وديناه في الاتقاع منهم .

وأما مسارة الطبع بما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين فلا يجالس الإنسان ناسقاً معه كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في التفرقة عن الفساد واستنقاله إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة شيئاً على الطبع فيسقط وقعه واستنظامه له ،

وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستغفرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الزاوعة ويذعن الطبع لليل إليه أو لما دونه . ومهما طالّت مشاهدته للكثير من غيره استقر الصغار من قسه . وذلك يردى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليهم فتورجأ السهم أن يستصغر ماعنده وتورجأ بحالة الفقراء في استسلام ما أتبع له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع فن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتهر عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى قسه بين الاستصغار وإلى عبادته بين الاستحقار . وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستياما للاقتداء .

ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استظم أمر نفسه بأذى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك . ويكنى في تغيير الطبع مجرد سماح الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وهذه الحقيقة يعرف سر قوله ﷺ « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة (١) » وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر حين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملاس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة . ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة . والمفهوم من غوى هذا الكلام عند النطق بالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل العنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، والعنة هي البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصي ، والإعراض عن الله بالإقبال على المخطوطات المأجلة والشهوات الحاضرة لأهل الوجه المشرع . ومبدأ المعاصي سقوط قلبها وتقاضها عن القلب . ومبدأ سقوط القلب وقوع الأنس بها بكثرة السباح . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والقاصدين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك ﷺ حيث قال « مثل المجلس السوء كمثل الكبر إن لم يحرقك بشره علق بك من وجهه (٢) » فكأن الرجوع بعلق بالشوب ولا يشرع بفكك يسيل الفساد على القلب وهو لا يشرع به ، وقال « مثل المجلس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يعب لك منه تجد ريحه » ولهذا أقول من عرف من عالم ذلك حرم عليه حكايتها لعتين ، إحداهما : أنها غيبة ، والثانية وهي أعظمها أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويستقط من قلوبهم استغظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتحويل تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال : كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتماحاه موفق معتبر لفق عليه الإقدام ، فكمن شخص يتكالب على الدنيا ويمرص على جمعها ويتهاك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه فيها ويرغم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ؟ وربما يستفهد عليه بقتال على ومماوية ويغضن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة ؟ فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولو ازدها من المعاصي .

والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتزليل على مقتضى الشهوة ليمتلأ به وهو من دقائق مكاييد الشيطان ، ولذلك وصف الله المراعين الشيطان فيها بقوله « الذين يستمعون القول فيفتبون ألسنتهم » وضرب ﷺ لذلك مثلا وقال « مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يسمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له ياراعي اهرول في شاة من غنمك فقال اذهب نخذ خير شاة فيها فذهب

(١) « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » ليس له أصل في الحديث للرفع وإنما هو قول سفيان بن عينة كذا

رواه ابن الجوزي في مقعدة صفوة الصفوة

(٢) « مثل المجلس السوء كمثل الكبر ... » متفق عليه من حديث أبي موسى .

فأخذ بأذن كلب القوم^(١) وكل من ينقل هفوات الآفة فهذا مثاله أيضاً . وما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في تهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طابعهم كنفرتهم من تأخير الصوم ، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحر الرقية عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها عما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب ولذلك لو ليس التقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من لبناء فنة استبعدته النفوس واشتد إنكارها ؛ وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتيال للناس ولا يستبعد منه ذلك . والنية أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ؟ ولكن كدرة سماع النية ومشاهدة المتأين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتفطن لهذه الدقائق وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يريد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويون عليك المصيبة ويضيق رغبتك في الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكر الله وزيته وسيره قالوه ولا تفارقه واعتنمه ولا تستخفه فإنها غنيمة العاقل وضاعة المؤمن . وتحقيق أن المجلس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من المجلس السوء . ومهما فهمت هذه المبادئ ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يفغ عليك أن الأول يتباعد عنه بالمرأة أو التقرب إليه بالخطلة . وإياك أن تحمك مطلقاً على المرأة أو الخطلة بأن إحداها أولى إذ كل مفصل فلما لاقى القول فيه بلا أو نعم خفف من القول عن بعض ولا حق في الفصل إلا التفصيل .

القائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والحصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلبا تخطر البلاد عن مصبات وقتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم في سلامة منها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله ﷺ الفتن ووصفها وقال « إذا رأيت الناس مرجع عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - » قلت : فما تأمرني ؟ قال « ألزم بيتك وأملك عليك لسائك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة »^(٢) وروى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شافع إلى شافع »^(٣) وروى عبد الله ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شافع إلى شافع ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروخ » قيل له : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال « إذا لم تزل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت المزوبة » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالثوريح ؟ قال « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعل بذي زوجته وولده فإن لم يكن فعل بذي قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « ويمر به بضييق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الحكمة »^(٤) وهذا الحديث وإن كان في المزوبة فالمرأة مفهومة منه إذ لا يستغنى المتأهل عن

(١) مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسمع كمثل رجل أتى راعياً فقال يراعى اجرد لي شاة من غنمك » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « إذا رأيت الناس مرجع عهودهم وخفت أمانتهم » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن

(٣) حديث أبي سعيد الخدري « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري

(٤) حديث ابن مسعود « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شافع إلى شافع » تقدم في النكاح

المحيطة والمخالطة ثم لا يزال الميعة إلا بمعية الله تعالى ، ولست أقول : هذا أو أن ذلك الرمان فقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت المروة . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام المخرج قلت : وما المخرج ؟ قال « سجن لا يأمن الرجل جلبيته » قلت : فم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال « كف نفسك ويدك وادخل دارك » قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري ؟ قال « فادخل بيتك » قلت : فإن دخل على بيتي ؟ قال « فادخل مسجدك واضمح هكذا » وقبض على الكوع » وقل ربي الله حتى تموت^(١) » وقال سعد — لما دعي إلى الخروج أيام معاوية — لا... إلا أن تطوفني سيفاً له عيتان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محبة يميناء فبينما هم كذلك يسرون إذ هاجت ريح عاصجة فصلوا الطريق فالتبس عليهم ؛ فقال بعضهم الجريق ذات الدين فأخذوا فيها قناها وضلوا ، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها قناها وضلوا ، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبين الطريق فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يعالطوا إلا بعد زوال الفتن .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه لما بلغه أن الحسين رضى الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلاحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له : أين تريد ؟ فقال : العراق . فإذا معه طوامير وكتب ؛ فقال هذب كتبهم ويحبهم فقال : لا تنتظر إلى كتبهم ولا تأتهم ، فأني فقال : إني أهدئك حديثك ؛ إن جبريل أتى النبي ﷺ يخبره بين الدنيا والآخرة فأختار الآخرة على الدنيا وإليك بضمة من رسول الله ﷺ والله لا يلها أحد منكم أبداً وما صرفها عنكم إلا الذي هو خير لكم ، فأني أن يرجع ؛ فاعتقه ابن عمر وبكى وقال : أستودعك الله من قيل أو أسير^(٢) .

وكان في الصبابة عشرة آلاف فاخف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً . وجلس طائوس في بيته ثقيل له في ذلك فقال : فساد الزمان وحيف الأئمة . ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لرميت القصر وتركت مسجد رسول الله ﷺ ؟ فقال : رأيت مساجدك لأهية وأسواقك لأغية والفاحشة في لجاجكم عالية وفيها هناك عما أتم فيه عافية . فإذا الخلد من الخصومات ، ومثارات الفتن إحدى فرائد المروة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالنسبة ومرة بسوء الظن والتهمة ومرة بالافتراءات والأطماع الكاذبة التي يصر الوفاء بها ، وتارة بالهزيمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأحوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيعة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استنبتت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغیره : أعلبك يتبين خير من عشرة آلاف درهم ؛ قال : ما هذا ؟ قال :

اخضع الصوت إن نطق بليل . والتفت بالتهار قبل المقال

ليس القول رجعة حين يبدو . بقميص يكون أو بجمال

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا يتفك من حاسد وعدو يسوء الظن به ويتوهم أنه يستمد

(١) حديث ابن مسعود : ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام المخرج قلت : وما المخرج ؟ قال « حين لا يأمن للرء جلبيته ... » أبو داود مختصراً والخطابي في المروة بتأمله ، وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم محتاج إلى معرفته .

(٢) حديث ابن عمر : أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ... وفيه أنه ﷺ خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة . رواه الطبراني مقتصراً على الرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل : على مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الزار بنحوه وإسناده جيد .

لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتأسيس غائلة ورامه فاناس مها اشتد حرصهم على أمر (يحبسون كل صبيحة عليهم ثم العدو فاحذرهم) وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصديق ما يعتاده من يوم
وعادى محبيه يقول عدائه فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشره الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه ومن يختلط به كثيرة ، ولستنا نطول بتفصيلها قفيا ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفي العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر من اختار العزلة . فقال أبو الدرداء : أخبر قله ، يروى مرفوعا . وقال الشاعر :

من حمد الناس ولم ييلهم ثم بلام ذم من يحمده
وصار بالوحدة مستأنا يرحسه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه : في العزلة راحة من القرن السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير : ألا تأتق المدينة؟ فقال : ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بفتنة . وقال ابن السكيت : كتب صاحب لنا ، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به قصاروا داء لا دواء له فقرنهم فراوك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلزم شجرا ويقول : هو نديم فيه ثلاث خصال ، إن سمع مني لم ينم علي ، وإن قلت في وجهي احتمل مني ، وإن عريت عليه لم يغضب ، فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدني في الندماء . وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر ف قيل له في ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدقولا أو عظم من قبر ، ولا جلسا أمتع من دفتر . وقال الحسن رضي الله عنه : أردت الحج فسمع ثابت البثاني بذلك . وكان أيضا من أولياء الله - فقال : بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إن أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما تنافى عليه . وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء السر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر المودات . وقد مدح الله سبحانه المستترين فقال (يحبهم الجاهل أغنياء من التعفف) وقال الشاعر :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزل التجمل

ولا يظن الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله من عورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كن الناس ورقا لاشوك فيه فاناس اليوم شوك لا ورق فيه . إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لي سفيان الثوري - في اليقظة في حياته وفي النام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا عن عرف . وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته ، فنصبت أمرده فقال : دعه يا هذا ، هذا لا يضرك ولا يؤذي وهو خير من المجلس السوء . وقيل لبعضهم : ما حلك على أن تعتزل الناس ؟ قال : خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر . وهذه إشارة إلى مسابقة الطبع من أخلاق القرن السوء . وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فانهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف فانه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تعرف إلي من لا تعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فاما اقتطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أول ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنائز وعبادة المريض وحضور الولائم والإفلاكات ، وفيها تصحيح الأوقات وتعرض الأكلات ، ثم قد تنموق من بعضها العوائق وتستقبل فيها المآذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعداء فيقولون له قات بحق فلان وقهرت في حقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل : من لم يعد مريضا في وقت العبادة اشتبه موته خيفة من تخيله إذا صبح على تقصيره ومن عزم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا ؟ قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرما . وقال ابن الرومي :

مدوك من صدقك مستغاد فلا تستكثر من الصحاب
فإن الفاء أكثر ما تراه : يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله : أصل كل عداوة اضطباع المعروف إلى الثام . وأما اقتطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جريئة ؛ فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزيقتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما احتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمنن بينك إلى ما تمننا به أدواجا منهم ﴾ وقال ﷺ « اظفروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدوا نعمة الله عليكم ^(١) » وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مضموما كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفقره من دابتي لجالست الفقراء فاسترحمت . وحكى أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع القسطنطين وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهه ما رأى من حسن حاله وحن حيثه فخلا قوله تعالى ﴿ وجمنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ ثم قال : على أصبر وأرضى ، وكان فقرا مقلدا . فالذي هو في بيته لا يميل بمثل هذه الفن . فإن من شاهد زينة الدنيا فاما أن يقوى دينه ويقيه فيصير فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر — وهو أمر من الصبر — أو تنبعث رغبته فيحتاج في طلب الدنيا فهلك هلاكا مؤبدا ، أما في الدنيا فبالطمع الذي ينجب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تيسر له ، وأما في الآخرة فيلإثارة مناع الدنيا على ذكر الله تعالى والتعرب إليه . ولذلك قال ابن الأعرابي :

إذا كان باب الدل من جانب التقى سموت إلى العليا من جانب الفقر
أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا .

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة التقلات والحق ومقاساة حقهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقل هي المعى الأصغر . فيسل للأعشى : مم عشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى التقلات . ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : في الخبر « إن من

(١) « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدوا نعمة الله عليكم » مسلم من حديث أبي هريرة .

سلب الله كرميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما (١) ، فالذي عوضك ؟ فقال - في معرض المطالبة - عوضني الله منهما أنه كفاي رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول نظرت إلى تقيل مرة ففتى على . وقال جالينوس : لكل شيء حي وحى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعي رحمه الله : ما جالست تقيلا إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ماسوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى برؤية تقيل لم يامن إلا بعتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله ، فإذا تأذى من غيره بنبيه أو سوء ظن أو عاصدة أو نعمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستقامة بالتعب ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفوائده من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والفوائد التي لها ما هي ؟ وهي التعلم والتعليم ، والنفع والاتضاع ، والتأديب والتأهب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنائه والقيام بالحقوق ، واحتياذ التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلتفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي سبع :

الفائدة الأولى : التعلم والتعليم

وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا . ولا يصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضروري في الدنيا . فالمحتاج إلى العلم لما هو فرض عليه حاس بالعزلة . وإن تعلم الفروض وكان لا يأتيك منه الخوض في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران ، ولهذا قال النبي وغيره : تفقه ثم اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس ، وغاية أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوصيها ، ولا ينفع في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يغيب مبعوي يطل عمله بحيث لا يدري ، ولا ينفع اعتناقه في أقصافه عن أوهام يؤمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تفتريه فيها فيكون في أكثر أحواله مضطربا للشيطان وهو يرى نفسه من العباد . فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال ؛ أعني من لا يحسن المباحث في الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها . فثالث النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب منتلف يماجله ، فالمرضى الجاهل إذا دخل بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لاعانة مرضه . فلا تلبق العزلة إلا بالعالم وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاهل والاستكثار بالأصحاب والاتباع فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم .

وحكم العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه . فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لا طالب إلا للكلام مزخرف . يستميل به العوام في معرض الوعظ أو الجدل - معقد يتوصل به إلى إلحاح الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل في معرض المناقصة والمباهاة . وأقرب علم مرغوب فيه : المذهب ، ولا طلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتول الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم ،

(١) من سلب الله كرميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما « الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير » من سلبت

كرميته عوضته عنها الجنة « وله لأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بإسناد جيد ، وللبخاري من حديث أنس » يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة » يريد عنيته

فإن صوف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكثر الكبار الاعتزال عنه وكتبت العلم منه ، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صوف .

ولا ينبغي أن يفتخر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لعنه الله فأبى العلم أن يكون إلا الله ؛ فإن انقضا . تعلمون لعنه الله ثم يرجعون إلى الله ، وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا ، وهم هلكت على طلب الدنيا ومكالبون عليها أو راغبون عنها وذاهدان فيها ، وليس الخبر كالمائة واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعركة سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المال .

وأما الكلام والفقه المجرد — الذي يعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات — للذهب منه والخلاف لا يرد الرغب في بلادنا إلى الله ، بل لا يزال متباديا في حرصه إلى آخر عمره ، ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه التعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخس فيه ، إذ يرجى أن ينجز به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب . فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد سالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المنبون وكل عالم اشتد حرصه على التعلم يوشك أن يكون غرخته القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس في الحال باستعمار الإذلال على الجهال والتكبر عليهم ، فآفة العلم الخيلاء (١) كما قال صلى الله عليه وسلم .

ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشرة قطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يحدث ، ويقول : إني أشتنى أن أحسث فذلك لا أحدث ولو أشتيت أن لا أحدث لحدثت ، ولذلك قال « حدثنا » باب من أبواب الدنيا ، وإذا قال الرجل « حدثنا » فإنا يقول أوسموا لي .

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري : نعم الرجل أنت لولا رغبتي في الدنيا ، قال : وفيها رغبتي ؟ قالت في الحديث ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا ، فهذا فاضد تهتنا عليها في كتاب العلم ، والحزم والاحتراز بالمزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان عاملا في مثل هذا الإيمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال : دع الراضين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان الملاينة أعداء السر ، إذا تفوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أنك منهم كان عليك رقبيا وإذا خرج كان عليك خطيبيا ، أهل تفاق ونميمة وغل وخديعة ، فلا تنس باجتماعهم عليك فأعرضهم العلم بل الجاه والمال وإن يتخلو لك إلى أوطارهم وأعراضهم وحمارهم في حاجتهم ، إن قصرت في عرض من أغراضهم كانوا أعداءك ، ثم يعمدون ترددهم إليك دالة عليك ويعذرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجعلك ودينك لهم فتعادي علومهم وتصر قريهم وخادمهم وولهم ، وتفتش لهم سفنها وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خيسا بعد أن كنت متوجعا رئيسا . ولذلك قيل : اعتزال العامة مرومة تامة .

فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألقائه ، وهو حق وصدق . فإني ترى المدرسين في رق دأهم وتحت حق لازم ومنه تقيلة من يتردد إليهم ويرى حقوا واجبا عليهم ، وربما لا يختلف إليه مالم يتكفل برزق له على الإدرار ، ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال المترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسي اللذوالهشدا وتعاسة الدليل

(١) « آفة العلم الخيلاء » المعروف مارواه مطين في مستند من حديث علي ابن أبي طالب بسند ضعيف « آفة العلم النسيان وآفة الجبال الخيلاء »

المهين حتى يكتب له على بعض ونحو السحت مال حرام ، ثم لا يزال العامل يستره ويستخفه ويمتنعه ويستنله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأفة من عنده عليه ، ثم يبق في مقاصد القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتضى الميزون ونسبوه إلى الحق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارف الفضل والقيام مقادير الحقوق بالعدل ، وإن فاوت بينهم سلفه السفهاء بألسنة خداد وناروا عليه ثوران الأسود والأساد ، فلا يزالون في مقاسمهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذونه ويفرقه عليهم في المعنى ، والعجب أنه مح هذا البلاء كله بمعنى نفسه بالأباطيل ويدلها بحيل النوروز ويقول لها : لا تقتري عن صنيعة فأنا أنت بما تقعله مريضة وجه الله تعالى ومذيقه شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مال لك لها وهي مرصدة للصالح وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ بهم يظهر الدين ويتقوى أهله ، ولو لم يكن ضخمة الشيطان لعل بأدى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يحسون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فقلعظم أعين الجهال ويستخرجون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لأثارهم . ولذلك قيل : ما فسدت الرغبة إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء فعمود باقة من النوروز والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء .

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة ، وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إلى معطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه — كما ذكرناه في كتاب الكسب — فإن كان معه مال أو اكتفى به قائما لاكتفه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكسب في الأكثر إلا من المعاصي ، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة ، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالمخالطة ، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ؛ أعمى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو بيده فيقوم بمحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففي النوروز بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بمحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلة إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انتفع له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبتة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرا النفس وقهرا للشهوات وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تنهذب أخلاقه ولم تدفع لحود الشرع شهواته ، ولهذا اتكف خدم الصوفية في الرابطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستعدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهم جميعا إلى الله سبحانه ، وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الحالية والآن قد خالفت الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتغرز إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الآتياع ؛ فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القدر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة ، وذلك لما يحتاج إليه في بداية الإرادة . فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ

مركباً يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهود إن لم يكرها جمعت به في الطريق ، فن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة بالرياضة ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال من عضها ورفسها ورعها ، وهي للمرى فائقة مقصودة ولكن مثلها حاصل من الهيمة الميتة ، وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها ، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغي أن يفتن به كالأهباب الذي قيل له : يا راهب ، فقال : ما أنا راهب إنما أنا كلاب عقوق حبست نفسي حتى لا أعقر الناس . وهذا حسن بالإشارة إلى من يقرر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه ، فإن من قتل نفسه أيضاً لم يقرر الناس ، بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واعتنى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن الميزة أعون له من المخاطلة . فأفضل لمثل هذا الشخص المخاطلة أولاً والميزة آخرأ .

وأما التأديب فإنما نعى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخاطبتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه حكمه ، ويترك إلى من دقائق الآفات والراء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن تخايل طلب الدنيا من المريدین الطالبین للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخطوة بما تيسر له من المخاطلة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل ، وذلك يدرك بتدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقاً بنفى ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيتاس

وهو غرض من يحضر الزلازم والبصوات ومواضع المعاشرة والأنس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا يجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح ، وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتبسيج دواعي النشاط في العبادة ؛ فإن القلوب إذا أكرهت عيبت ومهما كن في الوحدة وحة وفي المجالس أنس يروح القلب فهي أولى ؛ إذ الوقت في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يمل حتى تملاوا »^(١) وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح ، وفي تكليفها الملازمة داعية لفترة وهذا على بقوله عليه السلام وإن هذا الدين متين فأوغل فيه بروق » والإينالفيه يرفق دأب المستبصرون . ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلاداً لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المنزل إذا عن ديق يستأنس بمشاهدته ومعادته في اليوم واليلة ساعة فليجهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من خليل »^(٢) وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوده عن الثبات على الحق والاعتناء إلى الرشد ؛ ففي ذلك متنفس ومتروح النفس ، فيه مجال زحج لكل مشغول بإصلاح نفسه فانه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة ، والراضى عن نفسه منور قطعاً . فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من الميزة في حق بعض الأشخاص . فليستغنى فيه أحوال القلب وأحوال المجلس أولاً ثم ليجالس .

(١) « إن الله لا يمل حتى تملاوا » تقدم (٢) « للمرء على دين خليله تقدم في آداب الصبغة

الفائدة الخامسة : في نيل الثواب وإناؤه

أما النيل فبحضور الجنائز وعبادة المرضى وحضور الميدين ، وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجمعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لحوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفتون من فضيلة الجمعة ويؤيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادراً . وكذلك في حضور الإملاكات والنعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إناؤه فهو أن يفتح الباب لعمود الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على التسم فأنهم يتألمون بذلك ثواباً . وكذلك إذا كان من العلماء . وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالمتكئين سبياً فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأقاربها التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجع العروة وقد ترجع المخالطة . فقد حكى عن جماعة من السلف — مثل مالك وغيره — ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس يوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور ، وبهضم فارق الأمصار وانحاز إلى قلال الجبال تفرغاً للعبادة وقراراً من الشواغل .

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ؛ فانه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة . فقد روى في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ؛ فأوحى الله إلى نبيه : قل فلان إنك قد ملأت الأرض ضحاً وإني لا أقبل من ضحائك شيئاً ، قال : فتخلى واقفرد في سرب تحت الأرض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك إن تبلغ رضاى حتى تخالف الناس وتصبر على أذىهم ، فخرج فدخل الأسواق وخالف الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم ؛ فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى . فكم من معزول في بيته وباعته الكبر وما نه عن المخالفة أن لا يؤثر أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمخلوأني لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالف فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترًا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبه من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبيض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زيارتهم له ، كما حكيتاه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتني إلا لأتزين لك وتزين لى . وعن سائر الأصم أنه قال للأمر الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا تراكى . فن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزله عن الناس سيئة شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للاتفات إلى نظرم إليه بين الوفاق والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ، أحدها : أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر ببله أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل الثمر والملح في ثوبه ويده ويقول :

لا يتقص السكامل من كآله ما جر من تقص إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حرم الخطب وجرب النقيع على أكتافهم

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول - وهو وإلى المدينة والحطب على رأسه - طرقت لأميركم : وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيجعله إلى بيته بنفسه ؛ فيقول له صاحبه : أعطني أحله فيقول « صاحب الشيء أحق بحمله » (١) وكان الحسن بن علي رضى الله عنه يامر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقول : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان يهزل ويجلس على الطريق ويأكل كل معهم ويركب ويقول (إن الله لا يحب المستكبرين) ، الوجه الثاني أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا ينتنون عنه من الله شيئا ؛ وأن ضرره وقبحه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواء وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لا تتال ، فرضا الله أول بالطلب . ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فانقله ، ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وقاز بالسنة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اصعل كذا وكذا - شيء أمره به - فقال : يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفيين ؛ عبد تستطاع الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه ، وإن أحدا لا يقدر على أن يضربه ولا ينفعه . وعبد سقطت نفسه من قلبه فلا يبالي بأى حال يرويه ، وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله حب ومبغض فإذا كان هكذا فكأن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بفيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعتبك بالسؤال فيقيم وقال للقاتل : مون على نفسك فإن حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم يارب احبس عني السنة الناس فقال : يا موسى هذا شيء لم أصطفه نفسى فكيف أمهله بك ؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير : إن لم تطع نفسا بأنى أجمعك عسكا فى أنواء الماضين لم أكبتك عندى من المتواضعين ، فإذا من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو فى عتاء حاضر فى الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فإذا نل استحب العزلة إلا لمتفرق الأوقات بربه ذكرها وفكرها وعبادة وحلها بحيث لو خاطبه الناس لضعفت أوقاته وكثرت آفاته ولتشتت عليه عباداته ، فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ينبى أن تنق فإنها مهلكات فى صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنها تستفاد من المخالفة للخلق ومجارى أحوالهم ، والمقل للفرى ليس كافيا فى فهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدهما التجربة والممارسة ، ولا خير فى عزلة من لم تحسكه التجارب ؛ فالصبي إذا اعتزل بقى غسرا جاملا بل يبنى أن يشتغل بالعلم . ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكتفيه ذلك ، ويحصل بنية التجارب بجماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالفة ، ومن أتم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفاته وباطنه وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة ، فإن كل مجرب فى الخلاه يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب إباطنها وقهرها ولا يكتفى تسكينها بالتقاعد عما يحركها . فقال القلب المشحون

(١) « كان يشتري الشيء ، ويجعله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطني أحله فيقول : صاحب المتاع أحق بحمله »
رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف فى جملة السراويل التى اشتراها .

بهذه الحباث مثال دمل فتلى ، بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألم يتحرك أو يسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صوته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالألم في نفسه واعتقد فقد ، ولكن لو حركة حركه أو أصابه مشط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختق إذا حبس عن الاستئصال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تنفجر منه خباثته إذا حرك .

وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة العالون لتزكية القلوب يحربون أنفسهم ، فن كان يشتعر في نفسه كبرا سمى في إقامته حتى كان بعضهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليحرب نفسه بذلك ، فإن غوائل النفس ومكاييد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أنى كنت أصليا في الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر فوجدت موضعا في الصف الأول فوفقت في الصف الثاني فوجدت نفسى تستشعر خجعة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصليا كانت مشوبة بالاراء بموجبة بئذ نظر الناس إلى ورويتهم إياى في ذمرة السابقين إلى الخير .

فالخلاصة لما فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الحباث وإظهارها ، ولذلك قيل : السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة ، وستأتى غوائل هذه المأفودقاتها في ربيع المهلكات ، فإن بالجمل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يركو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد الصلاة إلا أفضل من الصلاة ، فإننا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه ، وقد قضى الشرع بتفضيل العلم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى (١) » فعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه (أحدها) ما ذكرناه (والثاني) هجوم النفس لصدى قاعدته والعمل لاتمدى قاعدته (والثالث) أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل .

بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الحق إلى الخلق لتنبعث بعد الانصراف إليه لمرقته ومحبة ، فالعمل والعمل العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدن والعمل كالشرط له . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع ، وهذا كلام معترض لا يلبق بهذا الكلام .

فانرجع إلى المقصود فتقول : إذ عرفت فوائد الميزة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نقيضا لإثباتها خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على غلظته وإلى العاتب بسبب غلظته من هذه الفوائد المذكورة . ويقاس الفئات بالحاصل فمنه ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعى رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال : يا يؤنس ؛ انتقياض عن الناس مكسبة العداوة والانبساط إليهم بحيلة لقرناء السوء فكأن بين المنقبض والمنبسط ، فذلك يجب الاعتدال في المخالطة والميزة ، ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال . والفرق بين العالم والصوفى في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفى لا يتكلم إلا عن حاله فلا يجرم تحتلف أجوبتهم في المسائل ، والعالم هو الذى يدرك الحق على ماهو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه ، وذلك بما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبدا ، والمقاصر عن الحق كثير لا يحصى ولذلك سئل الصوفى عن الفقر فأن واحد إلا لأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق

(١) « فضل العالم على العابد كمضى على أدنى رجل من أصحابى » تقدم في العلم .

بالإضافة إلا حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحدا . لذلك قال أبو عبد الله الجلاء - وقد سئل عن الفقر - فقال : احرب بكيمك الحافظ وقلدني الله فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذي لا يسأل أحدا ولا يمارض وإن عوز سكت وقال سهل بن عبد الله : الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر . وقال آخر أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى .

والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة فلما يفتق منها اثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه ولذلك لا يرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قسما في التصوف أو يفتق عليه ، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ؛ لأن أكثر تردم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يفتنون إلا بهيم . ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف .

ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أداة الزوال - بالنظر في الظل - فقال بعضهم : هو في الصيف قدمان ، وحكي عن آخر أنه نصف قسم ، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام ، وحكي من آخر أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه ؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم ، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه يبد نفسه ؛ فصق في قوله وأخطأ في خطئته صاحبه إذ ظن أن السلام كله بلده أو هو مثل بلده ، كما أن الصوفي لا يصح على العالم إلا بما هو حال نفسه . والعالم بالزوال هو الذي يعرف على طول الظل وقصره وعلو اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل . وفي بعضها يطول ، وفي بعضها يقصر .

فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة الميزة والمخالطة .

فإن قلت : فن أثر الميزة ورواها الفضل له وأسلم فأدابه في الميزة ؟

فتقول : إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة . وأما آداب الميزة فلا تطول فينبغي للمعزل أن ينوي بمزله كف شر نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه المهمة لعبادة الله رابعا ؛ فهذه آداب نيته . ثم ليكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني ثمرة الميزة ولينع الناس عن أن يكثرُوا غشياه وزيارته فيشوش أكثر وقته . وليكشف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينخرس في القلب حتى يثبت في الصلاة أو الفكر من حيث لا يمتحِب ، ففوق الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض . وأحد مهمات المعزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار يتابع الوسوس وأصولها . وليفتح باليسير من المعيشة ولا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم . ولكن صبرا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الأصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالميزة أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابد أن يكون واقفا عن سيرة إلى طريق الآخرة ؛ فإن السير إما بالمواظبة على ورود ذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسد القلوب وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعي الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك عما يشوش القلب في الحال . وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر . وليكن له أهل صالحة أو مجلس صالح للترجيع نفسه إليه في اليوم ساعة من كذا المواظبة فقيمه عن على بقية الساعات . ولا يئمه الصبر في الميزة إلا بقطع الطمع عن الدنيا

وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع حلمه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه مراً طويلاً ، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحشة . وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفة ما يأنس به فلا يطق وحشة الوحدة بعد الموت . وأن من أسس بذكرا لله عليه ورحمته ، كما قال الله تعالى في الشهداء ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلاً غير مدير « فالجهاد من جاهد نفسه وهواه ^(١) » كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يمتنون جهاد النفس .

ثم كتاب العزلة ، ويتلوه : كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربيع العادات من كتب إحياء العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فتح بصر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص منهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجاري القدر ، مزينهم قلوبهم عن التفتت إلى متزهات البصر ، إلا على سبيل الاعتبار بما يسع في مسارح النظر ومجاري الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسبل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد سيد البشر وعلى آله وصحبه المقربين لاتاراه في الأخلاق والسير وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه . والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والقفلات ، وسفر بغير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السفرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التي نفاً عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد ، لازم درجة القصور وقائع بمرتبعة النقص ومستبدل بمتمتع فضاء ﴿ الجنة عرضها السموات والأرض ﴾ غلالة السجن وضيق الحبس . ولقد صدق القائل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنتقص القادرين على التام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتمه في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخير ، فاقضى غموض السبل وفقد الخير والدليل وقاعة السالكين عن الحظ الجليل بالتصيب التازل القليل . اندرس مسالكه . فاقطع فيه الرفاق وخلعوا الطافين متزهات الأنفس والملوك والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿ سترهم آياتنا في الرفاق وفي أنفسهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وفي الأرض آيات للوقنين وفي أنفسهم أفلا تبصرون ﴾ وعلى التعمود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى ﴿ وإنكم لترون عليهم مصبين وبالبيل أفلا تعلمون ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وكأين

(١) « المجاهد من جاهد نفسه وهواه » رواه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله « وهواه » وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحة .

من آية في السموات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون) فمن يسر لهما السفر لم يزل في سيرة متزها في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن . وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضرب فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غناؤه وتضاضف ثمراته وفرائده ، ففناؤه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدأ المسافر قرة في سفره ووقته في حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا زاغوا أزاعق الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ، ولكنهم يطلبون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متزهات هذا البستان وبمسافر يظهر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة معتبرا بها تجارة الدنيا أو ذخيرة الآخرة ، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستقامة على الدين كان من سالك سبيل الآخرة ، وكان له في سفره شروط وآداب إن أحملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن غاب عنها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بهال الآخرة . ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى . (الباب الأول) في الآداب من أول التهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان . (الباب الثاني) فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبة والأوقاف .

الباب الأول

في الآداب من أول التهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فوائد السفر وفننه ونهجه

اعلم أن السفر نوع حركة وغاية ، وفيه فوائد وله آفات ... كما ذكرناه في كتاب الصعبة والعرة . والفوائد الباقية على السفر لا تحصى من هرب أو طلب . فإن المسافر إما أن يكون له مرعج من مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهرب عنه إما أمر له نكاية في الأمور الدنيوية ، كالمطاعون والوباء إذا ظهر يبلد أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر . وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية في بلدة فيهرب منها . وإما أمر له نكاية في الدين كمن ابتلى في بلدته بجهل ومال واتساع أسباب قصده عن التجرده ، فيؤثر القرية والحوار ويحسب السمة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً أو إلى ولاية عمل لا تحمل مباشرة فيطلب القراء منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوي كمالال والجاه أو ديني ، وهو إما علم وإما عمل .
والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة ، وإما علم بآيات الأرض ومجائنها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض .

والعمل إما عبادة وإما زيارة . والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد . والزيارة أيضاً من القرى وقد يقصد بها مكان ككة والمدينة وبيت المقدس . والتجسس فإن الرباط بها قرية . وقد يقصد بها الأولياء والعلماء . وهم إما موقر تزار قبورهم وإما أحياء . فيتبرك بشهادتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم .

فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام :

النسب الأول : السفر في طلب العلم ؛ وهو إما واجب وإما قتل وذلك بحسب كون العلم واجباً أو قطلا . وذلك

العلم إما علم بأمر دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه . وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » (١) وفي خبر آخر « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » (٢) وكان سميد بن السبيل يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلفة تدله على هدى أو ترده عن رضى ما كان سفره ضائعاً . ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهراً في حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سموه (٣) وكل مذكور في العلم حصل له - من زمان الصحابة إلى زماننا هذا - لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله ، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضاً مهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحصين الخلق وتهذيبه . ومن لا يطلع على أسرار باطنه وغيباته صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها . وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه (يخرج الله الحب في السموات والأرض) وإنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق . ولذلك قال عمر رضى الله عنه الذي ذكر عنده بعض اليهود : هل سمعته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول : يامعشر القراء سبيحوا تظفيرا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه في موضع تغير . وبالجملة فإن النفس في الوطن مع موادة الأسباب لا تظهر غيبات أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المهودة فإذا حلت وعشاء السفن وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتنعت بمشاق القرية انكشفت عوائلها ووقع الوقوف على حيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها . وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخاطلة والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتلال مشاق .

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد المستبصر ، فقيا قطع متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسيح له لسان ذاق لا يدركه إلا (من أتى السمع وهو شيد) وأما الجاحدون والغافلون والمنغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) وما أريد بالسمع السمع الظاهر — فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه — وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات . ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات . فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو خلق وراء نطق المقال يشبه قول القائل — حكاية لكلام الودع والحافظ — قال الجدار لودع : لم تشققي ؟ فقال سل من يدعني ، ولم يتركني ، ورائي الحجر الذي ورائي . وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها وأنواع شهادات لسانها بالانقياس هي تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها — لأنهم لم يسافروا من معنيق سمع الظاهر إلى قضاء سمع الباطن ومن ركاز لسان المقال

كتب آداب السفر

الباب الأول : في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

(١) « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب . (٢) « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً .. » رواه مسلم وقد تقدم في العلم . (٣) « رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس » رواه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي وقال البخاري في صحيحه « رحل جابر بن عبد الله بن أنيس » في حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ، ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر وإلى مصر في حديث ، وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن عكده وهو أمير مصر في حديث آخر وكلامه منقطع .

إلى فصاحة لسان الحال - ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السور لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تقديمه عن مشابهة الحروف والأصوات . ومن يسافر ليستقرى هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرق قلبه التمتع بسماع نعمات التسيجات من آحاد الذرات ؛ فماله ولتردد في القلوات وله غنية في ملكوت السموات ؟ فالشمس والقمر والتجوم بأمره مستخرات . وهي إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات ، بل هي دائية في الحركة على توالي الأوقات . فن الغرائب أن يدب في الطواف بأحادي المساجد من أمرت الكمبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف في اكتاف الأرض من تطوف به أقطار السماء . ثم مادام المسافر مفتخرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بد في المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يقض به المسير إلى متسع القضاء ، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والتصور . ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إن الناس ليقولون اقتضوا أصيكنم حتى تبصروا ، وأنا أقول : فعضوا أصيكنم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أن الأول خير عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثاني خير عما يبعد من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطوقها إلا غاطر بنفسه ، والمجاور إليها ربما يئيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل ، والمالكون في التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق ، ولكن السائحون بنور التوفيق فازدوا بالنعيم والملك المقيم وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واغتر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق ملاحه . ومهما عظم المطلوب قل المساعد . ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك . ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب :

وإذا كانت كجارا نعت في مرادها الأجسام

وما أودع الله المر والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر . وقد يسمى الجبان والجبن والتصور باسم الحزم والحدركا قبل :

نرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع الثيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض . فنرجع إلى الفرض الذي كنا نقصده وتبين القسم الثاني : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما الحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآداه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج ، ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يترك بمشاهدته في حياته يترك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرجال لهذا الفرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام ولا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ^(١) ولأن ذلك في المساجد ، فإنها متناهية بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات . والفائدة من زيارة الأحياء طلب وبركة الدعاء بركة النظر إليهم

(١) « لا تشد الرجال إلا ثلاثة مساجد .. » تحذف الحج .

فإن النظر إلى وجود العلماء والصلحاء عبادة . وفيه أيضا حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف ومجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل ؟ كما ذكرناه في كتاب الصحة . وفي التوراة : سر أربعة أعيال زراعا في الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى التفر للرباط بها ، فالحديث ظاهر في أنه لاتشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة . وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج .

وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعا من القدس إلى المدينة . وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل : أن من قصد هذا المسجد لا يغبىه إلا الصلاة فيه ، أن لاتصرف نظرك عنه مادام مقيا فيه حتى يخرج منه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك .

القسم الثالث : أن يكون السفر الهرب من سبب مشوش للدين . وذلك أيضا حسن . فالفرار عما يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

وبما يجب الهرب منه الولاية والجامع كثرة العلاقات والأسباب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ من غير الله ، فإن لم يتم فراغه يتصور أن تشتغل بالدين . ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا من مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتثقلها وقد نجا المخفون وهلك المثقلون . والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل الخف بفضلته وشمله بسعة رحمته . والخف هو الذي ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جباهه وكثرت علاقته ، فلا يتم مقصوده إلا بالفرية والحوال وقطع العلاقات التي لابد منها حتى يروض نفسه مدة مديلة . ثم ربما يمدد الله بجموته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويعلمن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويقارب عند وجود الأسباب والعلاقات وعدمها ، فلا يصد شيء منها عما هو يصدده من ذكر الله ، وذلك بما يمز وجوده جداول الغالب على القلوب الضعف والتصور عن الاتساع للخلق ، وإنما يمدد به القوة الأنبياء والأولياء ، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا .

ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كثافات القوة الظاهرة في الأعضاء ، قرب رجل قوي ذميرة سوى شديد الأعصاب حكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبة بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والمجهود يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يلبثه درجته فلا ينبغي أن يترك المجهود عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجمل ونهاية الضلال . وقد كان من عادة السلف رضی الله عنهم مقارعة الوطن خيفة من الفتن . وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتريين ؟ هذا زمان رجل يقتل من يلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره .

أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : بلني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له : وتفضل هذا ؟ قال : نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك وأقل هلك وهذا هرب من غلاء السر . وكان سرى السقطي يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا . وقد كان الخواص لا يقيم بلد أكثر من أربعين يوما ، وكان من المتوكلين ويرى لإقامة اعتمادا على الأسباب قاذفا في التوكل . وسيأتي أسرار الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هرباً عما يقدح في البدن كالطاعون ، أو في المال كغلاء السعر أو ما يجري مجراه . ولا حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع ، وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يرتب عليه من الفوائد واستجابه . ولكن يستثنى من الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لو ردد النهي فيه . قال أسامة بن زيد : قال عليه السلام « إن هذا الوجع - أو السقم - رجو عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض فيندب المرة وبأى الأخرى فمن سمع به في أرض فلا يقمن عليه ومن وقع بأرض وهو بها فلا يخرجنه الفرار منه ^(١) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ « إن فناء أمي بالطنن والطاعون قتل : هذا العلم قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كعدة البعير تأخذهم في مراهم ، المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالرابط في سبيل الله ، والفار منه كالفار من الزحف ^(٢) » وعن مكحول عن أم أيمن قالت : أوصى رسول الله ﷺ بعض أصحابه « لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت أو حرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فأخرج منه ، ولا تترك الصلاة عمداً فإن من ترك الصلاة عمداً فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخر فإنها مفتاح كل شر ، وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ، ولا تفر من الزحف وإن أصاب الناس موتان وأنت فهم فاقبض فهم ، اتق من طورك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أخفهم بالله ^(٣) » فهذه الأحداث تدل على أن الفرار من الطاعون نهى عنه وكذلك القدوم عليه . وسيأتي شرح ذلك في كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى ممنوم وإلى محمود وإلى مباح والممنوم ينقسم إلى حرام كإيقاع العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب كالخروج لطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهد . ومن هذه الأسباب تبين النية في السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والالتفاف لإجابة الداعية ، ولتسكن فيه الآخرة في جميع أسفاره ، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب ، ومحال في المكروه والمحظور .

وأما المباح فرجعه إلى النية . فمما كان قصده بطلب المال مثلاً التحف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الإهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة . ولو خرج إلى الحج وباعته الرياء والسمة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ^(١) » وقوله ﷺ « الأعمال بالنيات عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات . وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصد فيعطى كل واحد على قدر نيته . فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها وقصص من آخرته أضاعه ، وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله . ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والقطعة وتفتح له من التدكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له .

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة ، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

- (١) حديث أسامة بن زيد « إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ... » متفق عليه واللفظ لمسلم
- (٢) حديث عائشة « إن فناء أمي بالطنن والطاعون ... » رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد
- (٣) حديث أم أيمن : أوصى النبي ﷺ بعض أهله ولا تشرك شيئاً وإن حرقت بالنار » رواه البيهقي وقال فيه إرسال
- (٤) « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

وفد ذكرنا منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منه ، فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تصب ومشقة تفرق لهم وتفتت القلب في حق الأكثرين . والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين .

ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى ، والانس يحصل بدوام الذكر . والمعرفة تحصل بدوام الفكر . ومن لم يتعلم طريق المكر والذكر لم يتمكن منهما . والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء . والإقامة هي المينة على العمل بالعلم في الانتهاء ، وأما السياحة في الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعل قلى إلا ما وقى الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما الله واعتاده في إقامته . وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق ، فتارة يصف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع .

ثم الشغل بالخط والترحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به ، إلا أن أكثر منصوطة هذه الأعصار - لما خلت بواعثهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم به أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين - قد ألفوا البطالة واستغنوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلناوا جانب السؤال والكذبة ، واستطابوا الرطبات المليئة لهم في البلاد ، واستبحروا الخدم المتتصين بقيام بخدمة القوم ، واستغفوا عقولهم وأديانهم ، من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تملأ بكثرة الأنباغ . فلم يكن لهم في الخافقات حكم نافذ ، ولا تأديب للبريد نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فلبسوا الرمقات وانغفوا في الخافقات متزهات ، وربما تنفخوا أقوالا مرعرة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تصهوا بالقوم في خرجهم وفي سياحتهم وفي لغظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ويحسون أنهم يحسون صنما ، ويستقدون أن كل سوداء ثمرة ، ويتوهمون أن المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق وهيات ! فما أغور حماة من لا يميز بين الشعم والورم ؟ فهؤلاء بغضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ . ولم يجعلهم على السياحة إلا الشباب والفراغ ، إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به في علمه وسيرته ، وقد خلت البلاد عنه الآن . والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل ؛ لأن العلوم لم تندرس بعد . والعالم وإن كان عالم سوء فإنه فاسد في سيرته لا في علمه فيبقى طالما غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم .

وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سواه ، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ومهما فسد العمل فاد الأصل ، وفي أسفار هؤلاء نظر الفقهاء من حيث إنه إتمام للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع ، ولكن الصواب عندنا أن تحكم بالإباحة في حظوظهم التفرج من كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسية فنفس المتحررين لهذه الحظوظ أيضا خسية ، ولا بأس بانماج حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو التأذى والتلذذ . والفنوى تقتضى تشبث العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر . فالساجون في غير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج في البلاد كالبهايم المترددة في الصحارى فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرم ولم يلبسوا على الخلق حالهم ، وإنما عصيانهم في التلبس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه من صفات آخر

وراء الصلاح . ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبائر فلا نقي معه العداة والصلاح . ولو تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وقيته يهودي .

وكذا أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به السداة . وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتا ، وأعني به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم ، فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله ﷺ على سبيل الدعوى . ومن زعم أنه علوي وهو كاذب وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام . وكذلك الصوفي . ولهذا احتز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا يفتك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراض في مواساته لفقرت رغبته عن المواساة ، فلا يجرم كانوا لا يشترط شيئا بأنفسهم مخافة أن يساعوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين .

وكانوا يولكون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن لا يظهر أنه لم يشتري . نعم إنما يحمل أخذ ما يسطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه ما يبله الله تعالى يقتض ذلك تقورا في رآيه فيه . والماعقل المتصف يعلم من نفسه أن ذلك متنع أو عريز ، والمفرور الجاهل بنفسه أخرى بأن يكون جملها بأمر دينه . فإن أقرب الأشياء إلى قلبه فإذا التمس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لاماعة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الفاتاة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته . فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له ، وليقل إنك إن كنت تطعني لما تمنعني من الدين فليست مستحقا لذلك ، ولو كشف الله تعالى سري لم ترق بعين التوفير ، بل اعتقدت أني شر الحلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك قليلا ، فانه ربما برضى منه هذه الخصلة وهو اضطراره على نفسه بركة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه . ولكن هنا ميكدة النفس بينة وعادة فليتغطين لما ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متعبد بالصالحين في ذمهم فنفسهم واستحقاقهم لها ونظمهم إلهابهم المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القندح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء . فكم من ذام نفسه وهو لما ماذح بعين ذمه ، قتم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود . وأما الذم في المأفوه عين الرياء إلا إذا أوردته إيرادا يحصل للسمع بقينا بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها . وذلك ما يمكن تضييقه بقرائن الأحوال ويمكن تليسه بقرائن الأحوال . والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن عبادته لله عز وجل أو عبادته لنفسه محال ، فلا يعتمد عليه الاحتراز عن أمثال ذلك . فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

الفصل الثالث

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبا

الأول : أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، ويرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ زواجه إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه . قال ابن عمر رضي الله عنهما من كرم الرجل طيب زاد في سفره . ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكرام الأخلاق في السفر ، فانه يخرج خيايا الباطن . ومن صلح لصحية السفر صلح لصحية الحضر . وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر . ولذلك

قيل : إذا أتى على الرجل معاملة في الحضر ورقائه في السفر فلا تشكوا في صلاحه . والسفر من أسباب الضرر ومن أحسن خلقه في الضرر فهو الحسن الخلق ، وإلا فمقد مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضرر : الصائم والمريض والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المسكاري ومعاونة الرقعة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإقامة بمر كوب أو زاد أو توقف لأجله . وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاج ومطالية في بعض الأوقات من غير غش ولا معصية ليكون ذلك شفاء للضرر السفر ومشاقه .

الثاني : أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق . وليكن رفيقه ممن يمينه على الدين فيذكره إذا نسي ويمينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده ^(١) وقال « الثلاثة نفر ^(٢) » وقال أيضا « إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرُوا أحكمكم ^(٣) » وكانوا يفعلون ذلك ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) . وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة . وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ، ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة . وإنما انتظم أمر العالم لأن مديبر الكل واحد (لو كان فيها آلهة إلا الله لقد ضلنا) ومهما كان المديبر واحدا انتظم أمر التدبير . وإذا كثرت المديرون فسدت الأمور في الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمر البلد ، وأمير خاص كرب الدار وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالأمير ، فلهاذا وجب التأمر ليجتمع شتات الآراء . ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل تقصير قلوبهم ، كما نقل عن عبادة الروزي أنه سمع أبا علي الرضا يقول : على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، وقال بل أنت ، فمروا بحمل الزاد لنفسه ولأبي علي ظهره فأمرت السما ذات ليلة تمام عبادة طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء منع عن الحار ، فكما قال عبادة : لا تقبل ، يقول : ألم يقل إن الإمارة مسلبة ؟ فلا تجعل على ولا ترجع عن قولك حتى قال أبو علي : ودعت أني مت ولم أقله أنت الأمير . فكذا ينبغي أن يكون الأمير . وقد قال عليه السلام « خير الأصحاب أربعة ^(٥) » وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لابد أن يكون له فائدة ، والذي يتفحص فيه أت المسافر لا يخلو عن رحل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكن التردد في الحاجة واحدا فيتردد في السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أس الرفيق ، ولو تردد في الحاجة اثنين لكن الحافظ للرحل واحدا . فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر . فإنما ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود ، وما فوق الأربعة يريد فلا يجمعهم راجعة واحدة فلا يشهد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، من يستغنى عنه لا تتصرف المهمة إليه فلا تتم المراقبة معه . نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف

- (١) « النبي عن أن يسافر الرجل وحده » رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ « لو يعلم الناس ما في الوحدة سافر راكب بلبيل وحده » .
- (٢) « الثلاثة نفر » رواه من حديث طي في وصيته للشهورة وهو حديث موضوع والمعروف « الثلاثة ركب » رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمر بن شبيب عن أبيه عن جده .
- (٣) « إذا كنتم ثلاثة فأمرُوا أحكمكم » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .
- (٤) « كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره النبي صلى الله عليه وسلم » رواه الزوار والحاكم عن عمر أنه قال : إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرُوا عليكم أحكمكم أمير أمره النبي صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .
- (٥) « خير الأصحاب أربعة » رواه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذي حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولكن الأريمة خير الرفقة الخاصة لا الرفقة العامة . وكمن رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يتخالط إلى آخر الطريق للاستئناء عنه .

الثالث : أن يودع وقاء الحضر والأهل والأصدقاء ، وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله ﷺ . قال بعضهم : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه وإن استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك » (١) وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى يجعل له في دعائهم البركة » (٢) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ كان إذا ودع رجلاً قال : « زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت » (٣) فهذا دعاء المقيم للودع وقال موسى بن وردان : أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته فقال ألا أطلعك يا ابن أخي شيئاً علمنيه رسول الله ﷺ عند الوداع ، فقلت بلى قال قل : « استودعك الله الذي لا تضيع ودائمه » (٤) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إني أريد سفراً فأوصني فقال له : « في حفظ الله وفي كنفه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أبنا كنت » (٥) شك فيه الراوى .

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجميع ولا يخص . فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس خطاباً إذا جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال له الرجل : أحذرك عنه يا أمير المؤمنين بأمر ، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعني على هذه الحالة ؟ فقلت : استودع الله ما في بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت ، جلستنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر ثلاثة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامة قوامه ، فأخلفت العلول حتى انتهينا إلى القبر فخرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل لي : إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لو جدتها ، فقال عمر رضي الله عنه : هو أشبه بك من الغراب بالغراب .

الرابع : أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة . ووقت الخروج يصلي لأجل السفر ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي قال أي الثلاثة أدفعها ؟ إلى ابني أم أخى أم أبى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلن في بيته إذا شد عليه ثياب سفره ، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول : اللهم إني أتقرب بين إليك فأخلفني بين في أهل ومالي فهي خليفة في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله » (٦) .

(١) حديث ابن عمر « قال لقمان إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وإن استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك » رواه النسائي في اليوم واليلة ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد .

(٢) حديث زيد بن أرقم « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله يجعل له في دعائهم البركة » رواه الحرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

(٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : كان إذا ودع رجلاً قال زدك الله التقوى ما رواه الحرائطي في مكارم الأخلاق والمعاملي في الدعاء وفيه ابن لهجة .

(٤) حديث أبي هريرة « واستودعك الله الذي لا تضيع ودائمه » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد حسن .

(٥) حديث أنس « في حفظ الله وفي كنفه زدك الله التقوى . . . » تقدم في الحج في الباب الثاني .

(٦) حديث أنس : أن رجلاً قال إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها إلى أبى أم أخى أم امرأتى فقال « ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات . . . » الحرائطي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يرفى

الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل : **بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله** رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أعظم أو أعظم أو أجمل أو أجمل أو يجهل على ، فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت تقني وأنت رجائي فأكفي ما أمني وما لا أمني به وما أنت أعلم بمنى عن جارك وجمل ثنائك ولإله غيرك اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجني للخير أبنا توجهت . وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه . فإذا ركب الدابة فليقل : **بسم الله وبالله** والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإننا إلى ربنا لمنقلبون . فإذا استوت الدابة تحته فليقل (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور .

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة . روى جابر : أن النبي ﷺ رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتي في بكورها »^(١) ويستحب أن يشتد بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قلنا كان رسول الله ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس^(٢) . وروى أنس : أنه ﷺ قال « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت » وكان ﷺ إذا بعث سرية بمنها أول النهار^(٣) : وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميس »^(٤) وقال عبد الله بن عباس : إذا كان إلى رجل حاجة فاطلها منه نهاراً ولا تطلها ليلاً واطلها بكرة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « اللهم بارك لأمتي في بكورها »^(٥) .

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة ، واليوم منسوب إليها ، فكان أوله من أسباب وجوبها . والتشيع الورداح مستحب وهو سنة قال ﷺ « لأن أشيع مجاهداً في سبيل الله فأكتفنه على رحله غدوة أو راحة أحب إلى من الدنيا وما فيها »^(٦) .

السابع : أن لا يزل حتى يحصى النهار فهي السنة ويكون أكثر سيئه بالليل . قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالليلة فان الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار »^(٧) ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلل ورب الأرضين السبع وما أظلل ورب الشياطين وما أضلل ورب الرياح وما ذرين رب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه أصرف حتى شر شرارهم . فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم يقل : اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل فليقل : يا أرض ارضي وربيك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله

(١) حديث جابر : أنه ﷺ رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتي في بكورها » رواه الخرائطي

وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري « اللهم بارك لأمتي في بكورها » قال الترمذي حديث حسن

(٢) حديث كعب بن مالك : قلنا كان النبي ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت ، أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميس والخرائط مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف .

(٣) « كان إذا بعث سرية بمنها أول النهار » رواه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي

(٤) حديث أبي هريرة « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميس » رواه ابن ماجه والخرائط في مكالم الأختلاق واللفظ له وقال ابن ماجه « يوم الخميس » وكلا الإسنادين ضعيف .

(٥) حديث ابن عباس : إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلها إليه نهاراً ... » رواه البزار والطبراني في الكبير والخرائط في مكالم الأختلاق واللفظ له وإسناده ضعيف .

(٦) « لأن أشيع مجاهداً في سبيل الله فأكتفنه على رحله غدوة أو راحة أحب إلى من الدنيا وما فيها » رواه

ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس (٧) « عليكم بالليلة ... » تقدم في الباب الثاني من الحج .

من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر سائر كثر البلد ووالله وما ولد) وله ما سكن في الليل والنهار وهو المسيح العظيم) ومنها علا شرفا من الأرض في وقت السير فينبغي أن يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال. ومنها مبط سبيح. ومنها خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالهزة والجبروت.

الثامن: أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفردا خارج القافلة. لأن ربما يتألم أو ينقطع. ويكون بالليل متحفظا عند النوم. كان صلى الله عليه وسلم إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل راسه في كفه (١). والفرس من ذلك أن لا يستقبل في النوم قطلع الشمس وهو قائم لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره.

والمتحجب بالليل أن يتأوب الرقاء في الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر (٢) فهذه السنة. ومنها قصده عند أو سبغ في ليل أو النهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسور الإخلاص والمعوذتين. ولعل: بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتى بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعائيس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ (٣) كتب الله لأغثنى أنا ورسلى إن الله قوى عزيز (٤) تحصنت بالله العظيم واستمنت بالحق القيوم الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكفنا بركنك الذى لا يرام اللهم احرسنا بقدرتك علينا فلا تنهك برأى نقتات ورعاؤنا اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإيمانك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين.

التاسع: أن يرقى بالداية إن كان راكبا فلا يصحله ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها فإنه منتهى عنه، ولا ينأى عليها فإنه يثقل بالنوم وتأتى به الدابة كأن أهل الورد لا ينأون على الدواب إلا غفوة. وقال صلى الله عليه وسلم «لا تخنوا ظهور دوابكم كرامى» (٥) ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك (٦) فهو سنة وفيه آثار من السلف.

وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة. كان ينزل ليكون بذلك حسنا إلى الدابة فيوضع في ميزان حسنة لا في ميزان حسنة المكارى. ومن آتى بهيمة بضرب أو حمل ما لا تطيق طول به يوم القيامه إذ في كل كبد حراء اجر. قال أبو الدرداء رضى الله عنه لبعير له عند الموت: أيها البعير لا تخاف منى إلى ربك فإنى لم أأأهلك فوق طاعتك. وفي النزول ساعة صدقتان؛ إحداهما: ترويح الدابة، والثانية: إدخال السرور على قلب المكارى. وفيه فائدة أخرى وهى رياضة البدن وتحريك الرجلين. والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب. وينبغي أن يقرر مع المكارى ما يحمله عليها شيئا شيئا ويمسحه عليه، ويستأجر الدابة بعقد صحيح ثلاثا يثور بينها نزاع يؤذى القلب ويحصل على الزيادة في الكلام؛ فاللفظ المبد من قول إلا لدهوقيب عتيد. فليحترز عن كثرة الكلام والجماع مع المكارى؛ فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف. فان التقليل يجر الكثير ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه. قال رجل لابن المبارك وهو على دابة: أحمل لى هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن المكارى فأتى لم أشاره على هذه الرقعة. فافطر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورد؟

(١) «كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه...» تقدم في الحج.

(٢) «تأوب الرقاء في الحراسة» تقدم في الباب الثانى من الحج.

(٣) «لا تخنوا ظهور دوابكم كرامى» تقدم في الباب الثالث من الحج.

(٤) «الزول عن الدابة غدوة وعشية» تقدم فيه.

العاشر : ينبغي أن يستصحب ستة أشياء . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمسكحة والمقراض والسواك والمشط ^(١) . وفي رواية أخرى عنها ، ستة أشياء : المرأة والتادورة والمقراض والسواك والمسكحة والمشط . وقالت أم سعد الانصارية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في السفر المرأة والمسكحة ^(٢) وقال صبيب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالإئتمد عند مضجعتكم فإنه ما يزيد في البصر ويثبت الشعر » ^(٣) وروى أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا ، وفي رواية : أنه اكتحل البيئي ثلاثا واليسرى ثنتين ^(٤) وقد زاد الصوفية الزكوة والحبل . وقال بعض الصوفية : إذا لم يكن مع الفقير زكوة وحبل دل على نقصان دينه . وإنما زادوا هذا لأوهم من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب ، فالزكوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ولزج الماء من الآبار . وكان الأولون يكفون بالثيم وينفون أنفسهم عن نقل الماء . ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يقيقروا بها حتى توضع في ماء في جرة نصرانية . وكانوا يكتفون بالأرض والحبال عن الحبل فيغسلون الثياب الممسوحة عليها . فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ؛ وإنما البدعة الممنومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فستحسن .

وقد ذكرنا أحكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة . وأن التجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة بل يحتاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه .

وقيل كان الخواص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر : الزكوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض ، وكان يقول : هذه ليست من الدنيا .

الحادي عشر : في آداب الرجوع من السفر : كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون ناهبون عابدين ساجدون لرَبنا حامدون صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ^(١) وإذا أشرف على مدينته فليقل : اللهم اجعل لنا بها قرارا وورقا حسنا ، ثم يرسل إلى أهله من يشرهم بقدمه كيلا قدم يقدم عليهم بنته فيرى ما يكرهه ، ولا ينبغي له أن يترقبهم ليلا ^(٢) فقد ورد النهي عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد أولا وصل ركعتين ثم دخل البيت ^(٣) وإذا دخل قال « توبا توبا لرَبنا أوبا أوبا لا ينادر علينا حوبا » ^(٤)

(١) حديث عائشة : كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمسكحة والمدرى والسواك والمشط . وفي رواية « ستة أشياء » رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها متزنة (٢) حديث أم سعد الانصارية « كان لا يفارقه في السفر للمرأة والمسكحة » رواه الخرائطي وإسناده ضعيف .

(٣) حديث صبيب : عليكم بالإئتمد عند مضجعتكم فإنه يزيد في البصر ويثبت الشعر . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذي وصححه ابن حزم وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابي صحيح الإسناد . (٤) « كان يكتحل البيئي ثلاثا واليسرى ثنتين » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين (٥) « كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ... » تقدم في الحج (٦) « انتهى عن طريق الأهل ليلا » تقدم . (٧) « كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولا وصل ركعتين » تقدم (٨) « كان إذا دخل قال : توبا توبا لرَبنا أوبا أوبا لا ينادر علينا حوبا » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين .

ويبنى أن يحمل لأهل يته وأقاربه تحفة من مطعم أو غيره على قدر إمكاته فهو سنة . فقد روى : أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في غلته حبراً (١) وكان هذا مبالغة في الاستحاثات على هذه المكرمة لأن الأعيان تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تقرب به ؛ فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستسبحه في الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة .

وأما الآداب الباطنة : ففى الفصل الأول بيان جملة منها . وجملة أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر . ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فليقف وليتصرف ولا يبنى أن يجاوزهم منزله بل يزل حيث ينزل قلبه . ويتوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوعها ويبتعد أن يستفيد من كل واحد منهم أدياً أو كلمة ليضعها ، لا ليحكى ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك . ولا يجالس في مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين . وإن كان قصد زيارة أخ فلا يرد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقتها . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة . ولا يشغل نفسه بالعمرة فإن ذلك يقطع بركة سفره . وكلما دخل بلدًا لا يشغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله ، فإن كان في يته فلا يلق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله ، فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولاً . وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطمعة البلدان وأستياها ولا ذكر أصدقائه فيها ، وليذكر مشايخها وقرامها . ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتقدمها في كل قرية وبلدة . ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها . ولا يزد في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره . وإذا كلفه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدته ثم يرجع إلى ما كان عليه . فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخاطبها بالبركة في مخالفة النفس . وإذا تبسرت له خدمة قوم صالحين فلا يبنى له أن يسافر برهما بالخدمة فذلك كفران لعمه .

ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أو سفره معلول وليرجع إن لم يكن لظهور أثره . قال رجل لأبي عثمان المغربي : خرج فلان مسافراً ، قال : التفر غربة والغربة ذلة وليس للؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فمر الدين لا يذل إلا بذلة الغربة ، فليكن سفر المرید من وطن هواه ومراعاة وطبعه حتى يمر في هذه الغربة ولا يذل فإن من اتبع هواه في سفره ذل لآلحاة إما عاجلاً وإما آجلاً .

الباب الثاني : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

من رخص السفر وأدلة التبلة والأوقات

اعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يزود له دنياه ولآخرته . أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإن خرج متوكلاً من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة . وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب فإن كان ممن يصبر على الجوع — أسبوعاً أو عشرين مثلاً — أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش غروجه من غير زاد نصيبة فإنه اتقى نفسه بيده إلى التهلكة ولهذا سر سياً في كتاب التوكل .

(١) حديث إيطراق أهله عند القدوم ولو عجز أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف

وليس معنى التوكل التبعاد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل يطلب اللو والحبل ونزع الماء من البئر ، ولو جب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء فيه . فإن كان حفظ اللو والحبل لا يندفع في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب لحصل عين المعلوم والمشروب حيث لا يتظر له وجود أولى بأن لا يندفع فيه . وسأني حقيقة التوكل في موضعها فإنه يأنس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الأخيرة : فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه ؛ إذ السفر تارة يخفف عنه أموراً فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه السفر كالقصر والجمع والقطر ، وتارة يشدد عليه أموراً كان مستغنيا عنها في الحضر كالم بالقبلة وأوقات الصلوات ؛ فإنه في البلد يكتبني بغيره من عارِب المساجد وأذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج إلى أن يشرف بنفسه ، فإذا ما يقتدر على تعلمه ينقسم إلى قسمين :

التقسيم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفي صلاة الفرض رخصتين : القصر والجمع ، وفي التفل رخصتين : أدائه على الراحة وأدائه ماشياً ، وفي الصوم رخصة واحدة وهي القطر . فهذه سبع رخص .
الرخصة الأولى : المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال : أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرين أو سفراً أن لا نترج خفافاً ثلاثة أيام ولياليهن^(١) فكل من لبس الخف على طهارة ميسرة الصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً ، أو يوماً وليلة إن كان مقبلاً ولكن بخمسة شروط .

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجر له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى يترج اليمنى ويمسح لیس .

الثاني : أن يكون الخف قوياً يمكن المشي فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن متعللاً إذا العادة جلوية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجر موق الضعيف .
الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الفصل خرق ، فإن تحرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجر المسح عليه .
والشافعي قول قديم إنه يجوز ما دام يستمسك على الرجل ، وهو منسوب مالك رضي الله عنه . ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعلم الخرز في السفر في كل وقت ، والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساتراً لا تبدو بشرة القدم من خلاله ، وكذا المشقوق الذي يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتد إلا أن يكون ساتراً إلى ما فوق الكعبين كيفما كان . فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي بالثبقة لم يجر المسح عليه .

الرابع : أن لا يترج الخف بعد المسح عليه ، فإن ترج فالأولى له استئناف الوضوء ، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المأخوذ لحمل فرض الفصل لا على الساق ، وأقله ما يسمى مسحا على ظهر القدم

الباب الثاني : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

(١) حديث صفوان بن عسال «أمرنا النبي ﷺ إذا كنا مسافرين أو سفراً أن لا نترج خفافاً ثلاثة أيام ولياليهن» أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وصححه وابن ماجه والنسائي في الكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

من الحنف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبة الخلاف وأكله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (١) كذلك فعل رسول الله ﷺ . ووصفه : أن يبل اليمين ويضع رموس أصابع اليمنى من يده على رموس أصابع اليسرى من وجهه ويمسحه بأن يمر أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رموس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الحنف ويمرهما إلى رأس القدم . ومهما مسح مقيام سافر أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الحنف ، فلو لبس الحنف في الحضر ومسح في الحضر ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام وليالهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين . فيفضل وجليه وبعد لبس الحنف ، ويراعى وقت الحدث ويسأله الحساب من وقت الحدث . ولو أحدث بعد لبس الحنف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن المادة قد تقضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث ، فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الحنف في حضر أو سفر أن يتكس الحنف ويقض ما فيه حلوا من حية أو عقرب أو شوكه . فقد روى عن أن أمانة أنه قال : دعا رسول الله ﷺ خفيه فلبس أحدهما ، فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ، فقال ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » (٢) .

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر ؛ إنما يشتر للماء بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استنث ، وهو البد الذي لا يتناد أهل المنزل — في ترددهم لقضاء الحاجة — التردد إليه . وكذا إن نزل على الماء عطو أو سبغ فيجوز التيمم وإن كان الماء قريبا ، وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم ، وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز له الوضوء . ويلزمه بذلك إما بشئ أو بشئ ثمن ، ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرة أو لحم أو لبل قيت يجمعه به لم يجر التيمم بل عليه أن يمتزى بالفقير اليابس ويترك تناول المرة ، ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنه . وإن بيع بشئ المثل لزمه الشراء وإن بيع بشئ لم يلزمه ، فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء . مما يجوز الوصول إليه بالطلب ، وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفتيش الرجل وطلب البقايا من الآواني والمطاهر ، فإن نسي الماء في رحله أو نسي يثرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب ، وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن السمر لا يورق به ، وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقبل له : أتتيمم وجدان المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبق إلى أن أدخلها ؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء ، وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء .

ومهما طلب فلم يجد فليقتصد صعيدا طيبا عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما

(١) « مسحه ﷺ على الحنف وأسفله » أخرجه أبو داود والترمذي وضمنه وابن ماجه من حديث الثيرة وهكذا ضمنه البخاري وأبو زرعة .

(٢) حديث أبي أمانة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبراني وفيه من لا يعرف .

ضربة فيمسح بها وجهه ، ويضرب ضربة أخرى من بعد نزح الحاتم — ويخرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه فإن لم يستوصب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى . وكيفية التلطيف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده .

ثم إذا صلى فريضة واحدة قل أنه يتنفل ماشاء بذلك التيمم ، وإن أراد الجمع بين فريعتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية ، فلا يصلي فريعتين إلا بتيممين ، ولا يبنى أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ؛ فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم ، وليس عند مسح الوجه : استباحة الصلاة ، ولو وجد من الماء ما يكفي لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً .

الرحلة الثالثة : في الصلاة المفروضة ، القصر : وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والمشاء على ركعتين ولكن بشرط ثلاثة : (الأول) أن يؤديها في أوقاتها فلا صارت قضاء فلا ظهر لزوم الإتمام (الثاني) أن ينوي القصر فلا نوى الإتمام لزوم الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزوم الإتمام . (الثالث) أن لا يقتدي بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزوم الإتمام بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزوم الإتمام ، وإن يقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا تخفى عليك متحققاً عند التنية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا — بعد أن عرف أنه مسافر — لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها . وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح .

وحده السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته ، والسفر هو الانتقال من وضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالقامم وراكب التماسيف ليس له الترخيص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً ، ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة ويسكنها التي يخرج أهل البلدة إليها للتعز . وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحيطة دون التي ليست بمحوفة . ولو رجع للمسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز عمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن قلله الترخيص إذ صار مسافراً بالاتزاحج والخروج منه .

وأما نسيان السفر لأحد أمور ثلاثة : (الأول) الوصول إلى عمران من البلد الذي عزم على الإقامة به . (الثاني) العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء . (الثالث) صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخيص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة ولكن له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازها ولكنه يتوقع عليه ويتأخر قل أنه يترخص وإن طالت المدة — على أقسى القولين — لأنه متزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورة ولا مبالاة بصورة الشبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الفضل قالا أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولا بين أن يتأخر الخروج لطر لا يطم بقاءه ثلاثة أيام أو لنهره ، إذ ترخص رسول الله ﷺ قصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد (١) . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه ، إذ لا معنى للتقدير ثمانية عشر يوماً ، والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لا لكونه غازیاً مقاتلاً هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين : كل مرحلة ثمانية فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

(١) « قصره ﷺ بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد » أخرجه أبو داود من حديث عمر بن حصين في قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يحل إلا ركعتين . والبخاري من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوماً قصر الصلاة . لأبي داود « سبعة عشر » بتقديم السين وفي رواية له « خمسة عشر » .

ومعنى المباح أن لا يكون عاقلاً والديه هارباً منهما ، ولا هارباً من مالكه ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هارباً من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجهاً في قطع طريق ، أو قتل إنسان ، أو طلب إدراك حرام من سلطان ظالم ، أو سعى بالتصاد بين المسلمين .

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا في غرض ، والغرض هو المحرك . فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراماً ولولا ذلك الغرض لكان لا يثبت لسفره فسره مصيبة ولا يجوز فيه الترخص . وأما النقص في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة . بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يمين عليه بالرخصة ولو كان له باعثن أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلاً بتحريكه ولكان لإحالة يسافر لأجله فله الترخص . والمتصوفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف . والمختار أن لهم الترخص .

الرخصة الرابعة : الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما ، فذلك أيضا جائز في كل سفر طويل مباح ، وفي جوازها في السفر القصير قولان . ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليكن الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر . وليؤذن الظهر وليقيم ، وعند الفراغ يقيم العصر ، ويجدد التيمم أولاً إن كان فرضه التيمم ، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المرنى ، وله وجه في التيمم إذا استند إلى إيجاب تقديم الثانية بل الشرع يجوز الجمع وهذا جمع ، وإنما الرخصة في العصر فتسكن الثانية فيها ، وأما الظهر فجاز على القانون ، ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين من الصلاتين ؛ أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصلها بعد الفراغ من العصر إما راكياً أو مقبياً ، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لا تقطعت الموالاة وهي واجبة - على وجه - ولو أراد أن يقيم الأربع المستوتة قبل الظهر والأربع المستوتة قبل العصر فليجتمع بينهما قبل الفريضة فيصلي سنة الظهر أولاً ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض ، ولا ينبغي أن يحمل التوافل في السفر فافوته من ثوابها أكثر مما يناله من الريح ، لا سيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها وإن أخر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب ولا يسأل بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه لأن ماله سبب لا يكره في هذا الوقت ، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر ، وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشغل بجميع الرواتب ويقيم الجميع بالوتر . وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جميعاً فهو نية الجمع ، لأنه إنما يخلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر ، وذلك حرام والعزم عليه حرام . وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقتها إما لتوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصياً ، لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها ، ويمتثل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركاً في السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحاض قضاء الظهر إذا ظهرت قبل الغروب . ولذلك يتقدم أن لا تشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتا للعصر ، إذ يبعد أن يشغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيرها . وعند المطر يجوز الجمع كمثل السفر . وترك الجمعة أيضا من رخص السفر وهي متعلقة أيضا بفرائض الصلوات . ولو نوى الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر ، ومماضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العزم إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكبا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل على راحته أينما توجهت به دابته (١) . وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحة . وليس على المتنفل راكبا في الركوب والسجود إلا الإيماء . وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة . فإن كان في مرقد فليتم الركوع السجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة فلا يجب لافي ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، ولكن صوب الطريق يدل عن القبلة . فليكن في جميع صلاته إمامستقبلا القبلة أو متوجها في صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرق دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته إلا إذا حرقها إلى القبلة . ولو حرقها ناسيا وقصر الزمان لم يطل صلاته ، وإن طال فيه خلاف وإن جهت به الدابة فاتحرفت لم يطل صلاته . لأن ذلك مما يكثر وقوعه . وليس عليه سجود سهو إذ الجماع غير منسوب إليه ، بخلاف ما لو حرق ناسيا فإنه يسجد بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشي جائز في السفر ويوى بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد لأن ذلك يطل فائدة الرخصة حكمه حكم راكبا ، لكن ينبغي أن يحرم بالصلاة مستقبلا القبلة ، لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه بخلاف راكبا فلن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ، وربما تكررت الصلاة فيطول عليه ذلك . ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمدا ، فإن فعل بطلت صلاته بخلاف ما لو ملئت دابة راكبا نجاسة . وليس عليه أن يهوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تغلو الطريق عنها غالبا . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه في التنفل .

الرخصة السابعة : الفطر ، وهو في الصوم . فالمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيا ثم مافر ففطيه إتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافرا صامنا ثم أقام ففطيه الإتمام . وإن أقام مفطرا فليس عليه الإسائك بقية النهار ، وإن أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر ، والقصر أفضل من الإتمام والخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس في عهدة القضاء ، بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء وربما يتعذر عليه ذلك بما تنق في ذمته ، إلا إذا كان الصوم يضربه فالإفطار أفضل .

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام . وتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا كان أو قصيرا وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتميم ، وأما صلاة النافلة ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازها في التيميم . والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل وأما صلاة الفرض راكبا أو ماشيا بالخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتميم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

فان قلت : فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر قبل السفر أم يستحب له ذلك ؟ فاعلم أنه كان عازما على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكبا وماشيا ولم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك لأن الترخص ليس بواجب عليه ، وأما علم رخصة التيميم فيلزمه لأن فقد الماء ليس إليه ؛ إلا أن يسافر على شاطئ نهر

(١) حديث : كان صلى على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحة ، متفق عليه من حديث ابن عمر .

يوقظ بيقاء مائه ، أو يكون معه الطريق طام يقدر على استغاثته عند الحاجة ، لله أن يؤخر إلى وقت الحاجة . أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه طام فيلزمه التمسك بالحالة .

فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاته لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاته بعد لم يجب وربما لا يجب ؟ فأقول : من بين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة ، فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر . ويلزمه تعلم المناسك للحالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه ، لأن الأصل الحياة واستمرارها . ومالا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب . وكل ما يتوقع وجوبه توقفا ظاهرا غالبا على الغن وفشروط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط للحالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته . فلا محل إذن للسافر أن ينسى السفر مالم يتعلم هذا القدر من علم التيمم . وإن كان ظاهرا على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ، فإنه إذا لم يتعلم القدر الجازم لرخصة السفر لم يمكنه الاختصار عليه .

فإن قلت : إنه لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره ونافته إن سلى أن تكون صلاته فاسدة ؟ وهي غير واجبة فكيف يكون عليها واجبا ؟ فأقول : من الواجب أن لا يصل التنفل على نعم الفساد ؛ فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يحترقه من النافلة الفاسدة خيرا من الوقوع في المحظورات . فهذا بيان علم ماخف عن المسافرين في سفره .

القسم الثاني : ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات : وذلك أيضا واجب في الحضر ؛ ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه ينتهيه عن طلب القبلة ومؤذن يراهي الوقت فينتهيه عن طلب علم الوقت .

والمسافر قد تنقب عليه القبلة وقد يتجسس عليه الوقت فلا بد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت . أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام : أرضية ، كالاستدلال بالجلال والقرى والأنهار . وهوائية ، كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباحها ومغربها . وسماوية ، وهي النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على عين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدماه ، فليعلم ذلك وليفهمه . وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك . ولستأ تقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر . وأما السماوية فادلتها تنقسم إلى نهائية وإلى ليلية .

وأما النهارية : فالشمس ، فلا بد أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أمي بين الحاجبين ؛ أو على العين اليمنى ؛ أو اليسرى ؛ أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ؛ فإن الشمس لا تعدو في البلاد الشمالية هذه المواقع . فإذا حفظ ذلك فيها عرف الزوال بدليله الذي سنده عرف القبلة به . وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر . فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة . وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه .

وأما القبلة وقت المغرب فانما تدرك بموضع الغروب ؛ وذلك بأن يحفظ أن الشمس تقرب عن عين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قداه . وبالشفق أيضا تعرف القبلة المشاء الأخيرة .

وبشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح ، فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف ، فإن المشرق والمغرب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين ، فلا بد من تعلم ذلك أيضا ، ولكن قد يصلى المغرب والعشاء بعد غيوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به ، فليسه أن يراعى موضع القطب ؛ وهو الكوكب الذى يقال له : الجدى ، فإنه كوكب كالشاهة لا تظهر حركته من موضعه ، وذلك إما أن يكون على قضا المستقبل ، أو على متبكه الأيمن من ظهره ، أو متبكه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة ، وفي البلاد الجنوبية كاليمين وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل ، فيعلم ذلك ، وما عرّفه في بلد فليحول عليه في الطريق كله إلا إذا حال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشرق والمغرب ، إلا أن ينتهى في أثناء سفره إلى بلاد فينبئ أن يسأل أهل البصرة . أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل عراب جامع البلد حتى يضع له ذلك ، فهما تعلم هذه الآلة أنه أن يحول عليها ، فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبئ أن يقضى ، وإن اعرف عن حقيقة محاذة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء .

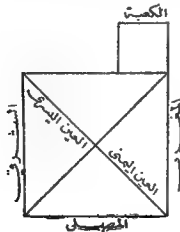
وقد أورد الفقهاء خلافا في أن المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا : إن قلنا إن المطلوب العين ففى تصور هذا مع بعد الديار ؟ وإن قلنا : إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج بيده عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته ، وقد طولوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين ، ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة .

ففى مقابلة العين : أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاقصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان [وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلى بقدر أنه خارج من بين عينيه] أفهمه صورة مقابلة العين .



وأما مقابلة الجهة : فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة ، فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقاط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ،

فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة . كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة . فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكن الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا ليمينها



وحد تلك الجهة ما يقع بين خطين يوجههما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين ، فيلتقي طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة ، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة ، وسعة ما بين الخطين تزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة [وهذه صورته] :

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول . الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها . وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها فنحن نرى فيها فيمكن استقبال الجهة .

فأما طلب العين عند المشاهدة فمفهوم عليه وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم والقياس .

أما الكتاب : فقوله تعالى (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أى نحوه . ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ول وجهه شطرها .

وأما السنة : فما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والمشرق قبلة (١) » والمغرب يقع على بين أهل المدينة والمشرق على يسارهم لمجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لاتتفق بما بين المشرق والمغرب وإنما يبنى بذلك جهتها ، وروى هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضى الله عنهما .

وأما فعل الصحابة رضى الله عنهم . فما روى أن أهل مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبیت المقدس مستدبرين الكعبة - لأن المدينة بينهما - فقيل لهم : الآن قد حولت القبلة إلى الكعبة . فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة (٢) ولم يتكر عليهم ، وصحى مسجدكم « ذا القيلتين » ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأداة متوسطة يطول النظر فيها ، فكيف أدركوا ذلك على البنية فى أثناء الصلاة وفى ظلة الليل؟ وبطل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفى سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهنئى .

وأما القياس : فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها ، بل ربما يزجر عن التعوقى عليها فكيف يبنى أمر الشرع عليها فكيف الاكتفاء بالجهة الضرورة .

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها . وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة « لا تستقبلوها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا (٣) » قال : هذا بالمدينه والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه - فهى عن جهتين وخصص فى جهتين ، وبحجج ذلك أربع جهات ، ولم يحظر يال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست أو سبع أو عشر ، وكيفيا كان لما حكم الباقى : بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقه الإنسان ؛ وليس له إلا أربع جهات : قدام وخلف ويمين وشمال ، فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا ، والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أداة القبلة ، فأما مقابلة العين فالتعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق ، ثم يصف ذلك أيضا فى موقف المصل ، ثم يقابل أحدهما بالآخر ، ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبني عليها قطعا ، فاذن القدر الذى

(١) « ما بين المشرق والمغرب قبلة » أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى وقال منكر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة . (٢) « إن أهل قباء كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبیت المقدس فقيل لهم ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستدبروها ... » أخرجه مسلم من حديث أنس وافقنا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف .

(٣) « لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا » متفق عليه من حديث أبى أيوب .

لا بد من تعلمه من أدلة القبلة : موقع المشرق والمغرب في الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر . فهذا يستطاع الرجوع

فإن قلت : فلخرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يصح ؟ فأقول : إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب ، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بمداته وبصيرته وتقدر على تقليده فلا يصح . وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى ؛ لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل عليه فصار ذلك كمثل التيمم وغيره فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بنهم مظل ، أو ترك التعم ولم يجد في الطريق من يقلده ؛ فعليه أن يعمل في الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ . والأصحى ليس له إلا التقليد قليقداً من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهداً في القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتداد قوله لكل عدل بخبره بذلك في حضر أو سفر وليس للأصحى ولا الجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة . حيث يحتاج إلى أدلة استدلال . كما ليس للمأمي أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرح ، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلمه دينه ، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضاً إذ لا يجوز له الاعتماد على قوى الناسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى . كما في الرواية . وإن كان معروفاً بالفقه مستورا للحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له صداقة ظاهرة لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن صداقة للمفتين . فإن رآه لا يسا للحرر أو ما ينضب عليه الإبريم أو راكباً لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ؛ فيطلب غيره وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إحدرا أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال ؛ فشكل ذلك فسق يتدفع في العدالة وينع قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الحسن فلا بد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع لفي ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب ، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقيم المسافر في موضع أو لينصب عوداً مستقيماً ، ولا يعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في التقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر .

وطريقه في معرفة ذلك أن ينظر في البلد . وقت أذان المؤذن المعتمد . ظل قائمه ، فإن كان مثلاً ثلاثة أقدام بقدمه فيها صار كذنبك في السفر وأخذ في الزيادة صلى . فإن زاد عليه ستة أقدام وطفافاً بقدمه دخل وقت العصر ؛ إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف . وإن كان من أول الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان فليستصحبه المسافر . وليعلم اختلاف الظل به في كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ؛ فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصير بين عينيه مثلاً إن كانت كذنبك في البلد

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عه فينبغي أن ينظر إلى جانب المغرب فيها ظهر سواد الأفق مرتفع من الأرض قد دحج فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء فيعرف بنبوية الشفق . وهو الحرة . فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحرة .

وأما الصبح فيبدو في الأول مستطيلاً كذنب السحان فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان ، ثم يظهر بياض

معرض لا يصر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الصبح هكذا - وجمع بين كفيه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائقيه على الأخرى وقصهما - (١) » وأشار به إلى أنه معرض . وقد يستدل عليه بالماثل وذلك تقريب لتحقيق كفه ، بل الاعتدال على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب . والذي ذكره المحققون أنه يقدم على الشمس بمنزلةين وهذا تقريب ، ولكن لا اعتدال عليه فإن بعض المنازل تطلع معرضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك في البلاد اختلافا يطول ذكره . نعم تصلح المنازل لأن يسلم بها قرب وقت الصبح وبعد ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلةين أصلا . وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقي قريب من منزلةتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب ، وهو مبتدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه . فمن وقت الشك ينبغي أن يترك السائمين السجود ، ويقدم القائم الترتعليه ، ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك ، فإذا تحقق صلى . ولو أراد مرئد أن يقدر على التحقيق وقتا معينا يشرب فيه مفسرا أو يرقم عقبيه ويصلي الصبح متصلا به لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك من قوة البشر أصلا ، بل لابد من مهلة للتوقف والشك ، ولا اعتدال إلا على العيان ، ولا اعتدال في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا في المعرض حتى تبدو مبادئ الصفرة . وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت . ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن علي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يبينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يتعرض لكم الأحمر » (٢) وهذا صريح في رعاية الحرمة . قال أبو عيسى - وفي الباب عن علي بن حاتم وأبي ذر وسمرة بن جندب - وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كلوا واشربوا ما دام الضوء ساطعا . وقال صاحب التريين : أي مستغيلا . فإذا لا ينبغي أن يول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادئ الحرمة . وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول ، أو قبل التروم حتى يسرع . فإن وطن قسمه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت وينجم كلمة النزول وكلمة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم جلم الأوقات . فإن للشكل أوائل الأوقات لأواسطها .

(١) حديث : ليس الصبح هكذا - وجمع كفه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائقيه على الأخرى وقصهما وأشار به إلى أنه معرض - أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة إلى كفو السبائتين ولأحد من حديث طلق بن علي « ليس الفجر مستطيل في الأفق لكنه للمعرض الأحمر » وإسناد حسن .

(٢) حديث طلق بن علي : كلوا واشربوا ولا يبينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يتعرض لكم الأحمر . قال المصنف : رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال حسن غريب وهو كما ذكر ، ورواه أبو داود أيضا .

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربيع المعاديات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق منهمهم وأرواحهم بالفوق إلى لقاءه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرة ، حتى أصبحوا من تنفس روح الوصال سكرى ، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والمه جوى ، فلم يروا في الكون شيئاً سواه ، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه ، إن منحت لأبصارهم صورة خفيت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزجج أو مقلق أو مطرب أو محزون أو مبهج أو مشوق أو مبهج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ، ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ، ولا شوقهم إلا إلى ماله به ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواله . فنه سماعهم ، وإليه استماعهم ، فقد أقلل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته واستخلصهم من بين أصفياه وخاصته ، والصلاة على محمد المبعوث برسالة وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيرا .

وأما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كطويت النار في الحديد والحجر ، وأخفيت كما أخفى الماء تحت القباب والمدر ، ولا سبيل إلى استنارة غضاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهلج الأسماع ، فالتغيمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر غايتها أو مساوئها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه . كما لا يرشح إلا ناء . إلا بما فيه ، فالسماع للقلب حك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه . إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت براراتها مكانها ، وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها ، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فیهما من الآداب والميشتات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المخطورات أو المباحات . ونحن نوضح ذلك في بابين . (الباب الأول) في إباحة السماع . (الباب الثاني) في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعزعة وتبريق الثياب .

الباب الأول : في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقوال العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويشعر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ، ويشعر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة تقسى الاضطراب وإما موزونة تقسى التصفيق والرقص . فليبدأ بحكم السماع وهو الأول وتنقل فيه الأقوال المبررة عن المذاهب فيه ، ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه .

فأما قتل للمذاهب : فقد حكى أن القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألقاظا يستدل بها على أنهم وأوا تخريمه .

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : إن الفناء هو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وقال القاضي أبو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسباعها فهو سفيه ترد شهادته ، وقال : وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطلقة بالتضيب ويقول وضعت الزناذة ليشغلوا به عن القرآن . وقال الشافعي رحمه الله : ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشرطي وأكره كل ما يلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المرأة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الفناء وقال : إذا اشترى جارية فوجعها مغنية كان له ردها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا لإبراهيم بن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الفناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

وقتل أبو طالب المكي إباحة السجاع من جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة وسماوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي وأحسان ، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السجاع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المندوبات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواطنين كأهل مكة على السجاع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمي الناس التحنين قد أعدم من الصوقية ، قال : وكان لعلاء جارتين يلحنان فكان إخوانه يستمعون إلهما قال : وقيل لأن الحسن بن سالم كيف تنكر السجاع وقد كان الجنيد وسرى السقطي وفو الثون يستمعون ؟ فقال : وكيف أنكر السجاع وقد أجازة وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر الغلو والعصب في السجاع .

وروى عن يحيى بن معاذ أم قال : قدنا ثلاثة أشياء فإزاهما ولا أراهما تزداد إلا قلة ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الدابة ، وحسن الإخاء مع الزقاء . ورأيت في بعض الكتب هذا عكيا بيسه من الحرث المحاسبي وفيه ما يدل على تجويزه السجاع مع زهده وقصاونه وجهه في الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع . وحكى غير واحد أنه قال : اجتماعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرهم ؛ لحضر سماع لجعل ابن مجاهد يمرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحد بن حنبل أنه كره السجاع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدتي أحد ابن بنت منيع لحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحنابلة ، فقال ابن مجاهد لابن داود : دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعني أنت من جدك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أشد بيت شعر أم حرام ؟ فقال ابن داود : لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده ؟ قال : لا ، قال : فإن أنفده وطوله وقصر منه المندود ومد منه المقصور أم حرم عليه ؟ قال أنا لم أفر لشيخان واحد فكيف

أفوى لشيطانين؟ قال : وكان أبو الحسن السلفاني الأسود من الأولياء . يسمع ويوله عند السج ، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكربه ، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكربه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الحنضري عليه السلام قفلت له : ما تقول في هذا السج الذي اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقلام العلماء . وحكى عن عباد الدينوري أنه قال : رأيت النبي ﷺ في النوم قفلت : يا رسول الله هل تنكر من هذا السج شيئا ؟ فقال : ما أنكر منه شيئا ولكن قل لم يفتحن قلبه بالقرآن ويحتجون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال الحمداني الوراق — وكان من أهل العلم — أنه قال : كنت متكئا في جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويسمعون ، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت : في بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبي ﷺ تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، قفلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله ﷺ يستمع وأبو بكر يقول ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال : هذا حق بحق — أو قال حتى من حق — أنا أشك فيه .

وقال الجنييد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع ، عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم لا يتهاوون ولا في مقامات الصديقين ، وعند السج لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا . وعن ابن جرير أنه كان يرخس في السج قليل له : أي في يوم القيامة في جملة حسناته أو سيئاته ؟ فقال : لا في الحسنات ولا في السيئات ، لأنه شبيه بالغو وقال الله تعالى (لا يؤاخذكم الله بالغو إذا بآمنتم) .

هذا ما قل من الأقاويل . ومن طلب الحق في التقليد فيما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشبه ، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقة وذلك بالبحث عن مدارك الخطر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السج

اعلم أن قول القائل : السج حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يرفع بمجرد العقل بل بالسمع ومبرة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص . وأخى بالنص ما أظهره ﷺ بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المقبوض من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص يطل القول بتحريمه ، وبقي فعلا لا حرج فيه كاتر المباحات . ولا يدل على تحريم السج نص ولا قياس . ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة الماتلين إلى التحريم . ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض ؛ لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الفناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماح صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، فالوصف الأهم أنه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

أما سماح الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به ، وللإنسان عقل ونحو حواس ولكل حاسة إدراك

وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ ، فقلة النظر في البصريات الجبلية كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرية القبيحة . ولشم الروائح الطيبة ، وهي في مقابلة الأثان المستكرهة . وللنوق الطعوم الذليلة كالأسومة والحلاوة والخوض ، وهي في مقابلة المراتة المستقبسة . وللس لذة الين والنعومة واللابة ، وهي في مقابلة الخشونة والضراسة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهي في مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مسئلة كصوت العنادل والمزامير ، ومستكرهة كتهيق الجهر وغيرهما فإظهر قياس هذه الحاسة ولاتها على سائر الحواس ولذاتها :

وأما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال (يزيد في الخلق ما يشاء) . فقل هو الصوت الحسن وفي الحديث « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته » (٢) وفي الحديث في مرض المدح لداود عليه السلام أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطيور لسماع صوته ، وكان يعمل في مجلسه أربعائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات » (٣) وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى زمزماراً من مزامير آل داود » (٤) وقول الله تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الجهر) يدل بفهمه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أبيع ذلك بشرط أن يكون في القرآن لزمه أن يحرم سماع صوت المتدليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة ؟ وإن من الشرر الحكمة . فهذا نظر في الصوت من حيث أنه طيب .

الدرجة الثانية : النظر في الصوت الطيب الموزون ؟ فإن الوزن وراء الحسن فكيف من صوت حسن خارج من الوزن وبكم من صوت موزون غير مستطاب والأصوات الموزونة باعتبار خارجها ثلاثة : فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإما أن تخرج من حجرة حيوان ، وبذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقناري وذات السبع من الطيور ، فهي مع طبيعتها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فذلك يستلذ سماعها . والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه الصنعة بالخلفة . وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعاتهم إلى تصويره إلا أنه مثال في الخلفة التي استأثر الله تعالى باختراعها ، فنه تعلم الصناعات وبه قصدوا الاكتفاء وشرح ذلك يطول . فبما هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم صوت المتدليب وسائر الطيور .

كتاب السماع والوجد

الباب الأول : في ذكر اختلاف العلماء في إباحة

(١) « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت » أخرجه الترمذي في الثمائل عن قتادة وزاد قوله « وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت » وروياه متصلا في الثماليات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول قاله الدارقطني وروياه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطريقه كلها ضعيفة .

(٢) « فهاشدا أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » تقدم في كتاب تلاوة القرآن .

(٣) « كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور ... » لم أجده أصلا .

(٤) « لقد أوتي زمزماراً من مزامير آل داود » قال في مدح أبي موسى : تقدم في تلاوة القرآن

ولا فرق بين حجرة وحجرة ولا بين جاد وحيوان . فينبغي أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الأذى كالذي يخرج من حلقه أو من القضيبي والطبل والدف وغيره .

ولا يستثنى من هذه إلا الملامى والأوتار والمزامير التي ورد الشرح بالمتنع منها ^(١) لا لثقتها إذ لو كان لثقة لقيس عليها كل ما يلتصق به الإنسان . ولكن حرمت الحور واقضت خراوة الناس بها المبالغة في القطع عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان لحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الانبعاث كحرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجلاع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسواكن ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، ومانع حرام إلا وله حريم يضيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حرم الحرام ووقاية له وحظا ما نفع حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حرمي وإن حرمي الله محارمه » ^(٢) فهي محرمة تبعاً لتحريم الخمر ثلاث علل (أحداها) أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن الله المحاصلة بها إنما إنما تم بالخر ، ولثقل هذه العلة حرم الخمر . (الثانية) أنها في حق قريب العهد يشرب الخمر تذكر مجالس الأئمة بالشرب فهي سبب الذكر ، والد كرسب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا غوى فهو سبب الإقوام . وهذه العلة « نهى عن الإتيان في المرفق والحنم والتغير » ^(٣) وهي الأواني التي كانت مخصصة بها . فمضى هذا أن مشاهدته صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار لنقطة الذكر إذ لا لثقة في رؤية التفتية وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكرها يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منتهى عن السماع بخصوص هذه العلة فيه . (الثالثة) الاجتماع عليها : لما إن صار من عادة أهل التمسك فيمنع من التشبه بهم ، لأن من يشبه بقوم فهو منهم . وهذه العلة تقول بترك السنة معها صارت شعاراً لأهل البدعة خوفاً من التشبه بهم . وهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المختلئين ولولا ما فيه من التشبه لكن مثل طبل الحجيج والغزو . وهذه العلة تقول لواجتمع جماعة وبنا مجلساً وأحضروا آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكجيين ، ونصبوا سابقاً يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساقى ويشربون ويحيي بعضهم بعضاً بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم ، وإن كان المشروب مباحاً في نفسه ، لأن في هذا تشبه بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قرعاً في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينتهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتقاد أهل الصلاح ذلك فيهم . فبهذه الممانى حرم المزامير العراقية والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها . وماعدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطياليين والطياليل والقضيبي ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتصلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها

(١) « النع من الملامى والأوتار والمزامير » أخرجه البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري « ليكون في أمي أقوام يستحلون الخمر والحرب والمغازف » صورته عند البخاري صورة التصديق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود الاسماعيلي . والمغازف : للآل ؛ قاله الجوهري ، ولأحمد من حديث أبي أمامة « إن الله أمرني أن أحمق المزامير والكيكرات - الرباط - والمغازف » وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة « إن ربي حرم على الخمر والكوبة والقيبن » وله حديث لأبي أمامة باستحلالهم الحور وضربهم بالدفوف . وكلها ضعيفة ، ولأبي الشيخ من حديث مكحول مرسل « الاستماع إلى الملامى معصية ... » ولأبي داود من حديث ابن عمر « سمع زمماراً فوضع أصبعيه على أذنيه » قال أبو داود هو منكرو .

(٢) « إن لكل ملك حرمي وإن حرمي الله محارمه » تقدم في كتاب الحلال والحرام .

(٣) حديث : النهي عن الحنم واللفظ والتغير . متفق عليه من حديث ابن عباس

فلم يكن في معناها . فبقى على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار من يضرها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً . وهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد . قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر ، كما سيأتي في الموارض المحرمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمقنوم ، وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً ، والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الأحاد فن ابن يحرم المجموع ؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم كله ونظمه وحرم التعلق به سواء كان بالحناء أو لم يكن ، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال : الشعر كلام حسنة حسن وقيمه فيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بفصوص وألحان جاز إنشاده مع الألحان فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً . ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تضمنه الأحاد ، ولا يحظر هنا وكيف يشكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ؟ وقال عليه السلام «إن من الشعر لحكمة» (٢) وأنشدت عائشة رضي الله عنها :

ذهب الذين يماش في أكتافهم وبقيت في خلف كبد الأعراب

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكانا يهاويا ، فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله وللموت أدنى من شركائه

وكان بلال إذا أفلعت عنه الحى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل آتيت ليلة بواد وحول إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يدنون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها : فأغربت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد» (٣) وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

(١) حديث : إنشاد الشعر بين يدي رسول الله ﷺ ؟ متفق عليه من حديث أبي هريرة ؟ أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلفظ إليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ... ؟ وسلم من حديث عائشة إنشاد حسان : هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلك الجزاء وإنشاد حسان أيضاً : وإن سنام الجيد من آل هاشم بنو بنت عزم وواللهك السيد والبخاري إنشاد ابن أبي راحة :

وفينا رسول الله ﷺ يتلو كتابه إذا انشق معروف من القبر ساطع

(٢) « إن من الشعر لحكمة » رواه البخاري من حديث أبي بن كعب وتقدم في العلم .

(٣) عن عائشة : لما قدم النبي ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ... وفيه إنشاد أبي بكر :

كل امرئ مصبح في أهله والصوت أدنى من شركائه

وإنشاد بلال : ألا ليت شعري هل آتيت ليلة بواد وحول إذخر وجليل

وهل أردت يوماً مياه مجنة وهل يدنون لي شامة وطفيل

قلت : هو في الصحيحين كما ذكر للصف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري قطب ليس عند مسلم .

هذا الحال لاحمال خير هذا أبر - ربا وأطهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة (١)

وهذه في الصحيحين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافع ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافع أو فاجر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقالت عائشة رضي الله عنها « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضض الله فاك (٢) » وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتناشدون عنده الأشعار وهو يتيسم (٣) » وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل فاك يقول « هيه هيه » ثم قال « إن كاد في شعره ليسم (٤) » وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر . وإن أنجشة كان يحسب بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحسب بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنجشة وريدك سوفك بالقوارير (٥) » ولم يزل الحدا ، وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضي الله عنهم وماهو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم يقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون

(١) كان ﷺ ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الجمال لاحمال خير هذا أبر - ربا - وأطهر

وقال ﷺ مرة أخرى : لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف : والبيتان في الصحيحين . قلت : البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية عروة مرسلاً وفيه البيت الثاني إلا أنه قال « الآخر » بدل « العيش » بمثل شعر رجل من المسلمين لم يسم في قال ابن شهاب : ولم يلبنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ بمثل بيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاضرم الأنصار والمهاجرة

وليس البيت الثاني موزوناً ، وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بلفظ « فبارك في الأنصار والمهاجرة » وفي رواية « فاغفر » وفي رواية لمسلم « فأكرم » ولها من حديث سهل بن سعد « فاغفر للمهاجرين والأنصار » .

(٧) « كان يضع لسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن النبي ﷺ أو ينافع ... » رواه البخاري تعليقاً وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة ، قال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وفي الصحيحين أنها قالت « أنه كان ينافع النبي ﷺ » . (٣) حديث أنه قال للأنابة لما أنه أنشده شعراً « لا يفضض الله فاك » رواه البغوي في معجم الصحابة ، وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابتة واسمه قيس بن عبد الله قال : أنشدت النبي ﷺ :

لبنا البهاء مجتدا وجدودنا ولنا ترجو فوق ذلك مظهرا ... الآيات

ورواه الزار بلفظ « علونا العبادة غنة وتكرما ... » وفيه : فقال « أحسنت يا أبا لي لا يفضض الله فاك » وللحاكم من حديث خزيم بن أوس : سمعت العباس يقول : يا رسول الله إني أريد أمتدحك ، فقال « قل لا يفضض الله فاك » فقال العباس من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخفض الورق ... الآيات

(٤) حديث عائشة : كان أصحاب النبي ﷺ يتناشدون الأشعار وهو يتيسم . أخرجه الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة . (٥) حديث الشريد : أنشدت النبي ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول « هيه هيه ... » رواه مسلم . (٦) حديث أنس : « كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحسب بالنساء وكان البراء بن مالك يحسب بالرجال ... » رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك .

ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ . فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومبهج لما هو الغالب عليه . فأقول : قد تعالى مر في مناسبة التلذذات الموزونة للأرواح حتى إنها تؤثر فيها تأثيراً عجيباً . فن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ، ومنها ما يتوهم ، ومنها ما يهتفك ويغرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل هذا جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والودود وأتارده فهو قاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره متشاهد في الصبي في سنده ؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه ويتصرف نفسه عما يسكنه إلى الإصفاء إليه . والجمال مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستغف معه الأحوال الثقيلة ، ويستتصر قوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة ، وينبت فيه من النشاط ما يسكره ويوطئه ؟ قرأها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمد أعضائها وتضئ إلى المحاض ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تزعزع عليها أحمالها ومعاملها ؛ وربما تطفئ نفسها من شدة السهر وتقل الحمل وهي لا تفهم به لنشاطها . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري - المعروف بالرقى - رضي الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيت قبية من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبياه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت جملاً قد مات بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو نازل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت حنيف ولك حق فلتشفع في إلى مولاي فاته مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر فساء جمل التيد عني ، قال فلما أضجروا الطعام استمتعت وقلت لا أكل مالم أشفع في هذا العبد ، فقال : إن هذا قد أفرق وأهلك جميع مالى ، فقلت : ماذا فعل ؟ إن له صوتاً طيباً ولأنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فخلها أحمالاً ثقلاً لا كان يحتملها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ؛ فلما حلت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمال الواحد ، ولكن أنت حنيف ففكرت لك قد وهبت لك قال : فأجبت أن أسمع صوته ، فلما أصبحتنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك ؛ فلما رفع صوته هام ذلك الجمال وقطع حباله ووقع أنا على وجهي ، فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أطيب منه . فإذن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافتة على الجمال والطهور بل على جميع البهائم ، فإن جميعاً تأثر بالتلذذات الموزونة . ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته . ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجوز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق التلذذ لحكمه حكم ما في القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالتزم بالسلوك المسجدة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع :

الأول : غناء المحجج فإنهم أولاً يدورون في البلاد بالليل والشامعين والغناء ، وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك بهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتغال فتراته إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلاب إن لم يكن حاصل . وإذا كان الحج قرابة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً . وكما يجوز للراغب أن ينظم كلامه في الوعد ويرثه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لتثيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب ؛ فإذا أضيف إليه صوت طيب

ونعمات موزونة زاد وقته ، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير . وكل ذلك جائز مالم يدخل فيه الزمير والأوتار التي هي من شعار الأشرار . نعم إن قصده تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالإسقاط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج ، فيحرم تشويقه إلى الحج بالسلاح وبكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام . وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يحرم تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثاني : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو ، وذلك أيضاً مباح كالحاج ، ولكن ينبغي أن تخالف أفعالهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفر وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه - بالأشعار المشجعة ، مثل قول المتنبي :

فإن لامت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم

وقوله أيضاً :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأمثال ذلك . وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة . وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو ، ومنتدوب إليه في وقت يستحب فيه الغزو ؛ ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .

الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس والأفصار وتحريك النشاط فيهم القتال ، وفيه التمتع بالشجاعة والتجدة ، وذلك إذا كان بلغف رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس ، وذلك مباح في كل قتال مباح ، ومنتدوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة . وكل قتال محظور ، لأن تحريك الدواعي إلى المحظور محظور . وذلك منقول عن شجاعتين الصحابة رضي الله عنهم كمل وخالد رضي الله عنهما وغيرهما . ولذلك نقول : ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في ممسك الغزاة فإن صوته مرقع عزون يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرفقة للقلب ، فالألحان المرفقة المحزنة تبين الألحان المحركة المشجعة . فمن فعل ذلك على قصد تقيير القلوب وتقدير الآراء عن القتال الواجب فهو حاس ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونفاتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكتابة والحزن قسمان : محمود ومذموم .

فأما المذموم فكالحزن على ما فات قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له . فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنياحة مذموماً فلذلك ورد النهي الصريح عن النياحة (١) .

وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه . والبكاء والتباك

(١) حديث النبي عن النياحة : متفق عليه من حديث أم عطية « أخذ علينا النبي ﷺ في البكاء أن لا تنوح » .

والحزن والتألم على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام ، وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتأرك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكى ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته ، وكان يفعل ذلك بألفاظه وألفاظه . وذلك محمود لأن المقضى إلى الممجد محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواظ الطيب الصوت أن يشد على المنبر بألفاظه الأشعار المحزنة المرفقة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه .

الخامس : الساج في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتمييزاً له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت تقوم العائفة وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن المبرر . وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به . ووجه جواز أن من الألمان ما يمشي الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه . ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالف في الألحان عند قدوم رسول الله ﷺ (١) :

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ؛ لإظهاره بالفرح والتبتهات والرقص والحركات أيضاً محمود . فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حبلوا في سرور أصابعهم (٢) - كما سيأتي في أحكام الرقص - وهو جائز في قدوم كل قادم بمجد الفرح به وفي كل سبب مباح من أسباب السرور . ويدل على هذا ما روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « لقد رأيت النبي ﷺ يسترن برداه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأله (٣) » فافقدوا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللبس إشارة إلى طول مدة وقوفها . وروى البخاري ومسلم أيضاً في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريان في أيام من تدهقان وتضربان ، والنبي ﷺ متش بشبه فأتتهما أبو بكر رضي الله عنه فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » وقالت عائشة رضي الله عنها : رأيت النبي ﷺ يسترن برداه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي ﷺ « أمنا يا بني أرفدة (٤) » يعني من الأمن ومن حديث عمر بن الخطاب عن ابن شهاب نحوه وفيه : فنيان وتضربان (٥) . وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله ﷺ

(١) حديث : إنشاد النساء عند قدوم النبي ﷺ :

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عائشة مضملاً وليس فيه ذكر للدف والألحان . (٢) « حبل جماعة من الصحابة في سرور أصابعهم » أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني (٣) حديث عائشة : « رأيت النبي ﷺ يسترن برداه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ... » هو كما ذكره المصنف أيضاً في الصحيحين لكن قوله إنه فيها من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو ابن الحارث عنه (٤) حديث عائشة : « رأيت النبي ﷺ يسترن بشبهه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي ﷺ « أمنا يا بني أرفدة » تقدم قبله بحديث دون : عمر لهم ... إلخ فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « أمنا يا بني أرفدة » بل قال « دعهم يا عمر » زاد النسائي « فأنما هم بنو أرفدة » ولهم من حديث عائشة « دونكم يا بني أرفدة » وقد ذكره المصنف بعد هذا . (٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه « فنيان وتضربان » رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب .

يقوم على باب حجرى والحبيشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله ﷺ وهو يسترى بثوبه - أو يردمه - لكن أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجل حتى أكون أنا الذى أنصرف^(١) وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ قالت وكان يأبى صواحب لى فكأن يمتنع من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يسر ليحسبني إلى فيلبن مئى^(٢) . وفي رواية أن النبي ﷺ قال لما يوما « ما هذا ؟ » قالت : بناتى قال : « فما هذا الذى أرى فى وسطهن ؟ » قالت : فرس قال « ما هذا الذى عليه ؟ » قالت : جناحان قال « فرس له جناحان » قالت : أو ما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ قالت فصحك رسول الله ﷺ حتى بهت نواجذه . والحديث يحول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الحرف والرقاع من غير تكميل صورته بدليل ما روى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقايع . وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان ببناء بعات فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضى الله عنه فاتتهن وقال : مزار الصيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال « ذهبما » فلما غفل غمزتهما فغرجنا^(٣) . وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحرايب فلما سألت رسول الله ﷺ وإما قال « تشهين تنظرين » فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه وخذى على خده ويقول « دونكم يا بنى أرفقة » حتى إذا ملك قال « حسيك » قلت : نعم ، قال « فأنهي » وفى صحيح مسلم : فوضعت رأى على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى أنصرفت .

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين وهو نص صريح فى أن التناء واللعب ليس بحرام . وفيها دلالة على أنواع من الرخص (الأول) اللعب : ولا يخفى عادة الحبيشة فى الرقص واللعب . (والثانى) فعل ذلك فى المسجد (والثالث) قوله صلى الله عليه وسلم « دونكم يا بنى أرفقة » وهذا أمر باللعب والتجاس له فكيف يقدر كونه حراما ، (والرابع) منه لآبى بكر وعمر رضى الله عنهما عن الإنكار والتضيير وتعليه بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ؟ وهذا من أسباب السرور (والخامس) وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لمواظقة عائشة رضى الله عنها . وفيه دليل على أن حسن الخلق فى تطيب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتعسف فى الامتناع والتمنع منه (والسادس) قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « أفتبين أن تنظري » ولم يكن ذلك عن اضطراب إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة ؟ فإن الاتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور . فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه (والسابع) الرخصة فى التناء والضرب بالدف من الجاريتين ؛ مع أنه شبه ذلك بمزارع الشيطان وفيه بيان أن المزارع المحرم غير ذلك (والثامن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع صممه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز المجلس ، ثم لقرع صوت الأوتار صممه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحرير صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة .

(١) حديث أبى طاهر عن ابن وهب « والله لقد رأيت النبي ﷺ يقوم على باب حجرى والحبيشة يلعبون بحراهم » رواه مسلم أيضا .

(٢) حديث عائشة « كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ... » وهو فى الصحيحين كما ذكره الصنف لكن مختصرا إلى قوله « فيلبن مئى » وأما الرواية للطولة التى ذكرها الصنف بقوله : وفى رواية - فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح .

(٣) حديث عائشة « دخل النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان ببناء بعات ... » هو فى الصحيحين كما ذكره الصنف والرواية التى عزاها لمسلم أنصرف بها مسلم كما ذكر .

فهذه المقاييس والتصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالغف واللبس بالندرق والحرب والنظر إلى رقص الحبيشة والزواج في أوقات السرور كلها - قياساً على يوم العيد فإنه وقته مسرور . وفي معناه يوم العرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم التقدم من السفر وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرطاً ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقايتهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضاً مظنة السباع .

السادس : سماع العشاق تحريكاً للشوق وتيسيراً للعشق وتسلية للنفس . فإن كان في مشاهدة المشوق فالغرض تأكيد اللفة ، وكان مع المقارنة فالغرض تيسير الشوق . والشوق وإن كان ألماً فبني توج لئلا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء انبذ واليأس مؤلم ، وقوة لئلا الرجاء بحسب قوة الشوق والحلب للشيء المرجو . ففي هذا السماع تيسير العشق وتحريك الشوق وتحصيل لئلا الرجاء المقدر في الوصال مع الإطبات في وصف حسن المحبوب . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه بمن يباح وصلة كمن يمشق زوجته أو سرته ، فيصني إلى غناها لتضاعف لذته في لقائها . فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، وبفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب ؛ فتتألف أسباب اللفة . فهذه أنواع تتمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها (وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وهذامته .

وكنذك إن غضبت منه جلوية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يترك بالسباع شوقه وأن يستثير به لئلا رجاء الوصال ، فإن باعها أو أطلقها حرم عليه ذلك بعده . إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء . وأما من يمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام لأنه محرك للفكر في الأعمال المحظورة ، ومهيئ للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إشتراش شيء من ذلك ممنوع في حقهم لما فيمنع البدء بالدين لا لأمر يرجع إلى نفس السباع . ولذلك سئل حكيم عن العشاق فقال : دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يربله الجحاح ويهيجه السباع .

السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رأى فيه سبباً له ، ولا يفرح منه شيء قارح إلا سمعته أو فيه ، فالسباع في حقه مسيح لشوقه ومؤكده لمشفقه وجه ومور زناد قلبه ، ومسترخ منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاتها ويشكرها من كل حسه من ذوقها وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجداً مأخوذاً من الوجود والمصادقة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع . ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المروضة عليها من الخبث . ثم يقع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى نهاية ثمرة الثريات كلها فالغرض إليها من جملة الكريات لا من جملة المعاصي والمباحات وحصول هذه الأحوال لقلب بالسباع سيئه الله تعالى في مناسبة الثبات الموزونة للأرواح وتخسير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً حوزوا وانساعاً واقتراباً . ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات . والليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لئلا السماع يتعجب من التناذ المستمع ووجدوا اضطراب حاله وتغير لونه تعجب الهبيبة من لئلا الورنج . وتعجب العين من لئلا المباشرة ، وتعجب الصبي من لئلا الرأسة واتساع أسباب الهباء ، وتعجب الجنان من لئلا معرفة الله تعالى ومعرفة جلالة وعظمته وعجائب صنعته . ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللفة نوع إدراك الإله الذي يستدعي مدركاً ويستدعي قوة مدركة .

فن لم تكل قوة إدراكه لم تصور منه التلذذ فكيف يدرك لئلا العلوم من فقد التلذذ ؟ وكيف يدرك لئلا الألمان من فقد السمع ؟ ولئلا المعقولات من فقد العقل ؟ وكنذك ذوق السباع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب ، فن فقدناها عدم لاعادة لذته .

ولمّا تقول : كيف يصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون المعاج محرّكاً له ؟

فاعلم أن من عرف الله أجبه لاجتماعه ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدرتا كد معرفته . والمحبة إذاً كانت سميت عشقاً فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة . ولذلك قالت العرب : إن محمداً فعشق ربّه ، لما رأوه يتنخل العبادة في جبل حراء .

واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال . ولكن الجمال إن كان يتناسب الخلقه وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر . وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإزادة الخيرات لكافة الخلق وإفانتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب . ولفظ الجمال قد يستمر أيضاً لما فيقال : إن فلاناً حسن وجميل ولا تراد صورته . وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة ، حتى يصيب الرجل هذه الصفات الباطنة استحساناً لما كانت الصورة الظاهرة . وقد تتأكد هذه المحبة قسمي عشقاً . وكَم من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضی الله عنهم ؟ حتى يذلولوا أموالهم وارواحهم في نصرتهم ومواالهم ويهدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة .

ومن العجب أن يعقل شخص لم يقضه قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الخاصة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الحصول . ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه ، بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسن من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالمعقول والأبصار والاسماع وسائر الحواس من متبدل العالم إلى متفرقه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزان قدره ولمة من أنوار حضرته ، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ؟ وكيف لا يتأكد عند المارقين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً يكون إطلاق اسم العشق عليه طلباً في حقه لقصوره عن الإنباه عن فرط محبته ؟

فسيحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق توره ، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من توره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين بجمال حضرته ، ولولا أن ظهوره سبب خفاءه لبنت العقول ودشت التلاب وتخاذلت القوى وتناقرت الأعضاء ، ولو ركب القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا ، فأى تطبيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش . وسيأتى تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة .

ويضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجمال بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله . ومن عرف الأفعال من حيث إنه تصنيف لا من حيث إنه بياض وجلد وجو وورق وكلام منظوم وامة عربية فله قدرته ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وقلمه وبديع أفعاله فن عرفنا من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبه مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه .

ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشراكة وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشركة ، إذ كل مجبور سواء يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان . فاما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود : فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة . نعم الناقص القريب في قصاصه من الهيبة فلا يدرك من لفظه العشق إلا لطلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الواقع . فثل هذا الحمار ينبغي أن

لا يستعمل معه لفظة المشق والشوق والوصال والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمية التي جس والريمان وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان . فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . والأوهام تختلف باختلاف الأنفام فليتنبه لهذه الدققة في أمثال هذه الألفاظ بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب . فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق النعم ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : إني لأسمع لله شأنا . ثم رى نفسه من الجبل فقطع^(١) وهذا كأنه سمع مادل على جلال الله تعالى وتعالى قدرته فطرب لذلك ووجد فرى بنفسه من الوجد . وما أنزل الله الكتب إلا ليظروا . يذكر الله تعالى . قال بعضهم : رأيت مكتوبا في الإنجيل : غنينا لكم فلم تطربوا وذرنا لكم فلم ترفضوا . أى شوقناكم يذكر الله تعالى فلم تشاقلوا . فهنا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والتدب إليه في بعض المواضع .

فإن قلت : فله حالة يحرم فيها ؟ فأقول : إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض في السمع ، وعارض في آلة الإسماع ، وعارض في نظم الصوت ، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبه ، وعارض في كون الشخص من هوام الخلق ؛ لأن أركان السماع هي السمع والمستمع وآلة الإسماع .

العارض الأول : أن يكون السمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخفى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأرملة الذي تخفى فتته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الفناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز عاورتها ومعادتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا ، وكذلك الصبي الذي يخاف فتله .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسب الباب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت ؟ فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يحتاجها أصلا ؛ أحدهما : أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور ؛ والثاني : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال . وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين فإن فساده على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أولي عيانتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة المعاسة كتحرريك السماع بل هو أشد . وصوت المرأة في غير الفناء ليس بسورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن لفناء مزيد أثر في تحريك الشهوة . فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كالم تومر النساء بستر الأصوات . فينبغي أن يبيع مثار الفتنة ويقتصر التحريم عليه . هذا هو الأقوى عندى ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها ، إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترق منه ، ولكن لم تكن

(١) حديث أبي هريرة : إن غلام كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه « من خلق السماء ؟ فقالت الله ... » وفيه « ثم رى نفسه فقطع » رواه ابن حبان .

الفتنة حنوة عليه فذلك لم يحترز . فإنن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا ولا يعد ان يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال . فإننا نقول : للشيوخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشباب ذلك ، لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محظور ، والساج يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثاني : في الآلة ، بأن تكون من شمار أهل الشرف أو المختئين وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة . فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة . وما عدا ذلك يبق على أصل الإباحة كالقف - وإن كان فيه الجلجل - وكالطبل والشاهين والضرب بالفضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والمجهر أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم ، كارتبه الروافض في هجم الصحابة وغيرهم ، فسماح ذلك حرام باللعان وغير اللعان ، والمستمع شريك القاتل . وكذلك ما فيه وصف امرأة بمينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال . وأما هجم الكفار وأهل البدع فذلك جائز . فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يتافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك ^(١) فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الحدود والأصداف وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنه لا يحرم نظمها وإنشاده بلحن وغير لحن . وعلى المستمع أن لا يفزع على امرأة معينة فإن نزهة قلبيته على من يعمل له من زوجته وجاريته . فإن نزهة على أجنبية فهو العاصي بالتزويل وإجالة الفكر فيه . ومن هذا وصفه فينبغي أن يجنب الساج رأسا فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه ، سواء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن ، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنويله على معان بطريق الاستعارة . قال في غلب على قلبه حب الله تعالى يذكر بسواد الصدغ مثلا ظلة الكفر ، وبضارة الخد نور الإيمان . وبذكر الرصال لقاء الله تعالى ، وبذكر القراق الحجاب عن الله تعالى في زمر المردودين وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عواقب الدنيا وآفات المشوشة لبوام الأنس بالله تعالى ولا يحتاج في تنويل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهارة ، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ .

كما روى عن بعض الشيوخ ، أنه مر في السوق فسمع واجدا يقول : الخيار عشرة بجة ، فقلبه الوجد ، فستل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار عشرة بجة فما قيمة الأشرار ؟ واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلا يقول : ياسمير برى فقلبه الوجد فقيل له : على ماذا كان وجدك ؟ فقال : سمعت كأنه يقول اسمع تر برى . حتى إن السجى قد يغلب عليه الوجد على الآليات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف السجمية فيفهم منها معان أخر . أنشد بعضهم :

• وما زارني في الليل إلا خياله •

فتراجد عليه رجل أعرجى . فستل عن سبب وجده فقال : إنه يقول : ما زاريم . وهو كما يقول فإن لفظ « زار » يدل في السجمية على المشرف على الملاك ، قوم أنه يقول كلنا مشرفون على الملاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة .

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله . وليس من شرط تخيره أن يوافق مراد

(١) « أمره عليه السلام حسان بن ثابت بهجم الشركين » متفق عليه من حديث البراء أنه عليه السلام قال لحسان « اجمهم أو هاجهم وجبريل معك » .

الشاعر ولفته . فهذا الوجد حق وصدق . ومن استصر خطر هلاك الآخرة لجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه . فإذن ليس في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة ، بل الذي غلب عليه عشق مخلوق ينبغي أن يمحّز من المباح بأى لفظ كان ، والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المأني الطليقة المتحللة بمجاري همة الشريعة .

المعارض الرابع : في المستمع ؛ وهو أن تكون الشهوة غالبية عليه وكان في غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ؛ فالمباح حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصديق والجد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته . وينزله على صورة معيشة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشعل فيه نار الشهوة وتعتمد يراعت الشر ، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيّل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى ، والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وحى الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل ، إلا في قلب قد فتحه أحد المجندين واستولى عليه بالسكينة . وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها فكيف يمحّز تكبير أسلحتها وتشحيز سيوفها واستتبا ؟ والمباح مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن مجمع المباح فإنه يستعز به .

المعارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولا غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظورا ، ولكنه أبيض في حقه كسائر أنواع الذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذ ديدنه وهيماء وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته ، فإن المواظبة على الطوبى مجنونة . وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير سفينة ، وهو كالواظبة على متابعة الزوج والحبيبة والنظر إلى لهنم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذا فصله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللعب بالشرطج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ونهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبه دواعيه فتشتغل في سائر الأوقات بالمجد في الدنيا كالكسب والتجارة . أو في الدين كالصلاة والقراءة . واستحصان ذلك فيما بين تضاعيف المجد كاستحصان الحال على الخلد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوّهت فأقبح ذلك ؛ فبعدو الحسن قبحا بسبب الكثرة فكل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الحيز مباح والاستكثار منه حرام . فهذا المباح كسائر المباحات .

فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلعت القول أولا بالإباحة إذ إطلاق القول في الفصل بلا أو بنعم خلف خطأ ؟ فأقول أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين مافية النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال المعارضة المتصلة به من خارج فلا يمتنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إنما ستلنا عن العسل أم هو حلال أم لا ؟ قلنا : إنه حلال ، على الإطلاق ، مع أنه حرام على المحرور الذي يستعز به وإذا ستلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام ، مع أنها تحل لمن غش بلقعة أن يشربها مهما لمجد غيرها ، ولكن هي من حيث إنها غير حرام وإنما أبيحت لمعارض الحاجة ، والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لمعارض الضرر ، وما يكون لمعارض فلا يفتى إليه فإن البيع حلال ويحرم بمعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من المعارض ، والمباح من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب مودون مفهوم وإنما تحريمه لمعارض خارج عن حقيقة ذاته فإذا انكشف النطاء عن دليل الإباحة فلا ينال بمن يخالف بعد ظهور الدليل

وأما الشافعي رضي الله عنه فليس بتحريم الفناء من مذهبه أصلا ، وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذ

صناعة : لا يجرز شهادته . وذلك لأنه من اللغو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة . وإن لم يكن محرماً بين التحريم . فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرَب في الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاردين الثنين كانتا تفتيان في بيت عائشة رضى الله عنها . وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعي : لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في الأوصاف ، فأما الحناء وذكر الاطلال والمرايع وتحسين الصوت بألحان الاشعار فباح .

وحيث قال : إنه لو مكروه يشبه الباطل أقوله «لو» صحيح ولكن اللغو من حيث إنه لو ليس بمحرّم فلهب الحليّة ورقصهم لو وقد كان يُحْتَجُّ ينظر إليه ولا يكرهه . بل اللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يجرم . قال الله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤاخذ به فكيف يؤاخذ باللعن والرقص ؟

وأما قوله « يشبه الباطل » فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال : هو باطل صريحاً ، لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه من الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه . فقول الرجل لأمرأته مثلاً : بعت نفسى منك ، وقولها : اشتريت ، وعقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة وليس بمحرّم إلا إذا قصد به التمليك المحقق منفع الشرع منه .

وأما قوله « مكروه » فينزل على بعض التي ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكره كل لعب وتعليل يدل عليه فإنه قال : ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة . فهذا يدل على التنزيه . ورد الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق وما يحرم للمروءة ، بل الحليّة مباحة وليس من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المخترف بالحرقة الحسية فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه . وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

أخبروا بقوله تعالى (ومن الناس من يشتري لغو الحديث) قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضى الله عنهم : إن لغو الحديث هو الغناء . وروى عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال « إن الله تعالى حرم الفينة وبيعها ونمها وتعليمها »^(١) فنقول : أما الفينة فالمراد بها الجارية التي تنفى الزوج في مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفسق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يتصنون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لالمسك فلا يفهم تحريمهم من هذا الحديث ، بل لغو ما لكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ما روى في الصحيحين من غناء الجاردين في بيت عائشة رضى الله عنها ، وأما شراء لغو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله

(١) حديث عائشة : إن الله حرم الفينة وبيعها ونمها وتعليمها . أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقي : ليس بمحفوظ .

فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، ليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المزداد في الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المتألفين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عيس لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ فهم عمر بقلته ، ورأى قعله حراما لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . واحتجوا بقوله تعالى (أفن هذا الحديث تمجرون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حير . يعني السمد . فتقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشمل عليه .

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ؟ فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغناتهم في مرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون) وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تنقن^(١) » فقد جمع بين النباحة والغناء ؟ قلنا : لا يجرم كما استثنى منه نباحة داود عليه السلام ونباحة المذنبين على خطابهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله ﷺ ، وغانواهن عند قدومه عليه السلام يقولون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مازع أحد صوته ببناء إلا بعث الله شيطاني على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمك^(٢) » قلنا : هو منزل على بعض أنواع النساء اتقى قسماها وهو الذي يحرك من القلب مامو مراد الشيطان من الشهوة وحسب المخطوئين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبيبة والأخبار التي نقلناها من الصحاح . فالتمجيز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل لتأويل ومحمل التنزيل . أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بمراض الإكراه فقط ، وما أبيض فعله يحرم بموارض كثيرة حتى النيات والقصد .

واحتجوا بما روى عقبه بن عامر أن النبي ﷺ قال « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته^(٣) » قلنا : فقوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك على أن التأنيب بالتأثر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس يحرام ، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله ﷺ « لا يلح دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث^(٤) » فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لأفائدة له إلا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأتواع المداعبات بما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأن باطل .

(١) حديث جابر : كان إبليس أول من ناح وأول من تنقن . لم أجده أصلا من حديث جابر وذكره صاحب القدوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجوه فيه من مستند .

(٢) حديث أبي أمامة « مازع أحد غفيرة ببناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمك » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم اللامح والطراني في الكبير وهو ضعيف .

(٣) حديث عقبه بن عامر « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته » أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .

(٤) « لا يلح دم امرئ إلا بإحدى ثلاث » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه : ما تنهيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني مذ بايست بها رسول الله ﷺ . قلنا : فليكن القتي ومس الذكر باليمنى حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فن أين ثبت أن عثمان رضي الله عنه لا يترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه : الغناء ينبت في القلب النفاق .. وزاد بعضهم .. كائنت الماء البقل (١) ورفع بعضهم إلى رسول الله ﷺ وهو غير صحيح . قالوا : ومر على ابن عمر رضي الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يثنى فقال : ألا لا اسمع الله لكم ألا لا اسمع الله لكم ، وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا فأخرج أصبعيه وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع (٢) وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا . وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد الفجور . وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الحر ويفعل ما يفعله السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلموا جنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا . فتقول : قول ابن مسعود رضي الله عنه « ينبت النفاق » أراد به في حق المنفى ، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يمرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ، ولا يزال يثاقل ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنااته ، وذلك أيضا لا يوجب تحريما . فان لبس الثياب الجليلة وركوب الخيل المملحة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط ، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا . ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس مملج تمته وقطع ذنبه لأنه استقم في نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهد النفاق من المباحات .

وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما : ألا لا اسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غشاء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفق ، وظهر لهم من غيايلهم أن سمعهم لم يكن لوجود وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو ، فأمكن ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضاعة إلى حالهم وحال الإحرام . وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال . وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيمارضه أنه لم يأمر نافعا بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمتعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم — مع أنه لم يمنع ابن عمر — لا يدل أيضا على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه . ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب . فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شملت قلبه (٣) اتقى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ فله صلى الله عليه وسلم كان في حالة كان صوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم عن الصلاة . بل الحاجة إلى استشارة الأحوال الشريفة من القلب بحجة السماع قصور بالإضاعة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كالا بالإضاعة إلى غيره . ولذلك قال الحصري : ماذا أعمل بسمع يتقطع إذا مات من

(١) حديث ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق في القلب كائنت الماء البقل » قال المصنف وللرفع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم ، رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية المؤلوي ورواه البيهقي مرغوعا وموقوفاً (٢) حديث نافع « كنت وابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ... » ورضه أبو داود وقال هذا حديث منكرو .

(٣) « خلع النبي ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شملت قلبه » تقدم في الصلاة .

يسمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم ، فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لغة السمع والشهود . فلا يحتاجون إلى التحريك بالحنية . وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا . وكذلك معاصه من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمعتلين من الشبان . ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، ونفسبق الفرق ، أو يقال هو لمع ولعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لمع ولعب . وقال رضي الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة في زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء لمع إلا الحراة التي هي سبب وجود الولد . وكذلك المرح الذي لاخش فيه حلال . نقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة ، كما سيأتي تفصيله في كتاب « آفات اللسان » إن شاء الله (١) وأى لمع يريد على لمع الحبشة والنرج لمعهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أن أقول : الله مروح القلب ويخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عمت وترويحها إعاة لها على الجهد ، فالمواظب على التفقه مثلا ينبغي أن يعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تمتع على النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يعطل في بعض الأوقات ، ولاجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل واليوم معين على الجهد ، ولا يصبر على الجهد المحض والحق المر إلا بقوس الأنبياء عليهم السلام فالله دواء القلب من داء الإعياء والملاذ ، فينبغي أن يكون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء . فإذا الله على هذه النية يصير قربة ، هذا في حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة معودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه . نعم هنا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أساط بهم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسيئاتها إلى الحق علم قلما أن ترويحها بأشغال هذه الأمور دواء نافع لاغنى عنه .

الباب الثاني : في آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتزيله على معنى يقع للسمع ، ثم يشر الفهم الوجد ، وشر الوجد الحركة بالجوارح . فليُنظر في هذه المقامات الثلاثة :

المقام الأول : في الفهم ؛ وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع . والسمع أربعة أحوال ، إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع أى لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنفحات ، وهذا مباح وهو أخسر رتب السماع ، إذ الإبل شربكة فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعى هذا النوع إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات العلية .

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مغلوط إما معينا وإما غير معين ، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم المسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخسر من أن تشكل فيها إلا ببيان خستها وانتهى عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدن لآسيا المتدينين . فإن للريد لاعانة مراداً هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه

(١) حديث مزاحه ﷺ . يأتي في آفات اللسان كما قال الصنف .

ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء ، وله في مقصده طريق هوسالكة ومعاملاته هو متناثر عليها ، وحالات تستقبله في معاملاته ، فإذا سمع ذكر كتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو نلف على فانت أو تعطل إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو بأس أو وحشة أو استئناس أو وفاة بالوعد أو نقض العهد أو خوف فراق أو فرح بوصول أو ذكر ملاحظة الحبيب ومداقة الرقيب أو همل العبرات أو ترادف الحشرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيجري ذلك مجرى القندح الذي يورى زناد قلبه ، فقتلته به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه وجمع عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه ، بل لكل كلام وجه ، ولكل ذى فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ . ولتضرب لهذه التزييلات والنهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لا يباين فيها ذكر الفهم والحد والصدق إنما يفهم منها ظواهرها ، ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الآيات في حكايات أهل السباع ما يكشف عن ذلك ، فقد حكى أن بعضهم سمع قائل يقول :

قال الرسول غداً نؤو ر فقلت تمقل ماتقول

فاستفزه الحسن والقول ونواجد وجعل يكرر ذلك ويحمل مكان التاء : نونا . فيقول : قال الرسول غداً نؤو ؛ حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئل عن وجهه مم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول ﷺ « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة مرة »^(١) وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن الفوطي مارين على دجلة بين البصرة والابلّة بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول :

كل يوم تكلون ؟ غير هذا بك أحسن

فلما شاب حسن تحت المنظرة ويده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك ألا أعدت على هذا البيت . فأعدت فكان الشاب يقول : هذا والله تلوني مع الحن في حالي ، فشدق شفقة ومات . قال : فقلنا قد استقبلنا فرض ، فوقفنا ؛ فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصولوا عليه . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر : أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله ، كل جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل . قال : ثم رمى بثيابه واتزود وارتنى بأخر ومر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة وتأسفه قلبه على تقلب وميله عن سنن الحق ، فما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تكلون ؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه . فينبغي أن يكون قد أحكم قانون العلم في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وإلا خطر له من السباع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به . ففي سماع المريد المبتدى خطر إلا إذا

الباب الثاني : في آداب السباع وآثاره

(١) « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل جمعة » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين مختلف فيمو قال الترمذي لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال : وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعي شيئاً من هذا .

لم يزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى. ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه في نفسه وهو مخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر، وهذا قد يقع عن جهل بعض مطلق غير عروج بتحقيق، وقد يكون عن جهل ساهه إليه نوع من التحقيق، وهو أن يرى قلب أحوال قلبه بل قلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق، فإنه تارة يسطو قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يثبت على ملاته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق، وهذا كله من الله تعالى. ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة: إنه ذو بداوات وإنه متلون. ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبة إلى التلون في قبوله ورده وتقريره وإيمانه وهذا هو المعنى. فسبح هذا كذلك في حق الله تعالى ككفر بعض بل ينفي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ويعبر ولا يتغير بخلاف عباده. وذلك العلم يحصل للريد باعتقاد تقليدي إيماني، ويحصل للمعارف البصير بيقين كشفي حقيق. وذلك من أماجيب أوصاف الربوبية وهو المعبر من غير تغير، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى، بل كل من غير سواء فلا يتغير ما لم يتغير. ومن أبواب الوجد من ينبغ عليه حال مثل السكر المدهش؛ فيطلق لسانه باعتاب مع الله تعالى، ويستنكر اقتضاه القلوب، وقسمه للأحوال الشريفة على تفاوت، فإنه المستصفي لقلوب الصديقين، والمبعد لقلوب الجاحدين والغرورين، فلا مانع لما أعلى ولا معطى لما منع، ولم تقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة، ولا أمداً لأنبياء عليهم السلام بتوقيفه ونور هدايته لوسية سابقة، ولكنه قال: (ولقد سبقت كلتنا لمباداة المرسلين) وقال عز وجل: (ولكن حق القول مني لا ملأني منهن من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنی أولئك فيها مبعدون) فإن خطر بيالك أنه لم اختلف السابقة وهم في رقة اليهودية مشتركون نوديت من سرادات الجلال لا تجاوز حد الأدب (فإنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون) ولعمري تأدب اللسان والظاهر عما يقدر عليه الأكثرون، فأما تأدب السر عن إظهار الاستبعاد هنا الاختلاف في الظاهر في التحريم والإيجاد والإشقاء والإسماع مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الأباد فلا يقرى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم، ولهذا قال الحضرة عليه السلام لما سئل عن السباع في المنام: إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محرك لأسرار القلوب ومكائنها، ومشوش لما تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا عن حصه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمه، ولذلك قال بعضهم: ليتنا نجونا من هذا السباع رأساً برأس. ففي هذا الفن من السباع خطر يزيد على خطر السباع المحرك للشهوة، فإن غاية ذلك مصيبة وغاية الخطأ كفر.

واعلم أن التهم قد يختلف بأحوال المستمع فينبغي الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في التهم والآخر غلط. أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين؛ ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض. كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول:

سبحان جبار السما إن المحب لنى عنا

قال: صدقت. وسمعه رجل آخر فقال: كذبت، فقال بعض ذوى البصائر: أما يا جميعاً وهو الحق، فالصدق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصد والمجر. والتكذيب كلام مستأنس بالحجب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخطر الصد في المال. وذلك لاستيلاء الرجال وحسن الظن على قلبه، فباختلاف هذه الأحوال يختلف التهم.

وحكى عن أن القاسم بن مروان - وكان قد صاحب أباسعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السجدة كثيره -
لخص دعوة فيها إنسان يقول :

وقف في الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فتمام القوم وتواجدوا ؛ فلما سكتوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت ، فأشاروا إلى المتطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها ، فلم يقنعهم ذلك فقالوا له : فماذا عندك فيه ؟ فقال : أن يكون في وسط الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يعطى منها ذرة . وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال ، والكرامات والأحوال سواها ، والكرامات تسع في مبادئها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها . ولا فرق بين المعنى الذي فهمه وبين ما ذكره إلا في تفاوت رتبة المتطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أو لا يتطش إليها ، فإن لم يكن منها تطش إلى ما وراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبين ، وكان الشبلي رحمه الله كثيرا ما يتواجد على هذا البيت :

وذاكم هجر وحكم على ووصلكم صرم وسلمكم حرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها : أن يفهم هذا في الخلق بل في الدنيا بأسرها بل في كل مأسوى الله تعالى . فإن الدنيا مكاره وخداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظفرة صورة الود ، فما امتلأت منها دار حيرة إلا امتلأت عبرة^(١) ، كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا :

تتح عن الدنيا فلا تخطبها ولا تخطب قاتلة من تناكح
لقد قال الواسفون فأكثرنا وعندي لها وصف لعمري صالح
سلاف قصارها زفاف ومركب شهي إذا استلقت فهو جاج
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء فباج

والمعنى الثاني : أن يزل على نفسه في حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فعرفته جهل إذا ماقدروا الله حق قدره ، وطاعته رياء إذا لا يتق الله حق تقاته ، وحبه معلول إذا لا يدع شهوة من شهواته في حبه . ومن أراد الله به خسييرا بهره بصيوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى القائلين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » وقال عليه الصلاة والسلام « إنى لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة »^(٢) ، وإنما كان استغفاره عن أحواله هي درجات بسد بالإضافة إلى ما بعدها ، وإن كانت قريبا بالإضافة إلى ما قبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال . والمعنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضها ثم ينظر في عواقبها فيزدربها لا لاطلاعه على خفايا القروء فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمتع البيت في حق الله تعالى شكايه من القضاء والقدر وهذا كفر - كما سبق بيانه - وما من بيت إلا ويمكن تزويله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه .

(١) « ما امتلأت دار مناجرة إلا امتلأت عبرة » أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير مرسل

(٢) « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه مسلم وقد تقدم .

(٣) « إنى لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » تقدم في الباب الثاني من الأذكار .

الحالة الرابعة : جماع من جاوز الأحوال والمقامات فحزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالدهوش القناص في بحر عين اليهود الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطنن أيدين في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن . وعن مثل هذه الحالة تعب الصوفية بأنه قد فني عن نفسه . ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره ألقى فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود ، وفي أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا انفتحت إلى اليهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود . فالتستهر بالمرئي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به إدته ، فالسكران لا خبر له من سكره ، والمتلذذ لا خبر له من التلذذ ، وإنما خبره من المتلذذ فقط . ومثاله العلم بالشيء ، فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء . فالعالم بالشيء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضا عن الشيء . ومثل هذه الحالة قد نظرت في حق المخلوق نظر أأ أيضا في حق الخالق ، ولكنني في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطفئه القوة البشرية ؛ فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه .

كما روى عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من وداعك منزلا تنحدر الأبواب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ، فوقع في أجمة نصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف ، فصار يبدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من وجهه ، حتى ومرت قنماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله . فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات لأن السباع على الأحوال نازل عن درجات السكال وهي بمنزلة صفات البشرية وهو نوع قصور ، وإنما السكال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله ، أعني أنه يساهم فلا يبقى له التفات إليها كالم يكمن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين . فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من غاضل الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شيء أصلا ، بل نحتت بالكلية بشرته وفي التفات إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعني بفناءه فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل - عرفها من عرفها وجهها من جهلها - ولذلك السر وجود ، وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا الحاضر . ومثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فإنها تحمّل لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها ، وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويسمى هذه الحقيقة - أعني سر القلب - بالإضافة إلى ما يحضر فيه - قول الشاعر :

رق الزجاج ودفقت المر فقفاها فتشاكل الأمر
فكأنما نحر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة ، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يبدن كلام الصادق في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو قد دعيا بها أو حولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المرأة بصورة المرأة إذ ظهر فيها لون المرأة مقابلها ، وإذا كان هذا غير لائق بعلم العامة فلنرجع إلى الغرض ؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسبوبات .

المقام الثاني : بعد الفهم والتذليل ، والوجد : والناس كلام طويل في حقيقة الوجد أعنى الصوفية والحكام الناطرين في وجه مناسبة السماع للأرواح - فلتنتقل من أقوالهم ألقاها ثم لكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع : إنه وارد حتى جاء يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزدق . فكأنه عبر عن الوجد بأنزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يحده عند ورود وورد السماع إذ سمى السماع وارد حق ، وقال أبو الحسين النراج بخبرا عما وجدته في السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال في السماع في نيادين البهاء فأوجدني وجود الحق عند العطا . فسقاني بكأس الصفاء فأدركت به منازل الرضاء وأخرجني إلى رياض التنزه والفناء . وقال الشبل رحمه الله : السماع ظاهره فنة وباطنه عبدة ، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبادة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يندق عن سائر الأعمال ويدرك رقة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله . وقال عمرو بن عثمان السكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سره عند عباده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق . وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السرور إنسان المفقود ، وهو فتاك من حيث أنت . وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلماذا قره وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب . وقال أيضا : الذي يجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالملاقاة والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكروا القلب ورق ووصفا ونجحت الموصلة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وشوطلب وسمع الخطاب بأذن وإعية وقلب شاهد وسر ظاهر فمشاهد ما كان منه خاليا ، فلذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معطوما عنده . وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مقلق أو توبيخ على ذلة أو محادثة بطليعة أو إشارة إلى فائت أو شوق إلى فائت أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استعجاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة سر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج ماله بما عليك مما سبق السعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدئ بالثم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان : فلما ظهرت سر وطربت إليها فاستمعا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر ، وقال بعضهم : نتائج السماع استنباط العاجز من الرأي واستلاب المصائب من الأفكار وحنة السكال من الأقبام والآراء حتى يثوب ما حوب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويخرج في كل وأى ونية ، فيصيب ولا يخطئ . ويأتي ولا يبطئ . وقال آخر : كما أن الفكر يطرُق العلم إلى المعلوم فالسماح يطرُق القلب إلى العالم الروحاني . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات فقال : ذلك عشق عقلي والعاشق العقل لا يحتاج إلى أن يناغي معشوقه بالمتلق الجرمي بل يتاغيه ويتناجيه بالتيسيم والحفظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمى فإنه يستعمل المتلق الجرمي ليعبر به عن ثمة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه الزاقت . وقال آخر : من حزن فليسمع الألحان . فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحزين عند قبول القابل وذلك بقدر صفاته وقائه من النفس والدنس .

والأقوال المقررة في السماع والوجد كثير فولا معنى الاستكثار من إيرادها ، فلنقتل بفهم المعنى الذى الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يشعرها السماع وهو وارد حتى جديد عقيب السماع يحمله المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا يخطر عن قسمين : فإما إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق والخوف والحزن والتفان والسرور والأسف والندم والبسط والتضيض ، وهذه الأحوال يهيئها السماع ويقومها ؛ فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرأ أو يسكن عن النظر والتفكير والحركة على خلاف عادته لم ينم وجدا ، وإن ظهر على الظاهر شيء وجدا إما ضميما وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة بدوده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه . فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ، وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك . وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد : إنه مشاهدة الرقيب وحضور الغيم وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف مالم يكن مكشوفاً قبله ، فإن الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه والسماع منه ، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فإن إدراكها نوع علم يفيد إضاح أمور لم تكن معلومة قبل الوجد ، ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى بعمله مشاهدتها كان تقصر عنه قبل فلك قوته ، كما يقوى البصر على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله . وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملوكوت ، كأن عمل البصر حل الانتقال فيواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف ، بل القلب إذا صفار بما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يبرعنه بصوت الحائف إذ كان في اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان في المنام ، وذلك جزء من سنة وأربعين جوا من النبوة . وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم الماملة وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادى أنه قال : خرجت ليلة في أيام جهاني وأنا نضوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به إلا تسجبت من يشرب الماء

نسجت قاعلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تهرجه خلق فأبقي له في الجوف أسماء

قال : فكان ذلك سبب تروبي واشتغالي بالعلم والمياعة . فأنظر كيف أثر الفناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمع الظاهر ؟ .

وروى عن مسلم المباداني أنه قال : قدم علينا مرة صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل ، قال : فهيات لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا فلبسوا وضمت العلمام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتليك عن دار الخلود مطاعم ولانة قص غيبا غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة وخر متشيا عليه وبقى القوم ، فرفعت العلمام وما ذاقوا وأهه منه لقمة .

وكا يسمع صوت الحائف عند صفاء القلب فيضاهد أيضا بالصبر صورة الخضر عليه السلام فإنه يمثل

لأرباب القلوب بصور مختلفة . وفي مثل هذه الحالة تمثل الملائكة الأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكى صورتها بعض المحاكاة . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق (١) وهو المراد بقوله تعالى (عليه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى) إلى آخر هذه الآيات . وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على صفات القلوب ، وقد يبرر عن ذلك الاطلاع بالنفوس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا غرسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله (٢) » وقد حكى أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول مامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا غرسة المؤمن » فكان يذكره تفسيره فلا يفهمه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية . فسأله ، فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك . فقال : صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال : الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال : كنت ببغداد في جماعة من الفقهاء فقابل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي : يقع لى أنه يهودى ، فكلمهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال : أى شئ قال الشيخ ؟ فاحتشموه فأخبرهم فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال : لجماء ذواكب على يدى وقيل رأسى وأسلم ، وقال : نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطف . فرأسته فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فهم حديثي في هذه الطائفة ، لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقومون كلامه ، فلبست عليكم فلما أطلع على الشيخ وتفرس في صلته أنه صديق قال : وصار الشاب من كبار الصوفية .

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يجرمون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (٣) » وإنما تحرم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحورة بالصفات المملومة فإنها مرضى الشيطان وجننه . ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاء لم يطف الشيطان حوله قلبه . وإليه الإشارة بقوله تعالى (إلا عبادك منهم المخلصين) وبقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والباع سبب لصفاء القلب وهو فبكة الحق بواسطة الصفاء .

وعلى هذا يدل ما روى أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قول ، فاستأذنه أن يقول لهم شيئاً . فأذن لهم في ذلك فأشأ يقول :

صغير هواك صديقى فكيف به إذا احتسكا
وأنت جمعت في قلبى هوى قد كان مشتركا
أما ترى ليك كتب إذا ضحك الخلق بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون : الذى يراك حين تقوم . فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعاً من ذى النون على قلبه أنه متكلف متواجد . ففرقه أن الذى يراه حين يقوم هو الخضم في قيمته لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقاً لما جلس . فإذا قدر جمع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات . واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة متوالى ما لا يمكن العبارة عنه أصلاً ، ولعلك تستبعد حالة أو طبعاً لا تعلم حقيقة ولا يمكن التعبير عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد في أحوالك القريبة لذلك شواهد .

- (١) « رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأفق » متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) « اتقوا غرسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث غريب
(٣) « لولا أن الشيطان يجرمون على بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم في الصوم

أما العلم فكمن فيه تعرض عليه مسألتان متضادتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا في الحكم؛ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعد السان على التعبير وإن كان من أفصح الناس، فيدرك بذوق الفرق ولا يمكنه التعبير عنه، وإدراكه الفرق علم يساعد في قلبه بالذوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبار عنه لا لقصور في لسانه بل لفة المعنى في نفسه عن أن تاله العبارة. وهذا عما قد تظن له المواظبون على النظر في المشكلات.

وأما الحال فكمن إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قهضا أو بسطا ولا يعلم سببه، وقد يشكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثرا فيفسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو محس به، وقد تكون الحالة التي يحسها سرورا ثبت في نفسه بتفكيره في سبب موجب للسرور، أو حزنا فيفسى التفكير فيه ويحس بالأثر عتبه. وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يحرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصلة عن المقصود بل شوق الصبر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها - أعني التفرقة بين الموزون والمزحف - فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له. وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم، وأما الأوتار وسائر النعرات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار، وقد يعبر عنها بالذوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب، والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهدين وما أشبه ليس يدري إلى ماذا يشاق؟ ويصدق نفسه حالة كأنها تنفاض أسير ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك العلوم ومن يغلب على قلبه لاحب أدى ولا حب الله تعالى. وهذا له سره هو أن كل شوق فله ركن:

أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه.

والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرا، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أوردت ذلك دفعة وسجرة لا محالة.

ولو نفى أدى وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم واهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة، ولكن لا يدري أنه يشاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء فكذلك في نفس الأدي مناسبة مع العالم الأعلى والذات التي وعد بها في سدرة المنتهى، والفراديس العلى؛ إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالتي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يساعد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرأة ليعرف بالمقابلة، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالديناية أنساء تقسم أنساء وبه وأنساء مستقره الذي إليه حينئذ واشتياقه بالطبع، فيقتضاه قلبه أن يرى ليس يدري ما هو فيدمش ويتهير ويضطرب ويكون كالشقيق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المصنف بها أن يعبر عنها. فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره.

وأعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى حاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد، وهذا التواجد المتكلف فته مذموم

وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس فيها ، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استعادة الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا في جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن^(١) فإن هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ثم تتحقق أواخرها ، وكيف لا يكون التكلف سببا في أن يسير المتكلف في الآخرة طيعا ، وكل من يعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفا ، ويعرفه تكلفا مع تمام التأمل وإحسان النعم ؛ ثم يصير ذلك ديدنا للسان مطردا حتى يجرى به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل ؛ فيقرأ تمام السورة وثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته ؟ وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بمجد شديد ثم تمرن على الكتابة يده فيسير الكتب طيعا فيكتب أوراها كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر ؛ فجميع ما تشمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والنصح أو ثم يصير بالعادة طيعا ، وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسباع وغيره ، فلقد شوهد في العادات من اشتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديه النظر إليه . ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق الحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك في قلبه وسوخا خرج عن حد اختباره ، فاشتبهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص . فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة ؛ إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم ونحسين صفاتهم في النفس وبالمجالوس معهم في السباع والبالاء والتضرع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحالة بأن يسره أسبابها .

ومن أسبابها السباع ومجالسة الصالحين والحقائق والمحسنين والمشتاقين والخاصين ، فمن جالس شخصا مرت إليه صفاته من حيث لا يدرى ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب من يقرئني إلى حبك »^(٢) فقد فزع عليه الصلاة إلى الدعاء في طلب الحب . فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المبلوع .

فإن قلت : فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر النناء وهو كلام الأشرار ؟ فلو كان ذلك حقا من لطف الله تعالى ولم يكن باطلا من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من النناء ؟ فنقول : الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق لقائه ، وذلك يهيج بسباع القرآن أيضا . وإنما الذي لا يهيج بسباع القرآن حب الخلق أو عشق المخلوق ويدل على ذلك قوله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله تعالى (ثانی تقسم منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وكل ما يوجد عقيب السباع في النفس فهو وجد قاطعاً نية والأشهر والخشية ولين القلب كل ذلك وجد . وقد قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعا متصدعا من خشية الله) فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكشفات ولكن قد يصير سببا للمكشفات والتهنئات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم »^(٣)

- (١) « البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فتابوا » تقدم في الباب الثاني .
- (٢) « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ... » تقدم في السعوات .
- (٣) « زينوا القرآن بأصواتكم » تقدم في القرآن .

وقال لأبي موسى الأشعري « لقد أوتى مزمار آل داود عليه السلام (١) » .

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم « شيعتي هود وأخوانها (٢) » غير عن الوجد ، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء ، فلما انتهى إلى قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال « حسبك » وكانت عيناه تذرفان بالمعوج (٣) وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية أو قرأ عنده (إن لدينا أنكلا وججيا وطعما ذاغصة وعذابا أليبا) فصق (٤) وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ (إن تعدبهم فإتهم عبادك) فبكى (٥) وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر (٦) والاستبشار وجد . وقد أتى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولصدرة أزيز كأزيز المرجل (٧) .

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فهم من صنف ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته . وروى أن زرارة بن أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس بالركة فقرأ (فإذا قرئ في التافور) فصق ومات في غرايه رحمه الله . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقرأ (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فصاح صيحة وخر منشيا عليه لحمل إلى بيته ، فلم يزل مريضا في بيته شهرا . وأبو جرير - من التابعين - قرأ عليه صالح المرى فشق ومات . وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتدون) فغشى عليه . وسمع عن الفضيل قارئا يقرأ (يوم يقوم الناس لرب العالمين) فسقط منشيا عليه ، فقال الفضيل : شكر الله لك ما قد علمه منك : وكذلك قل عن جماعة منهم .

وكذلك الصوفية : فقد كان السبيل في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام (وإن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) فزعم السبيل زفقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واهر وجهه وارتفعت فرائضه ، وكان يقول : يمثل هذا مخاطب الأحباب ، يردد ذلك مرارا . وقال الجنيدي : دخلت على سري السقطي فأرأت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لي : هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت أقرأوا عليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق ، فقال : من أن قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل غطوق فيمخلوق أبصر ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق ، فاستحسن ذلك . ويشير إلى ما قاله الجنيدي قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية (كل نفس ذائقة الموت) فجملت أرددها فإذا ما هفت في :

(١) « لقد أوتى مزمار من مزمار آل داود » قاله لأبي موسى تقدم فيه . (٢) « شيعتي هود وأخوانها » أخرجه الترمذي من حديث أبي جيفة وله والحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذي حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري (٣) « أن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : حسبك » متفق عليه من حديثه . (٤) « أنه قرأ » عنده (إن لدينا أنكلا وججيا وطعما ذا غصة وعذابا أليبا) فصق « ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبي الأسود مرسل . (٥) « أنه قرأ (إن تعدبهم فإتهم عبادك) فبكى » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (٦) « كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر » تقدم في تلاوة القرآن دون قوله « واستبشر » . (٧) « أنه كان يصلى ولصدرة أزيز كأزيز المرجل » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في المعالي من حديث عبد الله بن الشخير وقد تقدم .

كم تردد هذه الآية ؟ فقد قتلت أربعة من الجن مارفوعا ودوسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو هريرة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من قلب من قلوب بني آدم إلا جئت به إلى ربك » . فقال : ما طرقت سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه فذلك عطفه من عليك ولطف منه بك ، وإذا رددك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لا يصلحك إلا التبرى من الحول والقوة والتوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ : يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية ، فاستمعا من القارئ : كم أقول لما أرجى وليس ترجع ؟ وتواجد وزعن زعقة فخرجت روحه . وسمع بكر بن معاذ قارئا يقرأ : (وأنذركم يوم الآفة) الآية فاضطرب ثم صاح : ارحم من أفندته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ، ثم غشى عليه . وكان إبراهيم بن آدم رحمه الله إذا سمع أحد يقرأ : (إذا السماء انشقت) اضطربت أوصاله حتى كان يرثد . وعن محمد بن صبيح قال : كان رجل يغتسل في الفرات فر به رجل على الشاطئ يقرأ : (وامتازوا اليوم أيها الجرمون) فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات . وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شابا يقرأ فاتى على آية فانشتر جلده فأحبه سلمان وفقده ، فسأل عنه فقيل له : إنه مريض ، فأما يعود فإذا هو في الموت ، فقال : يا عبدا لله ! أ رأيت تلك القشرة اليتيمة التي كانت في فاتها أتلقى في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب .

وبالجملة لا يظن صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلا (مثله كمثل الذي ينعق بملا يسمع إلا دعاء ونداء صم بك عى فهم لا يعقلون) بل صاحب القلب يؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعا . قال جعفر الخالدي : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال الجنيد : متى يستوى عند المبد حامده وذامه ؟ فقال بعض الشيوخ : إذا دخل البهارستان وفيد بقيد ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ؟ ثم أقبل على الرجل وقال : إذا تحقق أنه مخلوق . فتهق الرجل شهقة ومات .

فإن قلت : فإن كان سماع القرآن مفيدا للوجد فما بالهم يهتمون على سماع الغناء من القوالين دون القارئ ؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء للاحق المغنين ؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئ لا قوال ؟ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لاحالة فاعلم أن الغناء أشد تمهيدا للوجد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فن أين يناسب حاله قوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقوله تعالى : (والذين يرمون المحصنات) ؟ وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام المبرات والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه . والآيات إنما يضمها الثمرا لإعراها بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف . نعم من يتسول عليه حالة غالبية قاهرة لم تبق فيه متسا لغيرها ومعه تيقظ وذكره تأقبت بقطن به للعاني البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجهه على كل مسجع كمن يخطئ له عند ذكر وقوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم) حالة الموت المحجوج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوبا من الدنيا ، فيترك أحد المحبوبين لثاني ويهجرهما جميعا فيقلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر آفة في قوله : (يوصيكم الله في أولادكم) فيدهش بمجرد الاسم عليه ويعد ، أو يخطئ له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم مواريتهم بنفسه نظرا لهم في حياتهم وموتهم فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نملك بأنه ينظر لنا فيسبح

منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا ، أو يحطرنه من قوله تعالى (لذكر مثل حظ الأنثيين) تفصيل الذكر بكونه رجلا على الأثني وأن الفضل في الآخرة لرجال لأنهم تجارة ولا يبيع عن ذكر الله وأن من الماء غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لأن الرجال تحمقا ، فيخشى أن يصيب أو يؤخر في نعم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا . فأشبال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان (أحدهما) حالة غالبة مستغرة قاهرة (والآخر) تقطن بلبغ وتيقظ بالغ كامل التنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك بما يمر ، فلاجل ذلك يفزع إلى الفناء الذي هو ألفاظ مناسبة لأحوال حتى يتسارع هيجانها . ودوى إن أبا الحسن النورى كان ح جماعة في دعوى جرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأندهم :

رب ورقة متوف في الضحى ذات شجر صحت في فن
ذكرت لقا ودهرا صالحا وبكت حزنا فهاجت حوى
فبكائي ربما أرقها وبكائها ربما أرقى
ولقد تشكفوا أفهها ولقد أشكو لا تفهق
شيد أن بالهوى أرفها وهى أيضا بالهوى ترفى

قال فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا .

الوجه الثانى : أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب ، وكما سمع أولا عظم أثره في القلوب ، وفي السكرة الثانية يضمف أثره ، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجهه على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان ، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك . ولو أبدل بيت آخر لتجد له أثر في قلبه وإن كان مرعبا عن عين ذلك المعنى . ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأول يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا . وليس بقدر القارى على أن يقرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه كله محفوظ متكرر . وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضى الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويكونون فقال كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا . ولا تقن أن قلب الصديق رضى الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلال من العرب وأنه كان أغلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثير به لما حصل له من الأناس بكثرة استماعه ، إذ عالج في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمها قبل فيبقى ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ، ثم يرددها ويكي ، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا جديدا ، ولكل جديد للذة ولكل طارئ صدمة . ومع كل ماؤف أنس يتاقض الصدمة . ولذا ممر رضى الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال : قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أى بأنسوا به . ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعن وربما غشى عليه إذا وقع عليه بصره ، وقد يقيم بكه شهرا ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر ، فإذا المعنى يقدر على الآيات الغريبة في كل وقت ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة .

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بنوق الشعر تأثيرا في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات ، ولو زحف المعنى البيت الذى ينشده أو لحن فيه

أو مال عن حد تلك الطريق في اللحن لاضطرب قلب المستمع ويطل وجهه وسماحه وتقر طبعه لعلم المناسبة . وإذا نقر الطبع اضطرب القلب وتنفوش ، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طالب الشعر .

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها . وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل ، فقصره ومدته والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه . وإذا نزل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقبل بالتأثير ولأن لم يكن مفهوما ، كما في الأوتار والمزامير والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم .

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الخلق كالضرب بالضبيب والنف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستأد إلا بسبب قوى ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير ، وواجب أن يسان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة الجهر والمحب ، والقرآن جدده عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو عند العامة وصورة صورة الجهر عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينتظرون إليها من حيث إنها لم ، بل ينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ، ولا في حال الجنابة ، ولا على غير طهارته ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم ، فيعدل إلى التناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالنف مع قراءة القرآن ليلة العرس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب النف في العرس فقال « أظهروا النكاح ولو بضرب الغيال (١) » أو بلفظ هذا معناه . وذلك جائز مع الشعر دون القرآن . ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يميني فسمع إحداهن تقول : ولينا نبى يعلم ما في غد . على وجه التناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعي هذا وقل ما كنت تقولين (٢) » . وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردعا إلى التناء الذي هو لم ، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة الجهر . فإذا تعمذ بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركا للقلب فواجب في الأحرام المدول إلى التناء عن القرآن كما وجب على تلك الحامية المدول عن شهادة النبوة إلى التناء .

الوجه السادس : أن المنفى قد ينفى بيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينأه عنه ويستدعي غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال . فلو اجتمعوا في الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس فكهم على اختلاف الأحوال ، فأيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء للغرور الأمن ، وتفصيل ذلك ما يطول . فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال وتسكره النفس فيعرض به لخطر كرامة كلام الله تعالى من حيث لا يجد ميلا إلى دمه . فالاحتراز من خطر ذلك حرم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتزيله على وفق حاله ولا يجوز تزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى . وأما قول الشاعر فيجوز تزويله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيافته عن ذلك ، هذا ما يتفصح لى في علل انصراف الشيوخ إلى سماع التناء عن سماع القرآن .

وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال : القرآن كلام الله وصفة من

(١) « الأمر بضرب النف في العرس » تقدم في النكاح .

(٢) « دخل النبي ﷺ بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يميني ... » أخرجه البخارى من حديثها وقد تقدم في النكاح .

صفاته وهو حق لا تليقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تليقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودعشت وتغيرت ، والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة المخطوط لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبة نسبة المخطوط . فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الآيات من الإشارات والطلائف شاكل بعضها بعضا كان أقرب إلى المخطوط وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق ، فادامت البشرية باقية ونحن بصفتنا وحظوظنا ننتمى بالنتجات الشجية والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه المخطوط إلى القصاد أول من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود . هذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره . وقد حكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال : قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الري كنت أسأل عنه فكل من سأله عند قال : إيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف . ثم قلت في نفسي : قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه . فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في الحراب وبين يديه رجل ويده مصحف وهو يقرأ ؛ فإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللبية ، فسلمت عليه فأقبل علي وقال : من أين أتيت ؟ فقلت : من بغداد ، فقال : وما الذي جاء بك ؟ فقلت : قصدتك السلام عليك ، فقال : لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أو كان يملكك ذلك عن المجيء ؟ فقلت : ما لمتحنى الله بشيء من ذلك ولو امتحنني ما كنت أدرى كيف أكون ؟ ثم قال لي : أحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت : نعم ، فقال : هات ! فأنتألت أقول :

وأنتك تبقى دائما في قطيعة ولو كنت ذا حزم لخدمت ما تبقى
كأن بك والبيت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يبقى

قال : فأطبق المصنف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحية وابتل ثوبه ، حتى رحمت من كفرة بكائه ، ثم قال : يا بني تلوم أهل الري يقولون يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة القعدة أقرأ في المصنف لم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت القيامة على لحدين البيتين . فإذا القلوب وإن كانت عمرة في حب الله تعالى فإن البيت الغريب يبيع منها ما لا يبيع ثلاثة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلة الطباع ، ولكونه مشاكلة للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر . وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومناهجه وهو لذلك مميز لا يدخل في قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن إسرائيل - أستاذ ذي النون المصري - دخل عليه رجل قرأه وهو يتكلم في الأرض بأصبعه ويترنم بيت فقال : هل تحسن أن ترنم بشيء ؟ فقال : لا ، قال : فأنت بلا قلب - إشارة إلى أن من له قلب وعرف طبعه علم أنه تحركه الآيات والنتائج تحريكاً لا يصادف في غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بهمه . وقد ذكرنا حكم المقام الأول في فهم المسموع وتزنيه ، وحكم المقام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أخص ما يترشح منه إلى الظاهر من صفة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يعمد من آثار الوجد وما يندم . فأما الآداب فهي خمس جل :

الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور طعام أو غصام أو صلاة أو صاف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فيراح حالة فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون

شارحاً مطروحة أو موضعاً كره الصورة أوفيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك . وأما الإخوان : فسيبه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السباع مزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستقلاً في المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراقبته ، أو متكاف متواجد من أهل التصوف رأى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات فترك السباع عند فقد هذه الشروط أولى في هذه الشروط نظر المستمع .

الأدب الثاني : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرم السباع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم يشغل آخر ، والمديد الذي يستضر بالسباع أحد ثلاثة :

أولهم درجة : هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السباع ؛ فاشتغاله بالسباع اشتغال بما لا ينبغي ، فإنه ليس من أهل الهويل ولا من أهل الذوق فينتقم بذوق السباع ، فليشغل به ذكر أو خدعة وإلا فهو تصحيح لزماته .

الثاني : هو الذي له ذوق السباع ولكن فيه بقية من المخطوط والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكساراً توفى غوائه ؛ فربما يبيع السباع منه داعية الهوى والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلك واقتضت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ؛ فإذا فتح له باب السباع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السباع .

قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . فلا يصلح السباع لثل هذا ولأن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولأن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطلع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراقبته قلبه وينقطع عليه طريقه فالسباع مزل قدس يجب حفظ الضعفاء عنه قال الجنيد : رأيت لأبليس في النوم فقلت له هل تظفر من أصابعه بتأبى ؟ قال : نعم في وقتين ؛ وقت السباع ووقت النظر فإني أدخل عليهم به . فقال بعض الشيوخ : لو رأيته أنا لقلت له ما أحقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به ؟ فقال الجنيد : صدقت .

الأدب الثالث : أن يكون مصفياً إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرراً عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر من أحوال الوجد ، مشتغلاً بنفسه ومراقبة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمة في سره ، متحفظاً عن حركة نقوش على أصحاب قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الأطراف متحفظاً عن التشنج والتثاقب ، ويجلس مطرقاً رأسه في هدوء كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متأسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراعاة ، ساكناً عن التلطف في أثناء القول بكل ماعنه بد فإن غلبه الوجد وحركة تغير اختياره فيه معذور غير ملوم . ومما يرجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه . ولا ينبغي أن يستدعيه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ولا أن يتواجد خوفاً من أن يقال هو قاسم القلب عديم الصفاء والرفة .

حكى أن شاباً كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق فقال له الجنيد يوماً : إن فعلت ذلك مرة

أخرى لم تصحى فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شمرة منه قطرة ماء لا يرقى ؛ لحكى أنه اختفى يوماً لشدة ضيقه لنفسه فذهب شيقاً فالتقى قلبه وتلفت نفسه ورى أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فرق واحد منهم ثوبه أو قبضه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له منى في قلبك ولا تمزق ثوبك . قال أبو القاسم النصراباذي لأن عمرو بن عبيد أنا أقول : إذا اجتمع القوم فيكون معهم قول يقول خير الممنان بنتابوا ؛ فقال أبو عمرو : الزياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك .

فإن قلت : الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه ؟

فأعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن ولكن لا يظهر لكالم القوة على ضبط الجوارح فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازماً ومصاحباً للأحوال كلها فلا يتبين السماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال .

فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجهه من هو في وجد دائم فهو الم رابط الحق والملازم لعين الشهود فهذا لا يتغير طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه : كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطبق ملازمة الوجد في كل الأحوال فتصح في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديداً في حقنا طارداً علينا حتى تأثر به . فإذا قوة الوجد تحركه وقوة العقل والتسكع تضبط الظاهر .

وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدة قوته وإما لضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدنا من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجدنا من المضطرب فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقليل له في ذلك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحار صنع الله الذي أتقن كل شيء) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في المملوكات والجوارح متأديف الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة . صحبت سبل بن عبد الله ستين سنة فأرايته تنهز عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن ، فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه (فالأيوم لا يؤخذ مشرك فدية) الآية فأرايته قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سأله عن ذلك فقال : نعم يا حبيبي قد ضعفنا . وكذلك سمع مرة قوله تعالى (الملك يومئذ الحق الرحمن) فاضطرب فسأله ابن سالم - وكان من أصحابه - فقال : قد ضعفنا . فقليل له : فإن كان هذا من الضعف فما قوة الحال فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا يتغيره الوردات وإن كانت قوية . وسبب القعدة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود . كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حاشي قبل الصلاة وبمدها واحدة . لأنه كان مراعي القلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال فكذلك يكون قبل السماع وبمده ، إذ يكون وجداً تاماً وعطشه متصلاً ، وشربه مستمراً ، بحيث لا يؤثر السماع في زيادته . كما روى أن مشاد الدينوري أشرف على جماعة فهم فوالفسكونا فقالوا رجوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذن ما شغل همي ولا شغل ما بي . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

فإن قلت : فمثل هذا لم يحضر السماع ؟

فأعلم أن من هؤلاء من ترك السماع في بكرة وكان لا يحضر إلا نادراً للمساعدة أخ من الإخوان وإدخالاً للسرور على قلبه ، وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ؛ فيتعلبون منه ضبط الظاهر عن

لهم ، وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائمين عنهم بقلوبهم وبواطنهم . كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضي الجلوس معهم ، وبعضهم يقل عنه ترك السماع ويقولون أنه كان سبب ترك استغناء عن السماع بما ذكرناه . وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ ورواح في السماع ولا كان من أهل الهوى ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه . وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم : لم لا تسمع ؟ فقال : عن ومع من ؟

الأدب الرابع : أن لا يقوم ولا يرقع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة ؛ لأن التباكى استجلاب للحنن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراما لما فظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرقون^(١) هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات ، وقد وى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم جعلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ، وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فقاسموا في تريتها فقال صلى الله عليه وسلم لعل « أنت مني وأنا منك » فحجل على وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلقى » فحجل وراء حجل على وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هي لجعفر لأن خالتها ترضعها والخالوة^(٢) وفي رواية أنه قال لما ترضعني الله عنها » وأتبعين أن تنظري إلى ذنبي الحبشة » والرقن والحجل هو الرقص ، وذلك يكون لفرح أو شوق فحكمه حكم ميممه ، إن كان فرحه محمودا والرقص يريده ويؤكده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مملوما فهو مذموم . نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناسبة الأكاير وأهل القدوة لأنه في الأكثر يكون من الهوى ولعب ، وماله صورة اللعب والهوى في أعين الناس فينبغي أن يجنبه المعتد به لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به .

وأما تزييق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يثلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لثلبه سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كاللغفل الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المسكروه إذ يكون في الحركة أو التزييق متنفس ، فيضطر إليه اضطراب المريض إلى الأني ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري ، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يسك النفس ساعة لا يضطر من باطله إلى أن يختار التنفس . فكذا ذلك الرخصة وتزييق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ، فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال : نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري . فروجع فيه واستجد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع ، ومعناه : أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص .

فإن قلت : لا تقول في تزييق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فإنهم يمزقونها قطعا صغارا ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرق ؟ فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعا مربعا تصلح لترقيع الثياب والسجادات . فحينئذ الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تقصيرا لأنه تزييق لمرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود ، والخرقة على الجميع ليم ذلك الخير مقصود مباح . ولكل

(١) « نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله ﷺ وهم يرقون » تقدم في الباب قبله .

(٢) حديث : اختصم على وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعل « أنت مني وأنا منك » فحجل وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلقى » فحجل وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل ... أخرجه أبو داود من حديث علي بن إسحاق وهو عند البخاري دون « فحجل » .

مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويصطبها لامة مسكين . ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن يتنفع بها في الرقاق . وإنما منعنا في السج التزيق المقصد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبق متدما به فهو تنضيح عض لا يجوز بالاختيار .

الأدب الخامس : موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحة . وكذلك إن جرت عادة طائفة بتدحية العامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته ، أو خلعت الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتزيق ؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحة والعشرة ، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم ، ولا بد من مخالفة الناس بأخلاقهم^(١) كما ورد في الخبر . لاسيا إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاهلة وتطبيب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة ؟ فليس كل ما يحكم بإباحته متفقولا عن الصحابة رضئ الله عنهم ، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم ستة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كانت الصحابة رضئ الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال^(٢) كما رواه أنس رضئ الله عنه . ولكن إذا لم يثبت فيه نهى عام فلا يرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فيها إكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطبيب القلب به . وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطبيب القلب واصططع عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهى لا يقبل التأويل . ومن الأدب أن لا يقوم الرقص مع القوم إن كان يستغل وقته ، ولا يشوش عليهم أحوالهم إذا الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر التكلف . ومن يقوم عن صدق لاستنقذه الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أدباب القلوب حك للصدق والتكلف .

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال : صحته قبول قلوب الحاضرين إذا كانوا أشكالا غير أعداد .
فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولغو عتائف الذين فلا يراه ذو جد في الدين إلا ويشكره ؟

فأقول أن الجدل لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى الحبشة يزفون في المسجد وما أنكره لما كان في وقت لائق به وهو العيد ، ومن شخص لائق به وهم الحبشة . نعم فرت الطباع عنه ، لأنه يرى غالبهم وناظرهم واللعب ، واللغو مباح ولكن للعوام من الزوج والحبشة ومن أشبههم . وهو مكروه لنوى المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوفى بالتحريم ، فمن سأل فقير شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة . ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ، ومكتوبا في تراجم الأخبار من جهة مساوية ويمير به أعقابهم وأشياعه ، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث أنه أعطى خبزا للفقير حسن ، ومن حيث إنه بالإضافة إلى منصبه كلفه بالإضافة إلى الفقير مستحب . فكذلك الرقص وما يجري مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار

(١) « مخالفة الناس بأخلاقهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر « خالقوا الناس بأخلاقهم . » قال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث : كانوا لا يقومون لنبينا ﷺ في بعض الأحوال . كما رواه أنس تقدم في آداب الصحة .

سيئات المقربين ، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناسبات . وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه مرفى نفسه لاجتماع فيه والله أعلم . فقد خرج من جهة التفصيل السابق إلى أن السماع قد يكون حراما محصا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها وقد يكون مستحبا .

أما الحرام فهو لأكثر الناس من الثبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا يزيله على صور المخلوقين ولكنه يتخذ عادة له في أكثر الأوقات على سبيل النهي . وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربيع الماديات من كتب إحياء علوم الدين
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تفتح الكتب إلا بحمده ، ولا تستنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفقه ، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده ، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .

أما بعد فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهبط الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأحمل على عمله لتعطلت الثمرة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الحرق وغربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعله ، وانمحى بالسكينة حقيقته وروحه ، فاستولت على القلوب مدهانة الخلق واتممت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال الهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فن سعى في تلافى هذه الفترة وسد هذه الثغرة إما متكفلا بمعلمها أو متقلدا لتقليدها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتسرفا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحيائها أغنى الزمان إلى إلاماتها ، ومستبدا بقرية تضاد درجات التقرب دون ذروتها ، وما نحن فنشر عنه في أربعة أبواب : (الباب الأول) في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته . (الباب الثاني) في أركانه وشروطه . (الباب الثالث) في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في الماديات (الباب الرابع) في أمر الأمراء ونهيمهم عن المنكر .

الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفضيلته والمغمة في إعماله وإضاعته

يدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه : الآيات والأخبار والآثار . أما الآيات : فقوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون ﴿ ففي الآية الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ وتكن ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب . وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصروا قال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لأفرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم أمريين بالمعروف بل قال ﴿ وتكن منكم أمة ﴾ فإذا قام به واحد أو جماعة سقط المخرج عن الآخرين ، واخص الفلاح بالتأمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم المخرج كافة القادرين عليه لا محالة وقال تعالى ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتولون آيات الله أناء الليل وهم يسجودون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ فلم يشهد لهم بالصالح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ فقد نصت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي حبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المتنوعين في هذه الآية . وقال تعالى ﴿ لمن الدين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم لعنة بتركهم عن المنكر . وقال عز وجل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يهون عن السوء . وأخذنا الذين ظلموا بعباد بئس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء ويدل ذلك على الوجوب أيضا . وقال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة فنصت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى ﴿ لولا إنهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم آمنوا بترك النهي وقال تعالى ﴿ فلو لا كان من القرون من قبلك أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ الآية فبين أنه أهلك جميعهم لإقليل منهم كانوا يهون عن الفساد وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا فرامين بالقطع شهادة ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى ﴿ لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو بينهما ﴾ الآية والإصلاح نهى عن البني وإعادة إلى الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ وذلك هو النهي عن المنكر .

وأما الأخبار : فهنا ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تفرمون هذه الآية وتقولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾^(١) لا يضركم من ضل إذا انتبهتم ﴾ وإلى

كتاب الأمر بالمعروف

الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف

(١) حديث أبي بكر : أيها الناس إنكم تفرمون هذه الآية وتقولونها على اختلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ ... أخرجه مسلم وتقدم في المزملة .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن قوم عملوا بالمعاصي وفهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله تعذيباً من عنده » وروى عن أبي ثعلبة الخشني : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم »^(١) فقال « يا أبا ثعلبة مر بالمرف وإنه عن المنكر فإذا رأيت شحاططاً وهوى متبهاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه عليك بنفسك ودع عنك العوام إن من وراءكم فتناً كقطع الليل المظلم لن تنسك فيها بمنى الذى أتم عليه أجمعين منكم » قيل : بل منهم يا رسول الله . قال : « لا بل منكم لأنكم تهجدون على الخمر أعواناً ولا يهجدون عليه أعواناً » وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : إن هذا ليس زماناً إنها اليوم مقبولة، ولكن قد أوشك أن يأتى زماناً تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم فيحدث عليكم أنفسهم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم »^(٢) معناه تسقط مهايتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لحي ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لحي »^(٤) وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « إن الله تعالى ليسأل العبد مامناً إذ رأى المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجة قال رب وقتت بك وفرقت من الناس »^(٥) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال « فإذا أيتم إلا ذلك فاصطوا الطريق حقاً » قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « كلام ابن آدم كله عليه لاله إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله تعالى »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يوجب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه »^(٨) وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كيف أيتم إذا ظفئ نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ » قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله قال « نعم والذى قضى يبلوا شدة منه سيكون » قالوا : وما أشد

- (١) حديث أبي ثعلبة « أنه سأل النبي ﷺ عن تفسير قوله تعالى « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ... أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه . (٢) « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف والترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال « أو يوشك أن يعمهم الله ليث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » قال حديث حسن . (٣) « يا أيها الناس إن الله سبعا يقول لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ « مروا وانهوا » وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين . (٤) ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لحي ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن سعيد في كتاب الطاعة والمصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلًا ومعضلاً ، ولا أدري من يحيى بن عطاء ؟ (٥) « إن الله تعالى ليسأل العبد مامناً إذ رأى المنكر أن تنكره ... » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم . (٦) « إياكم والجلوس على الطرقات ... » متفق عليه من حديث أبي سعيد . (٧) « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمراً بمعروف .. » تقدم في العلم . (٨) « إن الله لا يوجب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر ... » أخرجه أحمد من حديث عدي بن حميرة وفيه من لم يسم والطبراني من حديث أخيه الراس بن عميرة وفيه من لم يعرفه .

منه يارسول الله؟ قال «كيف أتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر؟» قالوا: «وكائن ذلك يارسول الله؟» قال «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: «وما أشد منه؟» قال «كيف أتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟» قالوا: «وكائن ذلك يارسول الله؟» قال «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: «وما أشد منه؟» قال «كيف أتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: «وكائن ذلك يارسول الله؟» قال «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون؟» يقول الله تعالى في حلفت لأنيمن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران^(١) وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه^(٢)» قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يبنئ لأمري شهيد مقام فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له^(٣)» وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلة والفسقة ولا حضور المواقف التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره، فإنه قال «اللعنة تنزل على من حضر» ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز. ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والجماع وعجزهم عن التغيير، وهذا يقتضي لزوم الحجر الفلاني. ولهذا قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله: ماسح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل منازل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والحير قد اندرس، ورأوا أنه لا يقبل من تكلم، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعذبهم وأن يزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلون منه؟ فرأوا أن مجاورة السباح وكل يقول غير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ ﴿فأروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾ قال: فمر قوم قلولا ماجمل الله جل ثناؤه في التوبة من السر لقلنا مام بأفضل من هؤلاء، فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصلحهم، والسحاب والسباح تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه، ويسألها أين أمرت فتخبره؟ وليس بقي. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حضر مصيبة فكرها فكأنه غاب عنها، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها^(٤)» ومعنى الحديث أن يحضر الحاجة أو يتفق جيران ذلك بين يديه، فأما الحضور قصدا فمتنوع بدليل الحديث الأول. وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بك الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمكث التي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيه فإذا انقضوا كان من بعدهم قوم يركبون رؤوس المناير يقولون ما يعرفون ويعملون ما يشكرون فإذا رأيتم ذلك فخذلوا على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فلسانه فإن لم يستطع فقلبه وليس وراء ذلك إسلام^(٥)».

(١) حديث أبي امامة: كيف بك إذا طعن نساؤكم وفق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك كائن يارسول الله قال «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا «وما أشد منه؟» قال «كيف أتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر...» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضيف دون قوله «كيف بك إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟» ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرا على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضيف.

(٢) حديث عكرمة عن ابن عباس «لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفع عنه» أخرجه الطبراني بإسناد ضيف والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن. (٣) «لا يبنئ لأمري شهيد مقام فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذي قبله وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد «لا تعين رجلا هية الناس أن يقول الحق إذا علمه».

(٤) حديث أبي هريرة «من حضر مصيبة فكرها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها» رواه ابن عدي وفيه يحيى بن أبي سليمان قال البخاري منكر الحديث. (٥) حديث ابن مسعود «ما بك الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى...» روى مسلم نحوه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر يشكرون ما يعملون ، فقام أحدكم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا فجعل يتهام ويخبرهم بقبح ما يعملون فجعلوا يردون عليه ولا يرفعون عن أعمالهم فسيهم فسيوه وقتلهم فقتلوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وقتلتمهم فقتلوني ثم ذهب ثم قام الآخر فتهام فلم يطيعوه فسيهم فقتلوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وقتلتمهم فقتلوني ثم ذهب ثم قام الثالث فتهام فلم يطيعوه فقتلوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وقتلتمهم فقتلوني ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لصوبت ولو سببتهم لسبوت ولو قاتلتهم لقتلوني ولو قاتلتهم لقتلوني ثم ذهب ، قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل بم يا رسول الله قال « بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى »^(١) وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يصعب طرقة عين قال اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يمتدح في ساعة قط »^(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يفتضرون شيئا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر »^(٣) وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم يارب أي عبادك أحب إليك قال الذي يسرع إلى هوى كما يسرع النسر إلى هواء والذي يكلف بمبادئ الصالحين كما يكلف الصبي بالندى والذي يغضب إذا أثبت محاربي كما يغضب النمر لنفسه فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قتل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفاري : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى لمجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وترين لهم الجنة كما تربت أم سلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبون في الأمور المفضولة في الله » ثم قال « والذي نفسي بيده إن العبد منهم ليكون في الفرقة فوق الفرقات فوق غرف الشهداء للفرقة ثلثمائة ألف باب منها الباقوت والهمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم يزوج ثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عن كل ما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له : أذكر يوم كذا وكذا أموت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقاما أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر »^(٤) وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عز وجل ، قال « رجل قام إلى آل جابر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجري

(١) حديث ابن عباس : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل : بم يا رسول الله ؟ قال « بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله » أخرجه البزار والطبراني بسند ضعيف . (٢) حديث جابر « أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا ... » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول مالك بن دينار . (٣) حديث عائشة « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء » لم أقص عليه مرفوعا وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني « أوحى الله إلى يوشع بن نون إن في مهلك من قومك أربعين ألفا من خياريهم وستين ألفا من شراريهم قال يارب هؤلاء الأشرار فإبالي الأخيار ؟ قال إنهم لم ينضوا لنصي فكانوا يؤاكلونهم ويشربونهم » . (٤) حديث أبي ذر : قال أبو بكر يا رسول الله هل من جهاد غير قتال للمشركين ؟ قال « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى لمجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء » فذكر الحديث وفيه « قال »
الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ... بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر .

عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش^(١) وقال الحسن البصري رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلة في الجنة بين حزة وجعفر^(٢) » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بش القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبش قوم لا يأمرون بالمعروف ولا يهتدون عن المنكر^(٣) » .

أما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ثأمرن بالمعروف ولتتهن عن المنكر أو ليلسطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجمل كثيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتقصرون فلا تصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال الذي لا ينكر المنكر بيده ولا يلسانه ولا يثقله وقال مالك بن دينار : كان حير من أحبار بني إسرائيل ينشئ الرجال والنساء منزله يعظمه ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيهم يوما وقد غمز بعض النساء . فقال : مهلا يا بني مهلا ، وسقط من سريره فاقطع نخاعه واستقطت امرأته و قتل بنوه في الجبلش ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : أن أخبر فلانا المجرأ أني لا أخرج من صلبك صديقا أبدا أما كل من غضبك لي أن قلت : مهلا يا بني مهلا . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم . وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام : إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال : يارب هؤلاء الأشرار فإني لا أختار ، قال : إنهم لم يغضبوا لنفسي وواظمهم وشاربهم . وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا انقضت لم تنضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضررت بالعامية ، وقال كعب الأحمري لأن سلمة الخولاني : كيف منزلتك من قومك ؟ قال : حسنة قال كعب : إن التوراة لتقول غير ذلك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر سأت منزلته عند قومه ، فقال : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فيقول له لو أتيتهم فلهم يجدون في أقسامهم ؟ فقال : أرباب إن تكلمت أن روا أن الذي في غير الذي في ، وإن سكت رهبت أن أتم . وهذا يدل على أن من صجر عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشبهته . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بالستكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس لجل أعلام أسفله . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أبا عبد الله عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتشكرها وتشوش الزمان فويعن قد قام في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه . وقيل للفضيل : ألا تأمر ونهى ؟ فقال إن قوما أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصبوا . وقيل للثوري ألا تأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ فقال : إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره . فقد ظهر بهذه الآلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) حديث أبي عبيدة : قلت يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ... » أخرجه البراء مقتصرا على هذا دون قوله « فإن لم يقتله ... إلى آخره » وهذه الزيادة منكورة وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف . (٢) حديث الحسن البصري رسلا « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلة في الجنة بين حزة وجعفر » لم أره من حديث الحسن وللمحاكم في المستدرک وصححه إسناده من حديث جابر سيد الشهداء حزة بن عبد اللطيف « ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » (٣) حديث عمر « بش القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبش القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا يهتدون عن المنكر » رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرملا .

المشكر واجب وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به . فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه :

الباب الثاني : في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط وهو أن يكون مكلفاً مسلماً قادراً فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مآذنين ، ويدخل فيه الفاسق والرفيق والمرأة . فلنذكر وجه اشتراط ما اشتراطناه . ووجه أطراح ما أطرحناه .

أما الشرط الأول : وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزم أمر ، وما ذكرناه أردناه به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل ، حتى إن الصبي المراهق البلوغ المعين . وإن لم يكن مكلفاً . فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثواباً ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف . فإن هذه قربة فهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ، ولذلك أثبتناه للعبد وآحاد الرعية . نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولا يوسلته ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل الشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته . فإن الصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستعز به فالمنع من الفسق كالنهي عن الكفر .

أما الشرط الثاني : وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاهد لأصل الدين وعدوه ؟

وأما الشرط الثالث : وهو العدالة : فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحسب ، وربما استدلوا فيه بالنسكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ﴿ أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وربما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مرت لية أسرى في يقوم تفرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أتم ؟ فقالوا كنا بأمر بالخير ولا تأتيه ونهى عن الشر وتأتيه ^(١) » وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عطف نفسك فإن اتعظت فقط الناس وإلا فاستحي مني . وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية النير فرع للاهتمام ، وكذلك تقويم النير فرع للاستقامة ، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح ، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ، ومتى يستقيم الظل والعمود أعوج ، وكل مذكروه خیالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحسب وبرهانه هو أن تقول : هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها ، فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسب لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عن دونهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلفت في عصمتهم عن الخطايا . والقرآن العزيز يدل على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء . ولهذا قال سعيد بن

الباب الثاني : في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) « مرت لية أسرى في يقوم تفرض شفاههم بمقاريض من نار ... » تقدم في العلم .

جبر : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء ، لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب ما لكان ذلك من سعيد بن جبر . وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصنائع حتى يجوز للأبى الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فتقول :

وهل لشارب الخمر أن يمزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ، فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتتة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . فإن قالوا : نعم ، فتقول : شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، فلنا : فما الفرق بينه وبين لأبى الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشراب كالشراب بالنسبة إلى لبس الحرير ، فلا فرق . وإن قالوا : نعم ، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عبادته وإنما يمنع عما فوته فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشراب ؟ بل من أين يبعد أن يشرب وينع غلبته وخممه من الشراب ؟ ويقول يجب على الانتهاء والنهي فمن أين يلزق من المصيان بأحدهما أن أحصى الله تعالى بالثاني ؟ وإذا كان النهي واجبا على فمن أين يسقط وجوبه بإفدائى ؟ إذ يستحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط عنه النهي .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول الفاعل الواجب على الوضوء والصلاة فأنأ أتوضأ وإن لم أصل وأتسحر وإن لم أصم لأن المستحب لى السجود والصوم جميعا ولكن يقال : أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويم نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يقول . والجواب أن التسحر يراد الصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستجابا . وما يراد لغيره لا يفتك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس . ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتب أحدهما على الآخر محكم .

وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤذيا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والالتهاأ أكثر عقابا عن نهى ولم ينه ، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه ؟ بل الصلاة فلا حكم له دون الصلاة .

وأما الحسبة فليست شرطاً في الانتهاء والاتباع فلا مشابة بينهما .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهى مكروهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل بحسبته في أثناء الزنا ويقول : أنت مكروهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم ، وهأ أنا غير محرم لك فاسترى وجهك . فهذا احتساب شنيع يستكره قلب كل عاقل ويستقشمه كل طبع سليم ؟ فالجواب أن الحق قد يكون شنيعاً وأن الباطل قد يكون مستحسناً بالطباع والمتبع الدليل دون نكرة الأوهام والخيالات فأنأ تقول : قوله طافى في تلك الحالة « لا تنكحنى وجهك » واجب أو مباح أو حرام ؟ فإن قلتم : إنه واجب فهو القرض لأن الكشف مصيبة والنهى عن المصيبة حق ، وإن قلتم : إنه مباح ، فأذن له أن يقول ما هو مباح ، فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة ؟ وإن قلتم : إنه حرام ، فتقول : كان هذا واجبا فمن أين حرم بإفدائه على الزنا ؟ ومن الغير بآن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر .

وأما نكرة الطباع عنه واستنكارها له فهو ليسين :

أحدهما : أنه ترك الأمر واشتغل بما هو مهم ، وكأ أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعنى فتتفرع عن ترك الأمر

والاشتغال بالمهم كما تنفر عن تخرج عن تناول طعام مضروب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عن بصاؤون عن الشبهة ويهدد بالزور لأن الشهادة بالزور أخش وأشد من الغيبة التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه الخبر ، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم يزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره في الآخرة من مصيئته أكثر من ضرره من مصيئته غيره ، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل لأن من غصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس قورت عنه الطباع ويرى مسئنا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير مشكور ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس يطلب اللجام فاشتد الإنكار عليه لتركه الأمر بما دونه ، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لا يدل على أن حسبه من حيث إنها حسبة مستنكرة .

الثاني : أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر ، ولا ينبع وعظ من لا يمتط أولا ونحن نقول : من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لم يعلم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ ؛ إذ لا فائدة في وعظه فالتعظيم يؤثر في إسقاط فائدة كلامه . ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام ، فأما إذا كان الحسبة بالمشع فالمراد منه القهر وتعام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا ، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة إذ توجه عليه أن يقال له : فأنت لم تقدم عليه ؟ فتعذر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن من يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا . فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يمتط ، وإذا لم يكن عليه ذلك وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فيقول : ليس له ذلك أيضا فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد جلى بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه .

وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمر وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر ، وهذه غاية الإنصاف والكشف في المسألة وأما الآيات التي استدلوا بها فبأنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لأنهم حيث أمرهم . ولكن أمرهم دل على قوة عليهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة عليه وقوله تسال (لم تقولون ما لا تفعلون) المراد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل (وتنسون أنفسكم) إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لأنهم حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر النهر استدلالا به على علمهم وتأكيذا للحجة عليهم . وقوله « يا ابن مريم حظ نفسك ... الحديث » هو في الحسبة بالوعظ .

وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط المجدوى عند من يعرف فسقه . ثم قوله « فاستحي مني » لا يدل على تحريم وعظ الغير بل معناه استحي مني فلا ترك الأمر وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أياك ثم جارك وإلا فاستحي .

فإن قيل : فليجز للكافر الذي أن يحسب على المسلم إذا رآه يزي لأن قوله لا تزن حتى في نفسه فعال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغي أن يكون مباحا أو واجبا .

قلنا : الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله سبحانه الكافرين على المؤمنين سيلا ، وأما مجرد قوله « لا تزن » فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهي عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحكام على المسلم ، وفيه إذلال للمحكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالذل منه ، فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة وإلا فلما تقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله لا تزن ، من حيث إنه نهي ، بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر

بفروع الدين . وفيه نظر استوفيناها في الصقييات ولا يليق بفرعنا الآن .

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، قد شرط قوم هذا الشرط ولم يشترطوا إلا من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط قاسد ؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى مشكراً فسكت عليه عصى إذا يجب تنبيهه أيضاً ورأه وكيفية رآه على العموم ، فالخصيص بشرط التفويض من الإمام تحمّل لأصل له الحق وعدم . وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم - إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دماءهم وأموالهم - إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم تنهى عن المنكر وطلبكم لحكمكم من جملة المعروف وما هذا زمان تنهى عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج .

فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثبات سلطة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، وذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حراً فينبغي أن لا يثبت لأحد الرعية إلا بتفويض من والى وصاحب الأمر ؟ فنقول : أما الكافر فنوع لما فيه من السلطة وعن الاحتكام ، والكافر دليل فلا يستحق أن ينال عن التحكم على المسلم ، وأما أحد المسلمين ليستحق هذا المنزلة بالدين والمعرة ، وما فيه من السلطة والاحتكام لا يجوز إلى تفويض كمن التسلية والتعريف ؛ إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر به لا يحتاج إلى إذن والى ، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذلك التجهيل ، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي .

وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب - كما سيأتى - (أولاً) التعريف . (والثاني) الوعظ بالكلام اللطيف (والثالث) السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول : يا جاهل ، يا حق ألا تخاف الله ، وما يجري هذا الجرى (والرابع) المنع بالتهديد بطريق المباشرة ككسر الملاهي ، وإزاحة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابسه ، واستلاب الثوب المنسوب منه ، وردة على صاحبه . (والخامس) التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له حتى يتبتع عما هو عليه كالأول على الفية والقنف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يعمل على اختيار السكوت بالضرب . وهذا قد يجوز إلى استماعة وجميع أعوان من الجانيين ويبرر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يضي وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظراً ، سيأتى .

أما التعريف والواظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام ، وأما التجهيل والتحقيق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو كلام صدق ، ومصداق مستحق بل أفضل الدرجات كقوله حق عند إمام جابر (١) كما ورد في الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراعاته فكيف يحتاج إلى إذنه ، وكذلك كسر الملاهي وإزاحة الخمر فإنه لما لم يعرف كونه حراً من غير اجتهد فلم يفتقر إلى . وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة فقيه نظر - سيأتى - واستمرار عادات السلف على الحسبة على الروايات قاطع بإجماعهم على الاستثناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فإن كان والى راضياً به فذاك ، وإن كان ساعطاً لمفسدته لم ينكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه . ويبدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة .

كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل : إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان : أترك ذلك يا فلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى

(١) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري .

منكم منكرًا فليذكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان (١) « فلقد كانوا فهموا من هذه السموميات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذهم ؟ وروى أن المهدي لما قدم مكة لبث بها ماشاء الله فلما أخذ في الطواف نحي الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مروزم فلبسه برداه ثم هزه وقال له : أنظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق من أمه من العبد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى (سواء العاكف فيه والباد) من جعل لك هذا ، فظفر في وجهه - وكان يصره لأنهم مواليهم - فقال : أعبد الله ابن مروزم ، قال : نعم ، فأخذ يلقي به إلى بغداد فكره أن يماقيه عقوبة يشنع بها عليه في العامة ، فجعله في أصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فراسعوضوا سي الخاق ليمقره الفرس فلين الله تعالى له الفرس ، قال : ثم صيره إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدي المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأودن به المهدي فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني ، فضج المهدي وصاح وقال : ما تخاف أن أقتلك فرجع عبد الله إليه رأسه مضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أو موتا ؟ فما زال يحبوسا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذرا إن خلاصه الله من أيديهم أن يضر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها .

وروى عن حبان بن عبد الله قال : فخره هرون الرشيد بالدين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال هرون : قد كانت لك جارية تغني قصص الجنائز ، قال : لجأت ففنت فلم يحمد غناها ، فقال لها : ماشأنك ؟ قالت : ليس هذا عودي ، فقال للخادم ، جئنا بعودها ، قال : لجأ بالعود فوق شيخا بلفظ النوى فقال : الطريق يا شيخ ، فرجع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ، فأخذ الخادم وذهب به إلى صاحب الزابغ فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبة أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الزابغ : ليس ببغداد أعبد من هذا فميف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إني مررت على شيخ بلفظ النوى فقلت له : الطريق ، فرجع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره ، فاستشاط هرون وغضب واحمرت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر : ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ، أبعث إلى صاحب الزابغ يضرب عنقه ويرم به في الدجلة . فقال : لا ، ولكن نبئت إليه وتناظره أولا ، لجأ الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر ، فقيل لهرون : قد جاء الشيخ ، فقال للندماء : أي شيء ترون ؟ زرع ماقدنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ؟ فقالوا له : نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلي ، فقالوا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل - وفي كه الكيس الذي فيه النوى - فقال له الخادم : أخرج هذا من كك وأدخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عثاني اليلة ، قال : نحن نمشيك . قال : لاحتاجة في عثانك ، فقال هرون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ قال في كه نوى قلت له لاطرحه وأدخل على أمير المؤمنين فقال : دعه لا يطرحه ، قال : فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون : يا شيخ ما حملك على ما صنعت ، قال : وأى شيء صنعت ، وجعل هرون يستحي أن يقول كسرت عودي ، فلما أكثر عليه قال : إني سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على المنبر (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وأنا رأيت منكرا ففكرته ، فقال : فقيره . فوالله ما قال إلا هذا ، فلما خرج

(١) حديث : إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد ... الحديث . وفيه حديث أبي سعيد مرفوعا « من رأى

منكرا ... » رواه مسلم .

أعطى الخليفة رجلا يدعى وقال : اتبع الفسخ فإن رأيته يقول : قلت لأمر المؤمنين وقال لي ؛ فلا تمطه شيئا ، وإن رأيته لا يكلم أحدا فأعطه البكرة ، فلما خرج من القصر إذا هو بتواة في الأرض قد غاصت فيجعل يمالجها ولم يكلم أحدا فقال له : يقول : لك أمير المؤمنين خذ هذه البكرة ، فقال : قل لأمر المؤمنين يردعا من حيث أخذها . ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على التواة التي يمالج قفها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه فهو ما كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال : حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأيت يرى جمرة العقبة والناس يحيطون بيمننا وشمالا بالسياط ، فوقعت فقلت : يا حسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبد الله السكاني قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا لاجد ولا إليك (١) إليك (٢) وما أنت يحيط الناس بين يديك بيمننا وشمالا ، فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثوري ، فقال : يا سفيان لو كان المنصور ما احتسبك على هذا ؟ فقال : لو أخبرك المنصور بما لقي لقصرت عما أنت فيه ، قال : فقيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك بأمر المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاخفق . وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولم يكن مأمورا من عنده بذلك فأمر بأن يدخل عليه ، فلما صار بين يديه قال له : إني بلفظي أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن تأمر بك وكان المأمون خالسا على كرسي ينظر في كتاب أو قصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به . فقال له المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت ؛ فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول ؟ حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم . فقال : إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع ، فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وسجّل ، ثم عاد وقال : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا - أهل البيت - ونحن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقال : صدقت بأمر المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمسك غير أنا أعوانك وأوليائك فيه ، ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ﴿ والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ﴾ الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ﴾ (٣) وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فإن اتقنت لها شكرت لمن أعانك لخدمتها ، وإن استكبرت عنها ولم تقفد لما لزمك منها فإن الذي إليك أمرك ويبدع عرك وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، قل الآن ما شئت ، فأعجب المأمون بكلامه وسر به وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف ، فامض على ما كنت عليه بأمرنا ومن رأينا ، فاستمر الرجل على ذلك . ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإنذار فإن قيل : أفتبطل ولاية الحسبة للولاء على الولد والعبد على المولى والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ

(١) حديث قدامة بن عبد الله : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا لاجد ولا إليك إليك . رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجة ، وأما قوله في أوله : إن الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين . فليس صحيحا فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين .

(٢) « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .

والرعية على الوالي مطلقا ، كما ثبت للوالد على الولد والسيد على العبد والزوج على الزوجة والأستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق ؟ فأعلن الذي نراه : أنه ثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل . ولنفرض ذلك على الولد مع الوالد فنقول : قدرتنا الحسبة خمس مراتب ، والولد الحسبة بالرتبتين الأولىين وهما : التعريف ثم الوعد والتصحيح باللفظ . وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الولد وسخطه ؟ هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلا عوده ويريق خمره ويعمل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته في المال الحرام الذي غصبه وأسرقة أو أخذه عن إدراج رزق من ضريبة المصلين . إذا كان صاحبه معينا ويطلب الصور المنقوشة على حيطاته والمنقورة في خشب بيته ويكسر أواني الذهب والفضة ؟ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب مفتوه حبه الباطل والحرام . والأظهر في القياس أنه ثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط . فإين كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يستغضب فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريبا والسخط شديدا كما لو كانت له آتية من بلور أو زجاج على صورة حيوان وفي كسرهما خسران مال كثير ، فهذا ما يشتد فيه الغضب وليس يجرى هذه المعصية بجرى الخمر وغيره فهذا كله مجال النظر .

فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص ؟ وأما النهي عن التأفيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات ؟ فنقول : قد ورد في حق الأب على الخصوص ماوجب الاستثناء من العموم إذ لاخلاف في أن الجلاذ ليس له أن يقتل أباه في الزنا حدا ، ولأنه أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه في مقابله .

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع (١) فإذا لم يجوز له إيذاؤه بمقوبة هي حق على جناية سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بمقوبة هي منح من جناية مستقبلة متوقفة بل أولى . وهذا الترتيب أيضا ينبغي أن يجري في العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قرينان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك العبد أو ملك النكاح . ولكن في الحر أنه « لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » (٢) وهذا يدل على تأكيد الحق أيضا . وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والتصحيح : فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن المجرم على أخذ الأموال من خزائنه وردعا إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آتية الخمر في بيته يكاد يفضي إلى خرق هيئته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهي عنه كما ورد النهي عن السكوت على المنكر (٣) فقد تعارض فيه أيضا عندوران الأمر فيه موكل إلى اجتهد مشؤوه النظر في تقاضح المنكر ومقدار

(١) الأخبار الواردة : في الجلاذ ليس له أن يجذ أباه في الزنا ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزمه قصاص ، ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت : لم أجد فيه إلا حديث « لا يباشر الوالد بالولد » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي فيه اضطراب .

(٢) « لو جاز السجود لمخلوق لأمرت للمرأة أن تسجد لزوجها » تقدم في النكاح

(٣) حديث النهي عن الإنكار على السلطان جرة بحيث لا يؤدي إلى خرق هيئته . أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عياض بن غنم الأشعري : من كانت عنده نصيحة لدى سلطان فلا يكلمه بها علانية ولا يأخذه بيده فيخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي عليه والذي له . قال الترمذي صحيح الإسناد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكره « من أهان سلطان الله في الأرض أهان الله في الأرض » .

ما يستقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك بما لا يمكن ضبطه . وأما التليذ والأستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ولا حرمة لعلمه لا يعمل لله أن يعامله بموجب عليه الذي تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده فقال : يظنه مالم يفضب فإن غضب سكنت عنه .

الشرط الخامس : كونه قادراً ؛ ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حصة إلا بقله إذ كل من أحب الله يكره معاصيه ويتركها . وقال ابن مسعود رضي الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فافعلوا .

واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على السجور الحسى بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروها بئانه فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكروها ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليفتت إلى معنيين ؛ أحدهما : عدم إفادة الإنكار امتناعاً ، والآخر : خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال :

(أحدهما) أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة ، بل ربما تحرم في بعض المواضع . نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويمتثل في يده حتى لا يشاهد ولا يخرج إلى الحاجة مهمة أو واجب ولا يلزمه مفارقة تلك البقعة والمهجرة إلا إذا كان يرقى إلى الفساد أو يحصل على مساعدة السلاطين في الظلم والمكدرات ؛ فتلزمه الهجرة إن قدر عليها فإن الإكراه لا يكون عنفاً في حق من يقدر على الحرب من الإكراه .

(الحالة الثانية) أن يقتضي المعنيان جميعاً بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه ليجب عليه الإنكار وعنده من القدرة المطلقة .

(الحالة الثالثة) أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها ولكن تستحب لإظهار شماتة الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين .

(الحالة الرابعة) عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرى رجاسة الفاسق بمجرد فيكبرها ، ويرى الخمر ، أو يضرب السوء الذي في يده ضربة مختلفة فيكسره في الحال ، ويتصل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه ، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب .

وبدل عليه الخبر الذي أورده في فصل « كلمة حتى عند إمام جائر » ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف . وبدل عليه أيضاً ما روى عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلقت أني أقتل ، ولم يمتنع القتل ولكن كان في ملا من الناس غففت أن يعتريني التزين للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل .

فإن قيل : فامعنى قوة تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ؟

قلنا : لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى ؛ أى من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب على . وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك . وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحسبة ، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفاح كالأعمى طرح

نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام ودخل تحت عموم آية النهي . وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكره قلوب الكفار بمشاهدتهم جرائمه واعتقادهم في سائر المسلمين فله المبالاة وحجم الكهانة في سبيل الله فتكسر بذلك شوكتهم ؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب أن يعرض نفسه للضرب والقتل إذا كان لحسبه تأثير في رفع المنكر أو في كسر جهه الفاسق أو في تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى قاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القندح وضرب رقبته فهذا مما لا يرى الحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك . فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثرًا ويندبه بنفسه ، فأما تعرض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حراماً . وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لقطعه قائمة ؛ وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه . فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقاءه فلا يجوز له الحسبة بل تحرم لأنه يجز عن دفع المنكر إلا بأن يفرض ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة على شيء . بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سبباً لمتكر آخر ، يعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر ؛ لأن المقصود عدم مفاكر الشرع مطلقاً لا من زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال - نجس بسبب وقوع نجاسة فيه - وعلم أنه لو أراه لشرب صاحبه آخر أو تقرب أولاده آخر لإعوازم الشراب الحلال فلا معنى لإزاحة ذلك . ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً للمتنكر . وأما شرب الخمر فهو المعلوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون . وليس بعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تقتضي إليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنساناً وأكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرفة بجملة على أخذ ماله فذلك له وجه . فهذه دقائق وأمة في محل الاجتهاد . وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذا الدقائق نقول : المأمى ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات الملوثة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما ما يميل كونه معصية بالإشافة إلى ما يظلم به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالمأمى إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالي ، إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانته فيؤدي ذلك إلى وجوه من الخلل . وسيأتى كشف النطاء عن ذلك إن شاء الله .

فإن قيل : وحيث أطلقت العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تقيد بحسبه ، فهو كأن بدل العلم فأحكمه ؟ قلنا : الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجع العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في مواضع آخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد ، فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروها فقد اختلفوا في وجوبه ، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجهه متوقفة ، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال . ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه إما بالإجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد لمعين بل للمأمور ، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه ، فأما إذا لم يكن بأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب .

فإن قيل : فالمكروه الذي توقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بنائب الظن ولكن كان مشكوكاً فيه ، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمل أن يصاب بمكروه فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه ؟ قلنا : إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وإن غلب أنه لا يصاب وجب . وبمجرد ذلك لا يسقط الوجوب فإن ذلك

ممكن في كل حسبة ، وإن شك فيه من غير وجهان فهذا عمل النظر ، فيحمل أن يقال : الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه ، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقفاً ، وهذا هو الأظهر . ويحمل أن يقال : إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه والأول أصح نظراً إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف .

فإن قيل : فالترفع للمكروه يختلف بالجهن والجراءة فالجهن الضعيف القلب يرى البعيد قريباً حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما يحمل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التحويل ؟ .

قلنا : التحويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجهن مرض وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتقريط ، والتور إفراط في القوة وخروج عن الاعتدال بإيادة وكلاهما نقصان ، وإنما السكال في الاعتدال الذي يبر عنه بالشجاعة . وكل واحد من الجهن والتور تارة عن نقصان العقل ، وتارة عن خلل في المزاج بتقريط أو إفراط ، ومن اعتدل مزاجه في صفة الجهن والجراءة فقد لا يظعن للمدارك الشر فيكون سبب جراته جهله ، وقد لا يظعن للمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله . وقد يكون علماً بحكم التجربة والممارسة بمدخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد في تحذيره وتحليل قوته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يظلمه الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع . فلا تنفصت إلى الطرفين .

وعلى الجبان أن يتكاف إزاة الجهن بإياداه ملته وعلة جهل أو ضعف ، ويولو الجهل بالتجربة ، ويرولو الضعف بممارسة الفعل المخوف عنه تكلفاً حتى يصير معتاداً ، إذ المبتدئ في المناظرة والوسط مثلاً قد يجهن عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فارتفع الضعف ، فإن صار ذلك ضرورياً غير قابل بحكم استيلاء الضعف على القلب لحكم ذلك الضعف يتبع حاله فيمنركا بمنزلة المريض في التعاقد عن بعض الواجبات ، ولذلك قد نقول على رأى : لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجهن في ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه منه تفكك الأمر في وجوب الحسبة .

فإن قيل : فالمكروه المتوقع واحد ، فإن الإنسان قد يكره مكلة وقد يكره مضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالنفية ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسمى به إلى سلطان أو يقدح فيه مجلس يتعذر بقدره فيه ، حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟ . قلنا : هذا أيضاً فيه نظر فاعض صورته منتشرة وبجاريه كثيرة ، ولكننا نمجده في ضم نشره وحصر أقسامه .

فنقول : المكروه يقبض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما في النفس فالعلم . وأما في البدن فالصحة والسلامة . وأما في المال فالثروة . وأما في قلوب الناس فقيام الجاه : فإذا المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه . ومعنى الجاه ملك قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كأن ملك الدوام وسيلة إلى بلوغ الأغراض . وسيأتي تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربيع المهلكات . وكل واحد من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به . ويكره في هذه الأربعة أمران : زوال ما هو حاصل موجود . والآخر : امتناع ما هو منتظر ، مفقود ؛ أعنى انقضاء ما يتوقع وجوده فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله أو تمويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه حاصل وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله ؛ فرجع المكروه إلى قسمين ؛ أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا لا يبنى أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً .

ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة : أما العلم : فثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذة خوفاً من أن يفتج حاله عنده فيستمتع من تعليمه . وأما الصحة : فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً وهو لا يس حرراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتشتع بسببه صحتة المنتظرة . وأما المال : فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله خيفة من أن يقطع إدارته في المستقبل ويترك مواصلاته . وأما الجاه : فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجهها في المستقبل خيفة من أن لا يحصل له الجاه أو خيفة من أن يفتج حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية .

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت ، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجاز . وإنما الضرر الحقيقي قوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فوائده محذور يرد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب وينظم أن في تأخره شدة التعان به وطول المرض وقد يقضى إلى الموت . وأحقى بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة .

وأما في العلم فقل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره . وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه ليكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله ، فإذا الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولا يبعد أن يرجح أحدهما ويخلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتخلقه بمهمات الدين .

وأما في المال فمكن يجوز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس في التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه واقترع في تحصيله إلى طلب إدار حرام أو مات جوعاً ، فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت .

وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر ، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيستمتع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير . فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثنائها ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب حتى يستفيق فيها قلبه ، ويزن أحد المحذورات بالآخر ، ويرجع بنظر الدين لا بمرجع الهوى والطبع ، فإن رجع بموجب الدين سمى سكوته مداراة ، وإن رجع بموجب الهوى سمى سكوته مداهنة . وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير ، لحق على كل متدين فيه أن يراغب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعته وصارفه أنه الدين أو الهوى ، ويستجد كل نفس ماعملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في قلعة خاطر أو قلعة ناظر من غير ظلم وجور فإنا الله بظلام للعبيد .

وأما القسم الثاني ، وهو قوات الحاصل : فهو مكروه وممتنع في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فوائده غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره . وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبداً . وأما الصحة والسلامة فقواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك - كما سبق - وإذا فهم هذا في الإيلاء بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه ، فهذا أيضاً يستعمل عنه الوجوب ويقت

الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدى دينه بدينه ولكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكثر به كالجبة في المال واللطمة الخفيف ألها في الضرب وحد في الكثرة يمين اعتباره ووسط يقع في محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد ويرجع جانب الدين ما أمكن .

وأما الجاه فقواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو يسب على ملا من الناس أو يطرح متديله في رقبته ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم البدن وهو قاذح في الجاه ومؤلم القلب ، وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به في البلد حاسرا حافيا فهذا يرخس له في السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع ، وهذا مؤلم القلب لما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات درهمات قليلة فهذه درجة ، الثانية : ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة ، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للتيول ، فلو علم أنه لو احتسب لسكف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها ، أو كلف المشي واجلا وعادة الركوب ، فهذا من جملة المزايا ، وليست المواظبة على حفظها عمدة ، وحفظ المروءة محمود فلا يبنى أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر ، وفي معنى هذا ما لو خاف أن يتعرض له بالسان إما في حضرته بالتجمل والتحقيق والنسبة إلى الرياء والبهتان ، وإما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس لها كبير حاجة ، ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتيال فاسق أو شتمه وتمنيته أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن الحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المتعاقب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فحرم هذه الحسبة لأنها بسبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية في حق المتعاقب ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار .

وقد دلت العمومات على تأكيد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرهما فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له . وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكاه في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه لأن تأذبه بأمر نفسه أشد من تأذبه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يساغ في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره ، فإذا ينبغي أن يتمتع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية بالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر ، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إثناء فليس أيضا وليس له ذلك إلا برضا ، فإذا كان يؤدي ذلك إلى أدنى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يحاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطتهم . فإذا كان يتدنى الأدنى من حسبه إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إثناء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور ، نعم إن كان لا يتألمهم أدنى في مال أو نفس ولكن يتألمهم الأدنى بالثمة والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاخضا ودرجات الكلام المحذور في نكاية في القلب وقسح في العرض .

فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يتمتع عنه إلا بقتال وبما يؤدي إلى قتله فهل يقال عليه؟ فإن قلم : يقال ؛ فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا ؟

قلنا : بمنته عنه ويقاطه إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الفرض حمى سبيل المنكر والمعصية ، وقته في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية ، وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز لأعلى معنى

أنا قدنى درهمان مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي .

فإن قيل : فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن تقتله في الحال حسب باب المعصية ؟ قلنا : ذلك لا يملك بقتلنا ولا يجوز سفك دمه بدم معصية ولكننا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعتنا ، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه .

فاذاً المعصية لها ثلاثة أحوال :

(إحداهما) أن تكون متصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاية لا إلى الأحاد .

(الثانية) أن تكون المعصية راحة وتواصها مباشر لها كلبس الحرير وإسكاه العود والخمر ، فابطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم يؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلاً ، وذلك يثبت للأحاد والرعية .

(الثالثة) أن يكون المنكر متوقفاً كالذي يستند بكفس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر ويهدد لمحضّر الخمر ؛ فهذا مشكوك فيه إذ ربما يبرق عنه عائق فلا يثبت للأحاد سلطته على المأمور على الشرب إلا بطريق الوضوح والنصح ؛ فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للأحاد ولا السلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علت منه بالعامة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤذي إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار . وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إلىهن عند الدخول والخروج ، فانهم وإن لم يضيقوا الطريق لسمعت فتجود الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية ، وإن كان مقصد المعاصي وراه كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية ونفى بالمظنة ما يضر الإنسان به لوقوع المعصية غالباً بحيث لا يقدر على الانكشاف عنها . فإذا هو على التحقيق حسبة على معصية راحة متنترة .

الركن الثاني للحسبة : مافيه الحسبة

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر المحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهد فهذه أربعة شروط فلتبحث عنها :

الأول : كونه منكراً ؛ ونفى به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يزن بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه ، وليس ذلك لتفاحش صورة القمل وظهوره بين الناس بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه ، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لا تعصى بها محال ، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تنحصر الحسبة بالكبائر ، بل كشف المودة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبية كل ذلك من الصفات ويجب النهي عنها وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة .

الشرط الثاني : أن يكون موجود في الحال وهو احتراز أيضاً عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الأحاد وقد اقترض المنكر واحتراز عما سيوجد في حاله ، كمن يمل بقرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليك فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجر وعظه أيضاً فإن فيه إساءة ظن بالمسلم

وربما صدق في قوله وربما لا يهتم عليه لما في ، وليتبه الدقيقه التي ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء وما يجري مجراه .

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا المحتسب بنهر نجس ، فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابها لا يجوز أن يجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه ، وقصة عمر وعبد الرحمن بن عوف فيه مشهورة — وقد أوردناها في كتاب آداب الصلوة — وكذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه تسقى دار رجل فراه على حاله مكروهة فأمنكر عليه فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه : فقال وما هي ؟ فقال قد قال تعالى (ولا تجسسوا) وقد تجسست ، وقال تعالى (وأتوا البيوت من أزواجها) وقد تسورت من السطح وقال (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلوا على أهلها) وما سلت ، فركبه عمر وشرط عليه التوبة . ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو المتبر وسألم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضي الله عنه بأن ذلك منوطٌ بديلين فلا يكفي فيه واحد ، وقد أوردته هذه الاختيار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصلوة فلا نعيدنا .

فإن قلت : فإحد الظهور والاستتار ؟

فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر محيطاته فلا يجوز الدخول عليه بنهر . إذنه لثعرف المعصية إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كالمواخير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار ، فمن سمع ذلك لله دخول الدار وكسر الملاهي وكذا إذا ارتفعت أصوات الكلوي بالكلية المألوفة بينهم بحيث يسمعون أهل السوراج فهذا إظهار موجب للصحة . فإذا نجا يدرك مع تغطيل الحيطان صوت أو رائحة ، فإن احتمل أن يكون ذلك من الخور المحترمة فلا يجوز قصصها بالإقامة ، وإن علم بقرينة الحال أنها قاحت لتعاليم العرب فهذا عتمل . والظاهر جواز الحبة ، وقد تستر قابرة الخمر في الكم وتحت الذيل وكذلك الملاهي فإذا رأى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجوز أن يكشف عنه ما ظهر بعلامة خاصة ، فإن فسقه لا يبدل على أن الذي معه خمر ، إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره ، فلا يجوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لا أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء بما تكسر ، وإن كانت الرائحة فهذا على النظر . والظاهر أنه لا الاحتساب لأن هذه علامة تنبيه للنظر كالم في أمثال هذه الأمور وكذلك المود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب السائر له رقيقا . فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالة فهو غير مستور بل هو مكشوف . وقد أمرنا بأن نستر ما ستر الله ونكر على من أبدى لنا صفته ، والإبداء له درجات فارة يبدو لنا بحاسة السمع ، وفارة بحاسة الشم ، وفارة بحاسة البصر . وفارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم ، وهذه الحواس أيضا تنبيه العلم ، فإذا نجا يجوز أن يكسر ما تحت الثوب إذا علم أنه خمر ، وليس له أن يقول : أرى لأعلم مافيه ؛ فإن هذا تجسس ، ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة فالأمارات المعرفة إن حصلت وأوردت المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الأمارات المعرفة فلا رخصة فيه أصلا .

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكرا معلوما بنهر اجتهد فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حبة فيه . فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبج ومتروك التسمية ، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه التينيد الذي ليس بمسكر وتناول ميوث فوى الأرحام وجلسه في دار أخفها بشفحة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد .

نعم لو رأى الشافعي شافعيًا يشرب التينيد ويشكح بلال ويطلق زوجته فهذا في محل النظر والأظهر أنه له الحبة والإنكار إذ لم ينهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاده غيره ، ولا أن الذي أدى

اجتهاده في التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيبها عنده ، بل على كل مقلد اتباع مقلده في كل تفصيل ، فاذن مخالفة للعقل متفق على كونه منكرا بين المحصلين وهو حاص بالمخالفة ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغضض منه ، وهو أنه يجوز الحنفى أن يترضى على الشافعى إذا نكح بغير ولي بأن يقول له : الفعل فى نفسه حق ولكن لافى حثك فأنت ميطل بالإقدام عليه مع اعتقادهم أن الصواب مذهب الشافعى ، ومخالفة ما هو صواب عندك معصية فى حثك وإن كانت صوابا عند الله .

وكذلك الشافعى يحسب على الحنفى إذا شاركه فى أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له : إما أن تعتمد أن الشافعى أولى بالاتباع ثم تقدم عليه ، أولا تعتمد ذلك فلا تقدم عليه ، لأن على خلاف معتقدك . ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجمع الأصم مثلا امرأة على قصد الزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأة زوجته إياها فى صغره ، ولكنه ليس يدرى وعجز عن تعريفه ذلك لضممه أو لكونه غير عارف ببلته ، فهربى الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية حاص ومعاقب عليه فى الدار الآخرة . فينبغى أن يمنعه عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال فى علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلظه وجهله .

ولاشك فى أنه لو علم زوجته على صفة فى قلب المحتسب مثلا من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة فى قلبه عجز عن تعريف الزوجين ذلك . ولكن علم وقوع الطلاق فى الباطل فإذا رآه يجامعها فعليه المنع - أعنى باللسان - لأن ذلك زنا إلا أن الزانى غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طلقت منه ثلاثا ، وكونهما غير حاصيين لجهلها بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكرا ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه . فإذا كان يمنع عما هو منكرك عند الله وإن لم يكن منكرا عند الفاعل ولا هو حاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكرك عند الفاعل لجهله لا يمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله . فنحصل من هذا أن الحنفى لا يعترض على الشافعى فى النكاح بلاولى ، وأن الشافعى يترضى على الشافعى فيه لكون المترضى عليه منكرا بافئاق المحتسب والمحتسب عليه ، وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتالات فيها متعارضة ، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجع عندنا فى الحال . ولستأقطع بخطأ ترجيع المخالف فيها إن رأى أنه لايجرى الاحتساب إلا فى معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا : لاحسبة إلا فى مثل الخمر والخزير وما يقطع بكونه حراما ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد ، إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد فى القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب . ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير ممتد به ولله لا يصح ضغاب ذاهب إليه أصلا ، فهذا مذهب لا يثبت وإن ثبت فلا يعتد به .

فإن قلت : إذ كان لا يعترض على الحنفى فى النكاح بلاولى لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لا يعترض على المعتزل فى قوله : إن الله لا يرى ، وقوله : وإن الخير من الله والشر ليس من الله ، وقوله : كلام الله مخلوق ، ولا على الحشوى فى قوله : إن الله تعالى جسم ولصورته وإنه مستقر على العرش ؟ بل لا ينبغى أن يعترض على الفلسفى فى قوله : الأجساد لا تيمت وإنما تيمت النفوس . لأن هؤلاء أيضا أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضا ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزل ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كسأله النكاح بلاولى ومسألة شفاعة الجوار ونظائرهما .

إلى ما يمتنع أن يقال فيه : كل مجتهد مصيب . وهي أحكام الأفعال في الحل والحرمه وذلك هو الذي لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خلوهم قطاً بل ظناً ، وإلى مالا يتصور أن يكون المصيب فيه إلا واحد كسأله الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفي الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا ما يعلم خطأ الخطأ فيه قطعاً ولا يبقى للخطأ الذي هو جهل محض وجه . فإن البدع كلها ينبغي أن تحسم أبوابها وتترك على المتبدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد .

فإن قلت : فهما اعترضتا على القدرى في قوله : الشر ليس من الله ، اعترض عليك القدرى أيضا في قوله : الشر من الله ، وكذلك في قوله : إن الله يرى ، وفي سائر المسائل ، إذ المتبدع حق عند نفسه ، والحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه حق ويشكر كونه مبتدعا . فكيف يتم الاحتساب .

فاعلم أنا لأجل هذا العارض نقول : ينظر إلى البلدة التي فيها أظهرت تلك البدعة ؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة ففهم الحسبة عليه بغير إذن سلطان ، وإن اتسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان في الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للأحاد الحسبة في المذاهب إلا ينصب السultan . فإذا رأى السلطان الرأي الحق ونصره وأذن لو أحد أن يجر المبتدعة عن إظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره . فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الأحاد فيتقابل الأمر فيه . وعلى الجملة فالحسبة في البدعة أهم من الحسبة في كل المنكرات ، ولكن ينبغي أن راعى فيها هذا التفصيل الذي ذكرناه كيلا يتقابل الأمر فيها ولا ينجر إلى تحريك الفتنة . بل لو أذن السلطان مطلقا من منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يرى ، أو أنه مستتر على العرش ماس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الأحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرا ، وأقل ما يمكن في ذلك أن يكون إنسانا ، ولا يشترط كونه مكلفا ؛ إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مجزا إذ بينا أن المجنون لو كان يرى بمجنونة أو يأتى بهيمة لوجب منه منه . نعم من الأفعال مالا يكون منكرا في حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره . ولكننا لسنا نتفتت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضا مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمرضى والصحيح . وشرطنا الإشارة إلى الصفة التي بها يتبين توجع أصل الإنكار عليه لا ما بها يتبين التفاصيل .

فإن قلت : فاكثف بكونه حيوانا ولا تقترط كونه إنسانا ، فإن البهيمة لو كانت تقصد ذرعا لإنسان لكنها تمنعها منه كما تمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة .

فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله ، صيانة للممنوع عن مقارفة الشكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله ، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر . والإنسان إذا ألتف ذرع غيره منع منه لحق ؛ أحدهما : حق الله تعالى فإن فعله معصية ، والثاني : حق الملتف عليه ، فهما علتان تفصل أحدهما عن الأخرى . فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجبت المعصية وسقط حق المجني عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين . والبهيمة إذا ألتفت فقد عمدت المعصية ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين . وفيه دققة وهو أنا لسنا نقصد بانخراج البهيمة ممنع البهيمة بل حفظ مال المسلم ؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء خمر

أو ماء مشوب بخمر لم تمنعها منه ، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقد رنا على حفظه بفقر تعب وجب علينا حفظا للبال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علوة وتمتها قارورة لغيره قد دفع الجرة لحفظ القارورة ، لا لمنع الجرة من السقوط . فانا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخروكذا الصبي ؛ لاصيانة البهيمة المائية أو الخمر المشروب ؛ بل صيانة المجنون عن شرب الخمر وتزويها له من حيث إنه إنسان محترم . فبهذه لطائف دقيقة لا يفتطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها . ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه ظنر ؛ إذ قد يتردد في منهما من لبس الحرير وغير ذلك . وستعرض لما نفير إليه في الباب الثالث .

فان قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان قبل يجب عليه إخراجها ؟ وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه ؟ فان قلتم : إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخر لغيره طول عمره ؟ وإن قلتم لا يجب فله يجب الاحتساب على من ينصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير ؟

فنقول : هذا بحث دقيق غامض . والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان في جاهه ويجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم به هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام ، فان الأدنى في هذا أكثر من الأدنى في ترك رد السلام ، بل لا خلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عنده شهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتان الشهادة في معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لاضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه السعي في ذلك ولكن إذا كان لا يتعب بتنبية صاحب الزرع من نوح أو بإعلامه يلزمه ذلك ، فأما ما يعرفون تنبيهه كإهماله تعريف القاضي بالشهادة ، وذلك لأخصه فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعة في مدة اشتغاله باخراج البهائم إلى قدر درهم مثلا وصاحب الزرع يقوته مال كثير فيترجع جانبه لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل للصبر إلا ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو مصيبة كالنصب أو قتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما ؛ لأن المقصود حق الشرع ، والنرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي . والمعاصي كلها في تركها تعب وإتاما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب . ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المخفورات التي يخافها المحتسب .

وقد اختلف الفقهاء في مستلئين تقربان من غرضنا .

إحدهما : أن الالتقاط هو واجب والقطعة ضائعة ؟ والمتنقط مانع من الضياع وساع في الحفظ ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال : إن كانت القطعة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يرفها ، أو تركها لو كان في مسجد أو رباط يتعين من بدخله وكلهم أمتاء فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت في مضيق ؛ فلهذا ، فان كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك ؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك . وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والمتنقط أيضا إنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب لاجله . فان كانت

التعرف بهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين : فقاتل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تمب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يبرع فيلزم طبقاً للتواب . وقاتل يقول : إن هذا القدر من التنب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ؛ فيقول هذا منزلة تمب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يبرع به ، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التنب بهذه الخطوات لا يبد تمبراً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة . وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأسوح إلى الحضور في المهاجرة وشدة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذي ينال السامع في حفظ حق النهر له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالى به ، ومطرف في السكينة لا يشك في أنه لا يلزم احتياله ، ووسط يتجاذبه الطرفان ويكون أبداً في محل الشبهة والنظر ؛ وهي من الشهات المزمعة التي ليس في مقدور البشر إزالتها ، إذ لأعلة تفرق بين أجزائها المتقاربة ؛ ولكن التقي ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريه إلى مالا يريه فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب . أما الدرجات : فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم الوضو والتنصع ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهي التعرف ؛ ونعني به طلب المعرفة بمرئان المتكر وذلك منهى عنه - وهو التجسس الذي ذكرناه - فلا ينبغي أن يسرق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنق ليندرك رائحة الخمر ، ولا أن يسم مافي ثوبه ليعرف شكل الزمار ، ولا أن يستخير من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمرأ أعدته للشرب ، فله إذاً أن يدخل داره ولا يلزمه الاستئذان ، ويكون تحطى ملكه بالدخول التوصل إلى دفع المتكر ككسر رأسه بالضرب للتمنع منهما احتاج إليه . وإن أخبره عدلان أو عدل واحد - وبالجملة كل من تقبل روايته لأشهادته - فحق جواز الهجوم على داره بقولهم ، فيه نظر وإحتمال ، والأولى أن يتتبع لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ؛ فهذا أولى ما يحصل مردأ فيه . وقد قيل إنه كان نقش عاتق لقمان : السر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت .

الدرجة الثانية : التعريف ؛ فإن المتكر قد يقدم عليه المقدم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالمسواحي وصل ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أن ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولو رضى بأن لا يكون معصياً لترك أصل الصلاة ، فيجب تعريفه بالطرف من غير عنف . وذلك لأن في ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحق ، والتجهيل إيذاء . ولما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لاسيما بالشرع . ولذلك ترى الذي ينطب عليه الغضب كيف يفضب إذا نه على الخطأ والجهل ؛ وكيف يضهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تكشف عورة جهله والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقة ؛ لأن الجهل قبيح في صورة النفس وسواد وجهه ، وصاحبه ملوم عليه ، وقبح السواطين يرجع إلى صورة البدن ، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن . ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقه لم يدخل تحت اختياره حصوله ، ولا في اختياره إزالته وتحسينه . والجهل قبيح يمكن إزالته وتبذيله بحسن العلم ، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله ، ويعظم انتباهه في نفسه بمله (٤٢ - إحياء علوم الدين ٢)

ثم لذته عند ظهور جمال عليه لغيره . وإذا كان التعريف كشفا للعودة مؤذبا فلا بد وأن يسالج دفع أذى بلطف الرق فتقول له : إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمر الصلاة فعلمنا العلماء ، ولعل قرينك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها ، إنما شرط الصلاة للطأينة في الركوع والسجود ، وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إذاء ، فإن إذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور وليس من العقلاء من يفسد الدم بالسم أو بالبول ، ومن اجتلب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الم بالبول على التحقيق . وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترد عليه فإنه يستفيد منك علما ويصير لك عدوا ، إلا إذا علمت أنه يفتن العلم وذلك عري جدا .

الدرجة الثالثة : النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم يكونه منكرا ، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا ، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتصاب المسلمين أو ما يجرى مجراه ، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين ، وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف و غضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفوس واحدة ، وهما آفة عظيمة ينبغي أن يتوقفا فانها مهلكة ، وهي أن العالم يرى - عند التعريف - عو نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ، فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يتعرض عليه؟ ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بأحراق نفسه وهو ماية الجهل ، وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور الشيطان بتدليل محبة كل إنسان إلا عن عرفه الله عيوب نفسه وقبح بصيرته بنور هدايته ، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين ، أحدهما : من جهة دالة العلم ، والآخر : من جهة دالة الاحتكام والسلطنة . وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي ، وله حك ومعيان ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه . فإن كانت الحسبة شاقة عليه فقليلة على نفسه وهو يود أن يكنى بغيره فليحتسب فإن باعثه هو الدين ، وإن كان امتناع ذلك الماوى يوعظه وانذاره بجره أحب إليه من امتناعه يوعظه غيره فما هو الامتنع هوى نفسه ومتوسل لإظهار جهاه نفسه بواسطة حسبه ، فليتنق الله تعالى فيه وليحتسب أولا على نفسه . وعند هذا يقال له ما قيل ليعنى عليه السلام : يا ابن مريم عطف نفسك فإن امتنعت فقط الناس والافاستحي منى . وقيل لداود الطائي رحمه الله : رأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الحشن ، وذلك بعدل إليه عليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام (أف لكم ولما تبيدون من دون الله أفلا تعقلون) ولما نفى بالسب الفحش بما فيه نسيه إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه مالا يده من جملة الفحش ، كقوله : يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله ، وقوله : يا سودى ياغبى وما يجرى هذا الجرى . فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس

يكس فهو أحق ، والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والآخر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) » .

ولهذه الرتبة أدبان أحدهما : أن لا يندم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف والثاني : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يتسرسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ؛ بل يقصر على قدر الحاجة ، فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطبقه ، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكرامة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يسكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يعطب وجهه ويظهر الإنكار له .

الدرجة الخامسة : التنغير باليد ؛ وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر وخلع الحرير من رأسه وعن يديه ومنه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المنصوبة بالجمر يرحله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس المعاصي وجوارحه الباطنة .

وفي هذا الدرجة أدبان ، أحدهما : أن يباشر بيده التغيير مالم يصح عن تكليف المحتسب عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكفه الشيء في الخروج عن الأرض المنصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدهمه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دوزخ ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه ؛ فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفي الاجتهاد فيه وتولاه من لاجر عليه في فعله .

الثاني : أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلبسته في الإخراج ، ولا يرحله إذا قدر على جره بيده ، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحمل دوزخه فقط ، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره التصاري بل يطيل صلاحيتها بقصد الكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداء . وفي إراقة الخمر يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الثوب وتقومه بسبب الخمر إذا صار حائلآيته وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر بيده لكانا قصد يده بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر . فاذن لا تزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه . ولو كان الخمر في قوادر ضيقة الروس ولو اشتغل بارتباطها حال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرهما ، فهذا عذر . وإن كان لا يجد ظرف الفساق به ومنهم ولكن كان يضيع في زمانه وتعتل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة يده وغرضه من أشغاله لأجل ظروف الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكره لزمه الفطن .

فإن قلت : فلا جاز الكسر لأجل الزجر ؟ وهلا جاز الجرم بالرجل في الإخراج عن الأرض المنصوبة ليسكون ذلك مبلغ في الزجر ؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضي ، والدفع على الحاضر الزامن . وليس إلى أحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المتكسر . فإزاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على

(١) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

جريرة سابقة أوزجر عن لاحق ، وذلك إلى الولاة إلى الرغبة . نعم الوالي له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التي فيها الخمور زجرا ، وقد فعل ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيدا للزجر ^(١) ولم يثبت نسخه ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والنظام شديدة . فإذا رأى الوالي باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك ، وإذا كان هذا منوطا بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لأحد الرعية

فإن قلت : فليجز السلطان زجر الناس عن المعاصي بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي ؟ فأعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجا عن سنن المصالح ، ولكن لا يتعد المصالح بل تنبع فيها ، وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة ، وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا بل الحكم يزول بزوال الملة ويعود بمودها ، وإنما يجوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومننا آحاد الرعية منه لخفاء وجه الاجتهاد فيه . بل نقول لو أدبقت الخمور أولا فلا يجوز كسر الأواني بعدها وإنما جاز كسرها تبعا للخمر ، فإذا خلت عنها فخر إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لاتصلح إلا لها .

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقرونا بمعتين ، أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التي هي مشنونة بها . وهما معنيان مؤثران لاسيما لاحتلها . ومعنى ثالث : وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعله بشدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضا مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه . فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب إلى محالة إلى معرفتها .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ، كقولك عنك هذا أولا كسرنا رأسك أولا ضربين وقتك أو لأمرن بك وما أشبه ، وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدد بعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهن دارك أو لأضربن ولك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب . نعم إذا تعرض لوعيد بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه . وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة في مثل ذلك متادة وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين ، وذلك عما قد رخص فيه الحاجة وهذا في معناه . فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص . وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف في الوعيد كرم . وإنما يقبح أن يمد بما لا لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا في حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف في الوعيد ليس بمحرم .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للأحد بشرط الضرورة والاقصار على قدر الحاجة في الدفع ، فإذا اندفع المتكر فبني أن يكف . والقاضي يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالجس ، فإن أصر المحبوس وعلم القاضي قدرته على أداء الحق وكونه معاندا فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدرج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب بראى التدرج ، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المتكر بشهر السلاح وبالحرج فله أن يتعاطى ذلك ما لم يثر فتنة ، كالأقبض فاسق مثلاعلى امرأة أو كان بضرب بمزمار

(١) حديث : تكسير الظروف التي فيها الخمر في زمنه صلى الله عليه وسلم . أخرجه الترمذي من حديث أبي طلحة أنه قال : يا بني الله إني اشتريت خرا لثيام في حجري قال هرق الخمر واكسر الدنان هو فيه ليث بن أبي سليم والأصح رواية السدي عن يحيى بن عباد عن أنس أن أبا طلحة كان عنده قاله الترمذي .

معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لارميئك . فإن لم يخل عنها فله أن يرى وينبئ أن لا يقصد القتل بل الساق والفتخ وما أشبهه يراعى فيه التدريج ، وكذلك يسل سيفه ويقول أترك هذا الشكر أو لأضربك ، فكل ذلك دفع المنكر ودفعه واجب فكل ممكن ، ولا فرق في ذلك بين ما يتعق بنفسه حتى الله وما يتعق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حصة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا للأحاد .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح ، وربما يستعد الناسق أيضا بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا ، فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل أحاد الرعية بذلك لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن - وهو الآئیس - لأنه إذا جاز للأحاد الأمر بالمعروف وأوكل درجاته بغير إذن ثوان والثواني إلى ثوالت ، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف . ومتناه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه ، ونحن نجزز للأحاد من الغزاة أن يجمعوا ويقاوموا من أرادوا من فرق الكفار قسما لأهل الكفر ، فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله ، والمسلم إن قتل فهو شهيد ، فكذلك العاسق المتماثل عن فسقه لا بأس بقتله ، والمحتسب الحق إن قتل مظلوما فهو شهيد ، وعلى الجهة فانتهاء الأمر إلى هذا من التواضع في الحسبة ، فلا ينهيه به قانون القياس ، بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبأعوانه . فالمسألة إذا عتمة - كما ذكرناه - فلهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق .

باب آداب المحتسب

وقد ذكرنا تفاصيل الآداب في أحاد الدرجات . ونذكر الآن جملا ومصادرها فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب : العلم ، والورع ، وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاورها وموانعها ليقصر على حد الشرع فيه .

والورع : ليردعه عن مخالفة معلومة فاكل علم عمل ببله ، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المسمون فيه شرعا ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وليسكن كلامه ووعظه مقبولا لأن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جرأة عليه .

وأما حسن الخلق : فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه ، والعلم والورع لا يكفيان فيه ، فإن الغضب إذا حاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمع ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب ، وبه يصبر المحتسب على ما أساب في دين الله وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات ، وإن قدت لم يتدفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا مشكورة لمجاوزة حد الشرع فيها ، ودخل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رقيق فيما يأمر به رقيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه

فما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه (١) وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم ، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكنت من أخذ الناس به وإلا هلكك وقد قيل :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأنت مثله فانما يذرى على عقله

ولسنا نمنى بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس ، فقد روى عن أنس رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله لأنأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نتجنبه كله . فقال صلى الله عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانتهوا عن المنكر وإن لم تجنبوه كله (٢) وأوصى بعض السلف بنبيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالتواب من الله فمن وثق بالتواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذا من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر ، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف . فقال حاكيا عن لقمان (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك) .

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وطمع الطمع عن الخلاق حتى تزلزل عنه المداهنة فقد روى عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من اللغد لسنوره فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب : لا أعطيتك بهذا شيئا سنورك ، فقال : ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك ، وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه معلقة لم تيسر له الحسبة . قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال : حسنة . قال : إن الثروة تقول : إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه . فقال أبو مسلم : صدقت الثروة وكذب أبو مسلم .

ويدل على وجوب الرق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال : يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) فليكن اقتداء الخسب في الرق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد روى أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عليه وعلى آله وسلم فقال : يا بني الله أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فريده ، إذن » فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي عليه الصلاة والسلام « أحبه لأهلك ؟ » فقال لا ، جعلني الله فداك ، قال « كذلك الناس لا يحبون لأهلهم ، أحبه لا يبتك ؟ » قال لا ، جعلني الله فداك ، قال « كذلك الناس لا يحبون لبناتهم أحبه لا تخشك ؟ » (٣) وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والحالة وهو يقول في كل واحد : لا ،

- (١) « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه ... » لم أجده هكذا وللبقي في الشعب من رواية عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .
(٢) حديث أنس : قلنا يا رسول الله لأنأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نتجنبه كله ، قال ﷺ « بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانتهوا عن المنكر وإن لم تجنبوه كله » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه .
(٣) حديث أبي أمامة : أن شابا قال : يا رسول الله أئذن لي في الزنا فصاح الناس به ... » رواه أحمد بإسناد جيد ورحله رجال الصحيح .

جعلني الله فداك . وهو صلى الله عليه وسلم يقول « كذلك الناس لا يحبونه » وقالوا جميعا في حديثهما أعني ابن عوف والراوى الآخر فوضع صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحسن فرجه » . قلم يكن شيء أبغض إليه منه يعنى من الزنا .

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل : ما أخذ منهم لإدوين حقه ، ثم خلا به وعذله ووجهه فقال سفيان : يا أبا علي إن لم تكن من الصالحين فأنا أحب الصالحين ، وقال حماد ابن سلمة : إن صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة ، فقال : دعوني أنا أكفيكم . فقال : يا ابن أشيم إن لي إليك حاجة قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحب أن ترفع من إزارك ، فقال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبد الله بن محمد بن عاتقة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يزيد منزله . وإذا في طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستنافت فاجتمع الناس عليه يضربونه ، فنظر إليه ابن عاتقة فرغه فقال للناس : تنهوا عن ابن أشيم . ثم قال : إلى يا ابن أشيم ؟ فاستحي الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معي ، ففضي معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلبانه : يته عندك فإذا أطاق من سكره فأعله بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به ، فلما أطاق ذكر له ماجرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتية ، فأدخله عليه فقال له : أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ذلك ؟ فأتى الله وابزع عما أنت فيه . فيبكي الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : طاعت الله تعالى عبدا يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعوذ لشرب التبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا نائب ، فقال : أدن مني ، فقبل رأسه وقال : أحسنت يا بني فبكل الغلام بعد ذلك يلومه ويكتب عنه الحديث ، وكان ذلك بركة رفته ثم قال : إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكونون معروفيهم منكرا فليعلمكم بالرفق في جميع أموركم تتألون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شحرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها ويده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن . فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح في يدها من بشر بن الحرث فدنا منه وحك كنفه بكف الرجل فوقع الرجل على الأرض ؛ ومشي بشر فدنا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسأله ماحكها ؛ فقال : ما أدرى أولئك حاكي شيخ وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل ، فضجعت لقوله فسمي وبهته هيبة شديدة ولا أدرى من ذلك الرجل ؛ فقالوا له : هو بشر بن الحرث ، فقال . واسأناه كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟ وحمل الرجل من يومه ومات يوم السابع ؛ فهكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة . وقد نقلنا فيها أنارا وأخبارا في باب الينص في الله والجب في الله من كتاب الحسبة فلا تطول بالإعادة فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وأدائها والله الموفق بكرموا الله على جميع نعمه .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة في العادات

فقد شير إلى جل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها

فن ذلك منكرات المساجد

اعلم أن للشكرات تنقسم إلى مكرومة وإلى محظورة ، فإذا قلنا : هنا منكر مكروه . فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بجرام ؛ إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم في الشرع

يجب تبليغه إلى من لا يعرفه . وإذا قلنا منكراً محظوراً ، أو قلنا منكراً مطلقاً ، فتريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً .

فما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكراً مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب التنبه عنه إلا عند الحنفى الذى يعتمد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع التنبه معه . ومن رأى شيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه هكذا ورد به الأثر . وفى الخبر ما يدل عليه ، إذ ورد فى الغيبة أن المستمع شريك القائل (١) وكذلك كل ما يندفع فى صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عوى فكل ذلك توجب الحسبة فيه .

ومنها قراءة القرآن بالحنن يجب التنبه عنه ويجب تلقين الصحيح . فإن كان المعتكف فى المسجد يضيع أكثر أوقاته فى أمثال ذلك ويستغل به عن الطلوع والذكر فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض وهو قربة تمتدى فائتها ، فهو أفضل من نافلة تقتصر عليه فائتها . وإن كان ذلك بمنه عن الورقة مثلاً أو عن السكسب الذى هو علمته ، فإن كان معه مقدار كفافه لزمه الاشتغال بذلك ولم يجز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى السكسب لقوت يومه فهو عند له فيسقط الوجوب عنه لجزءه . والذى يكثر اللحن فى القرآن إن كان قادراً على التعلم فليستع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر ما يقرؤه لحناً فليركه وليجهد فى تعلم القائحة وتصحيحها ، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ . ولكن ينبغى أن يخفف به الصوت حتى لا يسمع غيره . ولتمه سراً منه أيضاً وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له انس بالقراءة وحرس عليها فليست أرى به بأساً والله أعلم .

ومنها ترأس المؤذنين فى الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صواب التلقين بجميع الصدر فى الجمعتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات . فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريضها صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها . وكذلك إذا كان للسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغى أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يمول على أذانه فى صلاة وترك سجود ، أو كان معه مؤذن مع الصبح .

ومن المكروهات أيضاً تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر فى مسجد واحد فى أوقات متعاقبة ، إما من واحد أو جماعة ، فإنه لافائدة فيه ، إذ لم يبق فى المسجد تأم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى يبله غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف .

ومنها أن يكون الخطيب لا يلبس ثوب أسود يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكاً لسيف منذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه ولكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض . ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن مهوداً فى العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغى أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك الأحب .

ومنها كلام التصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وكذا الواظ المبتدع يجب منه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه ؛ إما لكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواله ، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع . قال الله تعالى لئن لم يأتهم حتى يخوضوا في حديث غيره () ومهما كان كلامه مائلا إلى الأرجاء ونجاسة الناس على المعاصي ، وكان الناس يزدادون بكلامه جرأة ويعفوا الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجولهم على خوفهم فهو منكر ، ويجب منه عنه لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجع خوفهم على رجولهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فانهم إلى الخوف أحوج . وإنما العدل تبدل الخوف والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه : لو نادى متاد يوم القيامة ؛ ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا ؛ لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى متاد ؛ ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ؛ لحفت أن أكون ذلك الرجل .

ومهما كان الواظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وحيته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لا ينبغي أن يسلم الواظ إلا لمن ظاهره الورع وحيته السكينة والوقار وزيه زى الصالحين ، وإلا فلا يرداد الناس به إلا تماديا في الضلال . ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن ذلك أيضا مظنة الفساد ، والعادات تشهد لهذه المنكرات . ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة . بن . فقد منعتن عائشة رضي الله عنها فقيل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنتين من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثت بعلمتني (١) . وأما اجتياز المرأة للمسجد مسترة فلا تمنع منه إلا أن الأولى أن لاتخذ المسجد مجازا أصلا . وقراءة القراء بين يدي الوعاظ مع التعديد والألحان على وجه يغير نظم القرآن ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف .

ومنها الخلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعودات ، وكفياهم السؤال وفراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجرى مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تليسا وكذبا ؛ كالكتذايين من طريقة الأطباء وكأهل الشعبية والتليسات . وكذا أبواب التعودات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتليسات على الصبيان والسوداء ، فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه . بل كل بيع فيه كذب وتليس وإغواء عيب على المشتري فهو حرام .

ومنها ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا في المسجد أيضا لا يحرم إلا بمرض وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم ، فإن لم يكن شئ من ذلك فليس بحرام والأول تركه ، ولكن شرط لإباحته أن يجرى في أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه . فن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثرت صار صغيرة . كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لحيف منه أن يتجر إلى الكثير فليمنع منه ، وليسكن هذا المنع إلى المولى أو إلى التيم بمصالح المسجد من قبل الوالي لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للأحاد المنع عما هو مباح في نفسه خوفا أن ذلك يكثر .

(١) حديث عائشة : لو علم النبي ﷺ ما أحدثت - أي النساء - من بعده لمتن للمسجد . متفق عليه .

ومنها دخول المجانين والصبيان والسكران في المسجد ، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكرت على لبيه إلا إذا اتخذ المسجد لعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه . فهذا مما يحمل قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ما روى في الصحيحين « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضى الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفون ويلعبون بالدوق والحراش يوم العيد في المسجد » ولا شك في أن الحبشة لو اغتصوا المسجد لعباً لمحوها منه ، ولم ير ذلك على التندرة والثقة منكراً حتى نظر إليه ، بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتصرم عائشة ظليها لعلها إذا قال « دونكم يا بنى أرقدة » كما نقلناه في كتاب السماع . وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو تلفهم بما هو خش ، أو تعاملهم لما هو مشفر في صورته ككشف المودة وغيره .

وأما المجنون الهاديء الساكن الذي قد علم بالمادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من المسجد . والسكران في معنى المجنون فإن خيف منه القلف - أصى القه - أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه ، وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكروه مكروه شديد الكراهة ، وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل (١) فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد ؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخبر أشد .

فإن قال قائل : ينبغي أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً . قلنا : لا ؛ بل ينبغي التعمد في المسجد ويدعى إليه ويؤمر بترك الشربهما كان في الحال عاقلاً ؛ فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلا الأحكام بل هو إلى الولاية . وذلك عند إقراره أو شهادته شاهدان ، فأما مجرد الرائحة فلا . نعم إذا كان يخشى بين الناس متابلاً بحيث يحرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد مثلاً عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستتراً عفيماً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه . والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس في موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغي أن يعول عليه .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة ، وإخفاء العيب . فن قال : اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأرجع فيها كنذا وكان كاذباً فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يجزم المشتري بكذبه ، فإن سكت سرعاً لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيباً فيلزم أن ينبه عليه وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام . وكذا التفاوت في التراجع والمكيل والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو دفعه إلى الزلل حتى يغيره .

ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة . ولكن ذلك في عمل الاجتهاد فلا يشكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فانها مفسدة للعتود . وكذا في الرويات كلها وهي غالبية . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملامى وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان فتلك يجب كرمها والتمنع من بيعها كالملاهي . وكذلك بيع الآواني المتخذة من النعش والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلائد

(١) هذا الحديث لم يخرج في العراق وقد أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

الذهب والحديد أعتى التي لاتصلح إلا للرجال ، أو يعلم بمادة البدأ أنه لا يليه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور . وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبنقة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتدائها ويرغم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب . وكذلك تلبس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدي إلى الاتيس . وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبسات وذلك بطول إحساؤه . فليقتصر بما ذكرناه مما لم نذكره .

منكرات الشوارع

فن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء النكات متصلة بالأبنية المملوكة ، وغرس الأشجار ، وإخراج الراشن والأجنحة ، ووضع الخشب وأحمال الجيوب والأطعمة على الطرق ؛ فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستعراذ المارة . وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه . نعم يجوز وضع الخشب وأحمال الأطعمة في الطريق في التندر الذي ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه السكاة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة . والمرعى هو الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدعا ومنها بحيث لا تمرق ، أو أمكن المدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة الثقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالا تليق به منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح النعاب إذا كان يذبح في الطريق خذاه باب الحانوت وبلوث الطريق بالنم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يخذ في مكانه مذبها فإن في ذلك تضيقا بالطريق وإضرارا بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استنقار الطباع للناذورات ، وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق ، وتبديد قصور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يفسد منه التزلق والتشاكل ذلك من المنكرات . وكذلك إرسال الماء من الميازيب المنجزة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب . أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه في الطريق الواسعة إذ المدول عنه ممكن . فامترك مياه المطر والأحوال والتلويج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص بشخص معين ، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذي يجمع على الطريق من ميزاب معين فكل صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، وإن كان من المطر فذلك حسبة عامة فكل الولاية تكليف الناس القيام بها ، وليس للأحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤدي الناس فيجب منعه منه ، وإن كان يؤدي إلى التنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطة ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينالم على الطريق أو يقعد فمودا يضيق الطريق فكلبه أولى بالمنع .

منكرات الحمامات

منها الصورة التي تكون على الحمام أو داخل الحمام يجب إزالته على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لاتصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليجهد إلى حمام آخر ، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ، ويكفيه أن أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها . ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان .

ومنها كشف العورات والنظر إليها . ومن جثتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتحية

الوسخ بل من جعلتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عودة الغير حرام كالنظر إليها .

ومنها الانطباع على الوجه بين يدي الدلاك لتعظيم الأخذ والعجز . فهذا مكروه إن كان مع حائل ، ولكن لا يكون عظورا إذالم يخش من حركة الشهوة . وكذلك كشف العورة للحجاء الذي من الفواحش . فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنيتها للخدمة في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال ؟

ومنها غمس اليد والأواني المتصلة في المياه القليلة ، وغسل الإزار والعلاس والتجس في الخوض وماؤه قليل ؛ فإنه منجس للباء ، إلا على منهب ماله فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية . وإن اجتمع مالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالك من ذلك إلا بطريق الاتماس والطف ؛ وهو أن يقول له : إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ثم نغسما في الماء . وأما أنت فستفني عن إبدائي وتفويت الطهارة علي ، وما يجري مجرى هذا . فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر .

ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلفة يراق عليها الغافلون فهذا منكر ، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحامي إهماله فإنه يفضي إلى السقطة ؛ وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو اختلاعه وكذلك ترك السدر والعابون المراق على أرض الحمام منكر ؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فوالى به إنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحامي ؛ إذسقه تنظيف الحمام . والوجه لإيجاب الضمان على تاركه في اليوم الأول ، وعلى الحامي في اليوم الثاني إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة . والرجوع في موافقت إعادة التنظيف إلى العادات ، فليعتبر بها . وفي الحمام أمور أخرى مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتنظر هناك .

منكرات الضيافة

فنها فرش الحرير للرجال فهو حرام . وكذلك تبخير البخور في بحرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو زجاجها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصور .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات .

ومنها اجتماع النساء على السلطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم فكل ذلك عظور منكر يجب تنميده ، ومن يجز عن تنميده لزمه الخروج ، ومن لم يجزه الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات . وأما الصور التي على الخاق والورابي المفروشة فليس منكرا . وكذلك على الأطباق والقصاص ، لا الأواني المتخلفة على شكل الصور ، فقد تكون رهوس بعض المجامير على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه . وفي المسكحة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها . ومهما كان الطعام حراما أو كان الموضع منصوبا أو كانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور ، إذلا يعل حضور يجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حاله مباشرة للفسق وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بنضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبض في الله ؟ وكذلك إن كان فهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز

الجلوس معه من غير ضرورة، فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر. والصحيح أن ذلك منكر ويجب نزع عنه إن كان ممرا لعموم قوله عليه السلام « هذان حرام على ذكور أمتي ^(١) » وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر - لا لكونه مكلفا ولكن لأنه يأثم به فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه فكذلك شهوة الزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا الفساد يند في صدره ؛ فثبت منه شجرة من الشهوة واسعة يصر قلعها بعد البلوغ .

أما الصبي الذي لا يميز فيضعف معنى التحريم فيحقه ولا يحظر عن احتيال والعلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز . نعم يحل الزين بالذهب والحرير للنساء من غير إصراف . ولا يرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب لقتصاص فلا يجوز إلا لحاجة مهمة كالقصد والحجامة والاحتان. والزين بالحنق غير مهم بل في القترط بتعليقه على الأذن وفي الحنق والأسورة كفاية عنه . فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والمنع منه واجب ، والاستئجار عليه غير صحيح والأجرة المأخوذة عليه حرام ؛ إلا أن ثبت من جهة النقل فيه رخصة ، ولم يلبسنا إلى الآن فيه رخصة .

ومنها أن يكون في الضيافة متدبج يشكلم في بدعته ، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز فإن كان المتدبج لا يتكلم يدمته فيجوز الحضور مع إظهار الكرامة عليه والإعراض عنه - كما ذكرناه في باب البعض في الله - وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النواذر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه . وإن كان ذلك مزح لا كذب فيه ولا شتم فهو مباح - أمضى ما قبل منه - فأما اغتازه صنعة واحدة فليس بمباح . وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التليس فليس من جهة المنكرات ، كقول الإنسان مثلا : طلبت اليوم مائة مرة ، وأعلنت عليك الكلام ألف مرة ، وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقنع في العداوة ولا ترد الشهادة به . وسيأتى حد المراح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان مع ريع المهلكات .

منها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران ، أحدهما : الإضاعة والآخر : الإسراف . فالإضاعة : تقويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب ونمزيقه ، وهدم البناء من غير غرض ، والقائه المال في البحر . وفي معناه صرف المال إلى الناحية والمطرب ، وفي أنواع الفساد لأنها قواعد محرمة شرعا فصارت كالمدومة .

وأما الإسراف : فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى الناحية والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنبها ولكن مع المبالغة .

والمبالغة تختلف بالإضاعة إلى الأحوال فتقول : من لم يملك إلا مائة دينار مثلا ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لم سواء فأنتق الجميع في ولاية فهو مسرف يجب منعه منه قال تعالى (ولا تبسطوا كل البسط فتعبد ملوما محسورا) نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئا لعياله فطلب بالفتنة فلم يقدر على شيء . وقال تعالى (ولا تبذر تذكرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وكذلك قال عز وجل (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) فن يسرف هذا الإسراف يشكر عليه ويجب على القاضى أن يحجر عليه ، إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة ، فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر . ومن له عيال أو كان عاجزا عن التوكل فليس له أن يصدق

(١) « هذان حرامان على ذكور أمتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل .

بجميع ماله . وكذلك لو صرف جميع ماله إلى تقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم . وفعل ذلك بمن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ؛ فكذلك الدور . وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته . وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها . فقس هذه المنكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء . وإطاعات الصوفية وخانات الأسواق . فلا تغفل بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلتقتصر على هذا القدر منها .

المنكرات العامة

أعلم أن كل قاعدة في دينه - أي بناكل - فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التفاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبراري؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية . وواجب على كل فقيه - فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية - أن يفرج إلى من يجاور بلد من أهل السواد ومن الرعي والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زاد يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها منصوب . فإن قام بهذا الأمر واحسنت الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج الكافة أجمعين .

أما العالم فلتقتصره في الخروج . وأما الجاهل فلتقتصره في ترك التمل .

وكل ما عرفت شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم . ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ؛ فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمري الإثم على الفقيه أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصانعتهم أليق ؛ لأن المخترفين لو تركوا حرقهم لبطلت المعاش فهم قد تفعلوا أمرا لا بد منه في صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العلماء هم ورة الأنبياء . وللإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج لتعليم والهدى . وكذا كل من يقف أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغييره الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لومه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة مالا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح . فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك الحرامات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتدعى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محله ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى أهل السوادى المكتشف ببلده ، ثم إلى أهل البراري من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد . وإلا خرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسمى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن همه أمر دينه يشغله عن مجرة الأوقات في التفرعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أم منه .

الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف ، وثانيه الوعظ ، وثالثه التخصيص في القول ، ورابعه المنع بالهتف ، في الحل على الحق بالضرب والمعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الترتيبان الأوليان وهما : التعريف والوعظ ، وأما المنع بالهتف فليس ذلك لأحد الرعية مع السلطان . فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد منه من المخبور أكثر . وأما التخصيص في القول كقوله : يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يمتدى شرها إلى غيره لم يجز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه ، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخبار والنصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لمعلم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء حزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ^(٢) » ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال « قرن من حديد لا تأخذه في القلوة لأثم وتركه قوله الحق ما له من صديق ^(٣) » ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، فقدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك وعثمانين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومعتسين لما يئولون منه من مهيم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف ، وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ؛ ونقتصر الآن على حكايات تعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم .

فمنها ما روى من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء . وذلك ما روى عن هروة رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا قالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ؟ فقال : حذرهم وقد اجتمع أشرفهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ولقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كانوا - فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلبس بهم غمزوه ببعض القول قال ففرقت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ففرقت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى فمرهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال « أنسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » قال : فأطرق القوم حتى مامتهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرقوه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : إنصرف

الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

(١) « خير الشهداء حزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك » أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله . (٢) « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » تقدم . (٣) حديث : وصفه عليه السلام عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لأثم تركه الحق ما له من صديق . أخرجه الترمذي بسند ضيف مقتصر على آخر الحديث من حديث علي : رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق وما له من صديق . وأما أول الحديث فرواه الطبراني إن عمر قال لكعب الأحبار كيف تجد تنقي قال أجد نعتك قرنا من حديد قال : وما قرن من حديد ؟ قال : أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لأثم .

يا ابا القاسم راشد افرأه ما كنت جهولا ، قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم ليض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغ منكم حتى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه ووثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا ؟ أنت الذي تقول كذا ؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهم ودينهم . قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم أنا الذي أقول ذلك » قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بجامع رداءه قال : وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه فيقول - وهو يبكي - وليكم أقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ قال : ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه ^(١) وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكب ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ^(٢) ؟ وروى أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له : يا معاوية إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كدامك . قال : فنضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم : مكانكم ا غاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : إن أبا مسلم كفى بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحكم فليغتسل ^(٣) » وإني دخلت فأغتسلت وصلى أبو مسلم أنه ليس من كدى ولا من كد أبي فهلوا إلى عطاكم . وروى عن ضبة بن محسن العنزي قال كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حذاه واثني عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال : فغاضبي ذلك منه فقلت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه فضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعهم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لي في خطبي . فكتب إليه عمر : أن أشخصه لي . قال : فأشخصني إليه فقدمت فغضبت عليه الباب فخرج إلى فقال : من أنت ؟ قلت : أنا ضبة ، فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فن الله ، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فهذا استحلكت يا عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبه ولا شيء أفته ؟ قال : ما الذي شجر بينك وبين عاملي ؟ قال : قلت الآن أخبرك به ، أنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاضبي ذلك منه فقلت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه فضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعهم كتب إليك يشكوني . قال : فاندفع رضي الله عنه باكيما وهو يقول أنت والله أوفى منه وأرشد فهل أنت تظفر لي ذني يغفر الله لك ؟ قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين . قال : ثم اندفع باكيما وهو يقول : والله ليلة من أبي بكر ويوم خيبر من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فلأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فقبه أبو بكر ، فجعل يمشي مرقا مامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفضالك » فقال يا رسول الله اذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب

(١) حديث عروة : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من النبي ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته ... أخرجه بطوله البخاري مختصرا وابن حبان بتمامه .

(٢) حديث عبد الله بن عمرو : بينا النبي ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب النبي ﷺ ... الحديث رواه البخاري .

(٣) حديث عبد الله بن عمرو : بينا النبي ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب النبي ﷺ

فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك. لا آمن عليك. قال: فشي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليته على أطراف أصابعه حتى خفيت؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد خفيت حله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى قم الغار فنزله، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل في قبلك، قال: فدخل لم يرفيه شيئاً فدخله فأدخله وكان في التار خرق فيه حياض وأفاع فألقاه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه، وجعل يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: «يا أبا بكر لا تخزن إن الله معنا» فأقول الله سكينته عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليته.

وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم: نصلي ولا نركب قاتية لا آروه نصفاً فقط: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارق بهم. فقال لى: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟ فيماذا أنألفهم؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي فوآله لو منعوا عقالاً كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأنتهم عليه، قال: فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر. فهذا يومه، ثم كتب إلى أبي موسى يلومه (١).

وعن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان - وهو جالس على سريرته وحواليه الأشراف من كل بطون ذلك بمكة في وقت حجة في خلافة - فلما بهر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتماده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فانك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فانهم حصن المسلمين، وتفتقد أمور المسلمين فانك وحدك المشرك عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغفل عنك منهم. فقال له: أجل أفعّل، ثم نهض وقام. فقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال: مالي إلى خلقك حاجة. ثم خرج فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف! وقد روي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوماً: قب على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله على لحدتي؛ فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له: يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك يا وليد! قال: فغضب الوليد على حاجبه وقال له: ويحك أمرتك أن تدخل إلى رجل يحدثني ويسارق فأدخلت إلى رجل لم يرض أن يسمي بالاسم الذي اختار ما قبل. فقال لحاجبه: ما مررت أحد غيره، ثم قال لعطاء: اجلس، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له: بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له ههب أعده الله لكل إمام جائر في حكمه. فصق الوليد من قوله، وكان جالسا بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس منفضا عليه؛ فقال عمر لعطاء: قلت أمير المؤمنين. فقبض عطاء على ذراع عمر

(١) حديث ضبة بن محسن: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة وفيه عن عمر أنه قال والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك يومه وليته؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه الباق في دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بغير هذا السياق واتفق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بلفظ آخر ولما من حديثه قال يارسول الله لو أن أحداً منكم نظر إلى قميصي فقال: يا أبا بكر ما منك يا نبي الله ﷺ. وأما قتاله لأهل الردة ففي الصحيحين من حديث أبو هريرة: لا توفى النبي ﷺ واستخلف أبي بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر كيف تعامل الناس ...

ابن عبد العزيز فغزوه غزوة شديدة وقال : يا عمر إن الأمر جد جد ، ثم قام عطاء وانصرف ، فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم عزوتي في ذراعي .

وكان ابن أبي شمية يوصف بالعقل والأدب ؛ فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : تكلم ، قال : هم أنكم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ؛ فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله لم يزل الناس يتواصون ويتواصون ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مزارعهم ومعاينة الرضى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك ثم قال : لا يجرم لأجل هذه الكلمات مثالا لنصب صغى ما عشت .

ويروي عن ابن قاطفة أن الحجاج دعا بفتحاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلى إلى ، ثم دعا بكرمى فوضع إلى جنب سريره فمد عليه ؛ فجعل الحجاج يذكركنا ويأمرنا إذ ذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه فقال منه وقلنا منه مقاربه له وفرقا من شره ، والحسن ساكت حاض على إبهامه ، فقال : يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا ؟ قال : ما عبيت أن أقول ؟ قال : أخبرني برأيك في أبي تراب ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنتم عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ . فعلم من هدى الله من أهل الإيمان ؛ فأقول : ابن عم النبي عليه السلام وحنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوايق مباركات سبقت له من الله أن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها . وأقول : إن كانت لعل هتافه حسبه والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبي : فأخذت بيد الحسن فقلت : يا أبا سعيد أغضبت الأمر وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أنت شيطان من شياطين الإنس تمكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيت إن ستلت فصدقت ، أو سكت فسلت ؟ قال عامر : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها ، قال الحسن : فذلك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة

قال : وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذي تقول قاتلهم الله قاتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم ، قال ما حلك على هذا ؟ قال : ما أخذ الله على العلماء من الموائيق (ليبينه للناس ولا يكتُمونه) قال يا حسن أمسك عليك لسانك ولراك أن يلفني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك .

وحكى أن حليطا الزيات جى . به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حليط ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فأنى عاهدت الله . عند المقام . على ثلاث خصال : إن ستلت لأصدقن ، وإن أجليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن قال : فما تقول في ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خليط من خطاياهم . قال : فقال الحجاج ، ضموا عليه العذاب . قال : فاتته به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جملوه على لحنه وشدهوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه حتى انتهوا لحنه فقاموه يقول شيئا . قال : فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال : اخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر : فأنيته أنا وصاحب له قتلنا له : حليط ألك حاجة ؟ قال شرية ماء . فأثوه بشرية ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمه الله عليه .

وروي أن عمر بن هيرة دعا بفتحاء أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل المدينة ، وأهل الشام ، وقراها فجعل يسألهم ؛ وجعل يكلم عامر الشعبي ، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هما هذات ، هذا رجل أهل الكوفة — يعني الشعبي — وهذا رجل

أهل البصرة يعني الحسن - فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعب والحسن . فأقبل على الشعبي فقال : يا أبا عمرو إلى أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمتي حقيم فأتانا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغي عن الصابغين أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضمت في بيت المال ومن بقي أن أردت عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قد قبضت على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترد فلا أستطيع رد أمره ولا إنقاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة . فهل علي في هذا تيموني أشباه من الأمور والثنية فيها على ما ذكرت ؟ قال الشعبي : فقلت أصالح الله الأمير إنما السلطان والد يخطئ . ويصيب ، قال : فسر بقول وأجيبه ورأيت البشر في وجهه وقال فقه الحمد . ثم أقبل على الحسن فقال : ما تقول يا أبا سعيد قال : قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمتي حقيم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوهم بالنصيحة وإلى سمعت نعيد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرعى رعية فلم يعطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة ^(١) » ويقول : إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضت على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترد فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنقاذ كتابه ، وحق الله أن أزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطامر ولا طاعة مخلوق في معصية الخائن ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به ، وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فأنبهه ؛ يا ابن هيرة اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يذكرك عن سريرك . ويخرجك من سمعة قصرك إلى ضيق قبرك قدح سلطانك وديك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على علك ، يا ابن هيرة إن الله يمتك من يريد ولا يمتك يريد من الله وإن أمر الله فرق كل أمر وإنه لا طاعة في معصية الله وإنني أحذرك بأسمه الذي لا يرد عن القوم المجريين . فقال ابن هيرة : أربع على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاء الله تعالى ما ولاء من أمر هذه الأمة لعله به وما يعلمه من فضله ونيته . فقال الحسن : يا ابن هيرة ؛ الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد ، يا ابن هيرة ؛ إنك إن تلقى من ينصح لك في دينك ويمحك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلا يفرق بينك وبينك . فقام ابن هيرة وقد بر وجهه وتغير لونه . قال الشعبي : فقلت يا أبا سعيد أغضبني الأمير وأغرقت صدره وحرمنا معروفه وصلة فقال : إليك عني يا عامر ، قال : فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له الميزة واستخف بنا وجفينا فكان أملا ما أدى إليه وكنا أملا أن يفعل ذلك بنا . فأرايت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المغارف وما شيدنا مشيدا إلا برز علينا . وقال الله عز وجل وقتنا مقاربة لهم . قال عامر الشعبي : وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأجابه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له : ما تقول في القدر ؟ فقال : جيرانك أهل القبور ففكر فيهم فإن فهم شغلا عن القدر .

وعن الشافعي رضي الله عنه قال : حدثني عمي محمد بن علي قال : إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة : من استرعى رعية فلم يعطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة : رواه البزري في معجم الصحابة بإسناد لين وقد اشق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون فشكلوا إلى أبي جعفر شيثان من أمر الحسن بن زيد ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال : فسأله ، فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ فقال : أشهد أنهم أهل تحطيط في أعراض الناس كثيروا الأذى لهم . فقال أبو جعفر : قد سمعت ، فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سل عن الحسن بن زيد . فقال : يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد ؟ فقال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال : قد سمعت يا حسن ما قال فليك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك . فقال : ما تقول في ؟ قال : تعضيق يا أمير المؤمنين ، قال : أسألك بالله إلا أخبرني . قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني ، قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فبجسته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم بابك فاش . قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أني جالس هنا لأخذت فارس والروم والدلم والترك بهذا المكان منك قال : فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذنا الحق وقبضنا بالسوية وأخذنا بأفهام فارس والروم وأصغرا آثافهم ، قال : غلبي أبو جعفر ففاه وغلبي سيده وقال : والله لولا أني أعلم أنك صادق لتقتلك . فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إنني لأفصحك من ابنك المهدي ، قال : فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له : يا أبا الحرث لقد سررت ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي ، فقال : يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد .

وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رذل على واستجلسني ثم قال لي : ما الذي أبغاك عنا يا أوزاعي ؟ قال : قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين . قال : أريد الأخذ عنكم والاقباس منكم ، قال : فقلت فاطر يا أمير المؤمنين أن لا تجعل شيئا مما أقول لك ، قال : كيف أحجه وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقمتك له . قال : قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ، قال : فصاح في الربيع وأهوى بيده إلى السيف فأتته المنصور وقال . هذا مجلس مشوبة لا مجلس عتوة (١) فطابت نفسي وانبسط في الكلام . فقلت : يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فليتها نعمته من الله سمعت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إنما ويزداد الله بها سخطا عليه (٢) » يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما وال مات غاشيا لرعيته حرم الله عليه الجنة (٣) » يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الذي لين قلوب أممكم لكم حين ولاكم أمورهم لترايبكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رموقا رجما موسيا لهم بنفسه في ذات يده محودا عند الله وعند الناس لحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق ، وإن تكونوا بالقسط له فيهم قائما ولعمراتهم سائرا ، لا تلقى عليك دونهم الأبواب ولا تقم دونهم الحجاب ، تبتج بالنعمة عندهم ، وتبتسبب بأصابعهم من سوء ، يا أمير

(١) حديث : الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة . والقصة بمجملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواظ الحلفاء ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد ، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدي يحدث بنا كير وهو عندي من أهل الصدوق وقد رأيت سرد الأحاديث للذكورة في الموعظة لئلا ذكر كل بعضا طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابي كل حديث أو كونه مرسلًا فأولها :

(٢) عطية بن بشر « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فليتها نعمته من الله ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في مواظ الحلفاء . (٣) حديث عطية بن ياسر « أيما وال مات غاشيا لرعيته حرم الله عليه الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد .

المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم - أحرمهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم - وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا أتيت منهم قتام وراء قتام وليس منهم أحد إلا وهو يشكر بلبه أذنتها عليه أو علامة ستمتا إليه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن ربيع قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروج بها المتأقنين ، فأناه جبريل عليه السلام فقال له : يا محمد ما هذا الجريدة التي كسرت بها قلوب أمثلك فملاها قلوبهم رعباً ؟ فكيف بمن شقق أستمروهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلامهم عن بلادهم وغيبيهم الخوف منه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زيادة عن حارة عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يمسك جباراً ولا متكبراً - فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي فقال « اقتص مني » فقال الأعرابي : قد أحطتلك ، يا أبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي - فدعا له بخير ؟ يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقيد قوس أحكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها » ، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بين من قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا بين لك كالم بين لغيرك - يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جندك (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) قال الصغيرة : التيمم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن ؟ يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخة على شاطئ القرات ضيعة لحسيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عندك وهو على بساطك ؟ يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جندك (يادادو إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) قال الله تعالى في الزبور : يادادو إذا قد احصيان بين يديك فسكانك في أحدهما هوى فلا تمتن من نفسك أن يكون الحق لم يفلح على صاحبه فأعوك عن نبوق ثم لا تكون خليفة ولا كرامة يادادو إنما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبادة رعاة كرامة لا ليل لهم بالآفاق فقومهم بالسياسة ليجهروا الكسبيروا الهزل على الكلاء والماء - يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجلال لا بين أن يحصله واشفقن منه ، يا أمير المؤمنين حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصاري : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرأه بعد أيام مقبياً فقال له : ما منك من الخروج إلى عملك ؟ اما علمت أن لك مثل اجر المجاهد في سبيل الله قال : لا ، ثم قال : وكيف ذلك ؟ قال - إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من وال يلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً بده إلى عنقه لا يفتكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار يتنفس به ذلك الجسر امتحانه تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيسأب فإن كان حسناً نما

(١) حديث عروة بن ربيع « كانت يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروج بها المتأقنين ... » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين - (٢) حديث حبيب بن مسلمة : أن النبي ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده ... أخرجه ابن أبي الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال : رأيت النبي ﷺ اقتص من نفسه . وللحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه : طعن النبي ﷺ في خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتي قال اقتص ... قال صحيح الإسناد .

(٣) « لقيد قوس أحكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلاً لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ « قباب »

يا حسنة وإن كان مسيئاً انخرق به ذاك الجسر فهو ي به في النار سبعين خريفاً (١) فقال له عمر رضي الله عنه : سمعت هذا ؟ قال : من أبي ذر وسليان فأرسل إليهما عمر فسالهما فقالا : نعم سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : واعمره من يتولاهما بما فيها ؟ فقال أبو ذر رضي الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خده بالأرض . قال : فأخذ المتدبيل فوضه على وجهه ثم بكى واتحب حتى أبكاه . ثم قلت يا أمير المؤمنين قد سأل جندك العباس النبي صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام : يا عباس يا عم النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها (٢) نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا ينبغي عنه من الله شيئاً إذ أوصى الله إليه (وأأذن عشيرتك الأقرين) فقال : يا عباس ويا صفية عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد إني لست أغنى عنكم من الله شيئاً إني لي على ولكم علمكم (٣) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقسم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب البعد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا يأخذه في الله لومة لائم . وقال : الأمراء أربعة ، فأمر قوي ظلف نفسه وعماله فظلك كالجماد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة ، وأمر فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحم الله ، وأمر ظلف عماله وأرتع نفسه فظلك الخطئة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : شر الرعاة الخطئة فهو المالك وحده (٤) وأمر أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً . وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتك حين أمر الله عنافع النار غوصت على النار تسمر ليوم القيامة ، فقال له : يا جبريل صف لي النار فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احترت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يطفأ لها ، والذي بمنك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لما توار جميعاً ولو أن ذوباً من شرابها صب في مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلاً أدخل النار ثم أخرج منها مات أهل الأرض من شئ ربحه وتشويه خلقه وعظمه ، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبيكاه فقال : أتبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقسم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ولم يكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على رسوله ؟ قال : أخاف أن ابتلي بما ابتلى به هاروت وهاروت فهو الذي منعي من انكالي من منزلي عند ربّي فأكون قد امننت مكره فطر يا أبا يسكيان حتى نودي من السماء : يا جبريل ويا محمد إن الله قد أمكنك أن تصباه فيمذبكاً وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة (٥) وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر : أن عمر استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة ... وفيه مرفوعاً « مامن وال يلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه .. » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار ابن أبي الحكم عن أبي وائل : أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه ، وأن جبرائيل عليه السلام من النبي ﷺ ولم يذكر فيه : سليمان . (٢) « يا عباس يا عم النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً ومن رواية ابن للتسكدر مرسلًا وقال هذا هو المحفوظ مرسلًا . (٣) « يا عباس ويا صفية ويا فاطمة لا أغنى عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم علمكم » . أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً دون إسناد ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله « لي عملي ولكم علمكم » . (٤) « شر الرعاة الخطئة » رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو الرزي متصلاً وهو عند ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي معضلاً كما ذكره الصنف . (٥) حديث : بلغني أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال أنتك حين أمر الله بتأنيخ النار وضعت على النار تسمر ليوم القيامة ؛ بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد

الحصيان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين ، يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وأنه من طلب الله بطاعة الله رفعة الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه . فبهذه نصيحتي إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لي : إلى أين ؟ قلت : إلى الولد والوطن يا ابن أمير المؤمنين إن شاء الله . فقال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه استعين وعليه أتوكل وهو حسي ونعم الوكيل فلا تخافني من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير التهم في النصيحة . قلت : أقبل إن شاء الله .

قال محمد بن مصعب : فأمر له بالاستعانة به على خروجه فلم يقبله وقال : إنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا ، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك .

وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويمشي ولا يمل به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أضحى فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند المنبر وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البني والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأمرح المنصور في مشيه حتى ملأ سامعه من قوله ، ثم خرج مجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأثابه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ؟ فسلمي ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البني والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ، فراقه لقد حشوت سامعي ما أمرتني وأقلقني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمتني على نفسي أتيانك بالأموار من أصولها وإلا اقتصرت على نفسي ففياها شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البني والفساد في الأرض أنت . قال : وبجك يدخلني الطمع والمصغرة والبيضاء في يدي والخلو والحامض في قبضي ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استراخك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجة معهم السلاح ، ثم سجنك نفسك فيها منهم وبشت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلة إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقربتهم على ظلم الناس بالأموال والكراخ والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأسر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجامع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحد إلا لوله في هذا المال حتى قلنا وآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأترتهم على رعيك وأمرت أن لا يعجبوا عنك تجهي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فدا لنا لا نخوفه ونقسخر له ؟ فأتعمرنا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أردوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزله ويصغر قدره ، فلما انقضى ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وها يوم وكان أول من صانهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيك ، ثم فعل ذلك ذوو القعدة والثروة من رعيك ليتناولوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلت بلاد الله بالطمع بنينا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاء في سلطانتك وأنت غافل ، فإن جاء من ظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصص إليك عند ظهورك وجبك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا بنظر في مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يحتج إليه ويلوذ به ويشكو ويستنيث وهو يدبمه ويحتل عليه ، فإذا جهدا خرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربة مبرحا ليكون

نسكالا لغيره وأنت تنظر ولا تسكر ولا تفتي ، فما بقاء الإسلام وأمله على هذا ، ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي : يا أهل الإسلام فيتدرونه مالك مالك فيرفون مظلمته إلى سلطانهم فينصف ، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك قد دعيت مرة وقد ذهب مع مملكتهم لجليل بيكي فقال له وزراؤه : مالك تبكي لا بكيت عينك ؟ فقال : أما إنني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ، ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس : ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب القليل ويعطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورفقه على شح نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا ننيلك وأنتك بالمسلمين ورفقتك على شح نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ، إن قلت أجمعها لو لدى فقد أراك الله صبرا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه بشحيمة تحويه فاير الله تعالى يطفئ بنك الطفل حتى ينظم رغبة الناس إليه ولست الذي تعطى بل الله يعطى من يشاء . وإن قلت : أجمع المال لأشيد سلطاني ، فقد أراك الله عبداً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جموه من الغنم والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وما شركك وولدك أباك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد ، وإن قلت أجمع المال ، لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تترك إلا بالعمل الصالح ؛ يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيته بأشد من القتل ؟ قال : لا ، فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضرعته جوارحك ؟ فإذا تقول إذا اتزعج الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هسل يغنى عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شجحت عليه من ملك الدنيا .

فيسكن المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارفع صوته ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئا ، ثم قال كيف أحيا لي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائفا ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأمانة الأعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا مني ، قال : هربوا منك مخافة أن تحصلهم على مظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن اتبع الأبواب ومهل الحجاب واتصم المظلوم من المظالم وامنع المظالم وخذ الشيء بما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح امرك ورعيته ، فقال المنصور : اللهم وفقني أن أصنع بما قال هذا الرجل ، وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصل بهم ثم قال الحرسي : عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك ، واعتاط عليه غيظا شديدا فخرج الحرسي يطلب الرجل فيثنا هو يعطوف فإذا هو بالرجل يصل في بعض الشعاب فقدم حتى صلى ثم قال : يا ذا الرجل أما تقي الله ؟ قال : بلى ، قال أما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فاطلق معي إلى الأمير فقد آل أن يقتلني إن لم آته بك ، قال : ليس لي إل ذلك من سبيل ، قال : يقتلني . قال : لا ، قال : كيف قال : تحسن قفراً ، قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقما مكتوبا فيه شيء فقال : خذ فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه إلا الشهداء ، قلت : رحلك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله ؟ قال : من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودم مروره وعصيت خطايا واستجيب دعائوه وبسط له رزقه وأعطى الله وأعز على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا ، تقول : اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلبت ماتحت أرضك كملكك بما فوق عرشك ، وكانت وسواس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في عليك ، و اتقادك شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا

والآخرة كله يبدك أجعل لي من كل م أسيت فيه فرجا ومخرجا ، اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمئني أن أسألك مالا أستوجه بما قصرت فيه أدعوك أمنا وأسألك مستأنا وإنك المحسن إلى وأنا المسىء إلى نفسي فيما بيني وبينك تودد إلى بنعمك وأنبض إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حلتني على الجراءة عليك قد بفضلك وإحسانك على إنك أنت الثواب الرحيم . قال : فأخذه فصوره في جبين ثم لم يكن لي م غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتيم ثم قال : وبك وتحسن السحر ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال : هات الرق الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي وقال : قد نجوت ، وأمر بنسخه وأصلاني عشرة آلاف درهم ، ثم قال : انصرفه ؟ قلت : لا ، قال : ذلك الحضر عليه السلام .

وعن أبي عمران الجوني قال : لما ولي هرون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهو بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل بهمزم بالجواز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديما فيجره سفيان ولم يره ، فاشتاق هرون إلى زيارته ليخبره به ويحدثه فلم يره ولم يسمأ بموضه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ؛ يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى وإخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله وأعلم أن قد وإخيتك مواخاة لم أصرم بها حيلك ولم أقطع منها ودك وإني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة . ولولا هذه الغلظة التي قد نهاها الله لأنيك ولو حبوا لما أجد لك في قلبي من المحبة . وأعلم يا أبا عبد الله أنه ما بيني وإخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه وقد فتح بيوت الأموال وأعطيتهم من الجواز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وإني استبطأتك فلم تأتني ؛ وقد كتبت إليك كتابا شوقاني إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصله . فإذا ورد عليك كتابي فالجمل العجل ، فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشوته فقال : على رجل من الباب ، فأدخل عليه رجلا يقال له عباد الطالقاني ، فقال : يا عباد خذ كتابي هذا فاطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فألق كتابي هذا إليه وح بسمك وقلبك جميع ما يقول فأحس عليه دقيق أمره وجليه لتخبرني به . فأخذ عباد الكتاب وأطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رأيته قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير .

قال عباد : فركعت الكلمة في قلبي فخرجت ، فلما رأيته نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة ، فركبت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فلما رفع أحد إلى رأسه وودعوا السلام على رؤوس الأصابع ، فقيمت وأضأفأهم أحد يعرض على الجلوس وقد علاني من هيبته الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت إن المصل هو سفيان فرسيت بالكتاب إليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتواعد منه كأنه حية عرضت له في عرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كفه ولها ببهاته وأخذه ؛ فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يا أخذه بعضكم بقرؤه فأني استغفر الله أن امس شيئا منه ظالم بيده ، قال عباد : فأخذه بعضهم لعله كأنه خائف من فم حية تهشه . ثم فنه وقرأه . وأقبل سفيان يتيم يتيم المحجب فلما فرغ من قراءته قال : أقبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله إنك خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس تقي . فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجرى به . وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلي به ولا يبق شيء منه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا .

قيل له: ما نكتب؟ فقال اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المذنب هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان.

أما بعد: فأني قد كتبت إليك اعرفك اني قد صرمت جبهتك وقطعت ديك وقلت موضعك فإنك قد جعلتني شاهدا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأفقتته في غير حق وأفقدته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت فاه حتى كتبت إلى تشهدني على نفسك. أما إني قد شهدت عليك أن أخواني الذين شهدوا غرامة كتابك وستؤدى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة فلوهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضى بفعلك حلة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعبيتك؟ فقد ياهرون مذرك وأعد المسألة جوابا والبلاد تجلبا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل وقد وزنت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم وأزهد ولذيق القرآن وبجالة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما للظالمين إماما، ياهرون قدت على السرير وليست بالحرير واسبلت سترا دون بابك وتشبعت بالحجة برب العالمين، ثم أفضت أجنادك الظلمة دون بابك وسرك، يظلمون الناس ولا ينصفون! يشررون الخور ويضربون من يشر بها! ويرنون ويحذون الزاني! ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أي الظلمة وأحوال الظلمة فقدت بين يدي الله تعالى ويدك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار كافي بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة من سيئاتك، بلاد على بلاد وظلمة فوق ظلمة، فاحفظ بوصيتي وانظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم اني قد نصحتك وما أبيت لك في النصيحة غاية، فائق الله ياهرون في رعبيتك واحفظ محمدًا ﷺ في أمته واحسن الخلافة عليهم، واعلم ان هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تقتل بأهلها واحدا بعد واحد فمنهم من تزود زاد أقصه ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته فإياك إياك ان تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام.

قال عباد: فألقي إلى الكتاب منشورا غير مطوى ولا غنوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فتناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني قتلتم لم: يا قوم من يشتري رجلا حرب من الله إلى الله؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدرهم، قتلتم: لاحتاجة لي للمال ولكن جية صوف خشنة وعبادة قطوانية بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذي كنت البسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أفود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا رجلا، فهرأي من كان على باب الخليفة، ثم استؤذن لي فلادخلت عليه وبهر بي على تلك الحالة قام وقد، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول: اتضع الرسول وخاب المرسل مالى وللدنيا مالى والملك يزول عني سريرا؟ ثم ألقى الكتاب إلى المنشور كما دفع إلى، فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تتحد من عينيه ويقرأ ويشيق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين لقد أجزأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأقتله بالحديد وضيقك عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره، فقال هرون: اتركوا يا عبید الدنيا، المذنب من غررتوه والشقي من أهلكتموه، وإن سفيان أمة واحدة فاتركوا سفيان وشأنه.

ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله. فرحم الله عبدا نظرت لنفسه واتقى الله فإني يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق.

وعن عبد الله بن مهران قال : سمع الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم حارب بالرحيل . فخرج الناس ، وخرج يهلول المجنون فيمن خرج بالكثاسة والصبيان يوقوهم ويرملون به : إذ أقبلت هوداج هرون فكشف الصبيان عن اللويع به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا يهلول فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أين بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي ﷺ متصرفاً من عرفة على ناقه له صهباء ، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك^(١) وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تسبرك وتجهرك ، قال : فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا يهلول زدنا رحمة الله قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل أتاه الله مالا وجالاً فأفق من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار . قال : أحسنت يا يهلول . ودفع له جائزة فقال : اردد الجائزة إلى من اخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال : يا يهلول فإن كان عليك دين فتيناه ، قال : يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز . قال : يا يهلول فتجرى عليك ما يقولك أو يقيمك ، قال : فرغم يهلول دونه إلى الساء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا واثق من عيال الله فحصل أن يذكر ويساقى ، قال : فأسبل هرون السجاف ومضى .

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال : دخلت على الحرث المحاسبي رحمه الله فقلت له : يا أبا عبد الله هل حاسبت نفسك ؟ فقال : كان هذا مرة ، قلت له ، قال : اليوم ؟ قال : اكتم حالي ؟ إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضرب بها أن تسمعها نفسي ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها ، ولقد كنت ليلة قاعدا في عراقنا فإذا أنا بقبي حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ثم قد بين يدي فقلت له من أنت فقال : أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين في عماريهم ولا أرى لك اجتهداً فأبى شيء عملك ؟ قال له : كنتان المصائب واستجلاب الفوائد . قال : فصاح وقال : ما علمت أن أحداً بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفة ؟ قال الحرث : فأردت أن أزيد عليه فقلت له ، أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم فمن أين تعرفهم ؟ قال : فصاح صيحة غشى عليه منها فمكك عندي يومين لا يميل ، ثم افاق وقد أحدث في ثيابه ، فسلمت إذا علقه فأخرجته له ثوباً جديداً وقلت له : هكذا كفى قد آثرتك به فاغسل واحد صلاتك فقال : هات الماء فاغسل وصلي ثم ألتحف بالثوب وخرج فقلت له : أين تريد ؟ فقال لي : قم معي ، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال : يا ظالم أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم ، استغفر الله من قصصري فيك ، أما تتق الله تعالى فيما قد ملكك ؟ وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل المتديقون قبلي فلم أجده لنفسى فيه حظاً فتملقت بمحظتك لدى أحقيهم ، قال : فأمر يضرب عنقه ، فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومناد ينادي : من ولى هذا فليأخذه ، قال الحرث : فاختبأت عنه فأخذه أقوام غريباء فدفنوه وكنت معهم لا أعلمهم بجاه . فأقفت في مسجد بالمقابر عزرونا على التي تغلبني عيناى فإذا هويين وصاقم لم أر أحسن منهن وهو يقول : يا حسارت أنت واثقة من الكائمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون دينهم ، قلت : وما فعلوا ؟ قال الساعة يلقونك ، فظننت إلى جماعة ركبنا فقلت : من أتم ؟ قالوا : الكائمين أحوالهم حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن في قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لبيده .

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري : رأيت النبي ﷺ متصرفاً عن عرفة على ناقه له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ، أخرجه الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه دون قوله متصرفاً من عرفة وإنما قالوا : يرى الجمرة ، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني .

وعن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال : كان أبو الحسين النوري رجلا قليل الفضول لا يسأل عما لا يعنيه ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكرا غيره ولو كان فيه تفرقة ، فزله ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة النعمامين يظهر للصلاة إذا رأى زورا فيه ثلاثون دنانير مكتوب عليها بالقار « لطف » فقرأه وأنكره لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شيئا يبرع به بلطف . فقال الللاح : إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك امض في شغلك ؟ فلبس النوري من الللاح هذا القول ازداد تعظما إلى معرفته فقال : أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك أنت والله صوفي فضول ، هذا خير للمعتضد يريد أن يتمم به مجلسه فقال النوري : وهذا خير ! قال : نعم ، فقال : أحب أن تعطيني ذلك المندى ، فاعتاظ الللاح عليه وقال لئلامه : أعطه حتى أنظر ما يصنع ، فلما صارت المندى في يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرهما دنا حتى أتى على آخرها إلا دنا واحدا ، والملاح يستغيث ، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد . وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقته . قال أبو الحسين : فادخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد وبه عمود يقبله فلما رأى قال : من أنت ؟ قلت : محاسب ، قال : ومن ولاك الحسبة ؟ قلت : الذي ولاك الإمامة ولا في الحسبة يا أمير المؤمنين ، قال : فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : ما الذي حلاك على ما صنعت ؟ فقلت : شفقة مني عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه منك فقصرت عنه . قال : فأطرق مفكرا في كلامي ثم رفع رأسه إلى وقال : كيف تخضع هذا الدين الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت : في تخضعه لله أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال : هات خبرني ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق حتى فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدين ، فاستعمرت نفسي كبرا على أن أقدمت على مثلك فتمت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : اخضع فقد أظفنا بك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت : يا أمير المؤمنين ينص إلى التغير لأنني كنت أخبر عن الله تعالى وأنا الآن أخبر عن شرطي فقال المعتضد : ما حاجتك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين تأمر يا خير أجي سائلا فأمره بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفا من أن يسأل له أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى أن توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد .

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لسكونهم أنسكوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا قلوبهم أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها . وأما الآن فقد قيدت الأطلماع لسن العلماء فسكروا ونسكوا لمساعدتهم أحوالهم فلم ينجدوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافسحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه . ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الإرادة فكيف على الملوك والأكابر : والله المستعان على كل حال .

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب أخلاق المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتاب إحياء الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأحب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وركب

أوصافه وأخلاقه ثم اتقنه صفيه وحييه، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه، وحرّم عن التخلّق بأخلاقه من أراد تخذيبه. وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا.

أما بعد: فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحرّكات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب. وشمع المعارف، وسمائر القلوب هي مغارس الأفعال ومناهلها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزيئها وتجلّها، وتبدل بالخاص مكارها ومساويا ومن لم يخشع قلبه لم يخشع جوارحه. ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفيض على ظاهره جمال الآداب النبوية، ولقد كنت عزمت على أن أنهي ربيع المعادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يبقى على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب، ثم رأيت كل كتاب من ربيع المعادات قد أتى على جملة من الآداب فاستقلت تكريرها وإعادتها، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات، فرأيت أن أقصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه الماثورة عنه بالإسناد فأسردها مجموعة فصلا فصلا عنوة الأسانيد، ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيد مشاهدة أخلاقه الكريمة التي شيد أركانها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلام رتبة وأجلهم قدرا فكيف بمجموعة؟ ثم أنصفت إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقت ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معبرا عن مكارم الأخلاق والقيم، ومتزعا من أذان المجاهدين لنبوته صمام الصمم. والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل للمتحيرين ومجيب دعوة المضطرين. ولنذكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن، ثم بيان جوامع من عاسن أخلاقه، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه، ثم بيان كلامه موضحا، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس، ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان إخضاعه عما كان يكره، ثم بيان سخاوته وجوده، ثم بيان شجاعته وبأسه، ثم بيان تواضعه، ثم بيان صورته وخلقه، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم.

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير القراءة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يرثه بمعاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه «اللهم حسن خلقى وخلقى»^(١) ويقول «اللهم جنّبني منكرات الأخلاق»^(٢) فاستجاب الله تعالى دعاءه وقا. بقوله عز وجل (ادعوني استجب لكم) فانزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن.

قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أما قرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن^(٣). وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل) وقوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وقوله (واصبر على ما أصابك إن ذلك

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

(١) حديث: كان يقول في دعائه «اللهم حسن خلقى وخلقى» أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما «اللهم أحسن خلقى فأحسن خلقى» وإسنادهما جيد حديث ابن مسعود رواه ابن حبان. (٢) «اللهم جنّبني منكرات الأخلاق» أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال الترمذى «اللهم إني أعوذ بك» (٣) حديث سعد بن هشام «دخلت على عائشة فسألتهما عن أخلاق النبي ﷺ فقالت كان خلقه القرآن» رواه مسلم وروى الحاكم في قوله إيهما لم يخرجاه.

من عزم الأمور ﴿١﴾ وقوله ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ وقوله ﴿فأعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ وقوله ﴿وليعفوا وليصغروا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ وقوله ﴿ادفع بائي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وقوله ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ وقوله ﴿اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد لجمل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعهم لي بهم ﴿٢﴾ فأنزله الله تعالى ﴿إيس لك من الأمر شيء﴾ تأديبا له على ذلك .

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهديب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «بشت لأتعم مكارم الأخلاق» ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردنا في كتاب رياضة النفس وتهديب الأخلاق فلا تبيد ، ثم لما أكل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى ﴿ولذلك لملى خلق عظيم﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتناعه . ثم انظر إلى عظيم لطفه وعظيم فضله كيف أصلى ثم أفنى ؟ فهو الذي زينته بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال ﴿ولذلك لملى خلق عظيم﴾ ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق وبينض سفاسفها ﴿٣﴾ قال على رضى الله عنه يا عجبا لرجل مسلم يحبه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلا يكن لا يرجو ثوابا ولا ينشى عقابا لقد كان ينهى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها مما تدل على سبيل التجارة . فقال له رجل : أصحمت من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طيء وقتت جلوية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تقصمت بي أحياء العرب فأبى بنت سيد قري وإن أبى كان يحسب الزنار ويقف الماني ويضع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي . فقال صلى الله عليه وسلم « يا جلوية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق » فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ، الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال « والذي نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق » ﴿٤﴾ وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حب الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال » ﴿٥﴾ ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الضيعة وابن الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا وتضييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت - مسلما كان أو كافرا - وتوقير ذى الشبهة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعتف والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسباحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والفناء والمعازف كلها وكل ذى وتر وكل ذى دخل والغيبة والكذب والبهل والشح والجفاء والمكر والخديعة والقيمة وسوء ذات البين وتقطيع الأرحام وسوء الخلق والتصكر والفخر والاختيال والاستعالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والدنوان والظلم ، قال أنس

(١) حديث «كسرت رباعيته ﷺ يوم أحد ...» في نزول «ليس لك من الأمر شيء» أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخاري تعليقا . (٢) «بشت لأتعم مكارم الأخلاق» أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من صحيح حديث أبي هريرة قال الحاكم على شرط مسلم وقد تقدم في آداب الصفة . (٣) «إن الله يحب معالي الأخلاق ويضئ سفاسفها» أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كرزيم رسلو رجلا لمقات (٤) حديث على قوله «ويعجبا لرجل مسلم يحبه أخوه للمسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا» وفيه مرفوعا «لا أتى بسبايا طيء وقتت جلوية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ...» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول باسناد فيه ضعف (٥) حديث معاذ «حب الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال» . بطوله لم أتف له على أصل ورضي عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث .

رضي الله عنه : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشاً . أو قال عيباً ، أو قال شيئاً . إلا حذرنا فوئنا عنه^(١) . ويمكن من ذلك كله هذه الآية ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية وقال معاذ : أو صاني رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال « يا معاذ أوصيك بأثقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل وزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والمخرج من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكماً أو تكذب صادقاً أو تطلع أماً أو تمس إماماً عادلاً أو تقصد أرضاً وأوصيك بأثقاء الله عند كل حصر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية^(٢) » فهكذا أحب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأداب .

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار .

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس^(٣) وأشجع الناس^(٤) وأعدل الناس^(٥) وأغف الناس^(٦) لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه^(٧) وكان أسخى الناس^(٨) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وجهه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه^(٩) لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أسير ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله^(١٠) لا يسأل شيئاً

(١) حديث أنس . لم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها . لم أقف له على إسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٢) « يا معاذ أوصيك بإثقاء الله وصدق الحديث ... » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد وقد تقدم في آداب الصلوة . (٣) حديث : كان النبي ﷺ أحلم الناس . أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عبد الرحمن بن أزي : كان النبي ﷺ من أحلم الناس ... وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام في قصة إسلام زيد بن شمة من أخبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه النبي ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حله جهه ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا خطاً قد اخترتهما ... (٤) الحديث : أنه كان أشجع الناس . متفق عليه من حديث أنس (٥) حديث : كان أعدل الناس . الترمذي في المعالم من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته ﷺ : لا يتصر عن الحق ولا يجاوز . وفيه : قد وسع الناس بسطة وخلفه ضار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء ... وفيه من لم يمس (٦) حديث : كان أغف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : مامست يد النبي ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها . (٧) حديث : كان النبي ﷺ أسخى الناس . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « ضلت على الناس بأربع : بالسخاء والشجاعة ... » ورجاله ثقات . وقال صاحب اللباز إنه منكر وفي الصحيحين من حديثه : كان النبي ﷺ أجود الناس وإثقاء عليه من حديث ابن عباس . وتقدم في الزكاة (٨) حديث : كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه وجهه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه . أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل فيه : أهدى صاحب فداء النبي ﷺ أربع ركائب عليهن كسوة وطعام ويص بلال لك ذلك ووفاء دينه ورسول الله ﷺ قاعد في المسجد وحده . وفيه : قال « فضل شيء » قلت : نعم ، دينار قال « وانظر أن ترخي منها فلتس بداخل على أحد من أهل حق ترخي منها » فلم يأت أحد فبات في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا إذا كان آخر النهار جاء ركباً فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العشاء دعاي فقال « ما فعلت إني قبلك ؟ قلت : قد أراحك الله منه ؟ فكبر وحمد الله شفا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبته حتى جاء أزواجه ولبخاري من حديث عتبة بن الحارث : ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته . ولأن عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسل : كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته . (٩) « كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أسير ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله . متفق عليه بنحوه من حديث عمر ابن الخطاب وقد تقدم في الزكاة .

إلا أعطاه (١) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأت شيء (٢) وكان يخفف النمل ويرقع الثوب ويحتم في مهنة (٣) ويقطع اللحم معهن (٤) وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد (٥) ويحب دعوة العبد والحر (٦) وقبل الهدية ولو أنها جرة لبن أو غدة أرنب ويكافئ عليها (٧) ويأكلها ولا يأكل الصدقة (٨) ولا يستكر من إجابة الأمة والمسكين (٩) يضب لربه ولا يضب لنفسه (١٠) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال : أنا لأتصر بمشرك (١١) ووجد من فضله أصحابه

(١) حديث : « كان لا يسئل شيئاً إلا أعطاه » أخرجه الطيالسي والدارقطني من حديث سهل بن سعد والبخاري من حديثه « في الرجل الذي سأله الشملة فقيل له سألتها إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً . . . » . ولمسلم من حديث أنس : ما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وفي الصحيحين من حديث جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا . (٢) حديث أنه كان يؤثر بما أدره ليعال حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام . هذا معلوم ويدل عليه ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه عليه السلام توفي ودرعه مرهونة بشرين ساعاً من طعام أخذه لأهله . وقال ابن ماجه ثلاثين ساعاً من شعر . وإسناده جيد والبخاري من حديث عائشة : توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين . وفي رواية البيهقي ثلاثين ساعاً من شعر . (٣) حديث : وكان عليه السلام يخفف النمل ويرقع الثوب ويحتم في مهنة أهله . أخرجه أحمد من حديث عائشة كان يخفف نمل ويغيط ثوبه ويسئل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته . ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ : ويرقع الثوب . والبخاري من حديث عائشة : كان يكون في مهنة أهله . (٤) « أنه كان يقطع اللحم » أخرجه أحمد من حديث عائشة : أرسل إلينا آل أبي بكر فقامت شاة ليلاً فأمسكت وقطع النبي عليه السلام أو قالت فأمسك النبي عليه السلام وقطعت . وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر في أثناء حديث : وإيم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حذر له عليه السلام من سواد بطنها . (٥) « كان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد . » أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان عليه السلام أشد حياء من الغداز في خدرها (٦) حديث : كان يحب دعوة العبد والحر . أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس : كان يحب دعوة للملوك . قال الحاكم صحيح الإسناد قلت : بل ضعيف والدارقطني في غرائب مالک وضعفه والخطيب في أسماء من روى عن مالک من حديث أبي هريرة : كان يحب دعوة العبد إلى أي طعام دعى ويقول « لودعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا بموجبه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة : كان لا يدعو أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه ... وهو مرسل (٧) حديث : كان قبل الهدية ولو أنها جرة لبن أو غدة أرنب ويكافئ عليها أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت : كان النبي عليه السلام قبل الهدية ويحب عليها . وأما ذكر جرة اللبن ، وغدة الأرنب . ففي الصحيحين من حديث أم الفضل أنها أرسلت بقمع لبن إلى النبي عليه السلام وهو واقف برفة فشربه . ولأحمد من حديث عائشة : أهدت أم سلمة للنبي عليه السلام لبنا ... وفي الصحيحين من حديث أنس : أن أبا طلحة بث بورك أرنب أو غنخها إلى النبي عليه السلام قبله (٨) حديث : كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٩) حديث كان لا يستكر أن يشمع للسكين . أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بسند صحيح وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصلوة ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وقال صحيح على شرط الشيخين . (١٠) حديث : كان يضب لربه ولا يضب لنفسه . أخرجه الترمذي في التباذل من حديث هند ابن أبي هالة وفيه : وكان لا تضبه الدنيا وما كان منها فلذا تعدى الحق لم يحم لضبه شيء حتى ينتصر له ولا يضب لنفسه ولا ينتصر لها . وفيه من لم يسم . (١١) حديث : وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال « أنا لا أتصر بمشرك » أخرجه مسلم من حديث عائشة : خرج النبي عليه السلام فلما كان بحجرة الورة أدركه رجل قد كان يذكره جرأة ويحذره فصرح بأصحاب النبي عليه السلام لا رأوه فلما أدركه قال جئت لأتبعك وأسيب معك فقال له « أوؤمن بالله ورسوله » قال : لا . قال « فارجع فإني أمتعن بمشرك ... »

وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل واده بمائة ناقة وإن بأصحابه الحاجة إلى يبر واحد يتقون به^(١) وكان يصعب الحجر على بطنه مرة من الجوع^(٢) ومرة يأكل ما حضر ولا يرمي ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمرا دون خبز أكله^(٣) وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله وإن وجد حلا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز أكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطباً أكله ، لا يأكل متكئا^(٤) ولا على خوان^(٥) متدليه باطن قدميه^(٦) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية^(٧) حتى لقي الله تعالى إيثارا على نفسه لافقرا ولا يغلبه غيب الويلية^(٨) ويعود المرضى^(٩) ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس^(١٠) أشد الناس تواضعا وأسكتم

(١) حديث : وجد من فضله أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فؤاده بمائة ناقة . . . الحديث متفق عليه حديث سهل بن أبي حشمة ورافع بن خديج والرجل الذي وجد قتيلا هو عبد الله بن سهل الأنصاري . (٢) حديث : كان يصعب الحجر على بطنه من الجوع . متفق عليه من حديث جابر في قصة خضر الخندق وفيه : فإذا النبي ﷺ شد على بطنه حجرا . وأغرب ابن حبان فقال في صحيحه إنما هو الحجر - بضم الحاء وآخرها زاي - جمع وليس يتابع على ذلك . ويرد على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي طلحة : شكوا إلى النبي ﷺ الجوع ورفضنا عن بطوننا عن حجر حجر فرخ النبي ﷺ عن حجرين . ورجاله كلهم ثقات (٣) حديث : كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله وإن وجد حلا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز أكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطباً أكله . انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه في الترمذي من حديث أم هانئ دخل على النبي ﷺ قال « أعندك شيء ؟ » قلت : لا ، إلا خبز ياس وخل فقال « هات » ، وقال حسن غريب ، وفي كتاب التهاطل لأبي الحسن بن الصالح بن المقرئ من رواية الأوزاعي قال : قال رسول الله ﷺ « ما أبالي ما رددت به الجوع » وهذا مضطرب ، ولمسلم من حديث جابر : أن النبي ﷺ سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به . . . الحديث . وله من حديث أنس : رأيته متعيا يأكل يأكل تمرات والترمذي وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنبا مشوفا فأكل منه . . . وللشيخين من حديث عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا خبز حتى مضى لسيده ، فقط مسلم وفي رواية له : ما شبع من خبز شعير يومين متتابعين . والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس : كان أكثر خبز الشعير . وللشيخين من حديث عائشة : كان يحب الحلواء والعسل . ولها من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ شرب لبنا فدعا بماء فتمضمض . والنسائي من حديث عائشة : كان يأكل الرطب بالطيخ وإسناده صحيح (٤) حديث : أنه كان لا يأكل متكئا . تقدم في آداب الأكل في الباب الأول (٥) حديث : أنه كان على خوان . تقدم في الباب للذكور (٦) كان متدليه باطن قدميه . لا أعرفه من فضله وإنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر : كنا زمان رسول الله ﷺ قليلا ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا متدليل إلا أكفنا وسواعنا . وقد تقدم في الطهارة (٧) حديث : لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله . تقدم في حجة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث (٨) حديث : كان يجيب الويلية . هذا معروف وتقدم قوله « لودعيت إلى كراع لأجبت » وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس : أنه كان الرجل من أهل الموالي يدعو رسول الله ﷺ ينصب الليل على خبز الشعير فيجيب . وإسناده ضعيف .

(٩) حديث : كان يعود المرضى ويشهد الجنائز أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الإسناد ، وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز .

(١٠) حديث : كان سهل بن حنيف سهل بن حنيف ، بمشي وحده بين أعدائه بلا حارس . أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يحرس حتى زالت هذه الآية « والله يصمك من الناس » فأخرج رأسه من البقية قال « انصرفوا فقد عصمت الله » قال الترمذي غريب وقال الحاكم صحيح الإسناد .

في غير كبر (١) وأبلغهم في غير تطويل (٢) وأحسنهم بشرا (٣) لا يهوله شيء من أمور الدنيا (٤) ويلبس ما وجد فرقة شملة ومرة برد حيرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس (٥) وخاتمة فضة (٦) يلبسه في خنصره الأيمن (٧) والأيسر (٨) يردف خلفه عبده أو غيره (٩) يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بئلة شياه ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود للمرضى في أقصى المدينة (١٠) يحسب الطبيب يكره الراححة

(١) كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر . رواه أبو الحسن بن الضحاك في التماثل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته عليه السلام : هين المؤنة لبين الخلق كرم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه إلى أن قال متواضع في غير ذلة — وفيه — دائب الإطراق . وإسناده ضيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند النساء من حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين . . . الحديث . وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء : جلس وجلسنا كأن على رءوسنا الطير . . . الحديث . ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير . (٢) حديث : كان أبلغ الناس من غير تطويل أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان يحدث حديثا لو عدده الماء لأحصاه . ولها من حديثها : لم يكن يسرد الحديث كسردكم علقه البخاري ووصله مسلم زاد الترمذي : ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه وله في التماثل من حديث ابن أبي هالة : يتكلم بمجوامع الكلام فصل لافضل ولا تقصير . (٣) حديث : كان أحسنهم بشرا الترمذي في التماثل . وله من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غريب ، قلت : وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث : كان لا يهوله شيء من أمور الدنيا . أخرجه أحمد من حديث عائشة : ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقى وفي لفظ له : ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذو تقى . وفيه ابن لهيعة . (٥) حديث : كان يلبس ما وجد فرقة شملة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : جاءت امرأة يردة . قال سهل : هل تدرون ما البردة ؟ هي الشملة منسوجة في حاشيتها . وفيه : نفرج إلينا وإنها لإزاره . . . الحديث ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها . فيه الأحوص بن حكيم مختلف فيه وللشيخين من حديث أنس : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الجبرة . ولها من حديث المنيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف . (٦) حديث : خاتمة فضة . متفق عليه من حديث أنس : أخذ خاتما من فضة . (٧) حديث : لبسه الخاتم في خنصره الأيمن أخرجه مسلم من حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه . وللبخاري من حديثه : فإني لأرى برقه في خنصره . (٨) حديث : تختمه في الأيسر أخرجه مسلم من حديث أنس : كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه — وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى — . (٩) حديث : إردافه خلفه عبده أو غيره . أرذف صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد من عرفة . كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة ، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضا من حديث أسامة وهو مولاة وابن مولاة ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضا من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس ، وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة . (١٠) حديث : كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بئلة شياه ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود للمرضى في أقصى المدينة . في الصحيحين من حديث أنس : ركبه النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة . ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه القرس عريا حين انصرف من جنازة ابن السداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم فرس يقال له : اللحيث . ولها من حديث ابن عباس طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . ولها من حديث البراء : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بئله البيضاء يوم حنين . ولها من حديث أسامة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب على إكاف . . . الحديث . ولها من حديث ابن عمر : كان يأتي قبا ، رأيا ومالبا . ولمسلم من حديثه في عبادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة : ققام وقتنا معه ونحن ضمة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا أقص نخشى في السباح . . . الحديث .

الرديئة^(١) ويجالس الفقراء^(٢) ويؤاكل المساكين^(٣) ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالرلم^(٤) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم^(٥) لا يعفو على أحد^(٦) يقبل مدبرة المعتد إليه^(٧) مزح ولا يقول إلا حقاً^(٨) يضحك من غير قهقهة^(٩) يرى اللب المباح فلا يشكره^(١٠) يساق أهله^(١١) وترفع الأصوات عليه فيصير^(١٢) وكان له قناع وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانيا^(١٣) وكان له عبيد وإماء لا ترتفع عليهم في

(١) حديث: كان يحب الطبيب والراخمة الطيبة ويكره الروائح الرديئة. أخرجه النسائي من حديث أنس: حب إلى النساء والطيب وأبو داود والحاكم من حديث عائشة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يجه من صوف قلبها فلعارق وجد ريع الصوف غفلها وكان يصبه الريح الطيبة. لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولا يثبت من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة. (٢) حديث: كان يجالس الفقراء. أخرجه أبو داود ومن حديث أبي سعيد: جلست في عصاة من ضفاء المهاجرين وإن بهم ليرتبط من الرى... الحديث. وفيه: جلس رسول الله ﷺ وسطنا ليلد بنفسه فينا الحديث. وإن ما جهم من حديث خباب: وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا... الحديث في زول قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) إسنادها حسن (٣) حديث: مؤاكلة فلان كين أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يؤون إلى أهل ولا مال ولا ولي أحد، إذا أتمدقة يمشي بها ولم يتناول منها وإذا أتمدقة أرسل اليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. (٤) حديث: كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالرلم. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل في صفته ﷺ: وكان من سيرته إثارة أهل الفضل يذوقهم على قدر فضله في الدين. وفيه: يؤولهم ولا يفرهم ويكرم كرم كل يوم ويؤله عليهم... الحديث. والبطراني من حديث جرير في قصة إسلامه: فألقى إلى كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كرم قوم فأكرموا. وإسناده جيد ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٥) حديث: كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس: كان جل العباس لإجل الوالد والوالدة. ولهم حديث سعد بن أدوقس: أنه أخرج عبد العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علينا فقال «ما أنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكنه» قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفي مسلم للأنبياء: فأتى علينا لفضله بتقديم إسلامه وشهوده بدرنا والله أعلم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد لا يقين في المسجد باب إلا سدا لأبى بكر. (٦) حديث: كان لا يعفو على أحد. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس كان قداما بوجه رجلا يكرهه. وفيه ضعف وللشيخين من حديث أبي هريرة: إن رجلا سأل عن علي عليه السلام فقال «بش أخو الشيرة فلما دخل لأن له القول» (٧) حديث: يقبل مدبرة المعتد إليه. متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه: لطف الخلقون يستندون إليه قبلهم من غلاتهم... (٨) حديث: مزح ولا يقول إلا حقاً. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ: قالوا إنك تداعبنا؟ قال «إي ولا أقول إلا حقاً وقال حسن. (٩) محكة من غير قهقهة. أخرجه الشيخان من حديث عائشة: لما راى رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته إنما كان يتم. والترمذي من حديث عبد الله ابن الجارث بن جزء: لما كان ضحك رسول الله ﷺ لا ينبت. قال صحيح غريب وله في الشمائل في حديث هذبن إلى أهله: جل محكة التسم. (١٠) يرى اللب المباح ولا يكرهه. أخرجه الشيخان من حديث عائشة: في لب الحبيبة بين يديه في المسجد وقال لهم «دونكم يا بني أرفدة» وقد تقدم في كتاب الباع. (١١) مسابقة أهله. أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة: في مسابقة لها. وتقدم في الباب الثالث من النكاح. (١٢) رضع الأصوات عنه فيصير. أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير: قدم ركب من بني عجم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القناع ابن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافاً؟ وقال عمر: ما أردت خلافاً، فتأريا حتى ارتفعت أصواتهما فزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله». (١٣) وكان له قناع وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانيا. أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة: كان عيشنا مع رسول الله ﷺ اللين — أو قالت أكثر عيشنا — كانت لرسول الله ﷺ قناع بالثابة. وفي رواية له: كانت لنا أعز سجع فكان الراعى يبلغ من مرة الحمى ومرة أحدا وروح بين عينا وكانت قناع بنى الحبل فيؤب إلنا ألبانيا بال... الحديث. وفي إسنادها محمد بن عمر الواقدي ضيف في الحديث، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع: كانت قناع رسول الله ﷺ ترى بنى قرد. ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة. لنا غنم مائة لا تريد أن تزيد فلذا ولها الراعى بهمة ذبحنا مكناها شاة.

ما كل ولا ملبس^(١) ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه^(٢) يخرج إلى بساتين أصحابه^(٣) لا يحقر مسكينا فقره وزماته ولا يهاب ملكا للملك يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا^(٤) قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، نفأ في بلاد الجبل والصحارى وفقره وفي رعاية التميم بليا لأب له ولا أم فضله الله تعالى جميع عاسن الأخلاق والطرق الحيدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والنبطة والخلص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول^(٥) . وفننا الله طاعته في أمر والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

ما رواه أبو البحتري قال : ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتمه إلا جعل لها كفارة

(١) حديث : كان له عبيد وإماء فلا يرضع عليهم في مأكل ولا ملبس . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلى قالت : كان خدم النبي ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن . وإسناده ضعيف ، وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله ﷺ فذكر : بركة — أم أيمن — وزيد ابن حارثة وأبا كبشة وأنسة وخضران وسفينة وثوبان ورباحا ويسارا وأبا رافع وأنا موهبة ورافعا . اعتقهم كلهم ، وفضالة ومدعما وكركرة . وروى أبو بكر بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف : كان ﷺ يأكل مع خادمه . ومسلم من حديث أبي اليسر « أطمعوه مما تأكلون والبسوه مما تلبسون ... الحديث » .

(٢) حديث : لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . أخرجه الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ، ثم جزأ جزءاً بينه وبين الناس فرد ذلك بالحاجة على العامة ... الحديث . (٣) حديث : يخرج إلى بساتين أصحابه . تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل (خروجه ﷺ إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما) .

(٤) حديث : لا يحقر مسكينا فقره وزماته ولا يهاب ملكا للملك يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : مر رجل على رسول الله ﷺ فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب أن يشكح ... الحديث . وفيه : فر رجل من قراء السليق فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب أن لا يشكح ... الحديث . وفيه : هذا خير من مل ، الأرض مثل هذا » ومسلم من حديث أنس : أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وقصر والتجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . (٥) حديث : قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نفأ في بلاد الجبل والصحارى وفي فقر وفي رعاية التميم لأب له ولا أم فضله الله تعالى جميع عاسن الأخلاق والطرق الحيدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والنبطة والخلص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . هذا كله معروف معلوم فروى الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته : وكان من سيرته في جزأ الأمة إشار أهل القننل بإذنه وقسمه ... الحديث . وفيه : فسأته عن سيرته في جلساته فقال كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ... الحديث وفيه : كان يحزن لسانه إلا فيما يمينه . وفيه : قد ترك نفسه من ثلاث : من المراء والإكثار وما لا يمينه ... الحديث . قد تقدم بعنه ، وروى ابن مردويه من حديث : ابن عباس في قوله ﴿ وما كنت تلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ﴾ قال : كان نبي الله ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب . وقد تقدم في العلم والبخارى من حديث ابن عباس قال : إذا سرك أن تلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الدين قتلوا أولادهم منها بنير علم ﴾ وأحمد وابن حبان من حديث أم سلفة في قصة هجرة الحبشة : أن جعفرا قال للتجاشى أيها اللاتكنا قوما أهل جاهلية نبدل الأنعام ونأكل الميتة ... الحديث . ولأحمد من حديث أبي كعب : إن لي حمرا ابن عشرين سنين وأتبر فإذا كلام فوق رأسي . . الحديث . والبخاري من حديث أبي هريرة : كنت أرعاها — أي التميم — على قراريط لأهل مكة ولاني على وابن حبان من حديث حليمه : إنما أرجو كرامة الرضاغة من والد المولود وكان يتبا . . . الحديث . وتقدم حديث « بشت بمكارم الأخلاق » .

ورحمة (١) ومال من امرأة فطولا خادما بلعة (٢) وقيل له وهو في القتال : لو لستم يا رسول الله فقال : إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعنا (٣) وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له (٤) وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى « وما أنتم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك (٥) وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته (٦) وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه ولم فلتله ؟ ولا لافني نساؤه إلا قال : دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر (٧) قالوا : وما عاب رسول الله ﷺ مضجعا : إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض (٨) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعث في السطر الأول فقال : محمد رسول الله عيسى المختار لافظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالبيينة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، مولاه بمكة وهجرة بمكة بطاية ومملكة بالشام يأتزرو على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه ، وكذلك نمته في الإنجيل ، وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام (٩) ومن قاموه لحاجة صابره حتى يكون هو المتصرف (١٠) وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى

(١) حديث « ما شتم أحدا من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « في أي المؤمنين لمتته شتمته جلده فاجله له صلاة وزكاة وقربة » وفي رواية « فاجلها زكاة ورحمة » وفي رواية « فاجلها له كفارة وقربة » وفي رواية « فاجل ذلك كفارة له يوم القيامة » .

(٢) حديث : ما لمن امرأة ولا خادما قط . المعروف : ما ضرب مكان : ما لمن . كما هو متفق عليه من حديث عائشة وللبخاري من حديث أنس : لم يكن فاشا ولا لعنا . وسيأتي الحديث الذي بعده في هذا المعنى .

(٣) « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعنا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث : كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعاه . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة : قالوا يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبث فادع عليهم قبيل : هلك دوس ، فقال « اللهم اهد دوسا وأمت بهم » (٥) حديث : ما ضرب بيده أحدا قط إلا في سبيل الله وما أنتم من شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله ... متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة (٦) حديث : ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته . أخرجه البخاري تعليقا من حديث أنس : إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنتقل به حيث شاءت . ووصله ابن ماجه وقال : فما يزع يدمعن يدها حتى تنهب ببعث شابت من المدينة في حاجتها . وقد تقدم ، وتقدم أيضا من حديث ابن أبي أوفى : ولا يأف ولا يستكر ابن يتي مع الأرملة والمساكين حتى يقضى لها حاجتها (٧) حديث أنس : والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه « لم فلتله ؟ » ولا لافني أحد من أهله إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر » أخرجه الشيخان من حديث أنس : ما قال شيء منتهه ولم منتهه ؟ « ولا لتيه ركة » لم ركة ؟ « وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديث له قال فيه : ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فهاهنا عليه . فإن عاتبني أحد من أهله قال « ادعوه فلو قدر شيء كان » وفي روايته له « كذا قضى » (٧) حديث : ما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع على الأرض . لم أجده بهذا اللفظ والمعروف : ما عاب طعاما . ويؤخذ من عموم حديث علي

ابن أبي طالب : ليس بلفظ . إلى أن قال : ولا عياب رواه الترمذي في التماثل والطبراني وأبو نعيم في دلائل النبوة ، وروى أن ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس : ما أعله عاب شيئا قط . وفي الصحيحين من حديث عمر : اضطجاعه على حصير . والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير وقد آثر في جنبه ... (٩) حديث : كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام أخرجه الترمذي في التماثل من حديث هند بن أبي هالة . (١٠) حديث : ومن قاموه لحاجة صابره حتى يكون هو المتصرف أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن

أبي طالب وهو من حديث أنس كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المتصرف . ورواه الترمذي نحوه وقال غريب .

يرسلها الآخر (١) وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بالمصافحة ثم أخذ يديه فشابكه ثم شد قبضته عليها (٢) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله (٣) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال: «ألك حاجة؟» فإذا فرغ من عاد إلى صلاته (٤) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك يديه عليهما شبه الحياة (٥) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه (٦) لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس (٧) وما روى قط ما دار جلوسه بين أصحابه حتى لا يضييق بهما على أحد إلا أن يكون المسكن واسما لا مضيقي، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة (٨) وكان بكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست يديه قرابة ولا رضاع مجلسه عليه (٩) وسكان يؤثر الداخل عليه بالومادة التي تحت فخذ أن يأن يقبلها عزم عليه حتى يفعل (١٠) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه (١١) حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف عاسته وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك حياء وتواضع، وأمانة قال الله تعالى ﴿فيا رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا تقتضوا من حوارك﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم (١٢) ويكنى من لم

(١) حديث: وما أخذ أحد يديه فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. الترمذي وابن ماجه من حديث أنس النبي عليه السلام: كان إذا استقبل الرجل مصافحه لا يزع يده من يده حتى يكون الرجل يزع. لفظ الترمذي وقال غريب. (٢) حديث: كان إذا لقي أحد من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ يديه فشابكه ثم شد قبضته. أبو داود ومن حديث أبي ذر: وسأله رجل من عزة هل كان النبي ﷺ يصافحك إذا قيسموه؟ قال: ما قيسته قط إلا صافني... وفيه الرجل الذي من عزة ولم يسم وسماه النبي في الأدب عبد الله ورونيته في علوم الحديث للحاكم من حديث أبي هريرة قال: شبك يدي أبو القاسم ﷺ وهو عند مسلم بلفظ: أخذ النبي ﷺ يديه (٣) حديث: كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل. أخرجه الترمذي في الثبائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفته وقال: على ذكر - بالنون - (٤) حديث: كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال «ألك حاجة؟» فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته لم أجد له أصلا. (٥) حديث: كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك يديه عليهما شبه الحياة. أخرجه أبو داود والترمذي في الثبائل من حديث أبي سعيد الخدري: كان النبي ﷺ إذا جلس في المجلس احتج يديه. وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر: رأيت النبي ﷺ فناء الكعبة عتيا يديه (٦) حديث: أنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر: قالوا كان النبي ﷺ يجلس بين ظهري أصحابه فيجبه التراب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل... (٧) حديث: إنه حيث انتهى به المجلس جلس. رواه الترمذي في الثبائل من حديث علي الطويل. (٨) حديث: ما روى قط ما دار جلوسه بين أصحابه حتى يضييق بها على أحد إلا أن يكون المسكن واسما لا مضيقي فيه أخرجه البارقطنى في غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل والترمذي وابن ماجه لم يقدموا ركنيته بين يدي جليسه له، زاد ابن ماجه قط وسنده ضعيف (٩) حديث: كان بكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست يديه وبينه قرابة ولا رضاع مجلسه عليه. أخرجه الحاكم وصححه وإسناده من حديث أنس: دخل جرير بن عبد الله على النبي ﷺ وفيه: فأخذ يده فأتاهاها عليه فقال «اجلس علي يا جرير» وفيه «فإذا أنا كرم قوم فأكرمهم» وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة. وللطبراني في الكبير من كلام جرير: فألقى إلى كساء. ولأبي نعيم في الحلية: فبسط إلى رداءه (١٠) «كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحت...» تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة. (١١) «ما استصفاه أحد إلى ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة، أخرجه الترمذي في الثبائل من كلام علي الطويل وفيه: ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب أن أحدا أكرم عليه منه. وفيه: مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة. (١٢) «كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم في الصمحين في قصة النار من كلام أبي بكر: يا أبا بكر ما نلتك باثنين الله ثالثهما. ولحاكم من كلام ابن عباس. أنه قال لعمرأبا حصص أصبحت وجهه عن النبي ﷺ؟ قال عمر إنه لأول يوم كنت في أبي حصص. وقال صحيح على شرط مسلم وفي الصحيحين أنه قال لعل: قم يا أبا تراب. ولحاكم من كلام رفاعة ابن مالك: أبا حسن وجد منصا في بطنه فتخلت عليه - يريد عليا - ولأبي جلي اللوسى من كلام سعد بن أبي وقاص: فقال من هذا؟ أبو إسحاق؟ قلت: نعم

تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ^(١) ويكنى أيضا النساء اللاتي لم يلدن يتنسى لمن الكنى ^(٢) ويكنى الصبيان فيستلن به قلوبهم ^(٣) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ^(٤) وكان أرف الناس بالناس وغير الناس للناس وأنتع الناس الناس ^(٥) ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ^(٦) وكان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول عشرين جبريل عليه السلام ^(٧) .

بيان كلامه وضحه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما ويقول ^(٨) :
 أنا أفصح العرب ^(٩) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ^(١٠) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كخزرات نظم ^(١١) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان لا يسرد الكلام كسرهم هذا كان كلامه نورا وأنتم تثرثون الكلام ثرا ^(١٢) قالوا : وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جهاده جبريل وكان

== ولما حكم من كلام ابن مسعود : أن النبي ﷺ كناه أنا عبد الرحمن ولم يوله . ^(١) « كان يكنى من يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به » أخرجه الترمذي من كلام أنس قال كنانى النبي ﷺ يفته كنت أخليا بينى أبا حمزة - قال حديث غريب وابن ماجه : أن عمر قال لصوب بن مالك تكنى وليس لك ولد ؟ قال كنانى النبي ﷺ بأبي يحيى . للطبراني من كلام أبي بكر : تدليت بكثرة من الطائف فقال لي النبي ﷺ فأنت أبو بكر ^(٢) « كان يكنى النساء اللاتي لم يلدن والأولاد والأولاد لم يلدن يتنسى لمن الكنى » أخرجه الحاكم من كلام أبي بكر في قصة شريها بول النبي ﷺ قال « نالم أئمن قوى إلى تلك الفخارة ... » وابن ماجه من كلام عائشة : أنها قالت للنبي ﷺ كل أزواجك كنيته غيري قال « فأنت أم عبد الله » والبخاري من كلام أم خاله : أن النبي ﷺ قال لها « يا أم خلد هذا سنه » وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبي داود يسناد صحيح أنها قالت . يارسول الله كل صواحي لمن كنى قال فاكنتي بابيك عبد الله ابن الزبير .

^(٣) كان يكنى الصبيان . في الصحيحين من كلام أنس : أن النبي ﷺ قال لأخ له صبير « يا أبا عمير ما فعل الصبير »
^(٤) كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . هذا من اللعوم ويدل عليه إخباره ﷺ أن بنى آدم خيرهم بطي الغضب سريع الغنى ، رواه الترمذي من كلام أبي سعيد الخدري وقال حسن وهو ﷺ خير بنى آدم وسيدهم ، وكان ﷺ لا ينضب لنفسه ولا ينصرف لها . رواه الترمذي في الشئام من كلام هند بن أبي هالة . ^(٥) كان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأفصح الناس للناس . هذا من اللعوم ورويناه في الجزء الأول من فوائد أبي الفتح من كلامه على في صفة النبي ﷺ : كان أرحم الناس بالناس ... الحديث بطوله . ^(٦) لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . أخرجه الترمذي في الشئام من حديث علي الطويل . ^(٧) كان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك ... » النساء في اليوم والليالي والحاكم في المستدرك من كلام رافع بن خديج ، وتقدم في الأذكار والنعوات . ^(٨) كان أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما . أبو الحسن بن الفضل في كتاب الشئام وابن الجوزي في الوفاء لبسناد ضعيف من كلام بريدة : كان رسول الله ﷺ من أفصح العرب ، وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ما هو حتى يجبرهم . ^(٩) « أنا أفصح العرب » الطبراني في الكبير من كلام أبي سعيد الخدري « أنا أعرب العرب » وإسناده ضعيف والحاكم من كلام عمر ، قال : قلت يارسول الله ما بالك أفصحننا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ . وفي كتاب الرد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل : أن أعرابيا قال للنبي ﷺ : ما رأيت أفصح منك . ^(١٠) إن أهل الجنة يتكلمون بكلام محمد ﷺ ، الحاكم من كلام ابن عباس وصححه : كلام أهل الجنة عربي . ^(١١) كان نزر الكلام ، سمح المقالة إذا نطق ، ليس بمهذار ، وكان كلامه خزرات نظم . الطبراني من كلام أم معبد : وكان منطق خزرات نظم بنجدون ، لأنزرو ولاهذر وقد تقدم وسياتي في حديث عائشة بعده : كان إذا تكلم تكلم نورا . وفي الصحيحين من حديث عائشة : كان يحدثنا حديثا لو عده العباد لأحصاه . ^(١٢) قول عائشة : كان لا يسرد كسرهم هذا ، كان كلامه نورا وأنتم تثرثونه ثرا . اتفق الشيخان على أوله وأما الجملتان الأخيرتان فرواهما الخلفي في فوائد لبسناد منقطع .

مع الإيجاز يجمع كل ما أراد (١) وكان يتكلم بمجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقفت يحفظه سامعه ويحييه (٢) وكان جهر الصوت أحسن الناس نعمة (٣) وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة (٤) ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق (٥) ويعرض عن تكلم بغير جميل (٦) ويكنى عما اضطره الكلام إليه بما يكره (٧) وكان إذا سكت تكلم جلساً واه ولا يتنازع عنده (٨) في الحديث يعظ بالجد والتبصيرة (٩) ويقول « لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أنزل على وجوه (١٠) » وكان أكثر الناس تبساً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعباً بما تحدثوا به وخطأ نفسه بهم (١١) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (١٢) وكان ضحكاً أصحابه عنده التيسر

(١) كان أوجز الناس كلاماً وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد . عید بن حید من كلام عمر بنتمنقطع والدارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد : أعطيت جوامع الكلم واخصر لي الحديث اختصاراً . وشطره الأول متفق عليه . كما سأل - قال البخاري : بلغني في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأمير ونحو ذلك . والحاكم من حديث عمر التميمي : كانت لغة إسحاق قد درست فجاء بهاجيريل يحفظها (٢) كان يتكلم بمجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير ، كلام يتبع بعضه بعضاً ، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويحييه . رواه الترمذي في التباثل من حديث هند بن أبي هالة ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : بشت مجوامع الكلم . ولأبي داود من حديث جابر : كان في كلام النبي ﷺ تزيل أو ترسل . وفيه شيء لم يسم له وللترمذي من حديث عائشة : كان كلام النبي ﷺ فضلاً فيه كل سمع . وقال الترمذي : يحفظه كل من جلس إليه ، وله في اليوم واليلة : يحفظه من سمعه وإسناده حسن . (٣) كان جهر الصوت أحسن الناس نعمة . الترمذي والنسائي في الكبرى من كلام صفوان بن عسال قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر بيننا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهر : يا محمد ! فأجابته رسول الله ﷺ على نحو من صوته « هاؤم » . وقال أحمد في مسنده : وأجابه نحواً مما تكلم به وقد يؤخذ من هذا أنه ﷺ كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائماً . وقد يقال : لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته رقياً بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته ، وهو الظاهر ، وللشيخين من حديث البراء : ما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه . (٤) كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . في التباثل من حديث هند بن أبي هالة .

(٥) لا يقول المنكر ، ولا يقول في الغضب والرضا إلا الحق . أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فتهني فريش وقالوا : تكتب كل شيء ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك له ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال « اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق » رواه الحاكم رحمه . (٦) كان يعرض عن تكلم بغير جميل . الترمذي في التباثل من حديث علي الطويل : يتناقل عما لا يشتهي . . . (٧) حديث : يكنى عما اضطره الكلام بما يكره فمن ذلك قوله ﷺ لامرأة رافعة « حتى تنوق عيلته ويذوق عيلتك » رواه البخاري من حديث عائشة ، ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثهما في المرأة التي سألت عن الاغتسال من الخيض « خذي فرجة ممسكة فطهرى بها . . . » . (٨) كان إذا سكت تكلم جلساً واه ولا يتنازع عنده في الحديث . رواه الترمذي في التباثل من حديث علي الطويل .

(٩) حديث : يعظ بالجد والتبصيرة . مسلم من حديث جابر : كان النبي ﷺ إذا خطب أحمرته عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساءكم . . . (١٠) « لا تضربوا القرآن بعضه ببعض وأنه أنزل على وجوه » الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض » وفي رواية له « أهدأ أمرهم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » (١١) كان أكثر الناس تبساً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعباً بما تحدثوا به وخطأ نفسه بهم . الترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحداً أكثر تبساً من النبي ﷺ . وفي الصحيحين من حديث جرير : ولا رأيي إلا تبسم . والترمذي في التباثل من حديث علي : ضحكك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه . ومسلم من حديث جابر بن مرة : كانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . (١٢) حديث : ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه . متفق عليه من كلام عبد الله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الجبر الذي قال : إن الله يضع السموات على أصبع . ومن حديث أبي هريرة في قصة الجامع في رمضان وغير ذلك

اقتداء به وتوقيراً له^(١) قالوا : ولقد جاءه أعرابي يوماً وهو عليه السلام متغير اللون يشكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي فإنا نشكر لونه فقال : دعوني والذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتيسر ، فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالترديد وقد هلكوا جوعاً أقرى لبأى أنت وأمي أن أكف عن ترديده تمغفاً وتزهداً حتى أهلك من الآلام أحرب في ترديده حتى إذا ضلعت شيعاً أمنت بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواحيه ثم قال : لا يل يفتنيك الله بما يعني به المؤمنين^(٢) قالوا : وكان من أكثر الناس تسبوا وأطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة عظيمة^(٣) وكان إذا سُرِى روضى فهو أحسن الناس رضاء فإن وعظ وعظ مجد وإن غضب - وليس يغضب إلا الله - لم يغم لغضبه شيء. وكذلك كان في أموره كلها^(٤) وكان إذا نزل به الأمر فرض الأمر إلى الله وتبرأ من الحلول والثقة واستزل المدي فيقول **واللهم أرني الحق حقاً فأتيه وأرني الشكر منكراً وارزقني اجتنبه وأعذني من أن يشبهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما أختلج فيه من الحق ياذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**^(٥) .

(١) كان ضحك أصحابه عنده التيسر اقتداء به وتوقيراً له . أخرجه الترمذي في التباين من حديث هذبن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل : جل ضحك التيسر . (٢) جاءه أعرابي يوماً وهو متغير يشكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي ، فإنا نشكر لونه فقال : دعوني والذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتيسر . قال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالترديد وقد هلكوا جوعاً ... وهو حديث منكسر لم أقف له على أصل وبرده قوله **يُخَالِطُونِي** في حديث للنسائي بن شعبة الملقق عليه حين سأله : إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال « هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لاسلم : أنهم يقولون إن معه جبلاً من خبز ولحم ... ثم في حديث حديثه وأبي مسعود اللثقي عليهما : إن معه ماء وناراً .

(٣) حديث : كان من أكثر الناس تسبوا وأطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة عظيمة . تقدم في كلام عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحداً أكثر تسبائه . وللطبراني في معارج الأخلاق من كلام جابر : كان إذا نزل عليه الوحي قال : نذير قوم ، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكاً ... ولأحمد من كلام علي أو الزبير : كان يخطب فيذكر بأبام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير قوم يصحبهم الأمر غداة ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتيسر ضاحكاً حتى يرتفع عنه . ورواه أبو يعلى من كلام الزبير من غرارك ولما تم من كلام جابر : كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه . وهو عند مسلم بلفظ : كان إذا خطب . (٤) حديث : كان إذا سُرِى روضى فهو أحسن الناس رضاء وإن وعظ وعظ مجد وإن غضب - ولا يغضب إلا الله - لم يغم لغضبه شيء. وكذلك كان في أموره كلها . أخرجه أبو الشيخ بن جابر في كتاب أخلاق النبي **صلى الله عليه وسلم** من كلام ابن عمر : كان النبي **صلى الله عليه وسلم** يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاحك الجدر وجهه . وإن ساءه ضيف وللراد به للراة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار وللشيخين من كلام كعب بن مالك قال : وهو يرق وجهه من السرور . وفيه : وكان إذا سر استدار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ومسلم : كان إذا خطب عيناه احمرت وعلا صوته واشتد غضبه ... وقصد تقدم والترمذي في التباين في حديث هذبن أبي هالة : لا تنضب الدنيا وما كان منها فإذا ندى الحق لم يغم لغضبه شيء حتى يتصور له ولا يغضب لنفسه ولا يتصور لها . وقد تقدم (٥) حديث : كان يقول « اللهم أرني الحق حقاً فأتيه وأرني الشكر منكراً وارزقني اجتنبه وأعذني من أن يشبهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما أختلج فيه من الحق ياذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » لم أقف لأوله على أصل ، وروى للمستغفر في الدعوات من كلام أبي هريرة : كان النبي **صلى الله عليه وسلم** يدعو فيقول « اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطينا منها ما برضيك عنا » ومسلم من كلام عائشة فيما كان يفتح به صلاته من الليل « اهدني لما أختلج فيه » إلى آخر الحديث .

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد^(١) وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف^(٢) والصنف ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها لعملة الجنة »^(٣) وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصل إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد »^(٤) وكان لا يأكل الحار ويقول « إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا نارا فأبرده »^(٥) وكان يأكل بما يليه^(٦) ويأكل بأصابعه الثلاث^(٧) وربما استعان بالرابعة^(٨) ولم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان »^(٩) وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالدج فأكل منه وقال « ما هذا يا أبا عبد الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ثم نأخذ منخ المخططة إذا طحت فنغليه على السمن والعسل في البرمة ، ثم نسوطه حتى يتنجس فيأتى بكارى فقال رسول الله

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

(١) حديث : كان يأكل ما وجد تقدم (٢) حديث : كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرت عليه الأيدي أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدى في الكامل من كلام جابر بسند حسن : أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي . ولأى يعل من كلام أنس : لم يجتمع له غداء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف . وإسناده ضعيف (٣) حديث كان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » أما التسمية فرواها النسائي من رواية : من خدم النبي ﷺ ثمان سنين : أنه سمع النبي ﷺ إذا قرب إليه طعاما يقول « بسم الله... » وإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٤) حديث : كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصل إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » أخرجه عبد الرازق في الصنف من رواية أيوب مضل . أن النبي ﷺ كان إذا أكل أخضر وقال « آكل كما يأكل العبد... » وروى ابن الضحاك في الثبائن من كلام أنس بسند ضعيف : كان إذا قدم على الطعام استوفى على ركبته اليسرى وإقام اليمنى ثم قال « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفضل كما يفعل البغدادي أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بسند حسن من حديث أبي بن كعب : أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه وكان لا يشك . أورده في صفة أكل النبي ﷺ وللزار من حديث ابن عمر « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ولأى يعلى من حديث عائشة آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وسندهما ضعيف (٥) حديث : كان لا يأكل الحار ويقول « إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا نارا » . البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح : أن النبي ﷺ يوما بطعام سخن فقال « ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم » ولأحمد بإسناد جيد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس : وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها . لفظ الطبراني والبيهقي وقال أحمد : فأحرقت أصابعه فقال : حس . وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذي بركة » وله فيه الصغير من حديثه أنى بصحة فتور فرغ يده منها وقال : « إن الله لم يطعمنا نارا » وكلاهما ضعيف (٦) كان يأكل بما يليه . أبو الشيخ بن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماء في رواية له وكذلك البيهقي في رواية في الشعب عبيد بن القاسم نسب سفيان الثوري . وقال البيهقي فخر به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ، ولأى الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٧) حديث أكلة بأصابعه الثلاث . مسلم من حديث كعب بن مالك (٨) حديث : استأنته بالرابعة . رويناه في الثلاثين من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله المعمرى هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مرسل كان النبي ﷺ يأكل بالجلس (٩) حديث : لم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان » العارقلني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « لا تأكل بأصبع فإنه أكل اللوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين... »

صلى الله عليه وسلم «إن هذا الطعام طيب» (١) «و يأكل خبز الشعير غير منخول» (٢) وكان يأكل القثاء بالرطب (٣) وبالملح (٤) وكان أحب القراكة الرطبة إليه البطيخ والنعب (٥) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر (٦) وربما أكله بالرطب (٧) ويستعين باليدن جميعا ، وأكل يوما الرطب في يمينه وكان يحفظ الثوب في يساره فرت شافعا شار إليها بالثوب فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل يمينه حتى فرغ وانصرفت الساعة (٨) وكان ربما أكل النعب خرطا يرى زواحه على لحيته كثر الزاؤل (٩) وكان أكثر طعامه الماء والتمر (١٠) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين (١١) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول وهو يذيق السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولوسا لت

(١) حديث : جاهد عثمان بن عفان بالفولج... قلت: المعروف أن الذي منه عثمان: الحبيص. رواه البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال : إن أول من خصى الحبيص عثمان بن عفان ، قدمت عليه غير تحمل التقى والصل .. وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن سلام : أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان وفيه : فإذا دقيق ومنمن وعسل. وفيه : ثم قال لأصحابه كلوا هذا تسميها فارس الحبيص. وأما خير الفولج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال: أول ما سمعنا بالفولج ، أتى جبريل النبي ﷺ فقال إن أمك يفتح عليهم الأرض ويغاض عليهم من الدنيا حتى إنهم لا يكون الفولج ، فقال النبي ﷺ : وما الفولج ؟ قال يغسلون السمن والصل جميعا . قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لأصل له (٢) كان يأكل خبز الشعير غير منخول . البخاري من حديث سهل بن سعد (٣) كان يأكل القثاء بالرطب . متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر (٤) كان يأكل القثاء بالملح . أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك (٥) أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والنعب . أبو نعيم في الطب النبوي من رواية زيد الحبشي: أن النبي ﷺ كان يحب من الفاكهة النعب والبطيخ . وروى أبو الشيخ وابن عدى في الكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس : كان يأخذ الرطب يمينه والبطيخ يساره ويأكل الرطب بالبطيخ ؟ وكان أحب الفاكهة إليه . فيه يوسف بن عطية الصفار جمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة . كان أحب الفاكهة لثي ﷺ الرطب والبطيخ وله من حديث آخر لها : فإن خير الفاكهة النعب وكلاهما ضعيف (٦) كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر . أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل النعب بالخبز فإرواه ابن عدى من حديث عائشة مرفوعا «عليكم بالمرامة» قيل يارسول الله وما المرامة ؟ قال «أكل الخبز مع النعب. فإن خير الفاكهة النعب وخير الطعام الخبز» وإسناده ضعيف وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والطبخ مشهور فهو الحديث الآتي بصدور أريد به السكر الذي هو الطرزد فلم أره أصلا إلا في حديث منكر مضل رواه أبو عمر التوفاني في كتاب البطيخ من محمد بن طي بن الحسين أن النبي ﷺ أكل بطيخا بسكر . وفيه موسى ابن إبراهيم للروزي كذبه ابن معين (٧) أكل البطيخ بالرطب . الترمذي والتسائي من حديث عائشة وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد : كان يأكل الرطب بالبطيخ . وهو عند الدارمي بلفظ : البطيخ بالرطب . (٨) حديث : استأثنته باليدن جميعا فأكل يوما الرطب في يمينه وكان يحفظ الثوب في يساره فرت شاة فأشار إليها بالثوب فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل يمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة . أما استأثنته يديه جميعا فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال : آخر ما رأيت من النبي ﷺ في إحدى يديه رطبت وفي الأخرى قثاء يأكل من هذه ويص من هذه . وتقدم حديث أنس في أكله يديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فروياه في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف (٩) ربما أكل النعب خرطا .. ابن عدى في الكامل من حديث اللباس والقيل في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا عتصرا وكلاهما ضعيف (١٠) كان أكثر طعامه الماء والتمر. البخاري من حديث عائشة: توفي النبي ﷺ وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء (١١) كان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين. أحمد من رواية إسماعيل بن أبي خاله عن أبيه قال دخلت على رجل وهو يجمع لنا بتمر وقال : لئن فلان النبي ﷺ صامها الأطينين ورجله هات وإتهامه لا يضرب

وبن أن يلعنني كل يوم لفعل^(١) » وكان يا^(٢) كل التريد بالحجم القرع^(٣) وكان يجب القرع ويقول « إنها شجرة فأخى
يونس عليه السلام^(٤) » قالت عاقشة رضي الله عنها وكان يقول « يا عاقشة إذا طينتم قدرا فأكثرُوا فيها من الدواء
فإنه يشد قلب الحزين^(٥) » وكان يا^(٦) كل لحم الطير الذي يصاد^(٧) وكان لا يتيمه ولا يصيده ويجب أن يصاد له يؤق به
فيها^(٨) » وكان إذا أكل اللحم لم يلاط^(٩) رأسه ويرقه له في رقه شم يشتهه أنها شاة^(١٠) وكان يا^(١١) كل الخبز
والسمن^(١٢) وكان يجب من الشاة النواع والكسف ، ومن القندر الدواء ومن الصباغ الخلل ومن التز
العجوة^(١٣) ودعاني العجوة بالبركة وقال « هي من الجنة وشفاء من السم والسر^(١٤) » وكان يجب من البقول الهندباء والبانروج
والبقلة الخفاة التي يقال لها الرجل^(١٥) .

(١) كان يحب اللحم ويقول «هو يزيد السم وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولوسألتني أن يطمعني كل يوم فقلت» أبو الشيخ من رواية معان قال : سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى النبي ﷺ اللحم ... والترمذي في الثائل من حديث جابر : أنا النبي ﷺ في منزلة فدخنا له شاة فقال «أنتم علوا أنا أحب اللحم» وإسناده صحيح وابن ماجه من حديث أبي البرداء بإسناد ضعيف : سيطعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم (٢) كان يأكل التريد باللحم والقرع . مسلم من حديث أنس (٣) كان يحب القرع ويقول «إنها شجرة أخى يونس» النسائي وابن ماجه من حديث أنس : كان النبي ﷺ يحب القرع . وقال القسائي : للبداء ، وهو عند مسلم بلفظ : تمجبه . وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس : فلفظته في أصل شجرة وهي البداء (٤) «بعائلة إذنا طيخم قديرا فأكثروا فيها من البداء فلما تشد قلب الحزين» رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي (٥) كان يأكل لحم الطير الذي يصاد . الترمذي من حديث أنس قال : كان عند النبي ﷺ طير يقال «اللهم انتي بأحب الخلق إليّ يا كمي هذا الطير» فجاء على فأكل معه قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعیفة . وروى أبو داود والترمذي واستخرج من حديث سفيان قال : أكلت مع النبي ﷺ لحم جارٍ (٦) كان لا يتبمه ولا يصيده ويحب أن يصاحبه فيؤتى به فياً كله؛ قلت هذا هو الظاهر من أحواله قد قال من تابع الصيد غفل رواه أبو داود والنسائي والترمذي عن حديث ابن عباس وقال : حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني «قد كانت قبلي لله رسالة كلهم يصطاد ويطلب الصيد» فهو ضعيف جدا (٧) كان إذا أكل لم يطأ يده رأسه إليه ورضه إلى فيه رفعا ثم نهش . أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال كنت آكل مع النبي ﷺ فأخذ اللحم من العظم فقال «أدن اللحم من فيك فإنه هنا وأمرأ» والترمذي من حديثه «انهش اللحم نهشا فإن أهني وأمرأ» وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضا وللشيخين من حديث أبي هريرة : تناول الأزارع فنهش نهشا... (٨) كان يأكل الحز والسمن متفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها : فأنت بذلك الحيز فأمر به النبي ﷺ فقمت وعصرت أم سلمة عكة فأقدمته... وفيه : ثم أكل النبي ﷺ . وفي رواية ابن ماجه : فضمت فيها شيئا من سمن ولا يصح وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر : وجدت أن عندي خبزة يشاء من زعفران مبلقة بسمن... قال أبو داود منكروا (٩) كان يحسن الشاة الأزارع والكفف ومن التقدر البداء ومن الصباغ الخلود من الحر المجوة . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال : وضعت بين يدي النبي ﷺ قصعة من ترید ولم تناول الأزارع وكانت أحب الشاة إليّ... وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس : كان أحب اللحم إلى النبي ﷺ الكفف . وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة لم يكن يجيبه من الشاة إلا الكفف . وتقدم حديث أنس : كان يحب البداء . قبل هذا بثة أحداث ولأبي الشيخ من حديث أنس : كان أحب الطعام إليه البداء . وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . كان أحب الصباغ إلى النبي ﷺ الحل . وله بالإسناد المذكور : كان أحب البحر إلى النبي ﷺ المجوة (١٠) دنا في المجوة بالردق وقال «هي من الجنة وشفاء من السم والسمجر» البزار والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال : كنا عند النبي ﷺ في وفد سدوس فأهدينا له تمر . وفيه : حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجندى قال «بارك الله في الجندى وفي حديقته خرج هذا منها...» قال أبو موسى اللدين : قيل هو تمر آخر الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة «المجوة من الجنة وهي شفاء من السم» وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص «من تصعب بسع تمرات من بحجة لم تفره ذلك اليوم سم ولا سمجر» (١١) كان يحسن البقول الهندباء والبازنوج والبقالة الحماساتي قالها الرحلة

وكان صلى الله عليه وسلم يكره الكليتين لهما من البول (١) وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل من الشاة سباعا .
الذكر والأثنيين والثلاثة والمرارة والغدة والحيا والدم ، ويكره ذلك (٢) وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث (٣)
وما ذم طعاما قط لكن إن أصبغته وإن كرهه تركه وإن عاقه لم يمتصه إلى غيره (٤) وكان يهاف الضب والطحال
ولا يجرهما (٥) وكان يلقق بأصابه الصفرة ويقول « آخر الطعام أكثر بركة (٦) » وكان يلقق بأصابه من الطعام
حتى تحمر (٧) وكان لا يمسح يده بالتنديل حتى يلقق بأصابه واحدا واحدا ويقول « وإنه لا يدري في أي الطعام البركة (٨) »
وإذا فرغ قال « الحمد لله الذي هدانا لهذا لم كنا لنجده لولا أن هدانا الله » وسقيت فأرويت الماء وحده ولا مودع ولا مستنقى
عنه (٩) وكان إذا أكل الخبز والحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه (١٠) وكان يشرب
في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات (١١) وكان يمسح الماء مما ولا يمسح بها (١٢)

== أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس « عليكم بالمذبذبة فإنه ما يوم إلا وقطر عليه قطرة من قطر الجنة » وله
من حديث الحسن بن علي وأبى بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما الباذنج فلم أجد فيه حديثا وأما الريحانة فروى أبو
نعيم من رواية ثور قال : سمع النبي ﷺ بالريحانة في رجليه فحرقه فداواها بها فبرئت فقال النبي ﷺ « بركة الله فيك
أنتي حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداغ » وهذا مرسل ضعيف (١) كان يكره السكيتين لهما من البول
البول . رواه في جزء من كلام أبي بكر محمد بن عبد الله بن الشيخ من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد
الحسن بن السدي أحد السكديين (٢) كان لا يأكل من الشاة الذكر والأثنيين والثلاثة والمرارة والغدة والحيا والدم .
رواه ابن عدي ومن طريقة البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف يرواه البيهقي من رواية مجاهد مرسل (٣) كان لا يأكل
الثوم ولا البصل ولا الكراث . مالك في اللوطا عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسل ورواه الفارطقي في غرائب مالك
عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر : أتى بقدح فيه خضرات من بقل فوجد لها ريحا ... وفيه :
قال فلني أتاجي من لاتاجي . وسلم من حديث أبي أيوب في قصة بثينة إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال « إني
أكرهه من أجل ريحه » (٤) ما ذم طعاما قط لكن إن أعبه أكله وإن كرهه تركه وإن عاقه لم يمتصه إلى غيره ، تقدم
أول الحديث وفي الصحيحين من حديث عمر في قصة الضب فقال « كلوا فإنه ليس بحرام ولا بأس به ولكنه ليس من
طعام قوى » (٥) كان يهاف الضب والطحال ولا يجرهما أما الضب ففي الصحيحين عن ابن عباس « لم يكن
بأرض قوى فأجذني أعاقه » ولها من حديث ابن عمر « أحلت لنا ميتتان ودمان » وفيه أما الدمان : فالكبد والطحال
والبقي موقوف على زيد بن ثابت « إنني لأكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا أعلم أنه أعلى من أن يأكله » (٦) كان يلقق
الصفرة ويقول « آخر الطعام أكثر بركة » البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه : ولا ترفع القصعة
حتى تلمعها - أو تلمعها - فإن آخر الطعام فيه البركة . ومسلم من حديث أنس أمرنا أن نسلت الصفرة وقال « إن أحكم
لا يدري أي طعامه يبارك له فيه ؟ » (٧) كان يلقق بأصابه من الطعام حتى تحمر من حديث كعب بن مالك دون قوله
حتى تحمر فلم أقضه على أصل . (٨) كان لا يمسح يده بالتنديل حتى يلقق بأصابه واحدة واحدة ويقول « إنه لا يدري
في أي أصابه البركة » مسلم من حديث كعب بن مالك : أن النبي ﷺ كان لا يمسح يده حتى يلققها ولهم حديث جابر :
فإذا فرغ فليلقق بأصابه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة ؟ والبيهقي في الشعب من حديثه « لا يمسح أحكم يده
بالماء حتى يلقق يده فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه »

(٩) وإذا فرغ قال « اللهم لك الحمد أطعمت وأشفيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستنقى
قال عنه » الطبراني من حديث الحرث بن الحارث بسند ضعيف والبخاري من حديث أبي أمامة : كان إذا فرغ من طعامه
« الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفي ولا مكفور » وقال مرة « الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستنقى عنه
ربنا » . (١٠) كان إذا أكل الخبز والحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدا ثم مسح بفضل الماء على وجهه « أبو يحيى من
حديث ابن عمر بإسناد ضعيف : « من أكل من هذه اللحوم شيئا فليسل يده من ربح وضرة لا يؤذي من حناؤه »
(١١) كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات . الطبراني في الأوسط من حديث
أبي هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس : كان إذا شرب تفسى ثلاثا . (١٢) كان يمسح الماء مما ولا يمسح بها
النبوي والطبراني وابن عدي وابن قانع وابن مندبه وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز : كان يستاك عرضا ويضرب ==

وكان يدفع فضل سورة إلى من على يمينه (١) فإن كان من على يساره أجل رتبة قال الذي على يمينه « السنة أن تعملي فإن أحببت أنرتهم » وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ (٢) وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه (٣) وأتى بإناء فيه عسل ولين فأبى يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد » (٤) ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الديناغدا وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفقه الله » وكان في بيته أشد حياء من العائق لا يسألهم طعاما ولا يشتهيهم إن أعلموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب (٥) وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب (٦)

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك (٧) وكان

صا والطبراني من حديث أم سلمة : كان لا يلبس . ولأبي الشيخ من حديث ميمونة : لا يلبس ولا يلبس . وكلها ضعيفة (١) كان يدفع فضل سورة إلى من عن يمينه . متفق عليه من حديث أنس . (٢) استندانه ﷺ من على يمينه إذا كان على يساره أجل رتبة . متفق عليه من حديث سهل بن سعد . (٣) شربه ﷺ بنفس واحد . أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه « إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد » ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس في الإناء والله أعلم . (٤) كان ﷺ لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه . أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة « ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس » وقال حديث صحيح الإسناد . (٥) أتى ﷺ بإناء فيه عسل وماء فأبى أن يشربه وقال : « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ... » البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « شربتان في شربة » إلى آخره وسنده ضعيف . (٦) كان ﷺ في بيته أشد حياء من العائق لا يسألهم طعاما ولا يشتهيهم عليهم ، إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل « وما سقوه شرب » الشيخان من حديث أبي سعيد : كان أشد حياء من الغدراء في خدرها ... وقد خدم ، وأما كونه كان لا يسألهم طعاما فإنه أراد أي طعام بينه من حديث عائشة : أنه قال ذات يوم « يا عائشة هل عندكم شيء ؟ » قالت : قلت ما عندنا شيء ؟ الحديث ، وفيه . فلما رجع قلت : أهديت لنا هدية ، قال « ما هو ؟ » قلت : حيس ، قال « هاتيه » وفي رواية « قريه » وفي أخرى للنسائي « أصبح عندكم شيء تطعميني ؟ » ولأبي داود « هل عندكم طعام ؟ » والترمذي « أعندكم غداء ؟ » وفي الصحيحين من حديث عائشة : فطعا بطعام فأبى بخبز وأدم من آدم البيت فقال « ألم أر بركة على النار فما لم ؟ ... » وفي رواية لمسلم « لو صنعت لنا من هذا اللحم ... » فليس في قصة بركة إلا الاستفهام والرضا ، والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهي والله أعلم . ولشيخين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو وقف على بعيره فشربه . ولأبي داود من حديث أم هانئ : فحاجت الوليدة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه . وإسناده حسن . (٧) كان ﷺ ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه . لأبي داود من حديث أم النضر بنت قيس : دخل على النبي ﷺ فشرب ومعه على - وعلى ناقة - ولنا دوال معلقة قام النبي ﷺ فأكل منها ... وإسناده حسن ولترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة : دخل على النبي ﷺ فشرب من في قربة معلقة قائما .

بيان أخلاقه وآدابه في اللباس

(٨) كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك . الشيخان من حديث عائشة : أنها أخرجت إزارا مما يصنع باليمن وكساء من هفم للبدية فقالت في هذا قميص النبي ﷺ وفي رواية : إزاراً غليظا . ولها من حديث أنس : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراتي غليظ الحاشية ... لفظه مسلم وقال البخاري برد نجراتي . وابن ماجه بسند ضعيف من كلام ابن عباس : كان النبي ﷺ يلبس قميصا قصيرا يد إلى المرفق . وأبو داود والترمذي وحسنه . والنسائي من حديث أم سلمة : كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ القميص . ولأبي داود من حديث أسماء بنت زيد : كانت يد قميص النبي ﷺ إلى الرسغ : وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه وتقدم قبله حديث : الجبة والشمة والحبرة .

بمعجبه الثياب الخضر^(١) وكان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » وكان يلبس الثياب المحبوس للحرب وغير الحرب^(٢) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لو نه^(٣) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق السكبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق^(٤) وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها^(٥) وكانت له ملخعة مصنوعة بالزعفران وربما صلى الناس فيها وحدها^(٦) وربما لبس الكساء وحدها عليه غيره^(٧) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد^(٨) » وكان له ثوبان بجمته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة^(٩) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه^(١٠) وربما أم به الناس على الجنائز^(١١) وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصحا به مخالفا بين طريقه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ^(١٢) وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدي بعض الثوب بما يلي هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك^(١٣) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أمهلة: بأى أنتوى ما فعل ذلك الكساء

(١) حديث كان أكثر لباسه ﷺ البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس « خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » قال الحاكم صحيح الإسناد .
(٢) « كان يلبس الثياب المحبوس للحرب وغير الحرب » الشيخان من كلام للسور بن عزمه . وسلم من حديث جابر : لبس النبي ﷺ يوما قباء من دياح أهدى له ثم زعه . (٣) كان له قباء سندس فيلبسه . . . أحمد من حديث أنس (٤) كانت ثيابه كلها مشمرة فوق السكبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق . رواه محمد بن طاهر في كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن بسر : كانت ثياب رسول الله ﷺ إزاره فوق السكبين وقيصمه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك ، وإسناده ضعيف . (٥) كان قميصه مشدود الأزرار ، وربما حلها في الصلاة وغيرها . أبو داود والبيهقي والترمذي في الثائل من رواية معاوية بن قرة بن إياس عن أبيه : أثبت النبي ﷺ في ربط من مزينة بياضه وإن قيصه لمطلق الأزرار . والبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلي عجلة أزراره ، فسألت عن ذلك فقال : رأيت رسول الله ﷺ يصلي . (٦) كان له ملخعة مصبوعة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها . أبو داود والترمذي من حديث قبة بنت خزيمة قالت : رأيت النبي ﷺ وعليه إسماعيل ملايتين كانتا زعفران ، قال الترمذي : لا نعرفه إلا من عبد الله بن حسان . قلت : ورواه موقوفون ، وأبو داود من حديث قيس بن سعد فاعتقل ثم ناوله إلى سعد ملخعة مصبوعة بالزعفران أو ورس فاشتعل بها الحديث ورجاله ثقات . (٧) ربما لبس ﷺ الكساء وحده ليس عليه غيره . ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت : أن النبي ﷺ صلى في بي عبه الأشهل وعليه رداء متلفه به . . . وفي رواية البرازر في كساء . (٨) كان له كساء ملبد يلبسه ويقول « وأنا عبد ألبس كما يلبس العبد » أخرجه البنا عائشة كساء ملبد وإزاراً غليظا فقالت : في هذين قبض رسول الله ﷺ . وللبخاري من حديث عمر « إنما أنا عبد » ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السخيتي مرفوعا مضلا « إنما أنا عبد أكل كل كائاً كل العبد » وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة متصلا . (٩) حديث : كان له ثوبان بجمته خاصة . أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد : فلذا انصرف طويئها إلى مثله . ورده حديث عائشة عند ابن ماجه : مرايته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب . (١٠) ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فقد طرفيه بين كتفيه . أخرجه الشيخان من حديث عمر في إزار قد عقد من قبل قباء وثيابه موضوعة على الشجب وفي رواية له وهو يصلي في ثوب ملتصحا به ورداؤه موضوع وفيه : رأيت النبي ﷺ يصلي هكذا . (١١) ربما أم به الناس على الجنائز . أمق عليه . (١٢) ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصحا بين طرفيه ويكون ذلك في الإزار الذي جامع فيه يومئذ أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال : دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ في ثوب واحد قلت : يا أم حبيبة أوصلي النبي ﷺ في الثوب الواحد ؟ قالت : نعم وهو الذي كان فيما كان . . . تنفي الجماع . . . ورواه الطبراني في الأوسط . (١٣) ربما كان يصلي بالليل ويرتدي بعض الثوب بما يلي هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه . أخرجه أبو داود من حديث عائشة أن النبي ﷺ صلى في ثوب بضه على . وسلم : كان يصلي من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بضه على رسول الله ﷺ وللطبراني في الأوسط من حديث أبي عبد الرحمن حاضن عائشة : رأيت النبي ﷺ وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي ﷺ ونصفه =

الأسود ؟ فقال «كسوة» فقال لما رأيت شيئا ظاهرا كان أحسن من يباحثك على سواده (١) وقال أنس : وربما رأيته يصلي بنا الظهر في ثملة عاقدا بين طرفيه (٢) وكان يخنم (٣) وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء (٤) وكان يخنم به على الكتب ويقول الحاتم على الكتاب خير من التهمة (٥) وكان يلبس القلائص تحت العمام ويغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سرة بين يديه ثم يصلي ليلسا (٦) وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته (٧) وكانت له عمامة تسمى : الرحاب ، فوهبها من على فرما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم «أنا كم على السحاب» (٨) وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل يمامته (٩) ويقول «الحمد لله الذي كافي ما أوارى به عورتى وأجمل به في الناس» (١٠) وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره (١١) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول «مامن مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله إلا كان في ضمان الله حرزه وخيره ما وارا محيا وميتا» (١٢) وكان له فراش من أدم حشوه ليف ملوه ذراعان أو نحو موعرته ذراع وشبرا ونحوه (١٣) وكانت له عباءة

== على عائشة . وسنده ضعيف . (١) كان له كساء أسود فوهبها فقالت له أم سلمة : بأني أنت وأبي ماضل ذلك الكساء ؟ لم أقف عليه من حديث أم سلمة . ولمسلم من حديث عائشة : خرج النبي ﷺ وعليه مرط من جل أسود ولأبي داود والنسائي صنعت للنبي ﷺ بردة سوداء من صرف فلبسها . وزاد فيه ابن سعد في الطبقات : فذكرت يابض التي ﷺ وسوادها ورواه الحاكم بلفظ : جبة . وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث أنس : ربما رأيته يصلي بنا الظهر في ثملة عاقدا بين طرفيه ، أخرجه الزبيري وأبو يعلى بلفظ : صلى ثوب واحد وقد خالف بين طرفيه . وللزبيري : خرج في مرضه الذي مات فيه مرتدا ثوب قطن فصل بالناس وإسناده صحيح . وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : صلى في ثملة قد عقد عليها . وفي كامل ابن عدي : قد عقد عليها هكذا . وأشار سفيان إلى قتاه — وفي جزء الطبري : فقدما في عتقه ماعليه غيرها . وإسناده ضعيف (٣) كان يخنم . أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٤) ربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء . أخرجه ابن عدي عن حديث وثالة بسند ضعيف : كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطا . وزاد الحارث ابن أبي أسامة في مستدرك حديث ابن عمر : يذكره به . وسنده ضعيف . (٥) حديث : كان يخنم به على الكتب ويقول «الحاتم على الكتاب خير من التهمة» أخرجه الشيخان من حديث أنس . لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قالوا : إنهم لا يقرءون إلا كتابا عنحموا فأخذ خاتما من فضة والنسائي والترمذي في الصحاح من حديث ابن عمر : أخذ خاتما من فضة كان يخنم به ولا يلبسه . وسنده صحيح وأما قوله «الحاتم على الكتاب خير من التهمة» فلم أقف له على أصل .

(٦) كان يلبس القلائص تحت العمام ويغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سرة بين يديه ثم يصلي ليلسا . أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر كان رسول الله ﷺ يلبس قلنسوة بيضاء ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس كان رسول الله ﷺ ثلاث قلائص قلنسوة بيضاء مضرية وقلنسوة برد حرة وقلنسوة ذات أذان يلبسها في السفر فرما وضها بين يديه إذا صلى وإسنادهما ضعيف ولأبي داود والترمذي من حديث ركانة «فرقا بيننا وبين المشركين العمام على القلائص» قال الترمذي : غريب وليس إسناده بالقائم . (٧) ربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته . أخرجه من حديث ابن عباس : صدر رسول الله ﷺ للبروقد عصب رأسه بصاية دسما . . . (٨) كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فرما طلع على فيها فيقول ﷺ «أيامكم على السحاب» أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جداً ولا ينبغي فيه دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث : عمامته السحاب (٩) كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل يمامته أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف في رفضه . (١٠) «الحمد لله الذي كافي ما أوارى به عورتى وأجمل به في الناس» أخرجه الترمذي وقال غريب ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب . (١١) كان إذا نزع ثوبه وأخرج من مياسره ، أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ باليمين وإذا نزع بدأ يساره . وسندهما ضعيف وهو في الاتصال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من ضله . (١٢) كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول «مامن مسلم يكسو مسلما» أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ دعا ثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال «الحمد لله الذي كافي ما أجمل به في حياتي وأوارى به عورتى» ثم قال «مامن من مسلم يلبس ثوبا جديدا» دون ذكر : تصدقه ثيابه وهو عند الترمذي وابن ماجه دون ذكر لبس النبي ﷺ ثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقي وهو غير قوي (١٣) كان ==

تفرش له حبيبا تنقل ثقي طاقن تحته^(١) وكان ينام على الحصر ليس تحته شيء غيره^(٢) وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومناعه ، وكان اسم رايته : العقاب . واسم سيفه الذي يشهد به الحروب : ذو الفقار . وكان له سيف يقال له : الخنم . وآخر يقال له : الرسوب . وآخر يقال له : القضيبي . وكانت قبضة سيفه عملاقة بالقبضة^(٣) .

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة^(٤) وكان اسم قوسه : الكتوم ، ووجهه الكافور^(٥) وكان اسم ناقته : القصواء ، وهي التي يقال لها : المعنضاء . واسم بقلته : اللؤلؤ ، وكان اسم حمارة يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة^(٦) وكان له مطهرة من فغار يتوضأ فيها ويشرب منها (٧) فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينفخون عنه فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ينتفون بذلك البركة .

بيان غفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس (٨) وأرفعهم في العفو مع القدرة حتى أتى بقلاده من ذهب وفضة قسمها

== ففراش من أدم حشوه ليف . متفق عليه من حديث عائشة مقتصر على هذا دون ذكر عرضه وطوله . ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة : كان فراش النبي ﷺ نحو ما يوضع الإنسان في قبره . وفيه من الإبريسم . (١) عائشة كانت له عبادة تفرش له حبيبا تنقل تفرش طاقن تحته . أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة : دخلت على امرأتين الأضرار فرأت فراش رسول الله ﷺ عبادة مثنية . ولأبي سعيد عنهما : أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عبادة بابتين وكلاهما لا يمسح والرمزني في التباين من حديث خصه : ومثلت ما كان فراشه ؟ قالت : ممسح ثلثة ثلثين فنام عليه . وهو منقطع (٢) كان ينام على الحصر ليس تحته شيء غيره . متفق عليه من حديث عمر : في قصة اعتزال النبي ﷺ نسائه (٣) من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومناعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له الخنم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيبي وكان قبضة سيفه عملاقة بالقبضة . أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس كان لرسول الله ﷺ سيف قائمته من فضة وقيعته من فضة ويسمى ذو الفقار وله قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجلم وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكانت له حرية تسمى النبعة وكانت له عجن تسمى الدفن وكان له ترس أيضا يسمى موجزا . . إلى آخر الحديث وفيه على بن غررة العمشق نسب إلى وضع الحديث ولأبي الشيخ من حديث علي بن أبي طالب : كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذو الفقار . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم تنقل سيفه ذو الفقار يوم بدر والحاكم من حديث علي في أثناء حديث سيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولابن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد بن الحلي مرسل قال : أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف : سيف قلبي وسيف يدي بئرا وسيف يدي الخنم ، وكان عنده بعد ذلك الخنم ورسوب أصابها من القلبي وفي سننه الواقدي . (٤) كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل ، ولابن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسل : كان في درع النبي ﷺ حلقان من فضة . (٥) كان اسم قوسه الكتوم ووجهه الكافور . لم أجد له أصلا ، وقد تقدم في حديث ابن عباس ، أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجلم ، وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه : أخذ رسول الله ﷺ يوم أحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قسي ؟ قوس اسمها الروحاء ، وقوس شوحط تدعى البيضاء ، وقوس صفراء تدعى الصفراء ؟ من سبيع . (٦) كان اسم ناقته القصواء . وهي التي يقال لها المعنضاء ، واسم بقلته اللؤلؤ واسم حمارة يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة . تقدم بضمه من حديث ابن عباس عند الطبراني ، وللخارقي من حديث أنس : كان للنبي ﷺ ناقة يقال لها البيضاء ، ولابن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولده عتبة بن غزوان : كان لرسول الله ﷺ من الغنم سبعا : عجوة وزمزم وسقيا وبركة ورشة وإهلال وأطراف . وفي سننه عن الواقدي وله من رواية مكحول مرسل : كانت له شاة تسمى قر . (٧) كانت له مطهرة من غفار يتوضأ منها ويشرب فيها ... لم أقف له على أصل .

يبان غفوه مع القدرة

بين أصحابه فقام رجل من أهل اليبادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فأراك تعدل ؟ فقال « ويحك فمن يعدل عليه بعدى » فلما ولي قال « ودعوه على رويدا ^(١) » روى جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يا رسول الله اعدل فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك فمن يعدل إذا لم اعدل فقد خبت إخن وخسرت إن كنت لا اعدل » فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال « معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ^(٢) » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال « الله » فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال « من يمنعك مني ؟ » فقال : كن خير آخذ قال « قل أشهد أن لا إله إلا وأنى رسول الله » فقال : لا ، غير انى لا اقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ؛ فجاء أصحابه فقال : جئكم من عند خير الناس ^(٣) وروى أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مومة ليأكل منها فحجى بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت : أردت ذلك ، فقال « ما كان الله ليعطيك على ذلك » قالوا : أفلا قلنا ؟ فقال « لا ^(٤) » وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودى ولا أظهره عليه قط ^(٥) وقال على رضى الله عنه : بشئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والوزير والمقداد فقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعنة معها كتاب نخذونه منها » فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجهي الكتاب فقالت : مامى من كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أولن نرضى عنك الشيا ، فاستخرجته من عقابها فأثمتها النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من ساطب بن أبى بلثة إلى أناس من المشركين بمكة يحرم أمراً من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا حاطب ما هذا ؟ » قال يا رسول الله لا تصجل على أنى كنت أرمأصفا في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قربات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منيهم أن أأخذ فيهم يدايحمون بها قرأني ، ولم أقول ذلك كفر أو لا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداد من ديني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه صدقكم » فقال عمر رضى الله عنه : دعنى أضرب عنق المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٦) » وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه وقال رحم الله أخى موسى قداودى بأكثر من هذا فصر ^(٧) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ^(٨) » .

- (١) أنى بقلائد من ذهب وفضة قسمه بين أصحابه . أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد .
- (٢) أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يا نبي الله اعدل ، رواه مسلم .
- (٣) كان في حرب فروؤى في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف ... متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسعى الرجل غورت بن الحارث . (٤) حديث أنس : أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ... رواه مسلم وهو عند البخارى من حديث أبى هريرة . (٥) سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه . النسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر . (٦) حديث على : بشئ رسول الله ﷺ أنا والوزير والمقداد وقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ... » متفق عليه . (٧) قسم ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٨) « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » أبو داود والترمذى من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه (١) وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحية الكريمة (٢) وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفة ففكرها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم «لو قلتم لهذا أن يدع هذه» (٣) يعني الصفة . وبالأعرابي في المسجد محضرة فهم به الصحابة فقال ﷺ «لا تزرموه» أي لا تقطعوا عليه البول ثم قال له «إن هذه المساجد لأصلح لشيء من التقدير والبول والخلاء» (٤) وفي رواية «قربوا ولا تنفروا» وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه ﷺ ثم قال له «أحسن إليك» قال الأعرابي: لا . ولا أجلت . قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال «أحسن إليك» قال : نعم جئناك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبي ﷺ «إنك قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى ينهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي ﷺ «إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فزعم أنه رضى أكد ذلك» قال الأعرابي : نعم جئناك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال ﷺ «إن مثل ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبها الناس فلم يريوها إلا تفقروا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين نائقي فأبى أن يرفق بها وأعلم قومه لما صاحب الناقة بين يديها فأخذها من قام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستأخضت وشد عليها رحلها واستوى عليها وأبى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار» (٥) .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ أجود الناس وأسخام وكان في شهر رمضان كل ربح المرسلة لائبك شيئا (٦) وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة . من رآه بشية هاته ومن خلفه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله (٧) وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه (٨) وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه فضا سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال أسلبوا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئا قط فقال لا (٩) وحمل إليه نحون ألف درهم

بيان إغضائه ﷺ عما يكرهه

(١) كان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف غضبه في وجهه . أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان النبي ﷺ يعرف رضاه وغضبه بوجهه ... وقد تقدم . (٢) كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحية الكريمة ... تقدم . أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن . (٣) كان لا يشافه أحدا بما يكرهه . دخل عليه رجل وعليه صفة ففكرها فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم «لو قلتم لهذا أن يدع هذه» يعني الصفة أخرجه أبو داود والترمذي في التباين والنسائي في اليوم والليالي من حديث أنس وإسناده ضعيف .

(٤) بال أعرابي في المسجد محضرة قال ﷺ «لا تزرموه» ... متفق عليه من حديث أنس . (٥) جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله ﷺ ثم قال «أحسن إليك» قال الأعرابي : لا ، ولا أجلت . . أخرجه البزار بطوله وأبو الشيخ من حديث ابن هرة بسند ضعيف .

بيان سخاوته وجوده ﷺ

(٦) كان أجود الناس وأسخام وكان في شهر رمضان مثل الربح للرسلة . أخرجه الشيخان من حديث أنس : كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس . ولها من حديث ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان . وفيه : فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح للرسلة . (٧) كان على إذا وصف النبي ﷺ قال : كان أجود الناس كفا وأجرا الناس صدرا ... الحديث . رواه الترمذي وقال ليس بإسناد متصل (٨) ما سئل شيئا قط على الإسلام إلا أعطاه ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس . (٩) ما سئل شيئا قط فقال : لا ، متفق ==

فوضمها على حصير ثم قام إليها فقدمها فأرد سائلها حتى فرغ منها^(١) وجاء رجل فسأله فقال « ما عندى شيء ولكن ابع على فإذا جاءنا شيء قضيناه » فقال عمر : يا رسول الله ما لك لك الله ما لا تحذر عليه فكره النبي ﷺ ذلك فقال الرجل : أتقني ولا تخش من ذي العرش أفلا ، تقسم النبي ﷺ وعرف السرور في وجهه^(٢) ولما قتل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ وقال « اعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه المضاء نهارا لتقسمتها بينكم ثم لا يجحدوني بخيلا ولا كذبا ولا جبا نارا » .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ أعجبه الناس وأشجعهم^(٣) قال علي رضي الله عنه: لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا^(٤) وقال أيضا : كنا إذا أحرر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه^(٥) قيل : وكان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأسا^(٦) وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربهم من العدو^(٧) وقال عمران بن حصين : ما لقي النبي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب^(٨) وقالوا : كان قوى البطش^(٩) ولما غشيه المشركون نزل من بغلته فجعل يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »
فأرؤى يومئذ أحد كان أشد منه^(١٠) .

= عليه من حديث جابر . (١) حل إليه تسون ألف درهم فوضمها على حصير ثم قام إليها يقسمها فأرد سائلها حتى فرغ منها . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في التنازل من حديث الحسن مرسل أن رسول الله ﷺ قدم عليه من البحر ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه . لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يبط ساكتا فقال له العباس ... وللبخاري تعليقا من حديث أنس : لقي النبي ﷺ بمال من البحر وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ... وفيه : لما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس ... الحديث ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه .

(٢) جاءه رجل فسأله فقال « ما عندى شيء ولكن ابع على فإذا جاءنا شيء قضيناه فقال عمر : يا رسول الله ما لك لك الله ما لا تحذر عليه فكره النبي ﷺ ذلك فقال عمر ... » أخرجه الترمذي في المعالي من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروي لم يروه غير ابنه هرون .
(٣) لما قتل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ... أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(٤) كان أعجبه الناس وأشجعهم . أخرجه الهاربي من حديث ابن عمر بسند صحيح : ما رأيت أعجبه ولا أجود ولا أشجع ولا أرى من رسول الله ﷺ . وللشيخين من حديث أنس : كان أشجع الناس وأحسن الناس ...

(٥) حديث علي : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ ... أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق النبي ﷺ بإسناد جيد . (٦) حديثا على أيضا : كنا إذا حرمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ ... أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء . (٧) كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض التميمي مرسل . (٨) كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب ... أخرجه مسلم من حديث البراء : والله إذا حرمي الوطيس تنق به وإن الشجاع منا الذي يخاذيه .

(٩) كلام عمران بن حصين : ما لقي كتيبة إلا كان أول من يضرب أخرجه أبو الشيخ . وفيه من لم أعرفه .
(١٠) كان قوى البطش . أخرجه أبو الشيخ أيضا من رواية أبي جعفر مضلا ولاطيراني في الاوسط

عن عبد الله بن عمرو « أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع » وسنده ضعيف . (١١) كلام : لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول « أنا النبي لا كذب ... الحديث » متفق عليه من كلام البراء دون قوله : فأرؤى أحد يومئذ منه . وهذه الزيادة لأبي الشيخ وله من حديث علي في قصة بدر : وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ أشد الناس تواضعاً في علو منصبه ^(١) قال ابن عامر : رأيته يرى الجرة على ناقة شهياً لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(٢) وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف ^(٣) وكان يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ^(٤) ويخفف النمل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم ^(٥) وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ^(٦) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٧) وآق ﷺ رجل فأرعد من هيئته فقال له «هون عليك فلست بملك إنما ابن امرأة من قريش تأكل القديد ^(٨)» وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحد من قباة التريب فلا يدرى أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه التريب فبنوا له دكاناً من طين فكان عليه ^(٩) وقالت له عائشة رضي الله عنها كل — جئني الله فذاك — متكئاً فإنه أمرن عليك قال : فاستنى رأسه حتى كاد أن تصيب وجهه الأرض ثم قال و بل أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ^(١٠) وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى ^(١١) وكان لا يدعو أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال « ليك ^(١٢)» وكان إذا جلس منع الناس أن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم وقضاهم وتواضع لهم ^(١٣) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويدكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فينبسهم هو إذا ضحكوا ولا يجرهم إلا عن حرام ^(١٤).

بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم

كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائر ولا بالقصير للفرق بل كان ينسب إلى الربهة إذا مشى وحده ، ومع ذلك لم يكن يمشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاهر الرسول الله ﷺ وربما اكتشف الرجلان

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(١) كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في التباين من كلام أبي سعيد الخدري في حديث طويل في صفته قال فيه : متواضع في غير مثله . وإسناده ضعيف (٢) قال ابن عامر رأيته يرمى الجرة على ناقة صهبا ... أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث قدماء ابن جعفر (٣) ركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف . متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٤) كان يعود للمريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك . الترمذي وضمه الحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وتقدم منقطاً (٥) كان يخفف النمل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته . هو في للسند من حديث عائشة وقد تقدم في أوائل آداب العيشة . (٦) كان أصحابه لا يقومون له لما يطلون من كراهته ذلك : هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصلوة . (٧) كان يمر على الصبيان ويسلم عليهم . متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصلوة . (٨) آق رجل فأرعد من هيئته فقال «هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » الحاكم من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) كان يجلس مع أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحد من قباة التريب فلا يدرى أيهم هو ؟ ... أبو داود والنسائي من كلام أبي هريرة وأبي ذر وقد تقدم . (١٠) قالت عائشة كل — جئني الله فذاك متكئاً فإنه أمرن عليك ... أبو الشيخ من رواية عبيد الله بن عمر عنها بسند ضعيف (١١) كان ﷺ لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق الله البخاري من كلام أنس وتقدم في آداب الأكل (١٢) وكان ﷺ لا يدعو أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال « ليك » أبو نعيم في دلائل النبوة من كلام عائشة وفيه حسين بن علوان منهم بالكذب والطعن في الكبير بإسناد جيد من كلام محمد بن خابط في أثناء حديث : أن أمة قالت يا رسول الله فقال « ليك وسعديك » (١٣) كان ﷺ إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم » الترمذي في التباين من كلام زيد بن ثابت ذكر : الشراب ، وفيه سليمان بن خازم نزل عن الوليد بن أبي الوليد ذكره ابن جابر في الثقات (١٤) كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويدكرون أشياء من أمر الجاهلية . مسلم من كلام جابر بن سمرة دون قوله : ولا يجرهم إلا عن حرام .

الظفر بلان يظفر لها فإذا فارغاً نسباً إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الرية . ويقول عليه السلام «جعل الخمر كلف الرية» .
وأما لونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض، والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا شوبه
صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان، ونمت عنه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

ونمت بعضهم بأنه مشرب بجمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالجمرة مظهر للشمس والرياح كلاهما والرية .
والأزهر الصافي عن الحمرة ماتحت الثياب منه . وكان عرقه عليه السلام في وجهه كالقز أو أطيب من المسك الأذفر .
وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنة ليس باليسط ولا الجعد القلط وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبيك
الرميل ، وقيل : كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه، وربما جعله غداً أو ربما تخرج
كل أذن من بين غديرتين ، وربما جعل شعره على أذنيه قبضو سواقه تلالاً . وكان شيء في الرأس والحية سبع
عشرة شعرة ، ما زاد على ذلك .

وكان عليه السلام أحسن الناس وجهاً وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى رضاه ورضيه
في وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفى الخير يدور كضوء البدر زايله الظلام

وكان عليه السلام واسع الوجه أريج الحاجبين سائهما وكان أبلغ ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت
عيناه بجلالين أدجمهما وكان في عينيه تخرج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تنبت من كثرتها ، وكان
أقنى العينين - أي مستوى الأنف - وكان مفلج الأسنان - أي متفرقها - وكان إذا أقر ضاحكاً أقر
عن مثل سنا البرق إذا تلالاً ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الحدين صلبهما ليس
بالطويل الوجه ولا المسكثم ، كث اللحية ، وكان يعني لحية ويأخذ من شاربها ، وكان أحسن عباد الله عتقا لأنفسه إلى
الطول ولا إلى القصر ، مظهر من عتقه الشمس والرياح فكأنه إبريق فتنة مشرب ذهباً يلالاً في بياض الفتنة وفي
حمرة الذهب ، وكان عليه السلام عريض الصدر لا يبدو لحم بعض يده بعضاً كالمرأة في استوائها وكالقمر في
بياضه موصول ما بين لبته ومرتبه بشعر منقاد كالقضب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن
ثلاث ينطى الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظم المتكئين أشعرهما منكم السكراديس - أي رموس العظام
من المتكئين والمرفقين والوركين - وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو ما على منكبيه الأيمن فيه شامة
سوداء تضرب إلى العفرة حولها شمرات متواليات كأنها من عرفة فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل

بيان صورته وخلفته صلى الله عليه وسلم

(٢) كان من صفته النبي عليه السلام أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير للتردد... أخرجه بطوله أبو نعيم في دلائل النبوة
النبوة من كلام عائشة وزيادة وقصان دون شعر أي طالب الآتي ودون قوله : وربما جعل شعره على أذنيه قبضو سواقه
تلالاً . ودون قوله : وربما كان واسع الوجه - إلى قوله وكان سهل الحدين . وفيه مسيح بن عبيد الله القرظاني منكر
الحديث قاله الخطيب . وفي الصحيحين من كلام البراء . شعر يبلغ شحمة أذنيه وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من
كلام أم هانئ . قدم إلى مكة وله أربع غداً والترمذي من كلام علي في صفته عليه السلام أدجع العينين أهدب الأشفار ...
وقال ليس بإسناد متصل وله في الثمالين حديثان هالة . أزهر اللون واسع الجبين أريج الحاجبين سوايح في غير قرن
بينهما عرق يدور الغضب ، أقنى العينين له نور يملؤه يحبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية سهل الحدين ضلع القم مفلج
أسنان ... (١) نمت عنه أبو طالب فقال . وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ذكره ابن إسحاق في السيرة وفي السند عن عائشة . أنها تملت هذا البيت وأبو بكر يصني فقال أبو بكر : ذلك رسول
الله عليه السلام وفيه علي بن زيد بن جدعان يختلف فيه ، وأخرجه البخاري تعليقاً من كلام ابن عمر . ربما ذكرت قول الشاعر
وأنا أنظر إلى وجه النبي عليه السلام ليستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده . وقد وصله بإسناد صحيح .

الزندان رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه فضبان الفضة ، كفه ألين من الحر ، كأن كفه كمع بطارطيا - مسها بطيب أو لم يمسا - يصالح المصالح فيظل يومه يجد ويمحو ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان برمها على رأسه ، وكان عبل ماتحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه وكان لحمه متاسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مقبیه ﷺ فكان يمشى كأنما يتقلع من صخر ويتجدد من صيب يخطو تسفيا ويمشى الهويى بغير تبخر - والهويى تقارب الخطأ - وكان ﷺ يقول « أنا أشبه الناس بأدم ﷺ وكان أبى إبراهيم ﷺ أشبه الناس بى خلقا وخلقاً » وكان يقول « إن لى عند ربى عشرة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بالكفر وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد ، وأنا الحاشر يحشر الله العباد على قلمى ، وأنا رسول التوبة ورسول الملاحم والمقنى فقيت الناس جميعا وأنا قم (١) » قال أبو البختري والقثم الكامل الجامع ، والله أعلم .

بيان معجزاته وآياته البالة على صفة

اعلم ان من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته ومعجزاته وسياسة أصناف الخلق وهدايت إلى نهجهم وتألفه أصناف الخلق وقودها يوم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضائق الأسئلة وبدايع تدبيراته في مصالح الخلق وعاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يسير الفقهاء والمعتاد عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بمجتهدتها من القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستعداد من تأييد سماوى وقررة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس ، بل كانت شمانه وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العرب القح كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد رؤية شمانه فكيف عن شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده أو إنما أوردنا بعض أخلاقه لنعرف عاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه ﷺ وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله : إذ أتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يلقيا ضعيفا مستضعفا ، فمن اين حصل له عاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح التفقه مثلا فقطدون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي ؟ ومن اين لقوة البشر الاستقلال بذلك ؟ قل لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكن فيه كفاية ، وقد ظهر من آياته ومعجزاته حالا يستريب فيه يحصل ، فلنذكر من جعلها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ؛ إذ شق له القمر بمكة لما سأله فريش (٢) وأطعم النفر الكثير في

(١) إن لى عند ربى عشرة أسماء ... الحديث. أخرجه ابن عدى من حديث علي وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف ، وله ولأبى نعيم في الدلائل من حديث أبى الطليل : لى عند ربى عشرة أسماء . قال أبو الطليل : حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة وهم وذكر سيف بن وهب : أن أبا جعفر قال : إن الأصميين طه ويس . وإسناده ضعيف . وفى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم : لى أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشر وأنا الماحى وأنا العاقب . ولمسلم من حديث أبى موسى : واللقى ونبي التوبة ونبي الرحمة ولأحمد من حديث حذيفة : نبي الملاحم . وسنعه صحيح .

بيان معجزاته وآياته البالة على صفة

(٢) حديث : انشقاق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس ،

منزل جابر (١) وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق (٢) ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق (٣) وهو من أولاد المز فوق العتود ، ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده (٤) ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشر في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم (٥) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل المعسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضئوا من قح صغير ضاق عن أن ييسط عليه السلام يده فيه (٦) وأهراقه عليه السلام وضوءه في عين تيوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى في بئر الحديبية لجاشت الماء ، فشرب من عين تيوك أهل الجيش وهم أوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسةة وأربعين فيها قبل ذلك ماء (٧) أمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يروا أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربة البعير وهو موضع بروكة - فزودهم كلهم منه وبقي منه خبسه (٨) وروى الجيش بقبضة من تراب فصميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٩) وأطال الله تعالى الكهانة بمبعثه ﷺ فقدمت وكانت قاهرة موجودة (١٠) وحن الجند الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن (١١) ودعا اليهود إلى تمتي الموت وأخبرهم بأنهم لا يتنعمون لحبل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه (١٢) وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جموع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة

(١) إطعام النفر الكثير في منزل جابر . متفق عليه من حديثه . (٢) إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة . متفق عليه من كلام أنس . (٣) إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق . أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقة البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابروفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند البخاري دون ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة : (٤) إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده . أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه حتى فذلكت ثمانين رجلا ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وركوا سورا . وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل : حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا . وهو متفق عليه بلفظ : والقوم سبعون أو ثمانون رجلا . (٥) إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشر في يدها . الحديث . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنه بشير بن سعد وإسناده جيد . (٦) تبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل المعسكر وهم عطاش وتوضئوا . الحديث متفق عليه من كلام أنس في ذكر الوضوء قط وأبي نعيم من حديثه : خرج إلى بقاء فأتى من بعض يوتهم يمدح صغير وفيه ثم قال «هلم إلى الشرب» قال أنس : بصر عني تبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القح حتى رووا منه وإسناده جيد والبراز واللفظ له والطبراني في الكبير من كلام ابن عباس : كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال «أتتوني بماء» فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده في الماء فحبل الماء ينبع من بين أصابعه . . . الحديث . (٧) إهراقه وضوءه في عين تيوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية لجاشت الماء . . . الحديث . أخرجه مسلم من كلام معاذ بقصة عين تيوك ومن كلام سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه : فلما دعا وإما سبق فيها لجاشت . . . الحديث . والبخاري : أنه توضأ وصبه فيها وفي الحديثين معا : أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند البخاري من البراء وكذلك عندهما ، وقال البيهقي أنه الأسح ولهما من حديثه أيضاً : ألف وخمسةة . وسلم من كلام ابن أبي أوفى ألف وثلاثمائة (٨) أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان كربة البعير . . . أحمد من كلام الثعالب بن مقرن وكلام دكين بن سعيد بإسناد صحيحين وأصل كلام دكين عند أبي داود مختصرا من غير بيان لمدد (٩) رمية الجيش بقبضة من تراب فصميت عيونهم . . . مسلم من كلام سلمة بن الأكوع دون ذكر زول الآية فرواه ابن مردويه في تفسيره من كلام جابر وابن عباس (١٠) إبطال الكهانة بمبعثه ﷺ أخرائطى من كلام مرداس بن قيس السدوسي قال : حضرت النبي ﷺ وذكر كرت عنده الكهانة وما كان من شيرها عند مخرجي لأبي نعيم في الدلائل من كلام ابن عباس في استراق الجن السمع فيقون على أوليائهم : فلما بعث محمد ﷺ دحروا بالنجوم وأمله عند البخاري ينير هذا السياق (١١) حنين الجند أخرجه البخاري من كلام جابر وسهل بن سعد . (١٢) دعا اليهود إلى تمتي الموت وأخبرهم بأنهم لا يتنعمون . البخاري من كلام ابن عباس . لو أن اليهود تنوا الموت لما تنوا . . . والبيهقي في الدلائل من كلام ابن عباس لا يقولها منك إلا غص بريقه فأت مكانه فأبوا أن يفعلوا . وإسناده ضعيف .

- جهرا - تعظيما للآية فيها .

وأخبر عليه السلام بالتبويح بأنذر عثان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة (١) وبأن عمار اقتله الفئة الباغية (٢) وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمين (٣) وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار (٤) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشيأا إلهية لا تعرف إلا بشيء من وجهه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه . وانبه سراق بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض وانبه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأذنه بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى (٥) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنماء البين وأخبر بين قتله (٦) وخرج على مائة من قریش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه (٧) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له (٨) وقال لنفر من أصحابه بجمعهم « أحدمكم في النار ضرره مثل أحد فأتوا كلهم على استقامة ولو تد منهم واحد فقتل مرتدا (٩) » وقال لآخرين منهم : « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا في النار فاحرق فيها فمات (١٠) ودعا شجرتين فأثاء واجتمعت ثم أمرهما فافترقا . وكان عليه السلام نحو الرزمة فإذا مشى مع الطوال طالمه (١١) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا فرفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعملوا صحة قوله فامتنعوا (١٢) وأثاء عامرين الطفيل بن مالك وأربد بن قيس ومما فرسا العرب وفاتكم عازمين على قتله عليه السلام لحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة وهلك أربد بصاعقة أحرقت (١٣) وأخبرا عليه السلام أنه يقتل

(١) إخباره بأن عثان تصيبه بلوى بعدها الجنة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٢) إخباره بأن عمار اقتله الفئة الباغية . أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والخيارى من حديث أبي سعيد . (٣) إخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمين . أخرجه البخارى من حديث أبي بكر . (٤) عن رجل قاتل في سبيل الله أنمن أهل النار . متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد . (٥) اتباع سراق بن مالك له في قصة الحجر فساخت قدما فرسه في الأرض ... الحديث . متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٦) إخباره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنماء البين ومن قتله . وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « بينا أنا نائم رأيت في بدي سوارين من ذهب فأمرني شأنهما فأوحى إلى في المنام أن أنفضهما ففضختهما فطارا ، فتأولتهما كذا بين يخرجان بدي » فكان أحدهما العنسي صاحب صنماء ... الحديث (٧) خرج على مائة من قریش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه . أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه : أنهم كانوا مائة . وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسل . (٨) شكا إليه البعير . وتذلل له . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه : فإنه شكا إلى إنك تجيئه وتدنيه . وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير (٩) حديث : قال لنفر من أصحابه « أحدمكم ضرره في النار مثل أحد ... الحديث » ذكره الدارقطني في المؤلفات واختلف من حديث أبي هريرة بنير إسناد في ترجمة رجال بن عثرة وهو الذي ارتد وهو بالجبل - وذكره عبد الله بن النعمان في المصنف وسبقه إلى ذلك الواقدي وللدائقي والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن مكي . ورواه الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : وأحد هؤلاء نفر في النار . وفيه الواقدي عن عبد الله بن نوح شريك (١٠) قال لآخرين منهم « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا فاحرق فيها فمات أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عثرونه وفي رواية البيهقي : أن آخرهم موتا صخرة بن جذب ، لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواه قتادة وقال ابن عبد البر : إنه سقط في قدر مملوء ماء حار فمات . روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن الحارث وقد ضعفه الجمهور (١١) دنا شجرتين فأثاء واجتمعت ثم أمرهما فافترقا . أخرجه أحمد بن حنبل من رواية بسند صحيح (١٢) دنا النصارى إلى المباهلة وأخبر إن ضلوا ذلك هلكوا فامتنعوا . أخرجه البخارى من حديث ابن عباس في أثناء حديث : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجوا لا يجدون ما لاولا أهلا (١٣) أثاء عامرين الطفيل بن مالك وأربد بن قيس ومما فرسا العرب وفاتكم عازمين على قتله غيل بينهما وبين ذلك ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند لين .

أبي بن خلف الجعفي فحدثه يوم أحد خلتاً لطيفاً فكانت منيته فيه^(١) .
وأطعم عليه الصلاة والسلام فأتى الذي أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكله
الذراع المسموم^(٢) .

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً فلم يمد واحداً منهم ذلك
الموضع^(٣) . وأُخبر عليه السلام بأن طوائف من أمته يفترون في البحر فكان كذلك^(٤) . وزويت له الأرض فأرى
مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيلبغ ما زوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق : من بلاد
الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال . كما أخبر صلى الله عليه
وسلم سواء بسواء^(٥) . وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقاً به^(٦) فكان كذلك . وأخبر نساؤه
بأن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يداً بالفضة وأولهن لحوقاً به رضى
الله عنها^(٧) .

ومسح ضرع شاة حائل لابن لما قدرت (٨) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك
مرة أخرى في خيمة أم عبد الحزاعية . وتدرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح
عينيه وأحسنهما^(٩) . وتغل في عين على رضى الله عنه وهو أرمديوم خير فصيح من وقته وبهته بالراية^(١٠) . وكانوا
يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم^(١١) . وأصابت رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فسحبا
بيده فبرأت من حينها^(١٢) . وقتل زاذ جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقي فاجتمع شيء يسير جداً فدعا فيه
بالبركة ، ثم أمرهم فأخبروا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك^(١٣) . وحكى الحكم بن النعمان بن مالك^(١٤) مشيئة

(١) إخباره أنه يقتل أبي بن خلف فحدثه يوم أحد خلتاً لطيفاً فكانت منيته . أخرجه البهقي في دلائل
النوبة من رواية سعيد بن السبب ومن رواية عدوة بن الزبير مرملاً (٢) حديث : إنه أطعم السهم فأتى الذي
أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين ، وكله الذراع المسموم . أخرجه أبو داود من حديث جابر في رواية له مرسله :
أن الذي مات بشر بن البراء وفي الصحيحين من حديث أنس : أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ...
الجديد . وفيه : لما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ . (٣) إخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد
قريش ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٤) إخباره بأن طوائف من أمته يفترون في البحر
فكان كذلك . متفق عليه من حديث أم حرام (٥) زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته
سيلبغ ما زوى له منها ... أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٦) إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقاً به متفق
عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٧) أخبر نساؤه أن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به فكانت زينب . أخرجه مسلم
من حديث عائشة وفي الصحيحين : أن سودة كانت أولهن لحوقاً به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة بلا
شك . (٨) مسح ضرع شاة حائل لابن لما قدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود . أخرجه أحمد من حديث ابن
مسعود بإسناد جيد (٩) تدرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنها . أخرجه أبو نعيم والبيهقي
كلاهما في دلائل النوبة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عنه في رواية البيهقي : أنه كان يدر . وفي رواية
أبي نعيم : أنه كان بأحد . وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي في حديث أبي سعيد الخدري . (١٠) تغل
في عين على وهو أرمديوم خير فصيح من وقته وبهته بالراية . متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً
(١١) كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ، أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود . (١٢) أصابت رجل بعض
أصحابه فسحبا بيده فبرأت من حينها . أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع . (١٣) فليزاد جيش معه فدعا بما بقي
فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة ... متفق عليه من حديث سلمة بن الأكوع

(*) قوله : الحكم بن النعمان ابن وائل هكذا في النسخ وصوابه كما في الشارح الحكم بن النعمان بن أمية بن
عبد شمس له مصححة .

عليه السلام مستهزئا فقال صلى الله عليه وسلم « كذلك فكن » فلم يزل يرتض حتى مات (٢) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها : إن بها برصا - امتناعا من خطبته واعتذارا - ولم يكن بها برص فقال عليه السلام « فلتكن كذلك » (٣) فبرصت وهي أم شبيب بن الرصاء الشاعر إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته عليه السلام ، وإنما أقصرنا على المستفيض . ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويرغم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا بل التواتر هو القرآن فقط كن يستريب في شجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن بحجج الوقائع يورث علماء ضروريائهم لا يتأدى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق . وليس لنبي معجزة باقية سواء صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حيثئذ ملوءة بالآلاف منهم والقصاح صنتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو شكوا فيه وقال لهم (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وقال ذلك تعجبا لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونسأهم وذراهم السي ، وما استطاعوا أن يمارضوا ولا أن يقدحوا في جهازه وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرأ بعد قرن وعصرأ بعد عصر وقد انقضى اليوم قريب من خمسمائة فلم يقدر أحد على معارضته .

فأعظم بنبأوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم في إكثان ملوك الأرض له عصره وبعد عصره مع ضعفه وبتمه ثم يتأري بعد ذلك في صدقه . وما أعظم توفيق من آمن به وصدق واتبعه في كل ما ورد وصدر ففسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بتمه وسمة جوده .

(١) حكى الحكم بن الناص مشيته مستهزئا به فقال « كذلك فكن ... » أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد وللحاكم في المستدرک من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد . (٢) خطب امرأة فقال أبوها إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال « فلتكن كذلك » فبرصت للمرأة . ذكرها ابن الجوزي في التنقيح وسمها جرة بنت الحرث بن عوف الزبي وبتمه على ذلك المصطفى

فهرس الجزء الثاني

من كتاب إحياء علوم الدين

لمحة الإسلام الإمام الغزالي

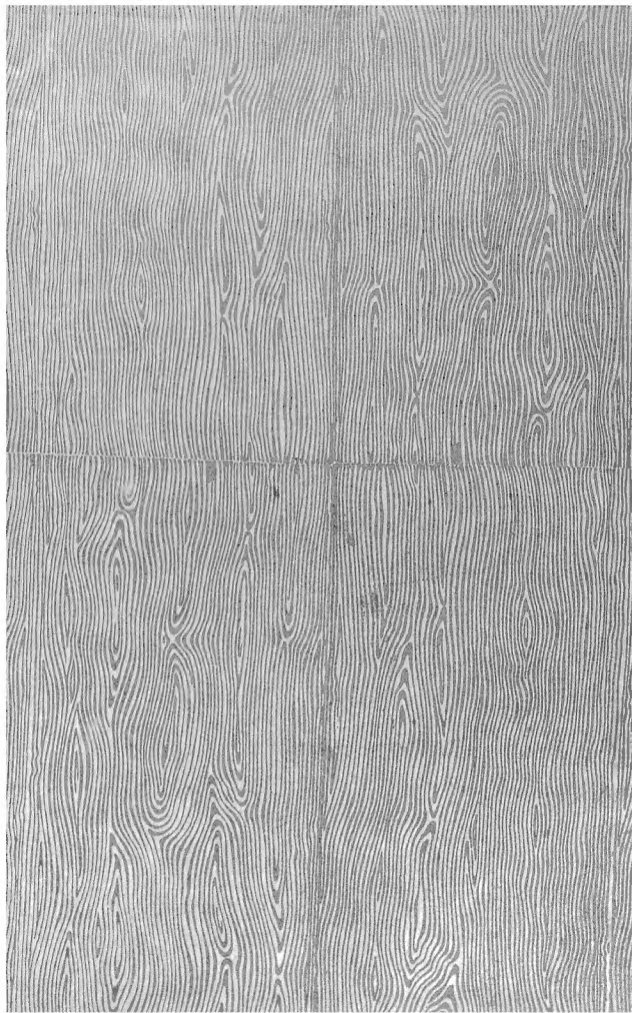
صفحة	صفحة
٢٨	٢ كتاب آداب الأكل
٢٩	وهو الأول من ربيع العادات
٧٠	٣ الباب الأول فيما لا بد للشفره منه وهو ثلاثة
٧١	أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ،
٧٢	وقسم بعد الفراغ منه
٧٢	القسم الأول في الآداب التي تقدم على الأكل
٧٤	وهي سبعة
٧٩	٥ القسم الثاني في آداب حالة الأكل
٨٣	٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
٨٨	٧ الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة
٨٩	في الأكل وهي سبعة
٩٢	٨ الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان
٩٣	الزائرين
٩٤	١٢ الباب الرابع في آداب الضيافة
٩٥	١٨ فصل يجمع آداباً ومناهي طيبة وشرعية منفردة
٩٨	٢١ كتاب آداب النكاح
٩٩	وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات
١٠٢	٢١ الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه
١١٠	الترغيب في النكاح
١١٥	٢٤ ما جاء في الترغيب عن النكاح
١١٨	٢٥ آفات النكاح وفوائده
١٢٠	٣٦ الباب الثاني فيما راعى حالة العقد من أحوال
١٢١	المرأة وشروط العقد
١٢٢	٤٢ الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام
١٢٣	النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة
١٢٤	٥٦ القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها
١٢٥	٦٠ كتاب آداب الكسب والمعاش
١٢٦	وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات
١٢٧	٦١ الباب الأول في فضل الكسب والمحتسبه
١٢٨	٦٤ الباب الثاني في علم الكسبي وطرق البيع والشراء
١٢٩	شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي
١٣٠	مدار المكسب في الشرع ، العقد الأول ، البيع

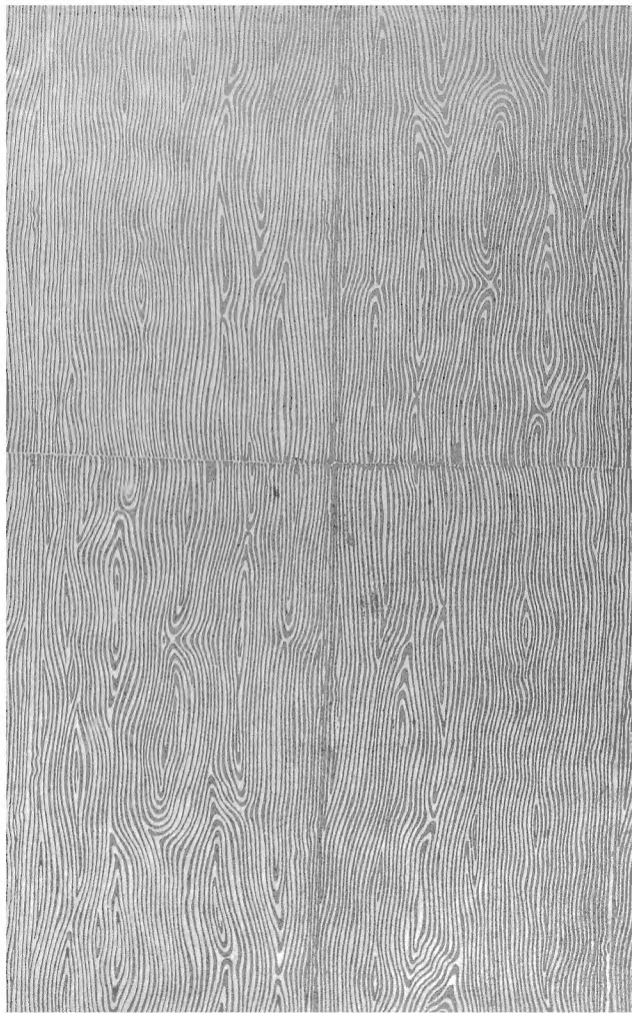
صفحة	صفحة
٦٨	العقد الثاني عقد الربا
٦٩	العقد الثالث السلم
٧٠	العقد الرابع الإجارة
٧١	العقد الخامس القراض
٧٢	العقد السادس الشراكة
٧٢	الباب الثالث في بيان العدل وكتاب الظلم في المعاملة
٧٤	القسم الأول يعم ضرره وهو أنواع
٧٩	القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل
٨٣	الباب الرابع في الإحسان في المعاملة
٨٨	الباب الخامس في شفقة التجار على دينه فيما
٨٩	يخصه ويعم آخره
٩٢	كتاب الحلال والحرام
٩٣	وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات
٩٤	الباب الأول في فضيلة الحلال ومصلحة الحرام
٩٥	وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف
٩٨	الحرام ودرجات الورع فيه
٩٩	فضيلة الحلال ومصلحة الحرام
١٠٢	أصناف الحلال ومداخله
١١٠	القسم الأول الحرام لصفة في عينه النجس
١١٥	القسم الثاني ما يحرم لخلل في جهة إنبات اليد عليه
١١٨	درجات الحلال والحرام
١٢٠	أمانة الدرجات الأربع في الورع وشواهد ما
١٢١	الباب الثاني في مراتب الفسقات ومثارتها
١٢٢	وتمييزها عن الحلال والحرام
١٢٣	المثار الأول العك في السبب المحلل والمحرّم
١٢٤	المثار الثاني لقضية شرك منقوّه الاختلاط
١٢٥	المثار الثالث للشبهة أن يصل بالسبب المحلل معصية
١٢٦	المثار الرابع الاختلاف في الأدلة
١٢٧	الباب الثالث في البحث والسؤال والمجوب
١٢٨	والإعمال ومطابقها
١٢٩	المثار الأول أسرار المال

مصحف	مصحف
وكيفية المعاشرة مع من يدل بهذه الأسباب	١٢١
١٩٤ حقوق المسلم	لا في حال المالك
٢١٢ حقوق الجوار	١٢٧ الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن المظالم
٢١٦ حقوق الأقارب والرحم	السالية وقبة نظران
٢١٩ حقوق المملوك	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
٣٢١ كتاب آداب العزلة	١٣٠ النظر الثاني في المصروف
هو الكتاب السادس من ربيع العادات وفيه بابان	١٣٥ الباب الخامس في إدارات السلاطين وصلاتهم
٢٢٢ الباب الأول في نقل المذاهب والأقوال وذكر	وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران
حجج الفريقين في ذلك	١٣٥ النظر الأول في جهات الدخول للسلطان
٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها	١٣٩ النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ وصفة
٣٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفصيل العزلة	الأخذ
٢٢٦ الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائها وكشف	١٤٢ الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين
الحق في فضلها	الطالة ويحرم وحكم قضيان مجالسهم والدخول
الفائدة الأولى التفرغ للعبادة والفكر الخ	عليهم والإكرام لهم
٢٢٨ الفائدة الثانية التخلص بالمزلة عن المعاصي التي	١٥٣ الباب السابع في مسائل متفرقة بكثرة مسيس
يتعرض الإنسان لها الخ	الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى
٢٣٢ الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات	١٥٧ كتاب آداب الآلة والأخوة
وصيانة الدين والنفس الخ	والصحة والمعاشرة مع أستاذ الحق وهو
٢٣٣ الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس	الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني وفيه
٢٣٥ الفائدة الخامسة أن ينقطع طمع الناس عنك	ثلاثة أبواب
وينقطع طمعك عن الناس	١٥٧ الباب الأول في فضيلة الآلة والأخوة وفي
٢٣٥ الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة الثغلاء	شروطها ودرجاتها وفوائدها
والحق ومقاساة حقهم وأخلاتهم الخ	فضيلة الآلة والأخوة
٢٣٦ آفات العزلة المبينة على فوات فوائد المخالطة	١٦١ بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة
السجة الآتية :	في الدنيا
الفائدة الأولى التعلم	١٦٦ بيان البعض في الله
٢٣٨ الفائدة الثانية الترفع والانتفاع	١٦٨ بيان مراتب الذين يفيضون في الله وكيفية معاملتهم
الفائدة الثالثة التأديب والتأنيب	١٧٠ بيان الصفات المشروطة فيمن يختار صحبه
٢٣٩ الفائدة الرابعة الاستئناس والإيناس	١٧٣ الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحة ، الحق
٢٤٠ الفائدة الخامسة في فضل الثواب وإنائه	الأول في المال
الفائدة السادسة من فوائد المخالطة والتواضع	١٧٥ الحق الثاني في الإحابة بالنفس الخ
٢٤١ الفائدة السابعة التجارب	١٧٦ الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ
٢٤٤ كتاب آداب السفر	١٨٠ الحق الرابع على اللسان بالثقل
وهو الكتاب السابع من ربيع العادات وفيه	١٨٣ الحق الخامس العفو عن الزلات والمفوتات
أربعة أبواب	١٨٦ الحق السادس الدعاء للأخ في حياته الخ
٢٤٥ الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى	١٨٧ الحق السابع الوفاء والإخلاص
آخر الرجوع وفيه السفر وفائده وفيه فصلان	١٨٨ الحق الثامن التخصيف وترك التكلف الخ
الفصل الأول في فوائد السفر وفضله ونيته	١٩٢ خاتمة لهذا الباب تذكر فيها جملة الخ
٢٥١ الفصل الثاني في آداب المسافرين أول نهوضه	١٩٣ الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار والمالك
إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبا	

مصحف	مصحف
١٢١	المثار الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب المال
١٢٧	باب الرابع في كيفية خروج التائب عن المظالم
١٣٠	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
١٣٥	النظر الثاني في المصروف
١٣٥	باب الخامس في إدارات السلاطين وصلاتهم
١٣٩	وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران
١٤٢	النظر الأول في جهات الدخول للسلطان
١٥٣	النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ وصفة
١٥٧	كتاب آداب الآلة والأخوة
١٥٧	والصحة والمعاشرة مع أستاذ الحق وهو
١٦١	الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني وفيه
١٦٦	ثلاثة أبواب
١٦٨	باب الأول في فضيلة الآلة والأخوة وفي
١٧٠	شروطها ودرجاتها وفوائدها
١٧٣	فضيلة الآلة والأخوة
١٧٥	بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة
١٧٦	في الدنيا
١٨٠	بيان البعض في الله
١٨٣	بيان مراتب الذين يفيضون في الله وكيفية معاملتهم
١٨٦	بيان الصفات المشروطة فيمن يختار صحبه
١٨٧	باب الثاني في حقوق الأخوة والصحة ، الحق
١٨٨	الأول في المال
١٩٢	الحق الثاني في الإحابة بالنفس الخ
١٩٣	الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ
	الحق الرابع على اللسان بالثقل
	الحق الخامس العفو عن الزلات والمفوتات
	الحق السادس الدعاء للأخ في حياته الخ
	الحق السابع الوفاء والإخلاص
	الحق الثامن التخصيف وترك التكلف الخ
	خاتمة لهذا الباب تذكر فيها جملة الخ
	باب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار والمالك

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
٢٥٧	الباب الثاني فيما لابد للمسافر من تلبسه من	٣٣٣	باب آداب المحتسب
	رخس السفر وأدلة التلبه والأوقات التي	٣٣٥	الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات
	القسم الأول العلم برخص السفر		منكرات المساجد
٢٦٣	القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة التي	٣٣٨	منكرات الأسواق
٢٦٨	كتاب آداب السماع والوجد		منكرات الفوائد
	وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات عوفية بابان	٣٣٩	منكرات الحمامات
	الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة	٣٤٠	منكرات الضيافة
	السماع وكشف الحق فيه، بيان أقاويل العلماء	٣٤٢	المنكرات العامة
	والمصوفة في تحليله وتحريمه	٣٤٣	الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلاطين
٢٧٠	بيان الدليل على إباحة السماع		بالمعروف ونهيم عن المنكر
٢٨٤	بيان صحيح القائلين بحريم السماع والجواب عنها	٣٥٧	كتاب آداب المعيشة وأخلاق النيرة
٢٨٧	الباب الثاني في آثار السماع وآدابه وفي مقامات		وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من
	ثلاث		كتاب إحياء علوم الدين
٢٨٧	المقام الأول في الفهم	٣٥٨	بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفه محمداً صلى
٢٩١	المقام الثاني بعد الفهم والتحويل الوجد		الله عليه وسلم بالقرآن
٣٠١	المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع	٣٨٤	بيان جملة من عاين أخلاقه التي جمعها بعض
	ظاهراً وباطناً التي		العلماء والتعلماء من الأخيار
٣٠٦	كتاب الأمر بالمعروف	٣٦٤	بيان جملة من آدبه وأخلاقه
	والنهي عن المنكر وهو الكتاب التاسع من	٣٦٧	بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم
	ربيع العادات الثاني وفيه أربعة أبواب	٣٧٠	بيان أخلاقه وآدابه في الطعام
٦٠٧	الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي	٣٧٤	بيان أخلاقه وآدابه في اللباس
	عن المنكر وفنيته والملمة في إهماله وإضاعته	٣٧٧	بيان صفوه صلى الله عليه وسلم مع القردة
٣١٢	الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف	٣٧٩	بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه
	وشروطه وأركانه أربعة	٣٧٩	بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم
	الركن الأول المحتسب	٣٨٠	بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم
٣٢٤	الركن الثاني للصبي مافيه الحسبة	٣٨١	بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم
٣٢٧	الركن الثالث المحتسب عليه	٣٨١	بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم
٣٢٩	الركن الرابع نفس الاحتساب	٣٨٣	بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه





Bibliotheca Alexandrina



0382742